آلان وود

ترجمة
د. رمسيس عوض



بين الشك والعاطفة

دار الأندلس



برتراند راسل

بين الشك والعاطفة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آلان وود

برتراند راسل

بين الشك والعاطفة

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ١١٤٥٥٣ - تلكس ٢٣٦٨٣

كلمة عن مؤلف هذا الكتاب

تخرج آلان وود الأسترالي المولد من جامعة سيدني التي كان والده يشتغل أستاذاً للتاريخ
، واصل وود دراسته في أكسفورد حيث توفر على دراسة الفلسفة ، وكان أول أسترالي
رئيساً لاتحادها . وفيما بعد ، عاد إلى أكسفورد لفترة من الزمن انقطع فيها للدراسة برتراند
. وأثمرت دراسته ومعرفته الوثيقة براسل سيرة حياته التي بين أيدينا ، وكتاباً آخر بعنوان
« راسل : دراسة لتطورها » .

ولم يقتصر اهتمامه ، على أية حال ، بالفلسفة ، فقد عرفه الجمهور الإنجليزي لأول مرة
كان مراسلاً للقوات الجوية خلال الحرب العالمية الثانية . ومن بين كتبه المختلفة «جزر
الخطر» ، (بالاشتراك مع ماري وود) وكتاب «تاريخ الاحتلال الألماني لجزر المانش» .

وبينما كنت أعد هذه الترجمة ذكرت الأنباء الواردة من لندن أن وود قد توفي فيها وعمره لم
الثالثة والأربعين .

فهرست

مقدمة المترجم

هذا كتابي الثالث ـ وأرجو ألا يكون الأخير ـ عن برتراند راسل . فقد سبق لي أن نشرت في عام ١٩٦٢ كتاباً بعنوان «برتراند راسل الإنسان»، وفي عام ١٩٦٦ كتاباً آخر بعنوان «برتراند راسل المفكر السياسي»، عدا طائفة متفرقة من المقالات عن هذا الفيلسوف العظيم .

ويجدر بي في هذا المقام أن أقدم اعتذاراً للمتخصصين في الفلسفة بوجه عام وفلسفة الرياضة بوجه خاص، عن خوضي في موضوعات لا تتصل بتخصصي في الأدب الانجليزي من قريب أو بعيد . ولكن عذري الأول في ذلك أنني تجرأت لأني أحببت . لقد كنت أتمنى أن أرى برتي قبل أن يموت . ولكن هذه الأمنية الغالية باءت بالإخفاق ـ شأنها في ذلك شأن كثير من الأماني الغالية . ويحدوني الآن رجاء آخر، أرجو ألا يتبدد كما تبدد أملي القديم : وهو عندما يحين الأجل ويرحل المرء عن هذه الدنيا بخيره وشره، أن يذكر الذين يعرفونني بين الحين والآخر أنني رجل أحب وظل وفياً لمن أحب حتى النهاية .

أمّا عذري الثاني فهو أن الكتاب الذي بين أيدينا يخاطب عامة المثقفين دون أن يكون مقصوراً على خاصتهم .

وأخيراً أتقدم بالشكر إلى كل من أظهر عطفاً حقيقياً على اهتمامي ببرتراند راسل وقدم لي العون في أية صورة من الصور .

د . رمسيس عوض

إني أريد أن أقف على حافة العالم، وأحدق في الظلام الجاثم وراءه، وأرى شيئاً قليلاً يزيد عما شاهده الآخرون، كما أرى أشكال الغموض الغريبة التي تقبع في ذلك الظلام المجهول. وإني أريد أن أعيد إلى عالم البشر شيئاً قليلاً من الحكمة الجديدة؛ فهناك قدر ضئيل من الحكمة في العالم يتمثل في هرقليطس وسبينوزا وفي بعض الحكم المتناثرة. أريد أن أضيف إلى هذه الحكمة، مهما تكن إضافتي ضئيلة إلى أبعد الحدود.

في خطاب كتبه برتراند راسل
من سجن « بركستون » عام ١٩١٨

الفصل الأول

طفل في الحديقة

يوجد الفلاسفة ليطرحوا الأسئلة وليس للإجابة عنها . وهم يؤدون وظيفتهم بطريقة أفضل كلما ازداد عدد المشكلات التي تشغل أذهانهم دون أن يجدوا لها حلاً . ولهذا ، فإن سخرية الناس العمليين منهم تخطيء في فهم طبيعة وظيفتهم تماماً . وبالرغم من أن الفلسفة لا تستطيع أن تزعم أنها أحرزت تقدماً عظيماً في مجال المعرفة ، فإن من الجائز أن يقال أنه لولا دور الفلسفة في تمهيد الطريق بإثارة التساؤلات ، لما قامت للعلوم قائمة ، فعندما يجيب العلماء ، فإن إجابتهم ترجع غالباً إلى ما يطرحه الفلاسفة من أسئلة .

لقد فكر الفلاسفة في الذرة قبل اكتشافها بزمن طويل ، ومن الجائز أنهم أعطوا العلماء فكرة عما يستوجب البحث عنه . وساور الفلاسفة الشك في مدركات الحواس للمادة ، ثم اتفق معهم العلماء فيما بعد على أن المادة تغاير ما تبدو عليه . وفي نظر الرجل ذي النزعة العملية أن الشجرة شجرة ، وأن مدركات الحواس هي مدركات الحواس ، وأن الحياة شيء رتيب يبعث على الملال . ولكن حدث في يوم من أيام تاريخ الجنس البشري أن طرح رائد مجهول سؤالاً فلسفياً ، لعله سؤال غير عملي ولا فائدة فيه على الاطلاق مثل : « هل تظل هذه الشجرة موجودة إذا لم يكن هناك من يراها . . ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف أعرف أنها موجودة ؟ » في ذلك اليوم ولدت الفلسفة ، ولم يعد الناس مجرد حيوانات آلية . ولا يقلل أبداً من شأن النصر الذي حققه أول فيلسوف طرح هذا السؤال أن واحداً من الفلاسفة المتعاقبين لم يجد حتى يومنا الراهن إجابة مرضية عنه .

وغدت بعض المسائل التي بدأت الفلسفة بمعالجتها ، بعد الإجابة عنها ، جزءاً من العلم أو الرياضة أو الفسيولوجيا . وفي هذا الصدد قال برتراند راسل ذات مرة : « إن العلم هو ما نعرف ، في حين أن الفلسفة هي ما لا نعرف» وبالرغم من هذا ، فإن بقايا المشكلات التي لم يوجد لها حل حتى الآن ستظل تشد انتباه أرفع العقول إليها ، وذلك لأن النظر إلى الكون من

خلال عيون الفيلسوف فيه من بواعث الإثارة أكثر مما في أي أسلوب آخر للنظر إليه . فشروق الشمس في نظر العالم، حقيقة رتيبة قد تبعث على الملل، ولكن الفيلسوف يكتشف فجأة، من هذه الظاهرة، مشكلة الاستقراء، ويتساءل : «كيف أعرف أن الشمس ستشرق غداً؟» فيجد، وقد تجدد اهتمامه بالحياة، أنه ليس في مقدور أي إنسان أن يعطيه إجابة عن سؤاله. ويتعين على الفيلسوف، حتى يصبح فيلسوفاً، أن يهجر منطقة اليقين الممل المألوفة، وأن يتنبه دوماً إلى ما في الكون والوجود من سهر وغموض كما يتعين عليه أن يذكي جذوة التساؤل المتلهف، الذي يتميز به الأطفال، مدى الحياة.

بدأ برتراند راسل في طفولته يسأل الأسئلة النفاذة فور تعلمه الكلام . بل إن أمه كتبت بعد ثلاثة أيام من مولده تقول : « إنه يرفع رأسه عالياً ويتلفت حوله بطريقة نشيطة للغاية » . ولقد ظل راسل يتلفت حوله في نشاط مستفسر حتى بعد أن جاوز الثمانين من عمره . ووجد راسل إجابة عن كثير من أسئلته ، لأن هذا ، بطبيعة الحال ، هو الهدف من وراء طرح الأسئلة . وكان راسل يكن الإحتقار لاؤلئك الفلاسفة الذين يشغلون أنفسهم بالأحاجي والألغاز من أجل الأحاجي والألغاز . وكان شكاكاً متأجج العاطفة لأنه أراد أن يكون مؤمناً متأجج العاطفة . وكان يشك في كل شيء لأنه كان يتوق إلى المعرفة اليقينية بنفس الطريقة التي يتوق بها بعض الناس إلى الإيمان بالدين . ولكن الأمر انتهى به ، شأنه في ذلك شأن سائر الفلاسفة العظام ، إلى طرح أسئلة أكثر مما يمكن الإجابة عنها . وهو يحتل مكانه بين أعظم الفلاسفة طرا لأنه كان صريحاً في الاعتراف بما مني به من فشل. وهو زعيم المتشككين في عصرنا هذا دون منازع : بدأ حياته متشككاً في الرياضيات والدين والفلسفة ، ثم استمر في تشككه حتى شمل أفكار الناس التقليدية بصدد الحرب والسياسة والجنس والتعليم مفتقاً أذهانهم للمضي قدماً إلى الأمام . ولو أنه قيض له ألا يعيش ، لكان العالم أسوأ حالاً مما هو عليه الآن .

كان الرضيع البالغ من العمر ثلاث سنوات والذي رفع رأسه عالياً ونظر حوله في نشاط ملحوظ يمثل أقوى حجة يمكن أن تساق للدفاع عن الأرستقراطية المتوارثة . فسلالته تحتل بعض الأعمدة المعقدة في سجل « بيرك » (ذلك الكتاب الذي يتضمن تاريخاً) عن « سلائل النبلاء » دون أن نلمح أثراً لشخص واحد من عامة الناس في سائر العائلة . وسأقتصر ، توفيراً لحيز الصفحات ، على الرجوع بتاريخ عائلته إلى ثلاثة أجيال خلت - أي إلى « دوق بدفورد » السادس الذي تزوج ابنة « الفيسكونت تورنجتون » . وغدا ابنهما الثالث - وهو جد برتراند راسل - معروفاً في التاريخ الإنجليزي باسم « اللورد جون راسل » (الذي أصبح فيما بعد « إيرل راسل الأول ») وكانت زوجة « اللورد جون راسل » الأولى هي أرملة « اللورد ريبلسديل » ، وزوجته الثانية ابنة «إيرل أف منتو». وتزوج الابن الأكبر من الزوجة الثانية، الذي كان يحمل

لقب «فيسكونت أف أمبرلي» تجاوزاً دون أن يكون له حق شرعي فيه، من «كيت ستانلي» إبنة «اللورد ستانلي أف أولدرلي».

ولد « فرانك » ، أكبر أبناء عائلة « أمبرلي » في عام ١٨٦٥ ، فأصبح بذلك « إيرل راسل » الثاني . وولدت أخته « راشيل » في عام ١٨٦٨ . وكانت « راشيل » كما وصفتها جدتها ، « أحلى فتاة صغيرة لامعة العيون رأيتها في حياتي» وولد أصغر أبناء عائلة أمبرلي برتراند آرثر وليم راسل في الساعة السادسة إلاّ ربعاً من مساء ١٨ مايو عام ١٨٧٢ في منزل مجاور لضفاف « الراي » . ووصفه الطبيب مستر أودلاند بأنه « طفل بديع للغاية » ، وأضاف أن طفلاً واحداً من كل ثلاثين طفلاً يولد في مثل حجمه الكبير وسمنته . وكتبت كيت أمبرلي إلى أمها الليدي ستانلي تقول:« وزن الطفل ٤/٨٣ رطل، وطوله ٢١ بوصة وهو سمين للغاية وقبيح. وفي رأي كل من يراه أنه يشبه فرانك كل الشبه ـ عيناه زرقاوان تبعد كل منهما عن الأخرى ، وليست له ذقن واضحة . . . إن ثديي يفيضان باللبن الآن . ولكني إذا توانيت في إرضاعه لحظة واحدة أو كان يقاسي من الغازات أو أي شيء آخر ، فإن الغضب يستبد به ويرتفع صوته بالصراخ ويرفس ويرتعش حتى يجاب إلى طلبه أو يزايله ما يعاني منه . وهو قوي للغاية ، ويقول المستر أودلاند : « إنه طفل قوي العضلات بشكل غير مألوف » . -

وجاءت مسألة تسمية الطفل ، فاقترحت جدته لأبيه إسم « جالاهاد » كاسم مناسب له . ولكن جدته الأخرى لأمه الليدي ستانلي ردت على ابنتها قائلة : « أبتهل إليك ألا تنزلي مثل هذا العقاب به بأن تسميه جالاهاد . » وهكذا سمى الولد برتراند راسل ، وهو الإسم الذي عرف به فيما بعد في تاريخ الفلسفة ، اللهم إلا عندما أصبح معروفاً كذلك باللقب الذي ورثه والأوسمة التي فاز بها مثل إيرل راسل الثالث ، ووسام الاستحقاق ، وعضو الجمعية الملكية .

وترى كل الأمهات في أبنائهن عجائب مدهشة . ولكن العائلة عن بكرة أبيها أجمعت على هذا الرأي في ذلك الولد المرح الذي لا سبيل إلى كبح جماحه والذي سمي « برتراند » . ولقد وصفته جدته الليدي راسل بأنه يمتلىء بالفكاهة والمرح ، كما لاحظ عمه وليم راسل أن « الإبتسامة الدائمة لا تفارق وجهه » . وكذلك سجلت عمته أجاثا راسل في خطاب لها أنه « أصر بالأمس على أن يرفع بمفرده كتاباً ضخماً من فوق الرف وأن يحمله إلى كرسي صغير بلا مسند حيث جلس عليه ، فاتحاً الكتاب أمامه ، وقد استغرق في نوبة من الضحك على ما أصابه من حكمة . . وعندما بلغ من العمر عاماً وعشرة شهور استطاع أن ينطق ببعض الكلمات مثل « ملعقة » ، و « عن إذنك » ، « والكل ذهب » ، و « تفعل » . وبدأ يشترك في الحياة الاجتماعية التي يستمتع بها من كان ينتمي إلى مثل عائلته الأرستقراطية المرموقة . وذات يوم

حضرت الملكة فيكتوريا للزيارة عندما كان برتراند يعيش مع جده وجدته من عائلة راسل . وقالت العمة أجاثا أن « برتي انحنى لها انحناءة صغيرة غاية في الظرف ـ ولكنه كبح جماحه كثيراً ، ولم يعامل صاحبة الجلالة بالاحتقار التام الذي توقعتُ أن يعاملها به . »

ثم توالت النكبات على أبوي برتراند المرح في شبابهما فلبدت سحبها بقية طفولته . فقد أصيب أبوه الفسكونت أمبرلي ، بعد مولد برتراند بعام ، بمرض أغلب الظن أنه شخص خطأً على أنه صرع. وفي السنة التالية أصيب وليم أخو أمبرلي بلوثة عقلية لازمته حتى وفاته في عام ١٩٣٣. وأصيب فرانك أخو برتراند الأكبر بمرض الدفتيريا، ولكنه استطاع بفضل قوته البدنية والعقلية ـ التي احتفظ بهما مدى الحياة ـ أن يتغلب على المرض، غير أن عدوى هذا المرض انتقلت إلى أخته راشيل التي كانت حينذاك في السادسة من عمرها. وفي أثناء تمريضها أصيبت كيت أمبرلي نفسها بالدفتيريا فماتت الأم وابنتها معاً. وأرسل برتراند البالغ آنذاك من العمر عامين تماماً إلى مزرعة مجاورة فنجا من العدوى.

ولم يعمر أمبرلي طويلاً بعد فقدان زوجته وابنته فقضى من بعدهما بنحو ثمانية عشر شهراً دون أن يتجاوز عمره الثالثة والثلاثين . واحتفظت لنا المصادفة بوصف لوفاته ورد في خطاب كتبه أحد أفراد العائلة : « ظل فرانك يتشنج ويبكي لدرجة أنّ يد والده بللتها الدموع . ورفع الطبيب برتراند فقبّله أبوه برفق وحنان قائلاً : « الوداع يا عزيزي الصغيرين إلى الأبد . « وبعدئذ ، رقد هادئاً وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيه » .

كان عمر فرانك راسل حينذاك عشرة أعوام، بينما كان عمر برتراند أقل من أربعة أعوام أي أنه كان أصغر بكثير من أن يفهم ما حدث فهماً كاملا ، ولكن لم يفت ذهنه المتوقد وحساسيته أن يدركا طرفاً ممّا لحق به من خسارة ومأساة. وفي السنوات التالية كتب راسل دون تدقيق أو تمحيص: «لقد ولدت تعيساً»، نظراً لأن فترات التعاسة اللاحقة قد محت من ذاكرته مرح طفولته الأولى تماماً، وهو يستطيع أن يذكر كيف أنه كان يحسب في تشاؤم ـ وهو في الخامسة من عمره ـ أنه لو قيِّض له أن يعيش حتى يبلغ سن السبعين، فإنه يتعين عليه أن يستمر في تحمله وطأة الحياة طوال هذه الفترة، باستثناء ال $\frac{1}{14}$ الذي انصرم منها. وقبل وفاته أوصى «أمبرلي»، وهو مفكر حر عنيف، بتعيين اثنين من الملحدين وصيّين على ولديه. ولكن وصيته ضرب بها عرض الحائط، وقامت المحكمة بالوصاية على اليتيمين اللذين أرسلتهما إلى جدهما وجدتهما حتى يتكفلا بتربيتهما. -

وكان « اللورد جون راسل » ، يعيش بوصفه رئيس وزارة سابق مهيباً مرموق المكانة ، في « بمبروك لودج » في « ريتشموند بارك » (حديقة ريتشموند) ، وهو منزل منحته إياه الملكة.

(في أيامنا الراهنة الأكثر رتابة وأقل شاعرية وخيالاً نجد أن وزارة الأشغال العمومية قد حولت جزءاً من البيت إلى مقهى يستقبل السياح والمتنزهين في الحديقة) . وعندما ذهب فرانك وبرتراند إلى هناك ، كان الإيرل راسل في الثالثة والثمانين من عمره . وتوفي بعد ذلك بعامين دون أن يترك لبرتراند شيئاً سوى ذكريات غير واضحة عن رجل عجوز لطيف المعشر يجلس في كرسي للمرضى يتحرك على عجلات « يطفح بالبشر الشفوق ، ويغرم بالأطفال الذين لا تزعجه ضوضاؤهم على الاطلاق » . وبعد وفاته ورث عنه فرانك لقب « إيرل » .

ويرجع الأثر الأكبر في تربية الطفلين إلى جدتهما . وتنحدر الليدي راسل المعروفة في معظم الأحيان باسم الليدي جون من أسرة اسكتلندية حازمة تعتنق المذهب البرسبيتيري ، وكانت هذه السيدة تستمتع بالفكاهة والمرح بالرغم من آرائها البيوريتانية المتزمتة في مجالي السلوك والأخلاق . وكانت كذلك تصغر زوجها سناً وتفوقه راديكالية (ثورية) (الأمر الذي جعل الحذرين من زملائه في مجلس الوزراء ـ الذين يخشون نفوذها ـ يطلقون عليها « مظلة الليل المروعة ») . وصدمت هذه السيدة الفكر التقليدي عندما تحولت إلى المذهب « اليونيتاري » الذي ينكر عقيدة التثليث في اللاهوت المسيحي ، وأيدت الحكم الذاتي في إيرلندا ، واعترضت على الحروب الاستعمارية البريطانية . وهكذا شب الولدان في ظل نظام حنون ولكنه صارم ، يجمع بين البيوريتانية التي عفّى عليها الزمن والليبرالية التقدمية ، والحساء الاسكتلندي التقليدي الذي يقدم إليهما في وجبة الفطور باعتباره طعاماً خشناً صالحاً للبدن ، وسلسلة من المربيات الألمانيات والسويسريات يغذين العقل بالتنوير الراديكالي الثائر . (في ذلك الوقت كان الليبراليون البريطانيون يفضلون ألمانيا على فرنسا لأن فرنسا بدت دولة تدمن الأنظمة الديكتاتورية والروح العسكرية تحت حكم عائلة نابليون) . ويكاد أن يكون برتراند قد تعلم اللغة الألمانية في نفس الوقت الذي تعلم فيه الإنجليزية .

وكان تدبير شؤون البيت في « بمبروك لودج » يقع على عاتق أجاثا عمة برتراند غير المتزوجة ، التي كانت ترتدي شالاً أبيض وتلبس شباشب من القطيفة السوداء دائماً بغض النظر عما يطرأ على الطقس من تغيرات ، يعاونها في ذلك « العم رولو » ، الخارج على التقاليد المألوفة . وهو رجل ضئيل الحجم خجول لا يتحلى بكثير من الرشاقة الإجتماعية . ومن المحتمل أن يكون « رولو راسل » أول من أثار في برتراند الإهتمام بالعلم . فقد كان رولو يكتب مزامير عصرية في شكر الله يستخدم فيها نفس الأوزان التي تستخدمها المزامير في الكتاب المقدس ، ولكنه كان يدخل فيها إشارات علمية إلى الضغط الجوي ، والذرات المتصارعة ، وأثير القرن التاسع عشر الذي يحمل الرسائل من المادة إلى كافة الخليقة .

ولم يكن جو البيت مثيراً بالنسبة لولدين يفيضان بالحيوية . وتعطينا أنابيل جاكسون ، وصفاً لهذا الجو نشر تحت عنوان « طفولة فيكتورية » : «كانوا جميعاً يتسللون داخل الحجرة وخارجها كما تتسلل الأشباح . ولم تبد علامات الجوع على أي واحد منهم مطلقاً . « وتذكر نفس هذه الزائرة كذلك أنه كان من عادة « فرانك » أن يربطها من شعرها إلى الأشجار ، في حين أن «برتي» ـ وهو ولد صغير وقور يرتدي حلة من القطيفة الزرقاء تصحبه مربية لا تقل عنه وقاراً ـ كان دائم الحنو والإشفاق » .

وتؤكد صدق هذه الرواية فتاتان صغيرتان أخريان تعودتا أن تلعبا في بمبروك لودج هما : فلورا وديانا راسل ، ابنتا عم برتراند اللتان ذكرتا فيما بعد أن فرانك كان « عنيفاً للغاية » . وذات مرة دخلت الحجرة امرأة تعمل ممرضة وخادمة في نفس الوقت لتجد أن فرانك ، الذي اجتاحته سورة غضب على فلورا كان يطاردها حول الحجرة ، ويحاول فيما يبدو أن يلقي بها في النار . وعلى النقيض منه كان برتراند يتميز بأدب جم وبالتعبير عن نفسه بلغة دقيقة محددة لا يتناسب نضجها المبكر مع حداثة سنه . وفي يوم من الأيام ، طلبت الليدي جون إليه أن يأخذ إحدى ضيفاته الصغيرات إلى الحديقة وأن يحتفي بها فرد عليها برتراند قائلاً : « نعم يا جدتي ، سأفعل أو ، على أقل تقدير ، سأسعى إلى أن أفعل ذلك . »

وعلق زائر آخر هو الفيلسوف سانتيانا على جو البيت في « بمبروك لودج » قائلاً : إنه يشبه تماماً جو بوسطون العتيق (وكان ذلك حين دعا برتراند سانتيانا لتناول الشاي معه في الأعوام اللاحقة ، في وقت كانت الليدي راسل لا تذهب فيه إلى لندن أبداً إلاّ لتناول الغداء مع المستر « جلادستون » .)

وكانت تسود بمبروك لودج تقاليد سياسية قوية ، فقد كانت الليدي جون تتحدث عن المعارك التي خاضها زوجها من أجل الإصلاح الانتخابي ، كما تتحدث بصفة خاصة عن بطل آخر في العائلة هو وليم لورد راسل الذي نفذ فيه حكم الإعدام لأنه كان يقاوم الملك « تشارلس الثاني » . وانغرست في نفس برتراند في سن مبكرة للغاية أفكار مفادها أن عائلة راسل يقع على عاتقها واجب الخدمة العامة ، وأن التمرد له ما يبرره أحياناً . وكتبت جدته على الإنجيل الذي أهدته له في عيد ميلاده الثاني عشر :« لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر » كما كتب عمه رولو في أحد مزاميره العلمية العصرية يقول :

إن الإرادة القوية مرغوب فيها قبل كل شيء
حتى تصارع كل إرادة شريرة

تبغي مرضاة رفاق السوء وتعارض صيحات جوع الناس
وحتى تدفع أمامنا نوايا الأمراء الطيبة كأنها قش تذروه الرياح
إذا كانت كلمة الحق تكدر ملذاتهم .

وعندما كبر برتراند ، بدأ يتصل أيضاً بعائلة ستانلي التي تنتمي إليها أمه ، وإذا صح وصف عائلة راسل بأنها جماعة من العلماء الأنطوائيين ، فإن عائلة ستانلي جماعة من الإنبساطيين الأشداء ، أفضى إلتقاء برتراند بهم إلى زيادة حيائه الذي طبع عليه . وكانت الليدي « ستانلي » سيدة لاذعة الحديث تمقت ما هو أجوف وسخيف . وأعلنت هذه السيدة أنها ستترك مخها بعد وفاتها لكلية الجراحين الملكية « لأن حصولهم على مخ امرأة ذكية لتشريحه سيكون باعثاً لاهتمامهم البالغ » . وإحدى بناتها هي الكونتيسة أف إيرلي التي تزوجت حفيدتها ونستون تشرشل .

وقد ورث فرانك راسل طباع عائلة ستانلي ، فهو يتمرد بشدة على الحياة السجينة في بمبروك لودج . ولذلك هرب فرانك من البيت ، وهدد بألا يعود إذا لم يرسلوه إلى مدرسة داخلية ، في حين أن برتراند كان في هذه الفترة أقرب في طباعه إلى عائلة راسل . ومضت أعوام قبل أن يستعيد خصال عائلة ستانلي التي تتميز بالبشاشة والمرح . وكتب عنه فرانك راسل في عبارة لا تخلو من مبالغة تكشف عن ذلك التعالي المألوف في لغة الاخوة الكبار نحو الصغار الذي يظهر فيه الإخوة الكبار الاحتقار نحو إخوتهم الصغار : « ولم يحظ برتي (الذي اصطادوه في سن مبكرة عن سني ، والذي كانت عريكته اللينة أكثر استجابة في أيديهم) بفائدة التعليم المنزلي الكاملة في جو من الحب ، الأمر الذي جعله متغطرساً صغيراً لا يطاق حتى التحق بجامعة كامبردج . »

وذكر برتراند نفسه فيما بعد : « اكتسبت ، مثلي في ذلك مثل كل الذين يتلقون تعليماً بيوريتانيا ، عادة إطالة التأمل فيما ارتكبته من خطايا وحماقات وما يشوبني من نقائص . »

وبطبيعة الحال ، كان الذهاب إلى الكنيسة بانتظام جزءاً من النظام السائد في بمبروك لودج ، وكذلك كان ترنيم التراتيل في أمسيات الآحاد بمصاحبة البيانو الذي كانت الليدي جون تعزف عليه . وتركت هذه التراتيل في برتراند أثراً واضحاً يتجلى فيما حفرته في ذاكرته . فبعد انقضاء ما يقرب من ثمانين سنة على ترديده لها ، نراه لا يزال يقول : « إنني أعرف آلاف التراتيل عن ظهر قلب » . ثم يسترسل في تلاوة بعضها مثل الترتيلة التالية :

تطير الأيام واللحظات على جناح السرعة
تمزج الأحياء بالموتى

وفي القريب العاجل سنرقد أنا وأنت

كل منّا في منامته الضيقة

وكانت رأسه تزدحم بالتفكير في خطاياه وهو يهيم في بعض الأحيان بمفرده في حديقة بمبروك لودج الفسيحة المهملة . فشب يافعاً يعتزل العالم ويلوذ بالصمت ويستبد به الحياء بسبب حرمانه من رفاق في مثل عمره .

وسرعان ما فقد ثقته بنفسه وأصابه العي في التعبير عن أية عاطفة أو شعور خاص بسبب حيائه من ناحية ، وتمرسه بالتقاليد الأرستقراطية التي تنكر على المرء إظهار ما يجيش في صدره من عواطف خاصة من ناحية أخرى. وذات مرة ، داهم المرض عمته أجاثا أثناء غيبتها عن البيت ـ وكان المرض يداهمها في أغلب الأحيان ـ فطلبت الليدي جون إلى برتراند أن يكتب إليها فسألها عماّ عساه أن يكتب في خطابه . وقالت له جدته : « قل لها كم تأمل في أن تعود إلينا موفورة الصحة والعافية » ، فأجاب برتراند : « إنني أحمر خجلاً من قمة رأسي إلى أخمص قدمي من أن أقول لها ذلك . »

وبغض النظر عن طبيعته الخجول وإحساسه بالوحشة لم يكن برتراند، على أية حال ، طفلاً شاذاً على الاطلاق . فقد كان يستمتع استمتاعاً طبيعياً بالألعاب والمغامرة . وقد بذلت الليدي جون قصارى جهدها لكي توفر له الصحاب . ومن بينهم صبي مكث في بمبروك لودج قرابة عام اشترك مع برتراند في ربط حبل في أعلى شجرة بلوط فوق منحدر . واستطاع الصبيان ، بالمران والمهارة ، أن ينزلقا على الحبل وأن يعودا عليه من حيث بدءا . وكان أي خطأ في التقدير معناه الارتطام الخطر بجذع الشجرة . وعندما زارهما أولاد صغار آخرون كان يحلو لهم أن يحرضوهما على أن يجربا لعبة الحبل دون أن يتنبهوا إلى ما فيها من خطر محقق .

وأحب برتراند أيضاً حباً متأججاً الانزلاق على الجليد وتسلق الأشجار من أجل البحث عن أعشاش الطيور ، وكان دوق كامبردج يملك وحده حق صيد الديوك البرية في المزرعة الموجودة ب « ريتشموند بارك » . وأطاش برتراند عقل حرس الحديقة وهم يحاولون منعه من التعدي على أرض لا حق له في أن يطأها بقدمه .

وفي تجواله الهائم ، كان برتراند يفكر في أشياء أخرى غير ذنوبه . وامتلأت رأسه بالخيال والتأمل . ويرجع أول مثل مسجل يشير إلى اتجاهه المتشكك في المعتقدات الراسخة إلى سن مبكرة لا تتجاوز الخامسة . فعندما قيل له حينذاك أن الأرض كروية ، رفض أن يصدق ما قيل له . وبدأ يحفر حفرة في الحديقة حتى يرى إذا كان سيخرج عند أستراليا من الناحية الأخرى . وقيل له في

نفس ذلك الوقت تقريباً أن الملائكة بجواره تراقبه أثناء نومه ، فأجاب أن بصره لم يقع عليها قط . ولمّا قيل له أن الملائكة تختفي في نفس اللحظة التي يفتح فيها عينيه ، قرر أن يحتال عليها ويغافلها بأن يقفل عينيه قفلاً محكماً ثم يمد يده حتى يمسكها على حين غرة . ولكن شيئاً لم يقع في قبضة يده .

وازداد تشككه رسوخاً عندما تنبأت « الأم » شيبتون بنهاية العالم في عام ١٨٨١ . وجاء في ذلك العام يوم أغبر مظلم ، أكد له تماماً أنه إيذان بالنهاية ولكن العام انقضى دون أن يختفي العالم من الوجود .

وكان تشككه يهدف دائماً إلى الوصول إلى الحقائق الصحيحة . وهناك مثال آخر على ذلك عندما كان طفلاً لا يتجاوز الخامسة . فعندما أخذوه إلى شاطيء البحر في « برود ستيرز » ضايقه أن تفشل جهوده في أن ينتزع من الصخور حيوان البطلينوس الصدفي الملتصق بها . وسأل عمته أجاثا :

ـ هل يفكر حيوان البطلينوس ؟

فأجابت :

ـ لست أدري

ورد عليها برتراند بقوله :

ـ إذن ، يجب عليك أن تتعلمي

وسرعان ما اتجهت اهتماماته نحو دراسة الرياضيات . وفيما بعد ، نراه يذكر في واقع الأمر « أن الرغبة في معرفة المزيد من الرياضيات » هي التي أنقذته من الانتحار أثناء مراهقته . وكان شغفه بها ، فيما أظن ، ينبعث أساساً من تشوقه الذي يكاد يبلغ حد التصوف للوصول إلى نوع من حق اليقين .

ويلهم الناس العاديين شيئاً من العزاء أن يعرفوا أنه بكا مر البكاء عندما حاول أن يتعلم جدول الضرب لأول مرة ، وأنه بدأ يمقت الجبر مقتاً عظيماً . (وكان يريد أن يعرف ما تعنيه (س) و (ص) في حقيقة الأمر . وظن أن معلمه يعلم الحقيقة ولكنه يخفيها عنه) . ولكنه أصاب تقدماً سريعاً في دراسته ، ومن الممكن تحديد أهم حادثة أثرت في تطوره العقلي على وجه الدقة :

ففي التاسع من أغسطس عام ١٨٨٣ ، عندما كان برتراند في الحادية عشرة من عمره سجل أخوه « فرانك » ما يلي : « أعطيت برتي ـ بعد ظهر اليوم ـ أول درس له في رياضة إقليدس ،



عقله المتشكك تساءل على الفور كيف عرف المؤلفون مغامرات هؤلاء الرجال ، ثم ترك الكتاب باشمئزاز .

وكانت الخطوة التالية التي خطاها راسل في طريق التشكك هي فحص الحجج التي تستند إليها تعاليم الدين المختلفة ، مدوناً خطراته بحروف إغريقية في صحيفة يحتفظ بها سراً . وعقد العزم على أن يتجاهل ما يريد الايمان به، وأن يجعل العقل وحده نبراساً له .

وكان عمه رولو يعتقد أنه يمكن التوفيق بين الحتمية العلمية والإرادة الحرة . وكتب رولو يقول إن : « ذرة واحدة أو مجرة من الشموس لا تجسر أن ترفع رأسها في وجه الكلمة . . وليس في الكون ركن يخلو منه القانون . » وقرر برتراند أن هذا الرأي يشوبه التناقض . فالأجسام الحية ، تشبه أية مادة أخرى في أنها تخضع مثلها تماماً لقوانين الديناميكا . ولذلك ، فإنه يمكن التنبوء بحركات الإنسان بفرض أن تتوفر لدينا المعرفة الكافية به تماماً كما نتنبأ بحركة الأجرام السماوية .

ومضى برتراند يرفض خلود الروح خلوداً شخصياً . وظل مقتنعاً لمدة طويلة بالحجة التي تدلل على وجود الله على أساس فكرة « السبب الأول » . ولكنه نبذها بعد أن قرأ « ج. س. ميل » وتخلى تماما عن إيمانه بوجود الله .

وكان « ميل » ـ وهو صديق حميم لوالد برتراند ـ كاتباً له أكبر الأثر في أفكاره المتطورة ، كما كان المدافع الرائد في القرن التاسع عشر عن الفلسفة البريطانية التي تنهض على الملاحظة والتجربة ـ وهي فلسفة مبنية على الإدراك العام والواقع المألوف وتؤمن بأن الخبرة والتجربة أصل كل المعارف .

ويبدو أن الفروض الرياضية هي أوضح استثناء من هذه النظرة التجريبية . وبدا أن ٢+٢= ٤ حقيقة قبلية[1] ، وأن فلسفات بأسرها قد بنيت على احترام للرياضيات يكاد يبلغ حد التصوف . وذهب ميل ـ عندما لم يعن له أن يتجاهل المشكلة ببساطة ـ إلى أن المعرفة الرياضية تتكون من تعميمات مبنية على التجربة . ولم يستطع راسل الشاب أن يقتنع بصحة هذا الرأي . وفكر أنه إذا عن للمرء ذات مرة أن يرى أن ٢+٢= ٤ ، فإنه يصل إلى هذه النتيجة بطريقة لا تزداد يقيناً بازدياد خبرته بأزواج الأشياء المختلفة . ومرة أخرى وجد نفسه يتساءل ، أثناء سيره المنفرد في الحديقة ، عن طبيعة الرياضة الحقة .

(*) Common sense

(١) يمكن تعريف المعرفة القبلية القائمة على التسليم بنتائج الاستدلال العقلي a priori بوجه عام، بأنها المعرفة التي تستمد أصولها من مصدر غير التجربة . ويتطلب إعطاء تعريف فلسفي محدد لها تأليف كتاب بأكمله إن لم ينطو على إقامة فلسفة كاملة .

ويجد الذين يعتقدون أن للسنوات الأولى أثراً حاسماً في مستقبل أي إنسان ، إذن ، في حياة راسل دليلاً يبعث على الاهتمام على صحة ما يذهبون إليه من رأي. فقد بدا أن كتاباته عن الأخلاق والتعليم والدين ترجع إلى حد ما إلى رد فعله ضد نسأته البيوريتانية المتزمتة في مجال السلوك والأخلاق . وعلى الرغم من أنه رفض هذا الجانب من تعاليم جدته في بمبروك لودج فإن بعض الجوانب الأخرى من هذا التعاليم ظل يلازمه ، وخاصة الفكرة التي ترى أنه ليست هناك سوى قلة من الفضائل تفوق في سموها الشجاعة الأدبية التي ينطوي عليها دفاع إنسان عن قضية لا تروق في عين عامة الناس . وأخيراً ، انكب عقله بالفعل على تلك التأملات التي أفضت إلى ما حققه من إنجازات دائمة أساسية من الناحية الفلسفية ـ ألا وهو الأسلوب الذي أضاف به إلى الفلسفة التجريبية نظرية في المعرفة الرياضية يمكن الأخذ بها ، يؤيدها باستخدام تقنية منطقية جديدة متشددة .

ولقد كان شباب راسل من الناحية الشخصية مهماً كل الأهمية كذلك. لقد ذكر أحد الكتاب ذات مرة أننا جميعاً ننفق حياتنا باحثين عما افتقدناه في طفولتنا من أشياء . وكتب راسل نفسه يقول عن الأيام الأولى التي قضاها إبراهام لنكولن في الغابات أنه : كان يحب البشر . وربما يرجع هذا، إلى حد ما، إلى ندرة وجودهم في الغابة». ودفع الإحساس بالوحدة راسل إلى التلهف على المودة الإنسانية العادية كما أنه انتهى به إلى الإفتقار إلى معرفة الناس العاديين. وكان يخطىء في أغلب الأحيان فيما يصدره من أحكام أولية على الناس، ولكنه أصبح فيما بعد يحكم على شخصياتهم حكماً صائباً نفاذاً، وذكر لي واحد من أقدم أصدقائه وأكثرهم تفهماً له أن خلو حياته من أخت يركن إليها قد يكون أسوأ ما كان يفتقر إليه راسل في طفولته، ومن الجائز أن حياته كانت تتغير تغيراً كبيراً لو قيض لأخته «راشيل» أن تعيش.

ومن ناحية أخرى ، فإنه من الجائز أن يكون إحساسه بالوحدة سبباً في تشجيع تطوره العقلي. فقد كتب « راسل » ذات مرة « إنني أفكر أحياناً ـ رغم أن هذا يتعارض كثيراً مع الكثير مما أرغب الاعتقاد فيه ـ إنه من المحتمل أن الذين عانوا من الوحدة وشيء من الإهمال في طفولتهم أكثر قدرة على تحقيق الأعمال العظيمة من أولئك الذين يقابلون في طفولتهم بالحدب والتشجيع . . . وبدون القدرة على الخلوة الذهنية ، لم يكن في وسع عبقرية الإنسان أن تحقق شيئاً مما حققته من أمجاد ساحقة » . ويقتطف راسل وصف ورد زورث لنيوتن : وهو يبحر وحيداً في بحار الفكر الغريبة » .

وهذا الجمع بين الانتصار العقلي السامق في مجال الفكر المجرد وبين فهم الناس العاديين الذي جاء متأخراً بعض الشيء في حياته هو الذي دعا « ت . س . اليوت » إلى أن يصفه في منتصف العمر بأنه « ناضج قبل الأوان نضوجاً دائماً » .

ويجب علينا أن نضيف أنه مهما حاولنا تفسير الكثير من نبوغ راسل في ضوء نشأته وظروفه ، فإنه يتبقى عنصر عفوي لا سبيل إلى شرحه لا نستطيع - إذا شئنا الإيجاز - أن نجد تسمية له غير العبقرية . وقد كتب تشارلس سانجر ، وهو واحد من أصدقاء راسل اللاحقين يقول في هذا الصدد : « من الجائز أن أسلوبه الواضح الذي يدعو إلى الإعجاب يرجع إلى أنه لم يتلق تعليماً كلاسيكياً في مدرسة خاصة . وترجع آراؤه الدينية وشخصيته الأخلاقية إلى التصرف الحكيم الذي تصرفت به المحكمة عندما عينت نفسها حارسة قانونية عليه . ولكن يبدو أن دعابته الذكية وحبه للحقيقة وقدرته على العمل الشاق أشياء كامنة فيه » .

كان راسل بحاجة إلى شيء واحد حتى يستكمل تعليمه المبدئي . فقد تعين عليه أن يرفع من مستوى إلمامه باللاتينية والإغريقية حتى يتمكن من الحصول على شهادة الثانوية العامة من مستوى إلمامه باللاتينية والإغريقية حتى يتمكن من الحصول على شهادة الثانوية العامة من جامعة كامبريدج . وتقرر كذلك أن يحاول راسل الحصول على منحة دراسية ، ليس بسبب ضيق ذات اليد ، ولكن لتتوافر له فرصة إدراك حقيقة مستواه الدراسي إذا وضع موضع المنافسة مع غيره من الشبان . ولهذا السبب أرسل إلى معهد يعنى بحشو أذهان الطلبة بالمعلومات كما يعنى أساساً بإعطاء دروس خاصة للذين يزمعون أن يتخرجوا كضباط في الجيش من كلية « ساندهرست » العسكرية . ويبدو أن الليدي جون قررت اختيار هذا المعهد بسبب كراهيتها للمدارس الخاصة .

وعندما وفد راسل إلى ذلك المعهد لأول مرة ، خرج واحد من المدرسين لاستقباله . وبلغ به الحياء حداً جعله لا يستطيع أن يدفع للحوذي أجره . وغمره الخجل عندما سمع المدرس يهمس في أذن أحد خدم المدرسة أن يدفعه نيابة عنه .

وذكر راسل فيما بعد أن حياءه جعل منه « ذلك النوع من الصبية الذي يحلو لأقرانهم أن يسخروا منهم » . وكان زملاؤه التلاميذ أجلافاً أغبياء . وبعد انقضاء ما يقرب من سبعين سنة نراه لا يزال يذكر - وقد ظهر الرعب في صوته - مشاعره عندما رأى صبياً بلغ به الجهل مبلغاً جعله حين قيل له أن ظاس = جاس / جتاس يظن أنه باختصار س من البسط والمقام يحصل على ظاس = جا / جتا

واكتسب راسل في ثمانية عشر شهراً معرفة باللغات والآداب الكلاسيكية قد يستغرق الطالب العادي في تحصيلها ستة أعوام أو أكثر . ونال منحة دراسية تؤهله للالتحاق بجامعة كامبردج . ولكنه لم يتقن أبداً اللغات الميتة إتقاناً كاملاً كما يتقنها كثير من الفلاسفة البريطانيين المعاصرين . وفي زمن كان فيه « ج . أ . مور » مثلاً يترجم الشعر الإنجليزي من الأمام إلى الخلف وبالعكس إلى شعر إغريقي ولاتيني ، كان راسل يتناقش مع عمه رولو في المشكلات العلمية .

ونظراً للتقدم الجديد الذي كان على العلم أن يحققه يوماً بعد يوم، فإني أعتقد أن اهتمامات راسل تفوق إهتمامات مور في ميزتها . فضلاً عن أنه استطاع أن يقرأ للرياضيين والفلاسفة الألمان والفرنسيين والطليان في لغاتهم الأصلية . وكانت جدتاه تتحدثان مع الزوار الأجانب المرموقين بالإنجليزية والالمانية والفرنسية والإيطالية بنفس الطلاقة . كان تراث الثقافة الأوربية أليفاً إلى راسل كشيء طبيعي لا غرابة فيه على الإطلاق .

الفصل الثاني

كان دائماً يتكلم

التحق راسل بكلية ترينيتي في جامعة كامبريدج في أكتوبر ١٨٩٠ في الثامنة عشرة من عمره حيث ألفى نفسه في « عالم جديد من البهجة اللانهائية » .

من العسير أن ننكر سيادة جامعة كامبريدج الفكرية خلال نصف القرن الذي تلا التحاق راسل بها أو أكثر . صحيح أن « ف .هـ . برادلي » في جامعة أكسفورد ظل يعتبر طوال سنوات كثيرة رائد الفلاسفة البريطانيين . ولكن ريادته آلت إلى زوال عندما هبت في وجهه ثورة فكرية انبعثت من جامعة كامبريدج أولاً ، ومن الأمريكان الواقعيين ثانياً . وتستطيع كلية واحدة في كامبريدج - هي ترينيتي - أن تفخر بأنها ضمت « ماك تاجارت » ، « هوايتهد » ، « راسل » ، « مور » ، « برود » ، رامزي » ، « وتجنشتين » ، فضلاً عن « ايدنجتون » ، « رثرفورد » ، و «ج .ج. طومسون». ويمكننا أن نضيف إلى هذه القائمة أسماء من كامبريدج مثل «و. أ. جونسون»، «مارشال»، و «كينز».

ولم يفسر أحد حتى الآن اجتماع كل هذا الحشد غير العادي من المواهب في وقت واحد . وربما نستطيع أن ننسبه إلى الصدفة وحدها . ولكن قد يكون تفوق كامبريدج الشديد على أكسفورد في الرياضيات والعلم أحد الأسباب التي أدت إلى النهضة الفلسفية في كامبريدج ، وقيض للتقدم الرئيسي في الفلسفة أن ينبعث منها . وكان الدافع الذي حدا ببرتراند إلى الالتحاق بكامبريدج هو رغبته في دراسة الرياضة ، في حين التحق أخوه فرانك بجامعة أكسفورد .

وعقد راسل منذ البداية صداقة بعدد من الرجال النابهين . وكان « أ. ن. هوايتهد » ، وهو أحد ممتحنيه في المنحة الدراسية ، قد التحق بكلية ترينيتي كطالب قبل ذلك بعشرة أعوام في سنة

١٨٨٠ ، وأصبح زميلاً في عام ١٨٨٥ . وبلغ تأثر هوايتهد بأوراق إجابة راسل في المنحة الدراسية الحد الذي جعله يطلب من تلاميذه في الصفوف الدراسية العليا أن يزوروا راسل وأن يتعرفوا به .

وترك «ماك تاجارت» الفيلسوف الهيجيلي، وهو أحد أصدقائه الجدد من أهل الفلسفة أكبر أثر فيه. وكان هذا الرجل يتميز بنكتة راسل الذكية وبقدر من الحياء يفوق ما كان عليه راسل نفسه من حياء . واعتاد ماك تاجارت أن يسير في أروقة كلية ترينيتي بخطى متثاقلة مائلة مقترباً قدر المستطاع من الجدار . وكان من المحافظين في نزعة السياسة على غير أصدقاء راسل . وكان لراسل صديق أصغر سناً هو ج .أ . مور الذي التحق بكامبريدج بعده بعامين .

كان لراسل أصدقاء آخرون ، سأشير مرة أخرى إلى بعضهم فيما بعد ، أصاب جانب منهم ذيوع الصيت في داخل انجلترا وخارجها ، ومن بينهم لوويس ديكينسون العالم الكلاسيكي وتيودور وكرومتون ليولين ديفيز والأخوة ترافيليان الثلاثة - تشارلس السياسي ، وروبرت الشاعر ، وجورج م . ترافيليان المؤرخ . وعاش تشارلس حتى أصبح آخر عضو على قيد الحياة في أول وزارة عمالية في بريطانيا . وكاج . م . ترافيليان - في أيام الطلب المبكرة في الجامعة - يعتبر أكثر منه راديكالية (ثورية) .

وكان تشارلس سانجر ، وهو صديق لراسل أيام الطلب ومعاصر له تماماً ، بل ورفيقه في المسكن لفترة من الزمن ، موهوباً في الرياضيات والمحاماة واللغويات بطريقة غير عادية . ولا يزال بين أيدينا وصف كتبه لوويس ديكنسون عن التقاء سانجر براسل . كان سانجر كما يصفه ديكنسون ضئيلاً للغاية يفيض وجهه كله باليقظة لا مع البشرة تنم حركاته عن الحماس والحرارة ، في حين أن طلعة راسل كانت تشبه قسيساً فرنسياً من القرن الثامن عشر مختلطاً بأرستقراطي إنجليزي .

وكان لوويس ديكنسون الرقيق الحاشية واحداً من أول الذين احتجوا على عادة الإخلاص الصادق عند راسل التي لازمته طوال حياته ، وأطلق عليه في إحدى المناسبات اسم شخصية كورديليا في مسرحية « الملك لير » . وحتى في أيام الطلب في الجامعة ، وجد كثير من الناس أن راسل شخص يبعث على الفزع بعض الشيء . وتخرج تشارلس تريفليان ، وهو أكبر من راسل ببضعة أعوام من قبله . ولكنه كان يجيء إلى كامبريدج أحياناً حتى يرى أخويه الصغيرين . وذكر تريفليان بعد ذلك بسنوات أن « راسل أذكى بكثير من أن يستطيع مجابهته . وكنت أميل إلى الابتعاد عن طريقه . وشعرت أمامه أني في حضرة رجل عظيم يمكنه أن يستشف مكنونات نفسي » .

شاهدت انجلترا زمناً لم يكن التعليم الجامعي فيه ـ كما هو الآن ـ جزءاً من الصراع الطبقي الوظيفي من أجل البقاء يضطلع فيه معظم الطلبة بالتركيز المتجهم للحصول على درجات عالية يتوسلون بها إلى التوظف . وبالرغم من أن راسل وأصدقاءه كانوا يبذلون الجهد الشاق في دراسة موضوعاتهم الأكاديمية التي تخصصوا فيها ، فإنهم كانوا يقرأون ويتحدثون كذلك في الفلسفة والسياسة والأدب والدين وأي شيء آخر يثير اهتمامهم . وفيما بعد ذكر عالم رياضي مثل « هوايتهد » أنه أمضى وقتاً طويلاً للغاية في دراسة « نقد العقل الصرف » لكانط للدرجة أنه استظهر بعض أجزائه . وبدا لـ« هوايتهد » وراسل أيام الطلب أن جو جامعة كامبريدج يكاد يتفق بالضبط مع المثال الأفلاطوني في التعليم فقد كانا يقسمان وقتهما بين دراسة الرياضيات والاشتراك مع أصدقائهما في نقاش حر يتناول شتى الموضوعات . وطبقاً لما يقوله هوايتهد ، فإن هذه المناقشات في حقيقة الأمر كادت تكون « محاورة أفلاطونية يومية » .

وكان مركز النقاش يتمثل في مجموعة صغيرة مقفلة على ذاتها تعرف بـ« الجمعية » أو « الرسل » . وبلغ اقتصار الجماعة على نفسها حداً جعلهم يعتبرون وجودها سراً . وكانوا يلتقون في حجراتهم بالتناوب في أمسيات السبت حيث يتحدثون حتى ساعة متأخرة من الليل ، كما يلتقون مرة أخرى من أجل تناول الفطور المتأخر معاً في يوم الأحد ثم يخرجون بعده للسير على الأقدام طيلة النهار ، وهم منهمكون في الحديث أثناء سيرهم .

وسرعان ما تألق راسل في هذه المناقشات . وعندما عاش بعيداً عن عائلته ، انحسر عنه ظل جله وجدته . ووجد راسل ، وقد اعتراه شيء من الشعور بالدهشة ، أن أذكى الناس في كامبريدج يستمتعون بالانصات إليه . وتطورت شخصيته ونكتته الذكية بسرعة كما لو كان كائناً جديداً في عالم جديد . وزايله حياؤه عندما ألقى نفسه في صحبة أناس تتفق مشاربه مع مشاربهم . وفي كامبريدج بدأ راسل يدخن ـ بعد أن كانت الليدي جون في بمبروك لودج تعرب عن سخطها على التبغ وتعد تدخينه « خطيئة » ـ وأظهر ميله إلى تدخين غليونه والتحدث طوال الليل والنهار .

وبعد أن انقضت على ذلك ستون عاماً ، ظللت ألح على ج . أ . مور أن يروي لي أية ذكريات قد تكون عالقة بذهنه عن راسل أيام الطلب في الجامعة . وأصبحت ذكرياته بعد انقضاء مثل هذه الفترة الطويلة من الزمن ـ مختلطة معتمة . ولكنه تذكر شيئاً واحدا عن راسل بتحديد ودقة . قال مور « إنه كان دائماً يتكلم » .

أما مور نفسه ، فقد كان يلوذ بالصمت عادة ، اللهم إلا إذا استثارته مناقشة في الفلسفة

فينسى في غمرة مشاعره الحادة كل شيء سواها . وكان شعره يتدلى على جبينه ، كما كان من عادته المميزة أن يعيد شعره إلى مكانه بأن يزيحه إلى رأسه بيده حتى مؤخرتها . وهو يعبر عن اختلافه في الرأي اختلافا مشوباً بالعاطفة . وعندما كان يقول له أي إنسان : «إنني لا أتفق معك في الرأي» كان مور يرد عليه قائلاً : « يا إلهي . إنك لم تفهم كلمة واحدة ممّا ذكرت » . ومن الأمور التي تستلفت الانتباه في شخصية راسل ، بغض النظر عن مؤلفاته تماماً ، ما يتمتع به من قدرة على إغراء الآخرين بدراسة الفلسفة . وفي بداية التحاق « مور » بجامعة كامبريدج لم يكن طموحه يتجاوز الدأب على دراسة اللغات الكلاسيكية القديمة ، وأن يضطلع بدوره بتدريسها في المدارس الثانوية . ولكن راسل دعاه في يوم من الأيام إلى تناول الشاي معه كي يقابل « ماك تاجارت » . وأخرج « ماك تاجارت » من جعبته نظريته المشهورة التي تذهب إلى أن الزمن ليس له وجود حقيقي . واعتقد « مور » أن هذا الرأي هراء . ولمّا رأى راسل ما أظهره مور من مهارة في الجدال في هذه المناسبة وفي مناسبات أخرى ، حثه على هجران دراسة اللغات الكلاسيكية القديمة من أجل دراسة الفلسفة . وسرعان ما أظهر تألقاً واضحاً لدرجة أنه جاءت فترة لاحقة من المحتمل أن يكون راسل قد تعلم فيها من مور أكثر مما تعلم مور من راسل .

وظل معظم الناس ، في كامبريدج ـ خلال بعض الأعوام ـ يعتبرون أن مور يفوق بكثير أثر راسل فيهم . وأخطأ الناس في تأويل فيض النكات البارعة التي كان راسل يطلقها على أنها مجرد ذكاء طريف أفضى به إلى التورط في تأكيدات وتوضيحات خلابة لم يكن « مور » يسمح لنفسه أن يتردى فيها مطلقاً . وكان مور يتميز دائماً بعاطفة متأججة وضاءة نحو الحقيقة بمدلولها الحرفي . وعندما نحكم عليه بمقالاته التي كتبها في مطلع حياته ، وبالأثر الذي تركه في معاصريه الأوائل ، نجد أن كتبه لا تفي وفاءً كاملاً بحقه في الاعتراف بما خلفه من أثر .

أما فيما يتعلق بعمل راسل الأكاديمي ، فقد درس الرياضيات في أعوامه الثلاثة الأولى بجامعة كامبريدج . ففي تلك الأيام التي تخلو من المشاغل والهموم أكثر ممّا تخلو منها أيامنا الراهنة ، كانت هيئة التدريس بالجامعة لا تزال تضم نصيبها من الشواذ ، فقد أصابت في نهاية الأمر مدرس الرياضة الذي كان يعلم راسل لوثة عقلية . ووفقاً لما يقوله راسل ، كان هناك زميل في كلية « سانت جون » يحاول في بعض الأحيان أن يذبح ضيوفه بسيخ مدفأة ملتهب متوهج ، ولكن قدمه العرجاء كانت لحسن الحظ تعوقه عن ملاحقتهم . وكانت هناك كذلك شخصيات لطيفة مثل الأستاذ العجوز الذي كان يحتفظ بتابوت في حجرته ، ويستمتع بنخس الديدان في الحديقة بعصاه عندما تظهر على سطح الأرض بعد سقوط المطر ، وهو يصيح : « أنت لم تأكليني بعد » .

وفي عام ١٨٩٣ كان ترتيب راسل السابع بين المتفوقين في الرياضيات بجامعة كامبريدج ،

وهي نتيجة طيبة ولكنها غير مرموقة . وكان ترتيب صديقه تشارلس سانجر الثاني في نفس السنة ، وكانت نتيجة راسل ، في واقع الأمر ، أفضل بعض الشيء مما كان أساتذته يتوقعون منه . وقد علق راسل فيما بعد ذات مرة بقوله إنه يدين بالفضل فيما حققه من منجزات لاحقة إلى « المثابرة والعناد » كما اعترف بأنه عندما عمل وسانجر سوياً في حل المسائل الرياضية ، كان سانجر يتفوق عليه بسرعته تفوقاً كبيراً .

ولكن هناك سبباً أهم يفسر لماذا جاء ترتيبه السابع في هذا العام . فقد كان تدريس معظم الرياضة في جامعة كامبريدج حينذاك ، يتلخص في حل المسائل ، نظراً للحاجة إلى وضع طلبة الامتياز في ترتيب محدد . وكان راسل يعتبر الكثير من هذه المسائل تمرينات عديمة الجدوى ،لا تمت بأدنى صلة إلى المشاكل الأساسية في فلسفة الرياضة التي كانت تثير اهتمامه في حقيقة الأمر . وتشكك راسل في أفكار أساتذته ، وقرر (مصيباً في ذلك) أن ما تلقنه بصدد نظرية ذات الحدين وحساب التفاضل والتكامل مليء بالأغلاط .

وقد بلغ به الاشمئزاز مبلغاً جعله ، بعد أن اجتاز امتحانات الامتياز ، يبيع كل ما يملكه من كتب الرياضيات تقريباً ويقسم أن يهجر الرياضة هجراناً تاماً .

ثم درس راسل الفلسفة في آخر سنة له في كامبريدج . وكانت أولى نتائج هذه الدراسة أن اتجه تفكيره الوجهة الخاطئة . فقد أغراه أساتذته ، بالاشتراك مع ماك تاجارت ، بالاعتقاد بأن التراث البريطاني في الفلسفة الذي ينهض على الملاحظة والتجربة والذي استمده من « ج . س . ميل » تراث يجانبه الصواب ، وأن هناك حكمة تفوقه في فلسفات كانط ، وهيجل ، وبرادلي .

وفي ذلك الوقت أثار نشر كتاب برادلي « الظاهر والحقيقة » (١٨٩٣) أكبر اهتمام في عالم الفلسفة . وكان ينبغي ـ على حد تعبير ناقد معاد ـ أن يطلق عليه اسم « إختفاء الحقيقة » ، نظراً لأن برادلي تناول سائر الأشياء التي تعد عادةً مكونة للعالم المتطور ـ مثل الأشياء والكيفيات والزمان والمكان ـ وألغاها واحداً تلو الآخر باعتبار أنها تتضمن علاقات رأى أنها تشتمل على التنافض الكامن . وفي نظر « برادلي » أن منطقة الظاهر ، متنافرة الأجزاء متناقضة ، كما أن الحقيقة الوحيدة الصادقة هي « كل » متفرد غير محدود بزمان اسمه « المطلق » يشمل في رحابه كل شيء .

وهذا المطلق ، بمعنى ما ، روحي أو له روح ، ويختلف تماماً عن الأشياء التي تصادفنا في حياتنا اليومية ، وبمعنى آخر، ينزع برادلي إلى « المثالية » التي تناقض « الواقعية » . ويمكن تعريف الفيلسوف الواقعي بوجه عام بأنه رجل يؤمن بأن الأشياء الحقيقية موجودة بطريقة تتفق ، بدرجات متفاوتة ، مع الإدراك العام ، بغض النظر عن وجود عقل يعقلها . وكتب برادلي متبعاً منطق « الموضوع والمحمول » أن كل حكم يعبّر عن « حمل فكرته» للمطلق.

وأصبح راسل بعد أن تعرض لإغراء كبير تابعاً ل«هيجل» وبرادلي. ويبدو واضحاً أن السبب في هذا يرجع إلى أحاديثه مع أصدقائه أكثر من دراسته الأكاديمية في كامبريدج . ولم يخبره أساتذته في الرياضة شيئاً عما جد فيها من تطورات مثل أعمال وايرستراس ، في حين صرفه أساتذته في الفلسفة عن المذهب التجريبي . ولم يبدأ عمله الأصيل ـ سواء في الرياضة أو الفلسفة ـ إلا بعد تخرجه من الجامعة . وفي كلتا الحالتين ، قاده سخطه على أسس الرياضة في نهاية الأمر إلى التمرد على الأرثوذكسية العلمية السائدة في كامبريدج ، وعاد إلى دراسة الرياضة فكتب رسالة تؤهله للزمالة في الجامعة بعنوان «أسس الهندسة» أهداها إلى ماك تاجارت ولكن هذا الكتاب كان يعكس ما سبق أن تعلمه في كامبريدج .

وحتى بعد أن نبذ راسل ومور فيما بعد ، آراء ماك تاجارت نراهما لا يزالان يشتركان معه ، على أقل تقدير ، في شيئين ينسبهما إلى نفسه : (أولاً) الكراهية التي كان ماك تاجارت يحملها لما أسماه « غموض التعبير » والإصرار على استجلاء معاني الألفاظ . (ثانياً) الاقتناع بأن محاولة توجيه أي جدال فلسفي حتى يصل إلى نتيجة مرغوب فيها من الناحية العاطفية ، هي أعظم جريمة فكرية .

ومما يثير الاهتمام أن نذكر في هذا المجال نقداً وجهه إلى راسل مدرسو الفلسفة في كامبريدج . فقد كان من عادتهم أن يصفوا مقالاته وإجاباته عن أسئلة الامتحانات بأنها موجزة أكثر مما ينبغي . واحتفظ راسل دائماً بهذه القدرة على الإيجاز ، رغم أنه لم يترك لنا فيما بعد سبباً يدعونا إلى الشكوى من ضآلة مؤلفاته .

ولا بد لأي مفكر عظيم ، مهما بلغت أصالته ، من أن يتأثر بالجو الفكري السائد في عصره . ويجب أن نذكر شيئاً عن الإفتراضات المسبقة التي اشترك راسل وأصدقاؤه من طلبة الجامعة في الأخذ بها . وصل راسل إلى كامبريدج قبيل التحول الذي طرأ على أمزجة الناس العقلية من القرن التاسع عشر المتفائل الخلاق إلى القرن العشرين المتشكك الناقد . وساد في القرن التاسع عشر التفاؤل المشرق بمستقبل العالم كل مكان ، بغض النظر تماماً عن الخلافات القومية أو السياسية . واستلهم هذا التفاؤل الفلسفة الهيجلية في المانيا ونظرية التطور لداروين في بريطانيا . وأيقن الاستعماري المحافظ والليبرالي المؤمن بحرية التجارة ، والثائر الماركسي على حد سواء أنهم جديرون جميعاً بالعالم الذي يتطلعون إليه .

وقد كتب راسل فيما بعد عن نفسه عن معاصريه يقول : « كنا نشعر جميعاً أن التقدم الذي أحرزه القرن التاسع عشر سيستمر ، وأننا أنفسنا سنتمكن من أن نضيف شيئاً ذا بال » .

أمّا فيما يتعلق بالحرب ، فهي أثر من آثار العصور البربرية البائدة لا تناسب غير الأغبياء

الذين عرفهم راسل في المعهد الذي يحشو أذهانهم بالمعلومات قبل أن يلتحقوا بأكاديميةساندهرست العسكرية . ولم يكن هناك ما يدعو أي شخص عاقل إلى أن يأبه بها . صحيح أنـه قد توجـد مناوشات فرعية ضد المتوحشين في المناطق النائية على أطراف الأمبراطورية . ولكنه كان في العادة عسيراً على أي شخص ذكي أن يعتقد ، حتى حلول عام ١٩١٤ ، أن القتال سينشب في حقيقة الأمر بين الدول المتمدنة في أوروبا .

وحطمت الحروب والنظم الدكتاتورية في الواقع هذا الإيمان السائد بحتمية التقدم تحطيماً فظاً خشناً ، كما حطمه ، من الناحية النظرية ، رفض الهيجلية أو أية فلسفة تطورية أخرى . وأوضح لنا راسل أكثر من مرة أنه بالرغم من أن الانتقال من « الأميبا » إلى الفيلسوف يمثل التقدم من وجهة نظر الفيلسوف ، فإننا لا نعرف إذا كانت الأميبا تشعر بنفس هذا الشعور . ولكن الإيمان بالتقدم المتغلغل في راسل ظل مستقراً في لا وعيه يؤثر في تفكيره في ناحية واحدة . إذا كان المجتمع الإنساني في تغير وتحسن دائمين ، فإنه يستتبع ذلك أن القوانين الأخلاقية ينبغي أن تتغير بتغير هذا المجتمع . وكان هناك افتراض أن أية أحكام أخلاقية ينبغي أن تتغير بتغير هذا المجتمع . وكان هناك افتراض أن أية أحكام أخلاقية مبنية على التقاليد الماضية تحتمل الخطأ ، وأن أية أفكار جديدة بصدد الأخلاق أكثر احتمالاً في صوابها من الأفكار القديمة . وقد ذكر راسل هذه النقطة في إحدى مقالاته المبكرة التي كتبها أيام الطلب في الجامعة . وشجعه هذا فيما بعد على الاستمتاع بمضايقة المستمسكين بالعرف وبتحدي الأخلاق التقليدية . وكتب راسل : « إن علم الأخلاق شأنـه في ذلك شأن كل فرع من فروع الفكر الإنساني ، ينقسم إلى نوعين ، تلك الآراء المبنية على التقاليد من ناحية ، وتلك الآراء التي تستند إلى شيء من الحقيقة من ناحية أخرى » .

وفي أيام الطلب بالجامعة ، كانت عقـلانية راسـل المتمـردة لا تزال تمتـزج بآثـار التشـدد البيوريتاني مع النفس الذي ترعرع وشب في ظلـه . وعندمـا اكتشف راسـل لأول مرة مباهـج كامبريدج العقلية ، بلغت به السعادة مبلغا جعله يكاد يحس بشيء من الذنب على استمتاعه بها . وقرر أن واجبه يقتضي منه الإتيان كل يوم بفعل واحد غير بهيج . وكان راسل في هذا الوقت ذا نزعة محافظة تقليدية في آرائه في الجنس . ويقال إنه أنحى باللائمة على فتاة تغازل رجلاً لا تحبه .

وكان تسلل النساء إلى كامبريدج في تلك الأيام لا يزال طفيفاً . ولكن بعض الأساتذة كانوا يقيمون في كثير من المناسبات حفلة عشاء يدعون إليها بعض السيدات الشابات من نيونهام أو جيرتون . وهناك بعض الشواهد المبكرة التي تدل على افتتان النساء براسل . ومنها ما يذكره طالب من زملائه أن فتاة جلست بجواره في وقت العشاء ، تحملق في حدة بعيون لامعة ، وهو يحدثها في بعض المشاكل الأخلاقية أو الفلسفية .

وبعد طفولته الموحشة شب راسل دون أن يعرف عن الجنس الآخر سوى النذر اليسير . ولذلك ، كان حتماً إلى حد كبير أن يغرق في الحب لأذنيه عندما تحركت هذه العاطفة فيه بسبب ما جبل عليه من طبيعة متلهفة . ووقع راسل في حب إليس بيرسال سميث الفتاة الجميلة التي تنحدر من عائلة « الكويكرز » (الإصلاح) الإنجيليين التي وفدت من بنسلفانيا واستقرت في إنجلترا . وكان أخوها الكاتب لوجان بيرسال سميث ، وأما أختها فقد تزوجت من بيرنارد بيربنسون الناقد الفني المرموق . وبعد انقضاء سنوات كثيرة سجل بيرينسون ذكرياته عن زيارات راسل الأولى لعائلة بيرسال سميث بوصفه خطيب إليس . يقول بيرينسون إن راسل كان « خائفاً ، هياباً ، خجولاً ضئيلاً ، داكن اللون بعض الشيء ، يلوذ بالصمت في معظم الأحيان . » ووصفته إليس نفسها كيف أنها صحبته ليرى بعض أصدقائها قائلة : « إني لا أعرف رأيهم في برتي راسل ، فقد أظهروا له كل العطف، ولكنه كان في حضرتهم خجولاً أكثر ممّا ينبغي » .

واعتبر الناس زواج هذا الأرستقراطي الإنجليزي غريباً بعض الشيء . ووقف بعض أصدقاء راسل في وجه هذا الزواج . وكذلك اعترضت عليه جدته الليدي جون . ودبرت لراسل الترتيبات لتعيينه ملحق شرف بالسفارة البريطانية في باريس آملة أن يصرفه هذا عن الزواج . ولكن راسل لم يجد أية متعة في الملاهي الباريسية . وكل ما استطاع أن يتذكره في السنوات اللاحقة أنه كان ينسخ رسائل طويلة تتناول حقوق صيد السمك حسب معاهدة « أوترخت » . وكانت الديبلوماسية البريطانية حريصة على أن تثبت فيها أن الكابوريا ليست سمكاً ، في حين أن الحكومة الفرنسية ترد عليها بأنها كانت تعتبر سمكاً عند توقيع المعاهدة .

وعاد راسل إلى بلاده في أول فرصة . وفي ١٣ ديسمبر ١٨٩٤ تزوج أليس في « بيت اجتماع الأصدقاء » في لندن . وكان عمره اثنين وعشرين عاماً ، كما كانت زوجته تكبره بخمسة أعوام . وتخللت حفلة الزواج ـ شأنها في ذلك شأن كل مراسيم « الكويكرز » ـ فترة من الصمت يقطعه أحد من الموجودين عندما يتحرج صدره بشيء يريد التعبير عنه . وكان تشارلس تريفليان ـ الذي جلس في المؤخرة ـ يشغل باله بالمراهنات بالبنسات على الذين يتوقع وقوفهم وكلامهم من بين الحاضرين .

الفصل الثالث

برلين والماركسية

لم ييسر برتراند راسل عمل من يعن له أن يقوم بدراسة سيرة حياته بتقسيمها إلى مراحل واضحة تتناول الموضوعات المختلفة تقسيماً محدداً. وكان من عادته دائماً وهو أمر يدعو مؤرخ حياته إلى الإرتباك ـ أن يولي اهتمامه أي عدد من الموضوعات المختلفة في آن واحد. . ويكاد تنوع اهتماماته العديدة أن يصل إلى ما وصلت إليه شخصيته من تعقيد شديد. وقد لخص راسل نفسه مستقبله ذات مرة بتعليق يميز شخصيته يقول فيه إنه عندما أصبح أغبى من أن يستوعب الرياضيات اتجه إلى دراسة الفلسفة، وعندما أصبح أغبى من أن يستوعب الفلسفة اتجه إلى دراسة التاريخ. ومن الحق أنه أظهر أعظم الاهتمام ـ وهو بين الحادية عشرة والثامنة والثلاثين ـ بأسس الرياضيات، ثم نبذ اهتمامه بأي عمل في هذا المجال عندما بلغ نحو الخامسة والستين من عمره، ولكن اهتمامه الطاغي بالرياضة والفلسفة لم يحل بينه وبين دراسة الاقتصاد في برلين بعد مضي عام على زواجه، وكان أول كتاب نشره يبحث في السياسة.

وكثيراً ما يصف لنا راسل إحدى المناسبات في مارس عام ١٨٩٥ . وهو يسير عبر الثلوج الذائبة في تيرجارتن (حديقة الحيوان) في برلين ، عندما قرر أن يكتب سلسلة من الكتب ـ تبدأ إحداها بأكثر الموضوعات تجريداً مثل الرياضيات ثم تصبح أكثر فأكثر تحديداً . وتبدأ السلسلة الثانية بالسياسة والاقتصاد ، ثم تصبح أكثر فأكثر تجريداً . وكان راسل يزمع أن تتقابل السلسلتان في تركيب كامل يجمع بين النظرية والتطبيق . ولقد كتب راسل هذه الكتب ، ولكن التركيب النهائي لم ير طريقة إلى النور نظراً لأنه قد نبذ الفلسفة الهجيلية.

وقد أتاحت ظروف العائلة لسليلها أن يهتم بالسياسة ، اذ كان يعرف معظم الشخصيات الهامة في الحياة العامة البريطانية ـ من جلادستون حتى تشرشل ـ معرفة وثيقة . ويصف راسل في كتابه « مقالات غير رائجة » ذكرياته الحية للغاية عن جلادستون عندما كان يزور بمبروك لودج .

فبعد أن غادرت السيدات المائدة ، ترك الحاضرون راسل الشاب بمفرده ليحتفي بضيفه الذي توحى حضرته بالرهبة . وبلغ الحياء براسل مبلغاً أعجزه عن الكلام . وكانت الملحوظة الوحيدة التي تفوه بها جلادستون وتلاها صمت أشق على النفس من ملحوظته هي : « إن نبيذ البورت حسن للغاية ولكن لماذا قدموه إليّ في كأس من كؤوس الكلاريت ؟ » وجاءت أول صلة لراسل بونستون تشرشل عندما كان راسل طالباً في جامعة كامبريدج وتشرشل تلميذاً في مدرسة « هارو » . ففي يوم من الأيام ذهب راسل إلى الحلاق في لندن ليقص شعره ، فقال له الحلاق : « إن ابن اللورد راندولف موجود في البيت المجاور يا سيدي . إنه شبل صغير . نعم . إنه كذلك » .

ولم يقصر راسل صلاته السياسية ـ بوصفه عضواً في « الجمعية » التي تؤمن بتعلم كل شيء دون أن يصدمها أي شيء أو تجزع منه ـ على الحزبين الحاكمين : حزب المحافظين وحزب الأحرار (الليبرالي) الذي ينتمي إليه . وارتبطراسل عن طريق عائلة « بيرسال سميث » ، منذ مرحلة مبكرة للغاية ، بعلاقات ودية مع الفابيين ، دعاة الإشتراكية الرواد المنتمين إلى طبقة أصحاب الوظائف ، الذين كادت جهودهم ـ بالرغم مما منيت به من فشل في القضاء على الرأسماليين البريطانيين أن تمحق الطبقة التي ينحدرون منها . وزار راسل وزوجته ألمانيا مرتين في عام ١٨٩٥ . وكان يهدف أساساً من زيارته الثانية إلى دراسة الحركة الإشتراكية الألمانية* . ولم يكن الإهتمام الذي أظهره أرستقراطي إنجليزي شاب أمرا مألوفاً بعض الشيء ، إن لم يكن أمراً يصدم الشعور . وذكرت « إليس » في السفارة البريطانية أنها حضرت مع زوجها اجتماعاً إشتراكياً . وبالرغم من أن السفير صرف الموضوع بدبلوماسيته قائلاً : « إننا جميعاً إشتراكيون اليوم » ، فقد كانت تلك المناسبة آخر مرة تدعوهما فيها السفارة إليها .

كان راسل دائماً صحفياً رائعاً . ونحن نجد ، لسوء الحظ ، أن مهنة الصحافة في كثير من البلاد الآن قد ساءت سمعتها بسبب الصحف نفسها . ولهذا ، فإنه يجب علي أن أوضح ، في هذا المقام أو في أي مقام لاحق ، إنني لا أقصد النيل من بعض أعمال راسل عندما أصفها بأنها أعمال « صحفية » فالمثل العليا في الصحافة الحقة تتفق مع تلك المثل العليا التي تلهم أرقى الدراسات . وتتلخص فلسفة راسل بالذات في الإصرار على رفض الأخبار المنقولة على لسان إنسان آخر، والتشكك في كل شيء والبحث عن المعرفة اليقينية . على أن راسل لم يتمتع بموهبة الملاحظة الدقيقة والوصف الذي يفيض بالحياة فحسب ، بل إنه كان يملك الغريزة الصحفية التي تستشعر تلك التطورات التي يحتمل أن تثبت أهميتها في المستقبل . ولعل أعجب مثل من هذا أنه

* كان استخدام « إشتراكي » ، و « ديموقراطي إجتماعي » يشمل حينذاك الماركسيين الذين يطلق عليهم اليوم إسم « الشيوعيون » .

في وقت مبكر للغاية من حياته قد لا يزيد عن عام ١٨٩٥ ذهب إلى برلين ليستقصي حقيقة القوتين اللتين قدر لهما أن يشكلا تاريخ العالم في الخمسين عاماً اللاحقة أو ما ينيف : ألا وهما العسكرية الألمانية والشيوعية الماركسية .

وتعلم راسل أشياء عن الدولة البروسية حتى من مجرد حضوره الإجتماعات الإشتراكية . ولفت أنظاره رجال البوليس الذين كانوا هناك دائماً على أهبة الإستعداد لأن يفضوا هذه الإجتماعات أثناء انعقادها . ولقد خبر خيلاء الضباط البروسيين بطريقة مباشرة من خلال تصرفاتهم في الفندق الذي كان ينزل فيه ، وكانوا اذا أرادوا أي شيء لم يقف في سبيلهم عائق دونه ، إلى حد أنهم كانوا يطرقون أبواب المراحيض الموصدة طرقاً مدوياً ويدفعونها دفعاً إذا كانت مشغولة .

وكان راسل وزوجته « إليس » جادين ومثابرين في دراستهما للإشتراكية الألمانية بالرغم من أن حماسهما كان يخبو أحياناً . وتسجل مذكراتهما الشخصية قصة دراستهما للإشتراكية الألمانية في ثلاثة مواضع : (أولاً) : « ذهبنا إلى اجتماع نقابة عمال تجليد الكتب الذي حضره ما يقرب من مائة شخص . وكان الإجتماع سقيماً مملاً للدرجة فظيعة ، ويشبه تماماً كل اجتماع آخر من نوعه . وكانت كل كلمة في الخطب التي ألقيت في الاجتماع مشبعة بماركس » . وكتبا بعد مضى أيام قلائل : « حضرنا اجتماعاً صغيراً مملاً في قاعة لاحتساء البيرة جوها خانق وفظيعة . وكان المتحدث كالعادة ماركسياً مملاً » . وهناك تسجيل أخير لاجتماع آخر : « كان الاجتماع مملاً للغاية ولم نمكث سوى زمن قصير » .

وكانت دراسات راسل على قدر من الإتقان الذي كفل له ، على أية حال ، أن يحقق الإنجاز النادر الذي يتمثل في قراءة جميع الأجزاء الثلاثة من كتاب « رأس المال » .

وبعد عودته إلى إنجلترا ، ألقى راسل محاضرة في الجمعية الفابية ضمنها ما توصل إليه من نتائج، كما ألقى سلسلة من المحاضرات في مدرسة الإقتصاد المنشئة حديثاً في لندن، وهي المحاضرات التي نشرت في عام ١٨٩٦ بعنوان « الديموقراطية الإجتماعية الألمانية » وهو أول كتاب يتصدر قائمة كتب راسل الطويلة .

ولا تزال هذه المحاضرات المختلفة تبعث على الإهتمام الخلاب بها حتى يومنا الراهن . ولا يرجع السبب في هذا إلى أنها تتنبأ في بعد نظر غير عادي بمستقبل ألمانيا المفضي إلى الدكتاتورية والحرب فحسب، بل لأن هذه المحاضرات مثل على ما يتميز به راسل من محاولة مناقشة أية مشكلة سياسية بطريقة علمية عقلانية خالية من الإنقياد وراء العواطف.

وبالرغم من أن راسل ليبرالي ، فإن ثوريته الكامنة وشعوره بالتآخي مع أي متمرد جعلاه

يعطف على احتجاج الإشتراكيين على الفقر والشقاء . وكتب راسل في « الديمقراطية الإجتماعية الألمانية » يقول : « إن البيان الشيوعي يكاد ألا يبارى في ميزته الأدبية . . . وفي رأيي أنه قطعة من أحسن نماذج الأدب السياسي الذي ظهر حتى يومنا الراهن نظراً لما فيه من بلاغة موجزة ودعاية ذكية وبصيرة تاريخية . ونحن نرى في هذا العمل الرائع شيئاً من القوة الملحمية التي تتسم بها النظرية المادية في تفسير التاريخ ، كما نرى حتميتها القاسية التي تنأى بنفسها عن التورط في العواطف الرخيصة ، وازدرائها للأخلاق والدين واختزال كافة العلاقات الإجتماعية إلى فعل أعمى من صنع القوى الإنتاجية التي ترفض الإعتراف بما هو شخصي » .

ويتضح لنا أنه بالرغم من كل ما أظهره راسل على الشيوعية من عطف وتفهم ، فإنه لم ينخدع بأوهامها منذ البداية . ورغم أنه في عام ١٨٩٦ لم يتوقع تماماً ما سيفضي إليه التعصب الشيوعي عند التطبيق ـ فلم يكن أحد في ذلك العصر المتفائل يتصور مطلقاً تلك الفظائع التي كانت تنتظر العالم في القرن العشرين ـ فإنه وجه حينذاك إلى الماركسية بعض النقد الحاد النفاذ .

وأوضح راسل مواضع الزيف الكامن في تفاصيل الإقتصاد الماركسي الجافة المملة . ففضلاً عن زيف نظرية فائض القيمة ، فإنها تتناقض مع نظرية « تركيز رأس المال » ، التي اعتبرها راسل أكثر أجزاء كتاب ماركس أصالة وجوهرية . وقد عبر ماركس عن هذه النظرية الأخيرة التي تتناول نزعة الصناعات نحو الإحتكارية بقوله : « إن رأسمالياً واحداً يقتل كثيراً من الرأسماليين » . ولكن راسل اعترض عليه بأن الخلاصة التي يقرها العقل تقتضي من الدولة الإستيلاء على الصناعات المختلفة في أوقات مختلفة عندما تصل هذه الصناعات إلى مرحلة الإحتكار ، وليس بالإعتماد المباشر على تسديد ضربة واحدة حاسمة في مجال الصراع الطبقي لإقامة « دكتاتورية البروليتاريا » .

وفي رأيه أن المذهب الماركسي الذي ينادي بالحرب الطبقية قد يكون صحي ، « لو كان جميع الناس خالدين ، وبعيدي النظر إلى حد الكمال ، ولا يحركهم دافع غير الدافع الإقتصادي » . وتتجاهل الصورة التي يعطيها ماركس عن المجتمع الذي يزداد انقسامه الى طبقتين متناحرتين هما البرجوازية والبروليتاريا ، نمو طبقة وسيطة جديدة بينهما تخلقها الأهمية المتزايدة للفنيين في الإنتاج .

بدأ راسل محاضرته الفابية التي ألقاها عن ألمانيا بقوله إنه لا يعنى بمعالجة مزايا الإشتراكية وعيوبها . ولكنه يعنى بمعالجة أفضل الوسائل الكفيلة بتحقيقها ـ أي بمناقشة ما إذا كان الإشتراكيون الألمان محقين في التبشير بالحرب الطبقية وفي رفض أية صلة تربطهم بالتقدميين الآخرين . وقال راسل إنه يقترح مناقشة هذه المشاكل باعتبارها « مسألة ميكافيلية بحتة » ، دون

أن يقصد بذلك أنها ميكافيلية بالمعنى الشائع لهذه الكلمة . وفي واقع الأمر ، أوضح راسل ذات مرة أن ميكيافيلي رجل أساء الناس فهمه للغاية ، وأن أحكامه إفتراضية وليست قاطعة وأنه لم يفعل أكثر من أنه صدم أفكار الناس بأمانته في مناقشة عدم الأمانة السياسية . ورغم هذا ، فإن بعض الأشياء التي قالها راسل في ذلك الوقت لا يزال لها رنين عجيب في أيامنا الراهنة . ومن الجائز أنه لم يكن يتمتع بمناعة كاملة تقيه من زلل التظاهر الذي يمارسه الشباب بالبهجة التي يجدها في الواقعية ، الخالية من الإستسلام للعواطف ، أو لعله كان ببساطة قد اكتسب عادة التعبير عن أي شيء يريده في أشد الصور تحرشاً واستفزازاً . وذكر لي جلبرت مرى ذات مرة أن راسل كان إذا تحدث إلى أسقف ، فإنه يقول له في وجهه بصراحة لا تتغير : إني ملحد ، في حين أن في إمكانه بسهولة أن يقول بدلاً من ذلك : إنني لا أستمسك بأية عقيدة دينيةً .

وذكر راسل في محاضرته أن الإشتراكيين الألمان حددوا سياستهم « دون أن تدفعهم إلى ذلك مقتضيات التكتيك أو ملاحظة طبيعة الإنسان السياسية ملاحظة تجريبية ، ولكن نتيجة اتباعهم مذهب ماركس القائم على المعرفة القبلية في الحرب الطبقية » . وأظهر راسل حينذاك ميله الذي يميزه نحو التجريبية ، وكرهه للمعرفة القبلية بالرغم من أنه لم يكن حينذاك تجريبياً في الفلسفة. ثم تساءل بعد ذلك عما إذا كانت تكتيكات نظرية الحرب الطبقية، بالرغم من خطل هذه النظرية، لها من النتائج العملية ما يبررها.

وقرر راسل أن التكتيكات وحدها ، على النقيض من ذلك ، هي التي تنقل نظرية الحرب الطبقية إلى حيِّز الواقع، بمعنى أنها توحد جبهة الرأسماليين الألمان ضد الإشتراكيين . « فقد أوضح ماركس للبورجوازية منذ البداية مصدر ما يتهدد وجودها من خطر تهديداً حقيقياً . وهكذا نجد أنه حتى لو كانت نظرية الحرب الطبقية صحيحة فإنه يبدو أن التصريح بها يجانب الحكمة . إن الإشتراكيين قد أخفقوا في أن يدركوا أهمية الاقلال من إفزاع أعدائهم إلى أدنى حد .

ولم يتنبه الرأسماليون الألمان إلى الأخطار التي تهددهم فحسب ، بل إن تقدمية الليبراليين ظلت تتضاءل يوماً بعد يوم بسبب العداوة التي لا تلين لها قناة والتي يحملها الإشتراكيون لهم ، وذلك لأن هؤلاء الليبراليين وجدوا أنهم لا يستطيعون أن يأملوا - عن طريق تبني آراء أكثر تقدمية - في الحصول على أصوات الإشتراكيين الإنتخابية . أما بالنسبة للإشتراكيين أنفسهم فقد حرمتهم آراؤهم المذهبية المتطرفة من كل إحساس بما يمكن وضعه موضع التنفيذ من لحظة إلى أخرى ، ونفر المعتدلون من الحزب الإشتراكي ، فتعمق بذلك صراعه « بسبب تناقضه في مفهوماته للدين والعائلة والوطن » مع الإدراك العام عند الرجل الألماني العادي .

ولو أن الإشتراكيين ، بدلاً من ذلك ، أيدوا التقدميين الآخرين وضمنوا كافة أصواتهم الإنتخابية كشرط لتأييدهم ، لاستتبع ذلك مزيد من الإصلاحات .

ولكن راسل الذي استمر في موقفه العقلاني عرض بعدئذٍ في عدالة كاملة وجهة النظر المضادة . فقال إن البرنامج الثوري الشامل يستطيع أن يلهم حماساً ونشاطاً وإنكاراً للذات أعظم مما تلهمه الإصلاحات الجزئية الصغيرة . وبلغت عقلانية راسل الحد الذي جعله يعترف في حيدة بفوائد اللاعقلانية « والذي صنعته الإشتراكية الماركسية من أجل العامل الألماني ، والذي لا تستطيع الإشتراكية المهادنة بكل تأكيد أن تفعله من أجل العامل، هو خلق الحماس المتأجج الذي يضارع الحماس الديني . وقد جلبت الإشتراكية الماركسية بمجيئها ، بطبيعة الحال ، عدم التسامح والتعصب الطائفي اللذين يتسم بهما كل دين جديد ، ولكنها جلبت معها أيضاً وحدة في الصف وقوة في القتال لا يستطيع غير الدين والوطنية توفيرهما . ويبدو أنه يكاد يستحيل علينا أن نقرر ما إذا كان المكسب الذي أحرزته الماركسية في ميدان التماسك والقوة يعادل ما منيت به من خسران في مجال التسامح ، وما إذا كان الثمن الباهظ الذي تكبدته مقابل ما حققته من إجماع على الرأي يعادل ما يستتبع هذا الإجماع من تسليم أعمى بالرأي دون نقد أو تمحيص . »

ولم يجد راسل في أيامه اللاحقة أية صعوبة في الإنتهاء إلى رأي بصدد هذه النقطة عندما اندلعت ألسنة الحروب العالمية وانتشرت البلشفية والفاشية . ولكن حدسه الفطري ومناقشته العقلية للموضوع ينهان حتى في عام ١٨٩٦ ـ على اتخاذ موقف أكثر اعتدالاً .

واقترح راسل حلاً وسطاً يمكن تحقيقه مفادة أنه ينبغي على الإشتراكيين الألمان ألا ينبذوا الماركسية رسمياً ، بسبب ما خلفته من تحمس متأجج . ولعل أفضل ما نأمل فيه أن « يفقد هؤلاء الإشتراكيون الألمان شيئاً من براعتهم المنطقية ، وأن يتبنوا في نشاطهم السياسي ـ حتى ولو انطوى ذلك على تزييف في الإستدلال العقلي ـ مبادىء حكيمة تتضارب ، في حقيقة الأمر ، مع مبادئهم الأساسية ، ولكن تقتضيها الضرورة العملية » . ويمكن في أغلب الأحيان إساءة تفسير ما يذهب إليه راسل في حديثه عندما نطالعه مكتوباً على الورق بحروف المطبعة الباردة ، دون أن نلمح لمعان عينيه الذي يدلنا بجلاء على ما في نبرته من سخرية . ولكن المرء لا يستطيع أن يتصور أن راسل في أيامه اللاحقة يمكنه إطلاقاً أن يسمح بأي زيف في الإستدلال العقلي ، حتى لو كان على سبيل المزاح .

ما البديل إذن أمام الإشتراكيين الألمان من أجل سياسة أكثر تعاوناً ؟ إن المعتدلين بين التقدميين سيستمرون في الإنضمام إلى صفوف المحافظين : « ويكاد الليبرالي التقدمي ، كما نعرفه

في إنجلترا ، ألا يكون له وجود في ألمانيا . فقد انتقلت القوة التي تساعد على وجوده إلى جبهة الإشتراكيين . وبدلاً من حثه على المزيد من التقدمية ، نجد أن فزعه من الشبح الأحمر يدفعه إلى النكوص على عقبية . وفي نفس الوقت نلاحظ استسلامه لجميع أساليب الخسف والإضطهاد وسوء الحكم لأن البورجوازية تستشبع الإشتراكية أكثر مما تستشبع الديكتاتورية العسكرية » . ويعد هذا تنبوءاً مذهلاً بالظروف التي تولى فيها هتلر مقاليد السلطة في ألمانيا بعد انقضاء نحو ثلاثين عاماً .

لم يدع راسل الإشتراكيين الألمان إلى التسامح والإعتدال فحسب ، بل إنه ناشد الحكام الألمان أن يقلعوا عن ممارسة الإضطهاد السياسي وأن يسمحوا بالديموقراطية الكاملة وحرية الرأي . وقد كتب متنبئاً « وإذا لم يفعلوا هذا ، فأغلب الظن أن مصير الأمبراطورية الألمانية سوف ينتهي إلى الحرب لا محالة ومحق الحياة التقدمية » .

ولم يستقبل الحاضرون محاضرة راسل في الجمعية الفابية استقبالاً حسناً وكانت هذه المحاضرة أول محاضرة عامة كبيرة ألقاها ، كما كانت أعصابه متوترة للغاية (ويذكر راسل عنها « أفزعتني تلك المحاضرة وكنت أتمنى لو هيضت ساقي قبل أن ألقيها ») . ولم يحالفه توفيق كبير في معالجة الأسئلة والنقد الموجه إليه ، مما دعا جراهام والاس إلى أن ينتحي به جانباً فيما بعد وأن ينبهه إلى بعض الملاحظات في هذا الصدد . وكان راسل ، فوق كل شيء ، أرستقراطياً ليبرالياً يزعم القدرة على إسداء النصيحة للاشتراكيين في موضوع يحتدم حوله الجدل ، أي فيما إذا كان من الأصوب أن يباشروا عملهم في استقلال من خلال حزب العمال المستقل ، أو عن طريق المطالبة بالإصلاح بالتعاون مع حزب الأحرار (الليبرالي) . وكانت وجهة نظر راسل تميل إلى اتباع السبيل الثاني .

ويجب علينا أن نذكر أنه ثبت أن راسل يتمتع بقدرة عظيمة على بعد النظر السياسي فيما يتعلق ببريطانيا وألمانيا . ولم ينجح حزب العمال البريطاني في تأسيس نفسه وفي أن يحل في نهاية الأمر محل حزب الأحرار الليبرالي إلا لأنه اتبع نفس السياسة التي كان راسل يحث الإشتراكيين الألمان على اتباعها .

وكان بين حزب العمال البريطاني وحزب الأحرار تفاهم إنتخابي دام عدة أعوام . ويمكننا - على سبيل إظهار التناقض - أن نذكر أن فترة من أكثر الفترات ازدحاماً بالكوارث والنكبات في السياسة البريطانية - وهي العشرون عاماً التي دانت فيها السيادة لحزب المحافظين بين الحربين العالميتين الأولى والثانية - ترجع أساساً إلى الطريقة التي أصبح بها حزب العمال محدود الأفق طائفياً تسوده عقلية الحرب الطبقية . وفي اعتقادي أنه لو أظهر زعماء العمال استعدادهم للعمل مع الليبراليين خلال هذه الفترة لأمكن إنهاء البؤس والضياع الناجمين عن البطالة الواسعة النطاق نهاية

مبكرة ، ولكان من الجائز تجنب نشـوب الحـرب العـالمية الثـانية . ولـو أن الإشتـراكيين الألمان والبريطانيين إلتفتوا إلتفاتاً أكبر إلى ما قاله راسل في عام ١٨٩٠ لكان في الإمكان تجنيب العالم في القرن العشرين كثيراً من الويلات .

وما دمت سألفت النظر فيما بعد إلى ما أراه خطأً في أحكام راسل السياسية فقد كان من العدل أن أذكر هذا المثل المبكر الذي يدل على سداد رأيه .

الفصل الرابع

عمل عبقري

في عام ١٨٩٦ ذهب راسل إلى أمريكا لبضعة شهور ، وزار منزل والت ويتمان ، وحاضر في جامعة جون هوبكنز ، وبرين مور مستنداً في محاضراته إلى بحثه الذي يحمل عنوان « أسس الهندسة » . وبعد أسفاره إلى ألمانيا وأمريكا ، استقر في إنجلترا ليعيش معظم حياته في كوخ صغير في مقاطعة «سسكس»، حيث داوم على عمله الصارم الشاق في الفلسفة الرياضية الذي كان سبباً في ذيوع صيته .

وكان لراسل ، كما أسلفنا ، أصدقاء حميمون بين جماعة الفابيين نخص منهم بالذكر سيدني وب وزوجته بياتريس وب . وسجلت بياتريس بما عرف عنها من حب عارم للنظام والمنهج بعض التعليقات التي تميزت بها بصدد راسل وزوجته إليس . وكتبت بياتريس في مذكراتها الخاصة بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٨٩٥ تقول : « قضى برتراند راسل وزوجته بضعة أيام في ضيافتنا . وراسل شاب صغير في السن للغاية يتمتع بقدرة فكرية هائلة تبشر بالخير ـ دقيق الفكر ناعمه يحب الجدل والمعارضة . ولكنه ينزع إلى الفوضوية في مقته لأي عمل يؤديه وهو مكتوف اليدين . وهو متزوج من سيدة أمريكية جميلة ذكية من طائفة الكويكرز (الإصلاح) تكبره ببضعة أعوام وتعتنق آراء فوضوية في الحياة وتمقت الروتين كذلك .

وبعد أن زارت بياتريس وب كوخ راسل في سسكس في العام التالي كتبت تقول : « يحيا برتراند راسل وزوجته حياة رعوية يؤلف بينهما التفاني الكامل . وهما يعيشان في بساطة تخلو بعض الشيء من النظام وتتسم بالإسراف . وهما يحققان في معيشتهما أبسط النتائج بطريقة مبذرة ، كما يمكننا أن نتوقع من سيدة أمريكية فوضوية لها إيرادها الخاص بها . « وكان راسل

* ذكر راسل فيما بعد أن الإشارة لإسرافه قد حيرته قائلاً : « كان دخلنا ضئيلاً وكنا نعيش في حدده » .

يعمل نحو ست أو سبع ساعات في تأليف كتابه الميتافيزيقي ، في حين أن إليس كانت تهرع إلى المدينة لفترات وجيزة تتردد فيها على نوادي الفتيات وتحضر الإجتماعات التي تحض الناس على الإمتناع عن المسكرات .

وكانت عائلة الكويكرز التي تزوج منها راسل تشحذ في كثير من المناسبات نكتته الذكية . فقد كانت حماته مثلاً مولعة بعض الشيء باقتباس الآيات من الكتاب المقدس . وقالت ذات مرة : « إذا ألقيت خبزك على وجه الماء . . . فأكمل لها راسل الآية ساخراً بقوله : « فإنك تجد ـ حين تسترجعه ـ أن التلف الشديد قد أصابه . »

وفي يوليو ١٩٠١ سجلت بياتريس وب أكمل وصف لراسل قيض له الوجود خلال هذه السنوات الأولى من حياته :

« كان مسلكه وملبسه ومظهره الخارجي أشد ما يكون حرصاً على التأنق ، شديد المراعاة لقواعد الذوق واللياقة التقليدية . جم الأدب يدقق في إتباع الرسميات التي يقتضيها هذا الأدب . وكان أثناء الكلام يخرج الألفاظ بوضوح يكاد يكون مفتعلاً ، ويعبر عن نفسه بطريقة محددة دقيقة ، وهو بيوريتاني متشدد من الناحية الأخلاقية . ويكاد يصل إلى حد التقشف في عاداته الشخصية ، غير أن إيمانه بأنه يعيش قادراً على العمل جعله يتطلع إلى الإحتفاظ بنفسه في أفضل حالة جسمية . ولكنه جسور من الناحية الفكرية ، يحطم المقدسات ويكره المواضعات الدينية أو الإجتماعية ويتشكك في العواطف . وهو يترك العنان لأشد المفارقات والنكات انطلاقاً . ويصيغ نكاته دائماً في قالب فكري معقد يمنعها من الإنحدار إلى مزالق النكات الخشنة السوقية . وهو محدث ممتع ، وخاصة في أحاديثه العامة عندما يعترض سبيله تدخل العقول الأخرى فيها لتمنعه من أن يهوي بسكين منطقه الماضية على ما يتناوله من موضوعات فيمزقها إرباً إرباً . وهو ينظر إلى العالم من علٍ ، من قمة منفصلة عنه ، ويتوفر على تشريح الأشخاص وتحطيم القضايا . »

« والخطوط العريضة التي تحد عقله وشعوره خطوط حادة واضحة صلبة دائمة . وهو على العكس مني قادر على الكراهية الطيبة . فأنا لا أعاني من أي إحساس بالخطيئة ، ولا تعتمل في نفس الرغبة في أن أرى العقاب ينزل بمن سقطفيها ، في حين أنه ، على النقيض من ذلك ، يكاد يصل إلى درجة القسوة في رغبته في الثأر من القسوة . »

وكان راسل في هذا الوقت متشدداً في امتناعه عن معاقرة الشراب . وأنحى ذات مرة باللائمة على ج . أ . مور لأنه يعاقرها ، الأمر الذي ضايق مور ضيقاً له ما يبرره . وتدرب راسل

دائماً تدريباً واعياً على تحقيق المنجزات العقلية ، وهو يخطط أيامه بعناية لا تقل عن عناية من يمارس التدريب على الرياضة البدنية .

وتصف لنا بياتريس وب بعد زيارتها له صورة لحياته اليومية . وطبقاً لهذا الوصف ، كان راسل وزوجته إليس يتناولان الفطور معاً في حجرة المكتب في الساعة التاسعة . ثم ينصرف راسل إلى دراسة الرياضيات حتى الثانية عشرة والنصف ، ثم يتناوبان القراءة المشتركة بصوت عال لمدة ثلاثة أرباع ساعة . ثم يقضيان ربع ساعة في التنزه في الحديقة ويتناولان الغداء في الواحدة والنصف . وكان راسل بعد الغداء يلعب الكروكيه مع لوجان بيرسال سميث ، ثم يتناول الشاي في الرابعة والنصف ، ينصرف بعدها إلى دراسة المزيد من الرياضيات حتى الساعة السادسة ، ثم يقرأ بصوت عال مع إليس حتى السابعة والنصف ، ويتناول العشاء في الثامنة يتلوه حديث عام مع عائلة وب يستمر حتى التاسعة والنصف . ثم يعود إلى القراءة بصوت عال لمدة ساعة (ومن المحتمل أن تكون هذه القراءة كتاباً في التاريخ أو رواية) حتى يحين موعد إطفاء الأنوار في الساعة العاشرة والنصف .

وعندما نشر هذا الوصف ، علق عليه راسل بقوله : « إن مسز وب كانت كلفة دائماً بتبويب الأشياء وجمع الإحصائيات » . وذكر راسل إن انصرافه إلى دراسة الرياضيات كان يستغرق وقتاً أطول وأن القراءة بصوت مرتفع كانت تستغرق وقتاً أقل . فقد كان من عادته أن يتوفر على دراسة الرياضيات من التاسعة حتى الواحدة ، ومن الخامسة حتى الثامنة . وليس من شك أن التزامه بمثل هذا الجدول المنتظم كان حقيقة واقعة . فمهما بلغت درجة إنشغاله بعمله ، فإن هذا الإنشغال لم يمنعه أبداً من التوقف عن العمل الذي بين يديه حتى يتناول طعامه . وقال راسل في هذا الصدد : « إنني أكن الإعجاب العظيم للناس الذين يستطيعون أن ينسوا تناول وجباتهم بانتظام . ولكنه لم يحدث في حياتي أن فاتتني وجبة مطلقاً . » وكان راسل يتوقف عن العمل حتى ولو كان في منتصف جملة يكتبها ، ثم يعود إلى مقعده فيما بعد حتى يختمها دون أن يفكر برهة واحدة ، لأن خاتمة الجملة كانت تبقى عالقة بذهنه .

وهناك نقطة جديرة بالذكر مفادها أن نوع الحياة التي كان راسل يحياها تعتمد بجلاء على توفر دخل ثابت صغير ولكنه كاف . وفي حقيقة الأمر ، فإن كل التقدم العظيم الذي أحرزه هذا العصر يكاد يكون من صنع أناس لم تدفعهم الحاجة إلى العمل من أجل كسب لقمة العيش . ولا ينطبق هذا القول على راسل فحسب بل على مور وفيتشنجتين أيضاً .

وإذا عنّ لنا أن نتساءل : كيف يمكن للتقدم الفلسفي في بريطانيا أن يستمر بعد أن تغيرت

الظروف الإقتصادية ، فلن يستطيع أحد أن يجد الجواب . ومن المؤكد أن الإشارة إلى المنح الدراسية ومنح الأبحاث التي تعطيها المؤسسات الغنية ليست رداً على الإطلاق ، لأن الفكر التقليدي الجامد في بادىء الأمر يعتبر في أغلب الأحيان دلائل العمل المجدد في الفلسفة والعمل الخلاق للغاية في العلوم شيئاً لا يخلو من السخف . فمن العسير مثلاً أن نتصور راسل وهو يتوجه إلى سلطات التعليم المحلية قائلاً لها : « إنني لا أشعر بالإرتياح فيما يتعلق بأسس الرياضيات » ، فيحصل منها على المال الذي يكفيه خمسة عشر عاماً يضطلع في أثنائها بالبحث في هذه الأسس وإستقصائها .

وظل راسل يعالج الفلسفة عن طريق الرياضيات أساساً . واستغل كانطوهيجل إلى حد كبير على سبيل المثال الصعوبات الرياضية التي تكتنف « المقادير اللامتناهية في الصغر » و « واللانهاية » اللتين استنتجا منهما أن العالم كما يبدو للإدراك العام ليس له وجود حقيقي . ولكن أسفار راسل في ألمانيا أحاطته علماً بأمر ستراس الذي أوضح أن حساب التفاضل والتكامل لا يعتمد على « المقادير اللامتناهية في الصغر » ، كما أحاطته علماً بأمر كانتور الذي بدت نظريته في اللانهاية غريبة دون ريب ، ولكنها في نفس الوقت غير متناقضة . وعندما عرف راسل أعمال كانتور لأول مرة لم يفهمها . ولكنه بمثابرته المميزة لشخصيته أجهد نفسه في نسخها في كراسة كلمة كلمة تقريباً ، وانتهى رأيه إلى أن كانتور محق فيما ذهب إليه .

وبعد ذلك وقعت حادثة سعيدة ، فقد رغب ماك تاجارت الذي كان مقرراً له أن يحاضر بعد فترة قصيرة عن ليبنز في كامبريدج عام ١٨٩٩ في أن يزور عائلته في نيوزيلاندا . وناب عنه راسل في إلقاء هذه المحاضرات التي نشرت بعنوان « فلسفة ليبنز » . وتقدم راسل بتفسير لفلسفة ليبنز جديد تماماً ، معتمداً في ذلك على مجرد التحليل العقلي وحده في دراسته . وسرعان ما أسعدته التجربة بتأييد وجهة نظره عندما اكتشف بعض مخطوطات ليبنز التي لم يسبق نشرها من قبل .

وكان أهم من هذا ، على أية حال ، أن دراسة راسل لـ «ليبنز» ساعدته على أن يقوم بتمحيص ناقد لمنطق « الموضوع والمحمول » وفلسفة برادلي ، وأن يرفضهما . ولعلنا نذكر أن برادلي أنكر حقيقة العلاقات بين الأشياء من حيث الجوهر ، مستخدما هذا كنقطة جدل مثالية أخرى يؤكد بها أن عالم الإدراك العام بما يشتمل عليه من أشياء كثيرة مختلفة غير حقيقي ، وأن الحقيقة الصادقة الوحيدة هي « كل » يشمل في رحابه سائر الأشياء . ووجد راسل أن آراء برادلي تجعل أية فلسفة رياضية أمراً مستحيلاً . وثار راسل على هيجل وبرادلي وعاد إلى الواقعية يحفزه على ذلك ج . أ . مور الذي مهد له الطريق .

وذكر راسل فيما بعد : « وجد مور أن الفلسفة الهيجيلية لا يمكن تطبيقها على الكراسي

والمناضد ، ووجدت أنا من ناحيتي أنه لا يمكن تطبيقها على الرياضيات . ولهذا ، تمكنت بمعونته من أن أتخلص من الهيجيلية وأن أعود إلى الإدراك العام الذي يلطفه المنطق الرياضي .

« وسمحنا لأنفسنا ، ونحن نحس إحساس الهارب من السجن ، بأن نفكر أن الحشائش خضراء وأن الشمس والنجوم لها وجود مستقل حتى إذا لم يكن هناك من يراها » .

وبالرغم من أن كانتور ويرستراس - تؤازرهما الهندسة غير الإقليدية - قد أوضحا أن كانط وهيجل كانا يؤمنان بنظريات خاطئة في المعرفة الرياضية ، فقد تعين على راسل أن يجد المعرفة الرياضية الصحيحة . وقرر راسل في النصف الثاني من عام ١٩٠٠ أن الرياضة عبارة عن شكل من أشكال المنطق بلغ درجة عالية من التطوير . وكان فريج في ألمانيا قد توصل إلى هذه النتيجة . ولكن راسل لم يعلم بها في بادىء الأمر .

وعندما حضر راسل مؤتمراً فلسفياً منعقدا في باريس في أوائل عام ١٩٠٠ وجد لزاماً عليه أن يتعرف على أعمال بينو وأشياعه الايطالية في « المنطق الرمزي » . ودرس راسل رمزية بينو حتى أتقنها . وفي مقال لراسل أعيد طبعه بعد ذلك بأعوام كثيرة في « المنطق والمعرفة » ، أطال راسل في مدى هذه الرمزية حتى جعلها تشمل « منطق العلاقات » وصمم راسل كتابه « مبادىء الرياضة »* بهدف إثبات ما يذهب إليه من أن الرياضة والمنطق شيء واحد أساساً . ويقع هذا الكتاب في مجلدين : يحتوي الجزء الثاني على حجج صارمة صيغت في رموز ، في حين أن الجزء الأول عبارة عن نوع من التعليق والتقديم مكتوب بلغة عادية .

وقد نشر أول جزء من « مبادىء الرياضة » في عام ١٩٠٣ . وفي ذلك الوقت قرر راسل وهوايتهد الذي كان قد نشر أول مجلد من كتابه « الجبر الشامل » في عام ١٨٩٨ ، أن يتعاونا فيما يضطلعان به من عمل في المستقبل . ولم تكن نتيجة تعاونهما مجرد إصدار مجلد ثان من « مبادىء الرياضة » ، بل كانت إصدار ثلاثة مجلدات ضخمة من « مبادىء الرياضيات* » الذي لم ينشر أول جزء منه حتى عام ١٩١٠ . وكان راسل قد رسم صورة عامة لخطة العمل في سلسلة من المحاضرات ألقاها بجامعة كامبريدج . وبعدئذ وزع العمل في أجزائها المختلفة عليه وعلى هوايتهد . وتقدم كل منهما بمسودة أولى قام بإرسالها إلى شريكه في العمل ثم راجعها في ضوء ما أبداه زميله من تعليقات عليها ، بحيث أنه تم فحص كل جزء ثلاث مرات . وأمضى راسل أيضاً بضعة شهور من كل عام في كامبريدج حيث أمكنه أن يناقش هوايتهد شخصياً في بعض النقاط .

---

* Principa Mathematica

** Principles of Mathematics

واضطلع راسل بالكتابة الفعلية التي دفع بها إلى المطبعة . وتعين على المؤلفين أن يكتبا كل قضية رياضية على ورقة منفصلة حتى يسمح ذلك بإضافة أية قضايا جديدة ، لدرجة أن المخطوط ، الذي احتفظا به في صف طويل من الدوسيهات ذات الأغلفة ، أصبح أعجوبة في ضخامة حجمه .

لماذا استغرق تأليف كتاب « مبادىء الرياضيات » كل هذا الوقت الطويل ؟ فسر راسل هذا فيما بعد بقوله : « تجمدت قريحتي مدة عامين . وعندما بدأت قريحتي تعمل استغرقت كتابته خمسة أعوام » . ويرجع الألم الذي عانى منه في خلال العامين اللذين تجمدت فيهما قريحته (من عام ١٩٠٣ إلى عام ١٩٠٤) إلى أنه وجد ، بعد أن رد الرياضة إلى منطق ، أن هناك متناقضات في المنطق نفسه لم تنته إلى حل* . وكتب إلى فريج عن هذه المتناقضات فأجابه بالألمانية ما ترجمته بوجه التقريب: «إن علم الحساب يهتز من أساسه» والحل الذي توصل إليه راسل في نهاية الأمر في كتابه «مبادىء الرياضيات» هو نظرية «الأنماط المنطقية»، التي لا يمكننا أن نعرض لها في هذا المجال نظراً لتخصصه العميق من ناحية، ولأن الجدال لا يزال يحتدم حوله من ناحية أخرى. و « مبادىء الرياضيات » كتاب لا يقبل على قراءته إلا قلة قليلة للغاية . وفي حقيقة الأمر ، أخبرني سكرودنجر في يوم من الأيام أنه لا يعتقد أن راسل وهوايتهد أنفسهما قد قرآه . وهذا الكتاب ، شأنه في ذلك شأن معظم الكتب الكلاسيكية الراسخة ، أصبح الآن شيئاً يسلم الدارسون بقيمته أكثر من أن يعنوا بقراءته ، حتى بين الذين تقتضي منهم مهمتهم الإهتمام به . وفي السنوات اللاحقة ذكر هانز ريتشينباخ لراسل أثناء وجوده في أمريكا أنه توصل لتوه إلى نظرية جديدة في الإستقراء الرياضي . ولكن راسل صدمه بعض الشيء عندما أشار إليه بالرجوع إلى موضع في « مبادىء الرياضيات » حيث يستطيع أن يجد شرحاً لنظريته . وليس هناك شك في أن هذا الكتاب أحد الإنجازات السامقة التي حققها العقل البشري ، صب فيه راسل أكثر طاقاته الذهنية توقداً في فترة استغرقت سنوات عديدة . ولكنه من المحتمل ألا يزيد عدد من قرأوه من أوله إلى آخره في العالم عن عشرين شخصاً.

---

* أبسط هذه المتناقضات تناقض قديم ، اقترن في الأزمنة الكلاسيكية باسم ابمينيدس الكريتي . ولكن هذا التناقض كان يعتبر حينذاك أحجية تبعث على التسلية . ولنفرض أن شخصاً قال : « إنني أكذب » ، فهل هو يكذب عندما يقول هذا . فإذا كان يكذب ، فمعنى هذا أنه يقول الصدق . وإذا كان يقول الصدق ، فمعنى هذا أنه يكذب . وكان التناقض الذي اكتشفه راسل والذي كان بداية الصعوبات التي واجهته يفوق هذا الإفتراض في تعقيده (فقد أولى اهتمامه صنف جميع تلك الأصناف التي ليست أطرافاً في حد ذاتها) . وسرعان ما وجد كثيراً من المتناقضات الأخرى كذلك .

وبعد أن انتهى راسل من وضع هذا الكتاب أخبر ج . هـ. هاردي ، وهو واحد من علماء الرياضة في كامبريدج ، أن كابوساً غريباً أقض مضجعه . فقد رأى راسل نفسه في هذا الكابوس في مكتبة جامعة كامبريدج بعد انقضاء ما يقرب من مائتي عام ، وهو يراقب أمين المكتبة الذي يطوف فيها حاملاً دلواً ، يضع فيه الكتب التي قرر التخلص منها لأنها لا تستحق الإحتفاظ بها . وتناول أمين المكتبة النسخة الوحيدة الباقية من كتاب « مبادىء الرياضيات » ووقف متردداً . واستيقظ راسل عند هذه المرحلة من الكابوس .

وسأضطلع في الفصلين التاليين بعمل بطولي - يجوز لي أن أسميه عملاً طائشاً متهوراً - يتلخص في محاولة شرح شيء من قيمة أعمال راسل خلال هذه السنوات في لغة بسيطة . ولكني أحب أن أختم هذا الفصل بأن أضيف شيئاً قليلاً عن الطريقة التي أنجز بها راسل هذه الأعمال .

لم يقدم لنا أحد حتى الآن تفسيراً يستحق الإهتمام لظاهرة العبقرية الإنسانية . ولكن النقطة الوحيدة الأكيدة في هذه الظاهرة أنه يبدو أن الوراثة تلعب دوراً عظيماً فيها . وحالة راسل مصداق واضح لهذا . وكل ما عدا هذا لا يتجاوز حدود التخمين مثل الفكرة الخيالية التي يذهب إليها راسل من أن الذكاء الخارق قد يرجع إلى مادة معينة غريبة تدخل في تركيب طعام الطفل نتيجة الإهمال في غسل الأواني والحلل وكان من عادة هوايتهد الذي كان الطفل الوحيد البارز في عائلته أن يقول ساخراً إن سبب تفوقه يرجع إلى أن أمه ، قبل ولادته ، جرى لها حادث وهي تستقل عربة تجرها الجياد إنقلبت بها عدة مرات. ولكن بالرغم من أننا لا نستغرق في مثل هذه الخواطر، فإنه أمر يثير الإهتمام الأكيد أن نسجل ما يمكن تسميته بالعناصر الفنية التي تكون العبقرية ، وأن نجمع أية معلومات يمكن توفيرها بصدد الطريقة التي يعمل بها عقل كل فيلسوف على حدة.

وهناك في حالة راسل نقطة تبعث على الإهتمام البالغ . فقد كان عمله يعتمد على السمع أكثر من اعتماده على البصر ، وعلى الصورة السماعية أكثر من الصور المرئية . وكان يحب أن يقرأ الناس له بصوت مرتفع . وعلق ذات مرة قائلاً إنه إذا شاء أن يتابع شيئاً أعطي له لقراءته ، تعين عليه أن يقرأه لنفسه في عقله بصوت مرتفع . وكانت ذاكرته تعمل من خلال تذكر صوت الكلمات المقروءة أكثر من اعتمادها على منظر الكلمات المطبوعة في صفحة . وانتقد راسل بيرجسون لأنه يعتمد على المرئيات (وقد أنكر بيرجسون هذا النقد) وقال إن الشخص الذي يستطيع أن يفكر في إطار الصور المرئية فحسب ، يجد عسراً في التفكير في الأشياء المجردة . فالمرء على سبيل المثال لا يستطيع أن يكون صورة مرئية للمفاهيم المستخدمة في المنطق أو البعد الرابع .

ونظراً لأني أعتمد على المرئيات اعتماداً لا سبيل إلى تبديله ، فقد ابتهجت عندما وجدت رياضياً مرموقاً مثل البروفيسور ليتل وود ينكر أن هناك أي ضرر في التصوير المنظور . وإني أميل

للرد على راسل بأن العين يمكنها أن تسمح لنا برؤية ثلاثة أبعاد ، في حين أن سلسلة الأصوات ليس لها سوى بعد واحد فقط . ومن الجائز أن راسل يستطيع أن يجد في الأصوات ، نظراً لما يتمتع به من أذن حساسة وصوت في الكلام بديع في تموجه ، بعض الأبعاد الإضافية مثل الدرجة والنغم والحجم . ولعل السبب في هذا يرجع إلى أنه لم يكن ميالاً بطبعه إلى رسم صور مرئية للأشياء لأنه كان ببساطة لا يحذقها . وذكر راسل ذات مرة : « كلما حاولت أن أرسم صورة بقرة ، ظهرت كما لو كانت حصاناً » . وتذوق راسل الشعر والموسيقى تذوقاً حساساً متأججاً ، ولكن تذوقه لفن الرسم كان محدوداً . ومن الجائز أن يكون هناك شيء مشترك بين الصور السماعية والصور المرئية ، شيء يمكن الوصول إليه عن طريق الأذن أو العين حسب الكفاءة الفردية لكل شخص . ولكن هذا الخاطر يتسم بالغموض . فالحقيقة الأكيدة التي يجب ذكرها لمصلحة الدارسين في المستقبل لنفسية النابهين المتميزين أن راسل كان يعمل من خلال الأذن .

وانعكس هذا حتى على آرائه في التعليم وفي النقد الأدبي . فقد ذهب إلى أن تعليم النطق الصحيح يفوق في أهميته تعليم هجاء الألفاظ الصحيح ، وأن أحد أسرار الأسلوب الأدبي يهدف إلى كتابة شيء يمكن قراءته بصوت مرتفع دون صعوبة في التنفس . وطبقاً لوصف راسل نفسه ، كانت كتاباته رديئة في بادىء الأمر . ولكنه علم نفسه كيف يكتب باتباع هذه الطريقة . (ومن ناحيتي ، فإني لم أجد غير قليل من الشواهد على رداءة كتابات راسل باستثناء فترات في حياته اللاحقة ظهر عليه فيها التعب والإجهاد الواضحان) وأثار اهتمامي أن أحصل على رأى ت . س . اليوت الذي يذهب إلى أن أسلوب راسل يصل إلى ذروة جودته في أعماله الجافة الصارمة مثل « فلسفة ليبنز » . وفي السنوات اللاحقة قال راسل إن مشكلة الشعر الحديث هي أنه يكتب بقصد إرضاء العين أكثر من إرضاء الأذن .

وإني لا أريد ، بطبيعة الحال ، أن أبالغ في هذه النقطة ، فقد كان بصر راسل سليماً للغاية (وهو طويل النظر) في إمكانه أن يقوم بقدر غير عادي من القراءة دون أن يصيب عينيه الإجهاد أو يصيب رأسه الصداع . ولا يزعم راسل أنه يستطيع أن يفهم أية صيغة رياضية معقدة دون أن يراها . كما أن كتابة « مبادىء الرياضيات » كتاب يكاد يكون من المتعذر قراءته بصوت مرتفع . (رغم أن راسل اخترع أسماء التدليل الخاصة لتحل محل الرموز الرياضية . فهو يشير أثناء محاضراته مثلاً إلى الرمز (ه) على أنه (ه) الزاعقة) . ولكن بالرغم من أن فكره لم يكن مستقلاً عن الإحساس المرئي ، فقد كان راسل بعيداً عن الخيال المرئي . ولكنه عرف الخيال المرئي الذي يفيض بالحياة ويزخر بالتفاصيل في الأحلام التي تطوف في منامه ، أو عندما أصابته الحمى بسبب المرض . ولكن « الفكر » ، كما يقول ، « يعتم هذا الخيال أو يعترض طريقه » .

وهناك نقطة أخرى تتعلق أسلوب راسل في العمل تثير بعض الإهتمام . فقد ذكر الدكتور وايزمان ذات مرة أن التفكير الواضح يمكن أن يكون عدو التقدم الفكري ، لأن التقدم تحقق فقط نتيجة إحساس معين غامض بالسخط وهذا، في اعتقادي، ينطبق بالتأكيد على اكتشاف أنيشتين لنظرية النسبية . فقد بدأ أنيشتين بنوع من البصيرة التصوفية أو الشاعرية بالحقيقة . ثم جاء دور الرياضيات فيما بعد . وقد نظن أن الوضع يختلف في حالة مفكر على هذه الدرجة من الدقة والتحديد مثل راسل . ولكن الأمر يغاير هذا بكل تأكيد في أعماله المبكرة ؛ فقد كتب راسل إلى برادلي في عام ١٩١٤ يقول :

« إنني لا أعرف كيف يتفلسف الآخرون . ولكن الذي يحدث لي ، في مبدأ الأمر ، أن غريزة منطقية تدلني على أن الحقيقة لا بد أن تكون موجودة في منطقة معينة ، أبذل بعدها محاولة لأن أحدد موقعها في تلك المنطقة . وإني أثق في هذه الغريزة ثقة مطلقة ، بالرغم من أنها عمياء وصماء . ولكني لا أعرف أية كلمات تصلح مهما بلغ غموضها للتعبير عنها . وإذا حدث أن سهمي لم يصب النقطة المطلوبة في المنطقة ، فإن المتناقضات والصعوبات تلح في محاصرتي . ولكن بالرغم من شعوري بأنه ولا بد أن أكون قد تنكبت الطريق بصورة أو أخرى ، فإني لا أعتقد أني قد أخطأت اختيار المنطقة .

« والشيء الوحيد الذي يستقر في أعماق أفكاري والذي أستطيع أن أذهب إلى أنه رأي خاص بي هو أنني أسير في طريق يفضي إلى الحقيقة ، دون أن أفكر أنه يمثل الحقيقة بحال من الأحوال . »

وكتب راسل أيضاً أن العقل قوة تعمل على الإنسجام أكثر من كونها قوة خلاقة . « والبصيرة هي التي تصل قبل أي شيء آخر إلى ما هو جديد حتى في المناطق التي يسودها المنطق البحت » .

وهناك مثل آخر على أسلوب راسل في العمل، فهو يستخدم عقله اللاواعي إستخداماً واعياً . وتعلم من التجربة أنه إذا شاء أن يكتب في موضوع صعب ، فإنه يجهد نفسه في التفكير في هذا الموضوع ما استطاع إلى ذلك سبيلاً لمدة بضعة أيام أو شهور . وبعدئذ : « أصدر أوامري ، إذا استخدمنا هذا التعبير ، أن يبدأ العمل في منطقة اللاوعي . وبعد انقضاء عدة شهور كان راسل يعود إلى الموضوع عودة واعية ليجد أن العمل قد تم إنجازه .

« وكان من عادتي ، قبل أن أكتشف هذا الأسلوب ، أن أقضي الشهور التي تتخلل عملي في قلق لفشلي في أن أصيب أي تقدم ، في حين أنني أستطيع الآن أن أكرس هذا الوقت في عمل أشياء أخرى .

ومهما كانت العمليات التي يعمل فيها عقله غامضة أو لا شعورية ، فإن نتاج تفكيره النهائي كان دائماً دقيقاً ومحدداً . ويبدو أنها كانت تصل إلى عقله في صورة كاملة . إنني لم أصدق أبداً ما

قاله بن جونسون عن شكسبير من أنه لم يكن يشطب سطراً واحداً مما يكتب مطلقاً ، حتى رأيت بعيني بعض مخطوطات راسل . لقد كنت أظن أن كل كتابة جيدة هي نتيجة المحاولة الأليمة والخطأ والتصويب والإختصار . ولكن راسل أقنعني قبل كل شيء آخر أن الإستثناء من هذه القاعدة ممكن . فمخطوطاته وخطاباته كانت تملأ الصفحات المتعاقبة بأناقة غير طبيعية ، وتكاد ألا تكون إنسانية ، من النادر أن نجد فيها كلمة مشطوبة أو معدلة . وشرح راسل هذا بقوله إنه بمجرد الإنتهاء من التفكير في أي موضوع والجلوس لتدوينه ، كان يقوم بنسخة على الورق كما لو كان مكتوباً بالفعل في عقله . وذكر راسل أنه كان يدون دائماً كل شيء في رأسه أولاً ، لأنه من الأسهل عليه أن يشطب أي شيء في عقله من أن يشطبه على الورق . وفي حديثه لم يبدأ جملة أبداً دون أن تكون نهايتها واضحة في ذهنه . حتى الديالوج الذي يجري في أحلامه أثناء النوم كان كامل التركيب .

وعندما كان راسل شاباً صغيراً للغاية ، نصحه لوجان بيرسال سميث أن يعمل من جديد في أي شيء يقوم بكتابته وأن يعيد صياغته . وتوجه راسل إلى بيته وأعاد كتابة شيء كان قد انتهى لتوه من تأليفه . وعندئذ قرر أن النسخة الأصلية أفضل بكثير من النسخة المعدلة . وقال راسل «إنني لم أعد صياغة أي شيء كتبته منذ ذلك الحين » . وأسدى هذه النصيحة للمؤلفين : « لا تغيروا مطلقاً أي شيء تكتبونه ـ وخاصة إذا طلب منكم شخص آخر أن تفعلوا هذا » .

الفصل الخامس

الرياضيات والفلسفة

من السهل على المرء نسبياً ، إذا توفرت لديه بضعة أعوام وقدرة على قراءة ما يقرب من عشرين مليون كلمة دون أن تهتز جفونه ، أن يكتب دراسة مستفيضة عن فلسفة راسل . وإنني الآن أفعل هذا في حقيقة الأمر . ولكنه من العسير بمكان أن نناقش اكتشافاته المنطقية والفلسفية خلال الجزء الأول من هذا القرن في حيز فصلين مكتوبين من أجل القارىء العادي .

إن أعظم عمل له بلغ درجة من التخصص الشديد تحول دون فهمه فهماً دقيقاً من غير مران متخصص . ولكن تجاهل أعظم أعماله تجاهلاً كاملاً يعطينا فكرة مضحكة في زيفها عن مكانة راسل . ولذلك ، فإني سأغوص لتوي في منطقة يخشى أي عاقل أن يطأها بقدمه . وسأسعى إلى إعطاء مجمل وجيز لأهمية أعماله . ويجب على أن أحذر القارىء من أنني قد أقوم بهذا العمل بطريقة رديئة للغاية ، وأن معظم الناس بعد انقضاء مائة عام من الآن أو حتى في يومنا الراهن ـ قد يرون راسل من وجهة نظر مختلفة . ولكنه يشد من أزرى على أقل تقدير في بذل هذه المحاولة أنني أكاد أقوم بهذا العمل بطريقة لا تقل سوءا عن طريقة راسل نفسه .

ونظراً لأنه كان يعيش منذ طفولته في رحاب الرياضة والفكر المجرد ، فقد وجد عسراً غير عادي في أن يدرك السبب في عجز الرجل العادي عن فهمها . ونحن نجد في يومنا الراهن أن قلة من الطلبة تنشأ ، كما نشأ راسل ، على فلسفة برادلي والمنطق القديم . لقد كان في استطاعة راسل أن يشرح لرجل الشارع أي شيء آخر بوضوح لا تشوبه ذرة واحدة من الغموض ، في حين أنه ظل عاجزاً عن شرح أهمية فلسفته الخاصة به . وعندما بذل محاولة واحدة في هذا السبيل في الفصل الختامي من كتابه « تاريخ الفلسفة الغربية» علق أحد النقاد عليها بقوله : إنه حقق عملاً عظيماً ملحوظاً يتمثل فيما ألحقه بأعماله من إجحاف يفوق الإجحاف الذي ألحقه بأعمال كانط.

وهناك نقطة مبدئية واحدة تتلخص في أنني سأتحدث دائماً عن « فلسفة راسل» ، بالرغم

من أن آخرين يشاركونه كثيراً من آرائه ، وأنه استمد بعض هذه الآراء منهم . وقد حاولت في دراسة أخرى أكثر استفاضة وتخصصاً من هذه الدراسة الحالية أن أفصل آراء راسل عن الآراء التي استحدثها غيره من الناس . وهي مهمة شاقة إلى أبعد الحدود ، لأن راسل لا يحب أن ينسب الفخر إلى نفسه ، في حين أنه حريص دائماً ومفرط في كرمه في الاعتراف بما يدين به من فضل للآخرين . لقد ذكرت تحوله المبكر تحت تأثير ج . أ . مور عن فلسفة برادلي ، ولكنه ظلّ يحتفظ ببعض النقاط في هذه الفلسفة . لقد ظهر المنطق الرمزي الجديد في القرن التاسع عشر على يدي بول ، وأصر هيوماكول ، وهو رجل يكاد النسيان أن يطويه اليوم ، على نقطة حيوية مفادها أن الفكرة الاساسية في المنطق ليست الاندراج بين الأصناف ولكنها اللزوم بين القضايا . وسبق فريج راسل إلى تفسير الرياضيات . وأوضح بيانو كيف يمكن اختراع نظام للرمزية المنطقية أكثر يسراً من النظام الذي اخترعه فريج، موفراً بذلك الأسس التي بنى راسل عليها عمله . وأخيراً ، فإن كتاب « المبادىء الرياضية» ليس سوى نتاج التعاون الوثيق مع هوايتهد . وعندما كان أي إنسان يشير إلى هذا الكتاب مغفلاً اسم هوايتهد ، كان راسل يحتج على الفور بأنه لا تكاد صفحة واحدة فيه تخلو من بصماته معاً.

ومع هذا كله فإن اعتقادي بوجوب نسبة هذه الأفكار الجديدة إلى راسل لا يرجع إلى مجرد الرغبة في الإيجاز والتبسيط. فقد توصل راسل إلى كثير من أشد النقاط أهمية بمعزل تام عن الآخرين . ولم يقرأ فريج أبداً إلاّ بعد أن توصل بنفسه إلى عين نتائجه . ويذكرنا هذا بنظرية داروين في التطور . فقد اكتشف داروين ووالاس هذه النظرية كل منهما مستقلاً عن الآخر . وكان والاس أسبق من داروين إلى إعداد بحث للنشر . وبالرغم من هذا ، فإننا نشير إلى هذه النظرية ، بوجه حق ، على أنها نظرية داروين ، لأن داروين هو الذي جمع كافة الأدلة التي تفضي إلى استخلاص نتيجة كاملة مدعمة لم يكن في استطاعة أي انسان أن يتجاهلها . وكان لراسل نفس هذا التفوق في مجال المنطق. إن قلة من الناس في يومنا الراهن تذكر ماك كول الذي كان النسيان سيطويه لولا أنه التحم في جدال متخصص مع راسل، كما أن قلة من الناس كانت ستسمع عن فريج لولا أن راسل لفت الأنظار إلى أعماله . أما فيما يتعلق بهوايتهد، فيبدو أنه كان يفوق راسل كرياضي عادي ، كما يفوقه في مهارته في اختراع الرموز المنطقية . ونحن ندين بالفضل إلى هوايتهد في وجود معظم نظام الأعلام والأسهم والعلامات الغريبة التي تمتلىء بها صفحات « المبادىء الرياضية». ولكن نظراً لأن هوايتهد كان مشغولاً كل الوقت بالتدريس في الجامعة باستثناء فترات العطلة ، فإنه لم يكن هناك مناص من أن يقع معظم عبء العمل على كاهل راسل . وإني أرى أنه من العدل أن نقول إنه لولا راسل لما كان من الممكن إتمام كتاب « المبادىء الرياضية» مطلقاً . وفي حقيقة الأمر ، أزمع هوايتهد تأليف مجلد رابع في الهندسة

دون أن يشترك معه في وضعه أحد ، ولكن هذا المجلد لم يقيض له أبداً أن يصل إلى مرحلة النشر .

ولهذا، فإني سأتحدث ببساطة عن راسل دون أن أطلب من القارىء أن يغض النظر عما قام به الآخرون، وخاصة فريج من أعمال. وسأبدأ حديثي بسؤال عن أهمية تدليل راسل على أن الرياضيات والمنطق شيء واحد، وعن الأهمية الحقيقية لـ «المبادىء الرياضية»، هذا الكتاب الغريب الذي نقرأ فيه ٣٤٧ صفحة قبل أن نصل إلى تعريف العدد[١]، ويمتد حتى المجلد الثاني قبل أن نصل إلى إثبات البديهية أن م × ن = ن × م؟ .

والرأي عندي أن أهمية هذا الكتاب الفلسفية الرئيسية تكمن في أنه لا يجعل أسس الرياضيات تبدو صعبة ومعقدة للغاية ، ولكن في أنه يجعلها بسيطة واضحة . وقضى هذا الكتاب على ما يكتنف المعرفة الرياضية من غموض . وفكرة وجود شيء عجيب بعض الشيء في عالم الرياضة فكرة من أكثر الأفكار رسوخاً في العقل البشري . ولا يزال الإحساس بالتطير من أعداد معينة مثل (٣) و (٧) و (١٣) باقياً حتى يومنا الراهن . وتثير الأعداد دائماً بعض المشاكل الغريبة . ولنأخذ مثلاً بسيطاً كطرح ٧ من ٣ . قد يقال إن ناقص ٤ ليس له وجود ، ولهذا فإنه لا شيء . ورغم هذا ، فإنه يختلف عن الصفر . وشعر الناس أن هناك شيئاً يدعو إلى قدر أكبر من الدهشة والعجب في « عدد تخيلي» ، الجذر التربيعي لناقص واحد . فليس هناك وجود لأي شيء إذا ضرب في نفسه يعطي ناقص واحد . ورغم هذا ، فإن الجذر التربيعي لناقص واحد يلعب دوراً حيوياً في نوع المعادلات التي يستخدمها أي مهندس كهربائي في التخطيط لمحطة توليد القوى . وتمتد علاقة الرياضة بالتصوف من فيثاغورث الى جيمس جينز ، الذي يصف الله بأنه الرياضي الأعظم . وعندما جاءت نظريات راسل أزاحت كل هذا من الطريق .

ولم يستطع الفلاسفة التجريبيون الذين وجدوا أن مصدر كل المعارف ينبع من التجربة أن يفسروا الرياضيات مطلقاً . فقد بدت الرياضيات معرفة مستقلة عن التجربة . ولكنها انطبقت على العالم الحقيقي بالرغم من هذا .

---

* لـ «المبادىء الرياضية» بطبيعة الحال أهمية بالغة بالنسبة لعلماء الرياضة كذلك . وفي واقع الأمر ذكر راسل ذات مرة أن تسعة أعشار اهتمامات هذا الكتاب رياضية . وكي نعطي بعض الأمثلة التي تجيء عفو الخاطر، فإننا قد نذكر الأسلوب الذي تكتب به رمزيته الآن على شكل التحليل وتوضيح فكرة الحد، ومناقشة الاستقراء الرياضي ، والتمييز بين الأصناف اللامتناهية والأصناف المنعكسة والأمثلة على العناية الفائقة المطلوبة لتوضيح عدم التساوي بين الأعداد اللامتناهية. وكما سنذكر فيما بعد، فقد كان لحساب العلاقات في الجزء الرابع من الكتاب مع فكرة البناء أعظم أهمية بدورها في الفلسفة والعلوم.

وفي حقيقة الأمر لم يكن من المعقول مطلقاً أن نجادل ، مثلما جادل ج . س . ميل بأننا نعرف أن ٢+ ٢= ٤ نتيجة لاختبارنا أمثلة عديدة نجد فيها أنه باضافة شيئين إلى شيئين آخرين يكون الناتج أربعة أشياء . وهكذا استطاع فلاسفة مثل كانطأن يسبحوا في كافة أنواع الفلسفة ذات الأجنحة بحثاً وراء تفسير للمعرفة الرياضية . أما راسل فقد وضع نظرية بديلة يفسر بها أن ٢+ ٢= ٤ أشبه ما تكون بأبسط المبادىء المنطقية التي تذهب إلى أن القضية المنطقية لا يمكن أن تكون صادقة وكاذبة في آن واحد . وبلغ الأمر براسل في وقت من الأوقات مبلغاً جعله يعتقد ـ على مضض منه نظراً لاستمتاعه وتبجيله المبكرين للرياضيات ـ أن الرياضة والمنطق لا يعدوان أن يكونا معاً مجرد مواضعات تتعلق باستخدام الرموز والكلمات. فقولنا ٢ + ٢ = ٤ يشبه القول بأن «طول الياردة ثلاثة أقدام» .

وقد يسر له استبعاده لفكرة انطواء الرياضة على شيء من الحدس الغريب اتباع المذهب التجريبي بحذافيره . ومع ذلك فإن راسل يختلف عن كثيرين جاءوا بعده في أنه لم يمض في هذا الطريق إلى غايته .

وتمثل هذه النتيجة ـ وهي خطوة في سبيل الوصول إلى استنتاج إيجابي ينبني على ما يقوم به راسل من عمليات استبعاد سلبية ـ طبيعته الفلسفية تمثيلاً صادقاً كبيراً .

ذلك لأن من بين الصعوبات التي تحول دون ادراك اهميته ، أن قدراً كبيراً من مؤلفات يبدو سلبياً محضاً .وقد أكد راسل نفسه ، في حقيقة الأمر ، الجانب السلبي من عمله . فعندما استخدم التقدم الذي أصابته الرياضيات في تحطيم الكثير من آراء كانطوهيجل ، وعندما أطاح ببرادلي ، فإنه يبدو للوهلة الأولى أنه لم يفعل أكثر من أنه اكتسب عرفان الدارسين في المستقبل بما أسداه اليهم من جميل بانقاذهم من دراسة ما استحدثه هؤلاء الفلاسفة من لغو .ولكن هذه السلبية تنطوي ، في الحقيقة ، على شيء أكثر ايجابية وبناء من مجرد السلب .

ويمكننا أن نأخذ مثلاً مشابهاً . فقد حاول عدد من الناس عبر التاريخ أن يصنعوا آلات متحركة دائماً ، ولكنهم جميعاً أخفقوا . ولهذا ، فإن المرء قد يتصور في النهاية أن قصة هذه المحاولة لا تتضمن شيئاً غير الفشل . ولكن عندما فهم الناس السبب في اخفاقهم ، اتخذوا خطوة جوهرية في سبيل فهم مبادىء الميكانيكا . وينطبق نفس هذا الشيء على إخفاق كل محاولة في سبيل بناء نسق فلسفي كامل . ويمكن أن يفضي فهم السبب في فشلهم إلى تبني نظرة مختلفة اختلافاً جذرياً فيما يتعلق بطبيعة الواقع .

ولقد تركزت محاولات راسل مع برادلي وأشياع الهيجيلية حول مسائل عسيرة متخصصة .

ولكنني أرى أن أهم نقطة في هذا النزاع - إذا عبرنا عنها بلغة عامة تتجاوز مصطلحاتها الدقيقة تتمثل إلى حد ما فيما يلي :

إذا شئنا أن ندرس عين الانسان ، فإننا نستطيع أن نبدأ دراستها بأسلوبين مختلفين . ويدافع الفلاسفة الذين يفكرون على نسق برادلي وهيجل عن الأسلوب الأول ، فيبدأون بالقول بأن العين جزء من جسم الانسان وأننا لا نستطيع أن نفهمها إلاّ إذا اعتبرناها جزءاً من الجسم .

وهذا ، في الواقع ، هو ما سيقوله أي طبيب عيون يتقن عمله . فعندما يفحص هذا الطبيب مريضاً يشكو من ضعف البصر ، سيستفسر منه عن صحته العامة . وتتوقف صحة الجسم الذي يحتوي العين بدورها على نوع الطعام الذي يتناوله . ويتوقف هذا نفسه على التقنية الزراعية السائدة وعلى التسهيلات المتوفرة لنقل الأطعمة من مكان إلى آخر . وتتوقف هذه الأمور بدورها على حالة التطور التاريخي للعالم في الزمن المشار إليه . ويتوقف هذا بدوره على تاريخ العالم بأسره بل على الوقت الذي جاء فيه نظام المجموعة الشمسية إلى الوجود . وإذا شئنا أن نتبع خطاً جدلياً آخر ، فإنه يمكننا القول بأن العين التي تشاهد النجوم في الليل تختلف اختلافاً واضحاً عن العين التي لم تر أبداً أشياء أبعد من الأشياء التي تراها على سطح الأرض. ويستتبع هذا أن العين تصبح نوعاً آخر من العيون إذا لم يكن للنجوم وجود . ونستطيع بهذه الطريقة ابتداءً بعين الانسان أو أي شيء آخر ، أن نجادل في أن التغير سيطرأ عليها إذا تغير أي شيء عداها ، وأن أسلوب التحليل الذي ينظر إلى أي شيء بمعزل عن بقية الأشياء لا بد أن يكون مضللاً . وقد نقول إذا نظرنا إلى الكون النظرة الصحيحة ، أنه لا يتكون من عدد من الاشياء المنفصلة ، ولكنه وحدة كاملة . ومن المحتمل أن يسمي المرء نفسه في هذه الحالة واحدياً* (وهي كلمة مشتقة من كلمة « مونوس** » الاغريقية ومعناها مفرد واحد) .

ولكن هناك طريقة أخرى في دراسة عين الانسان . وهي الطريقة التي يتبعها راسل . والتي نستطيع بمقتضاها أن نتناول العين بمعزل عن الأشياء الأخرى . وأن نقول أن كل ما يهمنا معرفته بصددها هو أشعة الضوء التي تدخلها ، ورسائل أعصاب العين التي تقوم بنقلها إلى المخ كنتيجة لما تبصره . والدوافع الحركية التي تستقبلها إثر ذلك من المخ والتي توجهها إلى المكان الذي يجب عليها أن تنظر إليه . ونستطيع أن نقول أنه إذا كان أي شيء آخر في الكون كله يؤثر في العين ، فإنه يؤثر فيها عن طريق هذه الأشياء الثلاثة ، وإننا إذا عرفنا هذه الأشياء الثلاثة ، فإننا نكون بذلك قد عرفنا كل شيء نحتاج إليه . وإذا نحن اتبعنا هذا الطريق ، فإننا سنقول أننا نؤمن

* Monist

** Monos

بفلسفة التحليل ، وسننكر أن « التحليل معناه التزييف» ، كما أننا سنتخلى عن أية محاولة لإقامة نظام فلسفي ضخم يضم في رحابه كل شيء . وسنركز على عزل المشاكل المنفصلة التي يمكن أن تحل حلاً جزئياً .

ويمكن القول بمعنىً ما ، إن وجهتي النظر السابقتين يتساويان فيما يتمتعان به من قبول رغم أنه من العسير أن ندافع عن أية نظرة منهما إذا بالغنا فيها إلى أقصى الحدود . ولنفكر مثلاً في رجل يعيش في انجلترا إسمه مستر جونز ، له ابن أخ يعيش في استراليا . وحسب النظرة الأولى إذا مات ابن الأخ ، فإن مستر جونز يصبح رجلاً مختلفاً حتى قبل أن يسمع بوفاته ، لأنه لم يعد يملك صفة العمومة . ويبدو أنه من العسير تصديق هذا . وسيذهب التفكير القائم على الادر ك العام إلى أن مستر جونز لن يحس بالفرق قبل أن يبلغه نبأ وفاة ابن أخيه . ولكن إذا كان الرد على هذا بأن مستر جونز قد أصبح رجلاً مختلفاً في نظر الله ، فإني أعتقد أنه لا يمكن دحض هذا الرأي دحضاً منطقياً . ويبدو أنه يصعب التسليم أيضاً بالنظرية التحليلية المتطرفة بالرغم من أنه لا يمكن دحضها دحضاً منطقياً . وإذا عالجنا هذا الموضوع بطريقة فجة - وسأسعى فيما بعد إلى أن أعالجه بطريقة أقل فجاجة بعض الشيء - فإننا نقول إننا إذا مزقنا الكون كله إلى قطع صغيرة ، فقد نجد أنه من العسير علينا إلى أقصى حد أن نقوم بتجميع أشتات هذه القطع الصغيرة مرة أخرى وأن نفسر السبب في أنها تعمل بالطريقة التي نراها .

وإني أميل إلى الاعتقاد بأن الاختيار بين هاتين النظرتين يرجع عادة إلى مزاج الفيلسوف الفردي ، فمن الممكن أن يجد عقل المرء متعة في تأمل كل الحقيقة على أنها وحدة صوفية ، كما أنه من الممكن أن يجد عقل الانسان ، إذا كان من نوع عقل راسل ، متعة في تشريح الأشياء . (وقد وصف ناقد عدائي ذات مرة عقل راسل بأنه يعمل كما تعمل فرامة اللحم) . وإذا سلمنا بأن مسألة الاختيار ترجع إلى المزاج الفردي ، فإني أرى أنه من السهل أن نرى السبب الذي حدا براسل أن يختار أسلوب التحليل . وإذا آمنا ، مثلما يؤمن الواحديون أن الواقع الوحيد الذي يستحق أن نتحدث عن الكون بأسره ، فسوف يتضح عندئذ أننا لا نستطيع أن نقول في حقيقة الأمر سوى القليل للغاية ، بالرغم من أن معظم الواحديين ينجحون في أن يقولوا الكثير . وسينتهي بنا الأمر إلى التعبير عن عواطف عظيمة وجليلة مثل : « عالم الواقع عضوي في تركيبه» أو أن « الله محبة» . وسرعان ما قد يتردى تفكيرنا في وهدة التشويش العظيم . وإنه لجزء من موقف الواحديين ، في واقع الأمر ، أننا لا نستطيع أن نقول أو نفكر أن أي شيء صادق كل الصدق . وذلك لأننا لا نعرف كل شيء (بالمعنى العادي لكلمة « معرفة») .

أما إذا كنا ، على النقيض من هذا ، نكره التعميمات الغامضة كما نكره المناشدات الغامضة

التي تستهدف التأثير في العواطف ، وإذا كنا نتشوف إلى الوصول إلى المعرفة اليقينية ، فعندئذ سنفضل الأسلوب الآخر . وهذا التشوف إلى المعرفة اليقينية هو الذي جعل راسل يميل إلى التحليل ، تماماً كما جعله يميل إلى المذهب التجريبي . ولقد مكنه كشفه عن الأخطاء الواردة في الحجج المنطقية التي يستند إليها مذهب الواحدية ـ كما مكن من جاءوا بعده ـ من العثور على دافع قوي في هذا الإتجاه.

ويتضمن عمل راسل الهدام نقطة أكثر أهمية ، فقد أوضح إفراط من سبقوه في تقدير قدرة المنطق على إحاطتنا علماً بطبيعة الكون .

وعندما يتساءل الناس عن السبب في وصف راسل بأنه أعظم علماء المنطق منذ أرسطو ، فإن الاجابة التقليدية عن هذا السؤال تتلخص في أنه أوضح أن هناك صوراً من الاستدلال تزيد في عددها قد ما توصل أرسطو إليه . لقد حاول مناطقة الإغريق أن يحتاطوا من الوقوع في الخطأ المنطقي عن طريق إعداد قائمة كاملة قد نسميها قواعد صالحة للعمل ـ تضم كل أشكال الاستنباط السليم. وقرر ارسطو أن كل هذه الأشكال تقريباً تنهض على القياس المنطقي. مثل قولنا: كل الناس فانون، وسقراط إنسان، إذن فسقراط فان. وقد أوضح راسل كيف يتسع المنطق لأكثر من هذا، كما أوضح أن القياس المنطقي لا ينبغي أن يتمتع بما يتمتع به من مكانة رفيعة. ولكن ليس هذا كل شيء، فإنني أرى أنه إذا سألنا عن السبب في عظمة راسل كعالم منطق، فإن هناك إجابة أخرى هامة تنطوي إلى حدٍ ما على شيء من المفارقة، لأن السبب في هذه العظمة يرجع إلى أنه أوضح أن ما يستطيع المنطق أن يحققه لا يعدو أن يكون ضئيلاً.

ولذلك يقول راسل : «كلما تحسن المنطق، تضاءل ما يمكن له إثباته» . وقد بين راسل أن القول بأن قضية منطقية تلزم عنها قضية أخرى في حين أنها لا تلزمها على الحقيقة ، غالباً ما يكون دلالة تشير إلى افتقار الانسان إلى القدرة المنطقية . وذكر راسل معبراً عن هذه النظرة ذات مرة أن «المنطق هو فن عدم استخلاص النتائج». فبعض الأقيسة الأرسططالية على سبيل المثال بشكلها الذي اتخذه غير سليم . وفضلاً عن هذا، فقد أصر راسل على أن كل المعرفة التي يوفرها المنطق (والرياضة) افتراضية. فهي تخبرنا أنه كان شيء صادقاً، فإنه يترتب على ذلك أن يكون شيء آخر صادقاً».

فالقياس المنطقي الذي أشرنا إليه مثلاً كان ينبغي أن يصاغ في صورة كهذه : إذا كان كل الناس فانين وإذا كان سقراط إنساناً فإذن سقراط فان لذلك يجب علينا أن ننظر إلى المنطق على أنه أشبه ما يكون بالعقول الالكترونية الحديثة التي تستطيع أن تحل مشكلة إذا توفرت لديها المعطيات

اللازمة التي تعمل بمقتضاها ، ولكنها لا تستطيع أن تستخلص أية نتائج من دون أن توضع فيها من قبل بعض الحقائق . فالمنطق يستطيع أن يعمل فقط على أساس المقدمات التي نزوده بها في استقلال عن المنطق نفسه . وأي إثبات يجب أن يبدأ بمقدمة معينة لا ينهض الدليل على صحتها . وتبدو هذه النقطة ، حين نعبر عنها في وضوح ، بسيطة جلية وليس فيها جديد على الاطلاق . ومع ذلك فإنه على الرغم من الاعتراف بها نظرياً اعترافاً مبكراً منذ أيام أرسطو ، فقد تعلق بها بعض الغموض دائماً في تاريخ الفكر الانساني .

فهناك بادىء ذي بدء التشوف الانساني الطبيعي من أجل المعرفة اليقينية . لقد سجلنا خيبة أمل راسل ، وهو في الحادية عشرة من عمره ، عندما وجد أن إقليدس لم يقدم دليلاً على صحة بديهياته . ولم يقل له أخوه فرانك كما كان من الجائز أن يفعل : «يتعين عليك أن تبدأ بشيء يجب أن تسلم به دون دليل على صحته ، ويمكنك أن تبدأ من هذه النقطة تماماً كما يمكنك أن تبدأ من أية نقطة أخرى» . ولو كان فرانك قد قال ذلك لجانبه الصواب ، لأن كل بديهيات إقليدس ليست فوق مستوى الشك . ويمكن الرجوع ببداية نظام الاستنباط إلى ما قبل هذا بكثير . ولقد كان راسل ملهماً إلهاماً طبيعياً دفعه إلى أن يحاول أن يرى ما إذا كان يستطيع - فيما لو رجع بنظام الاستنباط إلى الوراء بقدر كاف - أن يصل إلى شيء مطلق اليقين . ولقد اقتضى منه ذلك كل الجهود المضنية التي بذلها في تأليف « المبادىء الرياضية» ، الذي واصل جوديل العمل فيه ، حتى يبين بصفة خاصة ما لم يكن السبيل إلى إثباته في أسس الرياضيات والسبب في ذلك.

كان أسلاف راسل من الفلاسفة ، مثل كانط ، يذهبون إلى أن نظريات إقليدس تعطينا معرفة عن العالم الموجود في الواقع . ولم يدرك الفلاسفة أن الهندسة الاقليدية شأنها في ذلك شأن أي نظام استنباطي آخر ، لا يستطيع أن يمتد إلى أبعد من القول بأنه إذا كانت بعض المقدمات المنطقية المعينة صحيحة ، فإنه يستتبع ذلك أن بعض النتائج المعينة المترتبة عليها صحيحة كذلك . ويتسم إصرار راسل على هذه النقطة بالأصالة والجدة أكثر بكثير مما قد يبدو لنا عند النظر إلى الوراء ، فقد كان يفترض حين بدأ راسل عمله في الهندسة - بأن المكان الموجود في الواقع اقليدي في حقيقة الأمر . ولم تكن نظرية النسبية بعد قد جعلت العلماء ينظرون إليه على أنه غير اقليدي .

ويرجع أحد الأسباب الشائعة التي تمنع الانسان من أن يرى أن أية حجة في المنطق أو الرياضة البحتة لا بد وأن تكون افتراضية إلى الرغبة القوية في إثبات صحة اعتقاد يبعث على الرضا من الناحية العاطفية . وهكذا نرى مراراً وتكراراً أن الفلاسفة ظنوا أنهم نجحوا في استخدام المنطق لاثبات وجود شيء يريدون الايمان بوجوده ، بالرغم من عجز المنطق عن إثبات أي شيء تماماً مثل توهم عدد لا يحصى من المخترعين أنهم استجلوا حقيقة الحركة الدائمة رغم استحالة هذا الاستجلاء من الناحية العلمية .

لقد اعتقد ديكارت أنه أثبت وجود نفسه بقوله : « إنني أفكر ، إذن فأنا موجود» ، وبعدئذ تقدم إلى استنباط نظام فلسفي من هذا الاساس . واعتقد كثير من الفلاسفة أن باستطاعتهم ، إثبات وجود الله عن طريق المحاجة الانطولوجية* . وفي وقت متأخر ، كالذي عاش فيه راسل ، اعتقد ماك تاجارت أنه قد توصل إلى إثبات منطقي لخلود الروح خلوداً شخصياً . حتى الفلاسفة الذين أدركوا أن المنطق لا يستطيع أن يثبت وجود أي شيء إثباتاً مباشراً اعتقدوا أنه يستطيع إثباته بطريقة غير مباشرة عن طريق إثبات أن جميع الفلسفات مستحيلة منطقياً باستثناء فلسفاتهم . ويتمثل هذا في الطريقة التي ذهب بها برادلي ـ شأنه في ذلك شأن كانط وهيجل ـ إلى أنه اكتشف التناقضات في العالم الظاهر .

وتنهض بعض هذه البراهين التي يسعى المنطق إلى اقامتها على الأخطاء الفنية ، وينهض بعضها الآخر على الأخطاء في استخدام الألفاظ ، في حين ترجع بعض الأخطاء الأخرى إلى الافتراض بأن الشيء الذي لا نملك سوى الإيمان به لا بد أن يكون صحيحاً . ومن أهم الخدمات التي قدمها راسل ما قام به من فصل بين المنطق وعلم النفس والقول بأن المنطق لا يعني « قوانين الفكر» .

ولم تتضح الدلالة التي ينطوي عليها التحقق من قصور المنطق إلاّ بالتدريج. وقد استغرق راسل نفسه بعض الوقت حتى يدرك مغزى ذلك.

وعلى سبيل المثال ، فليست هناك حجة منطقية يمكنها أن تثبت أن شيئاً خيِّراً أوشرِّيراً، ما لم نبدأ بمثل هذا الافتراض في مقدمة القضية المنطقية التي نعالجها . وفي كتاب راسل « مشاكل الفلاسفة» المنشور في عام ١٩١٢ نراه لا يزال يكتب أنه لدينا معرفة أخلاقية قبلية . ولكن سانتيانا سرعان ما اعترض عليه في هذه النقطة منكراً أنه لدينا أية مقدمات منطقية موضوعية يمكن أن نبني عليها أية نظرية أخلاقية. وقال سانتيانا إن «الخير» و«الشر» مثل «اليمين» و«اليسار» يعتمدان على وجهة النظر الفردية.

واحتج سانتيانا عن طريق ضرب الأمثلة المشابهة ، بأن أثر الويسكي المسكر في الإنسان يفوق أثر القهوة . ولكن هذا لا يعني أن الويسكي « تتخلله مادة مسكرة كامنة فيه ، وأنها تترنح في زجاجة الوسكي نشوى من السكر . ومع هذا ، فإن راسل و ج . أ . مور يسلكان مثل هذا السبيل عند النظر إلى الأشياء على أنها خيرة تماماً أو شريرة تماماً» . وكان راسل قد أخذ عن ج . أ . مور حجته في كتابه « مبادىء الأخلاق» التي تذهب إلى وجود شيء اسمه المعرفة الأخلاقية الموضوعية . ولكن راسل قرر ـ بعد أنبرى له سانتيانا بالنقد ـ أن سانتيانا محق فيما يذهب اليه ، وأن مقدمة أية قضية منطقية في أية حجة أخلاقية لا يمكن أن تصاغ على مثل هذا النحو : « هذا أو ذاك

---

* الأنطولوجيا معناها البحث في الموجود من حيث هو موجود.

الشيء خير» ، ولكنها تصاغ على النحو التالي : « إنني أظن أن مثل هذا أو ذاك الشيء خير» . وبهذا أصبحت الأحكام الأخلاقية ذاتية بحتة .

ومرة أخرى ، ليس هناك في هذه النتيجة شيء جديد . ولكن جدتها تكمن في أن راسل كان على استعداد لقبولها . فاللادريون الآخرون لا زالوا ـ بعد أن رفضوا الله والكتاب المقدس على أنها مقياس للقيم الأخلاقية ـ يتعلقون بافتراض غامض أن في إمكانهم أن يقدموا دفاعاً عاقلاً عن القوانين الأخلاقية التي يؤيدونها . ولم يبد أنهم يهتمون باخفاقهم في هذا الدفاع حين كانت القواعد الأخلاقية التقليدية لا تزال محتفظة بالكثير من قوتها وعنفوانها . وحتى المدافعين التقدميين في آرائهم عن الأخلاقيات الجديدة مثل جماعة « البلومزيري» ، التي كانت تعتقد أنها تبني أسلوب حياتها على تعاليم ج . أ . مور لم يختلفوا فيما بينهم إلاّ قليلاً بشأن العناصر المكونة للخير . ولكن في الفترة التي عاشها راسل تولى مقاليد السلطة في أمم كبرى رجال تحدوا الأخلاقيات القديمة والجديدة تحدياً ظاهراً . وقالوا إن الأفكار المسيحية يجانبها الصواب وأن للأقوياء الحق في القضاء على الضعفاء ، ونادوا بأن يقوم الجنس الآري بابادة غير الآريين، وأن يستعبد البلاشفة غيرهم ، ودافعوا عن القسوة والزيف . ولم يستطع راسل أن يثبت أنهم مخطئون . وأمكنه وفقاً لمبادئه ، أن يقول فقط : « إنني أكره آراءكم غاية الكره . ولكنه يتعين علي أن أعترف بأن هذا لا يعدو أن يكون مسألة رأي شخصي بحت» . ولا يمكن لإنسان أن يقر نتيجة تتنافى تماماً مع كل شيء يريد الإيمان به ، وكل شيء آمن به فعلاً إلاّ إذا كان قد وصل إلى أعلى درجة من الامانة الفكرية .

كان راسل ذات يوم يشرح ل «لوييس ديكينوسون» نظريته في أن «الخير و«الشر» لا يستندان إلى أي أساس من الصحة الموضوعية . وبعد مرور بضعة دقائق على هذا الشرح أخذ لوييس ديكينسون يضحك لأن اسم شخص يكرهه راسل ورد في الحديث الذي دار بينهما ، فأعلن راسل في نبرة اقتناع أشد ما تكون عنفاً : «إنه وغد» .

وهذه هي المفارقة العظيمة في شخصية راسل ، فكل غرائزه تميل إلى جانب « العقلانيين» كما أنه يوجه كراهيته المشبوبة لأقصى درجة إلى الذين يمجدون العاطفة ، أو أي نوع من الحدس التصوفي على حساب العقل . ولكن لأن راسل أعظم العقلانيين جميعاً ، وجد لزاماً عليه أن يعترف بأن العقل لا يستطيع إثبات خطأ المتصوفين . وهو نفسه في بعض لحظاته الخاصة صوفي في حقيقة الأمر . (غير أنه صوفي من أغرب الأنواع ، فهو صوفي يمقت الغموض والأسرار ، ويكرس حياته لتبديدها) . ولا ينتبه الناس في أغلب الأحيان إلى هذا الجانب من طبيعته بالرغم من أنه يقول في كتاب « التصوف والمنطق» : « لقد شعر أعظم الفلاسفة بالحاجة إلى العلم والتصوف على حد سواء» .

***

الفصل السادس

نظرية التعريف بالوصف

يجب علي الآن أن أنتقل، وفي طريقي كثير من الشكوك والمخاوف ، إلى نظرية المعرفة بالوصف عند راسل. وهنا تبرز لنا مرة أخرى صعوبة مروعة عند شرح هذه النظرية في أي كتاب مكتوب من أجل القارىء العام، نظراً لأنها، أساساً، على درجة بالغة من السهولة واليسر. وكانت أول صياغة صاغها راسل لهذه النظرية ـ شأنها في ذلك شأن النتائج المترتبة عليها ـ متخصصة وعسيرة للغاية . ولكن أي شرح مبسط لها قد يجعلها تبدو أوضح من أن تثير العناية أو الاهتمام. وبالرغم من هذا، فإنه يجب ألا يتنصل الإنسان من أن يحاول أن يقول شيئاً بصدد نظريته في المعرفة بالوصف . وهناك اتفاق عام على أن هذه النظرية هي أهم إضافة أسهم بها راسل في ميدان الفلسفة . ولم يكن هذا رأي راسل وحده ، فقد شاركه فيه حكام أكفاء مثل ج . ا . مور وفيتجنشتين . وذكر مور في هذا الصدد : « لقد كانت نظرية المعرفة بالوصف شيئاً جديداً للغاية . إنها أعظم اكتشاف فلسفي قام به راسل . أهم من أي شيء آخر قاله فيا بعد . فهو عمله المجدد الأصيل الذي لم يتأثر فيه بأي إنسان آخر على الإطلاق.

وعندما يتساءل القارىء المتلهف إلى إجابة ، والذي يستثار اهتمامه بهذه الطريقة ، عن ماهية هذا الاكتشاف العظيم، فلا مناص من أنه سوف يجد الاجابة مخيبة للآمال بعض الشيء في بادىء الأمر . إذ يجب أن يقال له إن نظرية المعرفة بالوصف نشأت إلى حد ما بمثابة رد على الفيلسوف النمساوي مينونج الذي شغل باله كثيراً بحكم بعض الأشياء التي ليس لها وجود. ولنفرض مثلاً أنك تقول : « الجبل الذهبي ليس له وجود » ، أو « المربع المستدير ليس له وجود » فهذه العبارات ليست صادقة فحسب ، ولكنها مفيدة كذلك ، إذ يمكن استخدام العبارة الأولى في إعطاء مكتشف رومانسي ، تضلله الأساطير والخرافات ، حقيقة واقعية عن العالم . أما العبارة الثانية ، فيمكن أن يستخدمها معلم في تصحيح آراء أحد تلاميذه الخاطئة بصدد علم الهندسة ، أو على أية حال ، بصدد التعريفات المستعملة في علم الهندسة . ويحق لنا الآن أن

نتساءل : هل من الممكن أن تتوفر لدينا عبارات صادقة وتنطوي على معنى بصدد لا شيء ؟ قد نجادل أن كلتا الجملتين تعادلان قولنا : « شيء هو لا شيء » ليس له وجود . « ويبدو بكل تأكيد أن الجبل الذهبي شبه جملة عن شيء هو لا شيء » . وهذا هو الحال مع المربع المستدير ولكن ، طبقاً لهذا الرأي ، فإن هاتين الجملتين ببساطة تتطابقان في حين أن الأمر ليس كذلك بكل تأكيد . فإحداهما تخبرنا شيئاً عن الجبال الذهبية في حين أن الأخرى تخبرنا شيئاً عن المربعات المستديرة . ويبدو أنه لا بد أن تكون الجبال الذهبية والمربعات المستديرة موجودة بمعنى ما ، وإلا لما استطعنا أن نتحدث عنها .

وكانت هذه المشكلة التي أثارت اهتمام مينونج، الذي قرر أن أشياء مثل الجبال الذهبية والمربعات المستديرة، حتى إذا لم يكن لها وجود في الواقع، فلا بد من أنها موجودة بشكل ما، وإن كان وجودها يختلف في طريقته عن وجود الأشياء العادية مثل الموائد والكراسي. وإذا كان لمثل هذه الأشياء وجود، فقد تعين على مينونج أن يجد لها مكاناً يضعها فيه. ولهذا خلق مينونج مجالاً كاملاً من هذه الظلال.

ولكن راسل ثار في وجه هذا المذهب . وأوضح أنه بدلاً من أن نقول « إن الجبل الذهبي ليس له وجود » ، فإننا نستطيع أن نقول : « ليس هناك شيء موجود يمكن أن يكون ذهبياً وجبلاً » . ويستبعد أي « تحليل » من هذا النوع الجبل الذهبي من الجملة ، كما أنه يستبعد أي سبب للاعتقاد بأن له أي نوع من الوجود . وهذه ، بطبيعة الحال ، بداية نظرية راسل في المعرفة بالوصف مصاغة في قالب أبسط مما ينبغي . ولكني أعتقد أنها البداية الأساسية .

وأظن أنه يحق تماماً للرجل غير المتخصص في الفلسفة أن يفقد السيطرة على جماح غضبه عند هذه المرحلة . فقد منى نفسه أن يجد شيئاً هاماً ، فإذا به يكتشف أن الموضوع لا يعدو أن أحد الفلاسفة أظهر لفيلسوف آخر أنه ليس بحاجة إلى أن يتحدث لغواً عن أشياء ليس لها وجود . لقد تمكن راسل من أن يجد حلاً للغز محير ولكن من الجائز أنه قد ترك الرجل العادي عاجزاً تماماً عن فهم السبب الذي يحدو بأي إنسان أن يشغل باله بالتفكير في هذا اللغز المحير أصلاً .

وقد يبدو ، بحسب الظاهر ، أن كل ما فعله راسل ليس إلا ضرباً من التلاعب الواضح بعض الشيء بالألفاظ . ومن ثم فقد يشعر الرجل الذكي غير المتخصص في الفلسفة أن شكوكه بصدد عدم جدوى الفلسفة لها ما يؤكدها إلى أقصى الحدود .

ولكن أول شيء نستطيع إبرازه لمثل هذا الرجل هو أن كل تقدم فكري عظيم يتسم عادة

بهذه الخاصية من الوضوح ولكن بعد أن يصل إليه الإنسان فعلاً . فعندما أسقط جاليليو أثقاله المختلفة من برج بيزا المائل ، فإنه لم يفعل أكثر مما يستطيع أي طفل أن يفعله . وبالرغم من ذلك ، فقد تألب ضد جاليليو كل الحكماء في زمنه . ولنأخذ مثالاً عصرياً أقل رسوخاً من هذا . إن هناك اليوم إجماعاً على قبول فكرة كينز الأساسية بصدد نظرية العمالة ـ التي تتلخص في إنكار قانون ساي ـ لدرجة أنه من العسير أن نتصور كيف يمكن لأي إنسان أن يعن له أن يختلف بشأنها . وبالرغم من هذا ، فقد تضور ملايين من الناس جوعاً منذ ما يقل عن خمسة وعشرين عاماً ، لأن علماء الاقتصاد الأكاديميين وخبراء وزارة الخزانة عن بكرة أبيهم تقريباً فشلوا في أن يروا ما فيها من صحة .

ويجب علينا أن نذكر ، فيما يتعلق بنظرية المعرفة بالوصف عند راسل ، حقيقة تاريخية مفادها أنه حتى إذا لم تكن هذه النظرية قد أثارت العداوة ضدها ، فإنها ، على أقل تقدير ، سببت بلبلة تامة بصدد ما كان راسل يتحدث عنه ، وبصدد السر فيما علقه عليها من أهمية . وقد عرض راسل هذه النظرية في مقال له بعنوان « في التبيين » ، نشره لأول مرة في عام ١٩٠٥ في مجلة « العقل » كبرى المجلات الفلسفية البريطانية . رأى البروفيسور ستاوت محرر « العقل » ، في المقال سيئاً . وليس من شك في أنه كان سيرفضها لو أنها جاءته من فيلسوف شاب مغمور . ولكن مكانة راسل الدولية في ذلك الوقت كانت قد بلغت شأواً من شأنه أن يدفع الناشرين إلى قبول ما يكتبه دون أدنى تردد . وعندما نشر المقال في آخر الأمر ، لم يستطع أحد ـ على حد تعبير ج . ا. مور «أن يفهم حرفاً واحداً مما جاء فيها». وأخبرني مور بنفسه أنه لم يفهم نظرية المعرفة بالوصف مطلقاً «إلا بعد أن تناولها راسل بصورة أوضح في مقدمة المبادىء الرياضية».

ومن السهل والمغري الآن أن نذهب إلى القول بأن الفلاسفة الذين فشلوا في فهم راسل ـ شأنهم في ذلك شأن علماء الإقتصاد الذين سبقوا كينز ـ كانوا ببساطة من الحمقى . غير أن من الجلي أن من الخطأ أن نذهب هذا المذهب . ويجدر بنا أن نبحث عن تفسير أكثر أهمية يتجاوز مجرد الصعوبة والغموض اللذين يصاحبان في أغلب الأحيان أول صياغة لأية فكرة جديدة .

والسبب الذي يجعل التقدم الفكري العظيم يثير في أغلب الأحيان إعتراضاً عنيفاً في بادىء الأمر رغم أنه يبدو واضحاً جلياً فيما بعد ، يرجع إلى أن هذا التقدم لا يتحدى تفكير كل إنسان في ذلك الوقت ، بل يتحدى الأفكار التي يعتنقها الناس دون أدنى تفكير من جانبهم لدرجة أنهم لا يتنبهون إلى أنهم يعتنقونها . ويتمثل الجهد العسير إلى أقصى حد في الخروج بهذه المعتقدات من دائرة اللاوعي إلى دائرة الوعي . وإذا تم هذا ، فقد يكون رد الفعل المباشر هو الاحساس بالتضايق الذي تشوبه الحيرة والبلبلة من جراء إقدام بعض الناس على تحديها ، ولكن ما يترتب

على ذلك سهل نسبياً فمن الأسهل بكثير ، على سبيل المثال ، أن يعتقد المرء أن الأرض كروية من أن يعتقد أنها مسطحة إذا عن له أن يفكر في هذا الأمر على الاطلاق. فالاعتقاد بأن الأرض مسطحة ينطوي على حشد من المشكلات التي ليس لها حل ، مثل : ما الذي يمنع الأرض من السقوط في الفضاء ؟ هل الأرض لا نهائية أم أن الإنسان يسقطمنها إذا وصل إلى حافتها ؟ كيف يمكن للشمس والقمر بعد اختفائهما في الغرب ـ أن يغوصا تحت الأرض ليظهرا من جديد في الشرق ؟ وكانت الخطوة الأساسية هي تلك التي خطاها أول إنسان عنَّ له أن يشك في الحقيقة الواضحة في مظهرها وهي أن الأرض مسطحة ، ثم تلت هذا فكرة كروية الأرض باعتبارها أمراً طبيعياً . والمفكر العظيم رجل يعرب عن تشككه في شيء يبدو على درجة من الوضوح من شأنها أن تجعل كل إنسان يسلم به . وقد كان راسل فيلسوفاً عظيماً لأنه كان يتمتع بتلك المقدرة .

وتمثل نظرية المعرفة بالوصف تقدماً أساسياً من حيث أنها أوضحت بجلاء خطأ بعض المعتقدات التي يفترض الناس صحتها الجلية دون أدنى تفكير من جانبهم فيها . ويتلخص الزيف الذي كشفه راسل في افتراض أن أي لفظ لا بد أن يمثل شيئاً ، وأن الألفاظ تعني شيئاً شبيهاً بما تعبر عنه . لقد كان شيئاً طبيعياً أن يذهب الناس فيما مضى إلى أن تركيب النحو والصرف في جملة هو نفس تركيبها المنطقي . وافترض المفكرون أمثال مينونج أن أية جملة عن الجبال الذهبية تقول شيئاً عن الجبال الذهبية، ولهذا، فإن مثل هذه الجبال الذهبية لا بد أن يكون لها وجود، وإلا لما أمكن التحدث عنها. وأثبت تحليل راسل خطأ هذا الزعم، كما أنه أشار كذلك إلى أنه من الجائز أن هناك وسائل عديدة أخرى يمكن للألفاظ وأشكال الجمل أن تضللنا بها.

ولنفرض أننا نقول شيئاً عن ونستون تشرشل . لقد كان تشرشل في أوقات مختلفة من حياته رضيعاً يرتفع صوته بالصراخ ، وتلميذاً في مدرسة هارو وضابطاً صغيراً مزهواً بنفسه ، وفناناً وبناء يضع قوالب الطوب جنباً إلى جنب ، وسياسياً حزبياً ، وواحداً من الساسة العظماء في العالم . وتصف نفس كلمة تشرشل كل هؤلاء الأفراد المختلفين . وبالرغم من هذا فإن الرضيع المسمى تشرشل كان شخصاً مختلفاً للغاية عن السياسي البالغ من العمر ثمانين عاماً المسمى بنفس هذا الاسم . ومن المحتمل ألا يكون بين الفردين ذرة واحدة مشتركة تربط بين جسديهما . لقد كان هناك شيء مشترك ، أو بعض العلاقة بين تشرشل الرضيع وتشرشل السياسي الكبير السن . ولست أريد الآن أن أدخل في تساؤل ميتافيزيقي معقد عن ماهية هذه العلاقة . ولكن من الواضح هنا إذا التزمنا جانب الإدراك العام أن أي شخص إنما يرتكب خطأ جلياً إذا ظن أن كلمة تشرشل غير المتغيرة تمثل شخصاً غير متغير .

وآمن راسل أننا نرتكب بصفة متكررة أخطاء مشابهة أقل من هذا المثل وضوحاً بصدد

بعض الألفاظ الأخرى ظناً منا أنه لا بد لكل كلمة أن تشير إلى شيء ثابت ومادي نظراً لأنها ثابتة ومحددة .

وأشهر مثال على ذلك هو مذهب « المادة » القديم . فقد نصف مائدة بأنها مصنوعة من الخشب وأنها ثقيلة وداكنة ولامعة الخ . . . وافترض النـاس أن هنـاك شيئـاً من المادة له هذه الخواص المختلفة . ولكن راسل تشكك فيما بعد في صحة هذا الرأي - وعندما نريد أن نشرح ماهية هذا الشيء المصنوع من الخشب والثقيل والداكن واللامع ، فإننا في كل مرة نستخدم كلمة «مائدة» الأمر الذي يخدعنا مفضياً بنا إلى التفكير في وجـود شيء من المادة الدائمـة وراء هذه الخواص ، حتى إذا لم يكن لهذا الشيء وجود . وكانت هذه ، كما سنرى ، النتيجة التي توصل إليها راسل في عام ١٩١٤ وضمنها كتابه « معرفتنا بالعالم الخارجي » . وبعـد انقضـاء بضـع سنوات نراه يستخدم نفس هذا الأسلوب في التشكك في قول « ديكارت » : « إنني أفكر ، إذن فأنا موجود » ، كما يتشكك في المفهوم الشائع لمعنى كلمة « أنا » . ولقد كتب راسل يقول : « إننا حين نفترض أن الأفكار تحتاج إلى مفكر فيها ، فإننا نقع فريسة لتضليل نحو اللغة التي نتحدث بها (أو بمعنى أدق فريسة التراكيب اللغوية) .

وسوف نعالج هذه القضايا بتفصيل أوسع في الفصول التالية ، ولكننا ذكرنـا ما يكفـي لتوضيح أن نظرية المعرفة بالوصف، التي تبدو للوهلة الأولى مجرد تلاعب يستهدف التعبير عن نفس الشيء بألفاظ مختلفة ، يمكن أن تكون نقطة انطلاق إلى ثورة شاملة تعتري نظرتنا إلى طبيعة الكون . ولعل راسل لخص رأيه أحسن تلخيص عندما قال : « لا تترك نحو اللغة وصرفها يملي ما يشاء على الأنطولوجيا وبعبارة أخرى : لا تتركهما يتحكمان في آرائنا بصدد ما هو كائن . واقترنت نظرية المعرفة بالوصف بشرح دقيق لما نسميه بالوجود وتفنيد للدليل « الأنطولوجي » الخاص بوجود الله . ودعمت هذه النظرية اعتراض راسل على منطق المحمول والموضوع ، كما كانت لها أهميتها فيما يتعلق بنظرية المعرفة أو ذلك الفرع من الفلسفة الذي يتناول كيفية اكتساب الإنسان للمعرفة . وقام راسل بالتمييز بين ما نعرفه مباشرة عن طريق « التعرف* » وما نعرفه معرفة غير مباشرة عن طريق « التعريف بالوصف » .

وقد يبدو غريباً ، في بادىء الأمر ، أن كل هذا يتمخض عن اكتشاف استخدام الألفاظ استخداماً خاطئاً . ولكن عندما نذكر أن كل تفكيرنا تقريباً ،وأغلب اتصالاتنا الفكرية تتم عن طريق الألفاظ ، فإن الدهشة لا تعترينا إلى هذا الحد . ولذلك فإنه إذا أسيء استخدامها ، فليس هناك أمل في أن تكون أفكارنا صحيحة .

---

* Acquaintance

صحيح أن النتائج الأولى التي تمخضت عنها نظرية المعرفة بالوصف كانت سلبية ، فقد بينت هذه النظرية كيف تورط بعض الفلاسفة السابقين في الخطأ عندما استخلصوا استدلالاتهم الزائفة من الألفاظ وطبقوها على الحقيقة . ولكن راسل استطاع مرة أخرى أن يستخدم هذه الوسائل السلبية للوصول إلى نتائج إيجابية ، لأنه ظل يحتفظ بنفس الافتراض أن اللغة تعطينا نوعاً من الصورة عن عالم الواقع ، إذا نحن تجنبنا الإستدلالات الزائفة . ولنفكر في جملة مثل : « القط/ يوجد على/ الحصيرة » . تحتوي هذه الجملة على اسمين وفعل وحرف جر تعبر جميعاً عن علاقة معينة ، كما أنها تعطينا وصفاً صحيحاً لشيئين هما قط وحصيرة تربط بينهما علاقة معينة . وهناك ناحية واحدة فقط تكون فيها عبارة « القط يوجد على الحصيرة » مضللة قليلاً . فالكلمتان « توجد على» تبدوان ماديتين، شأنهما في ذلك شأن كلمتي « القط والحصيرة » . ولكن كلمتي « توجد على » تمثلان علاقة ، في حين أن الكلمتين الآخريين تمثلان أشياء مادية . وستعطينا اللغة صورة أفضل للواقع إذا نحن كتبنا العبارة ببساطة على النحو التالي :

« القط»

« الحصيرة »

وقد آمن راسل لفترة من الوقت أننا إذا لاحظنا بحرص منذ البداية جميع هذه الطرق التي يمكن للألفاظ أن تضللنا بها وأن توحي لنا بالافتراضات الزائفة ، فإننا نستطيع عندئذ أن نتعلم الشيء الكثير عن طبيعة الواقع من الألفاظ التي نستخدمها في وصفها . بل أنه تحدث عن فكرة لغة كاملة تعكس الواقع بصورة تامة ولكننا نعرض لهذه القضية فيما بعد .

الفصل السابع

الاشتغال بعرض الكتب والمقالات والسياسة

في المراحل الأخيرة من كتابه «مبادىء الرياضيات» ، خرج راسل عن القاعدة التي انتهجها لنفسه ، وهي «ألاّ يفرط في شيء أبدا ، بما في ذلك انغماسه في العمل» ، فنبذ جدول أعماله المنتظم المحدد ،وأجهد نفسه في العمل المضني إلى الحد الذي جعله يذكر للبروفيسور ليتل وود ، عالم الرياضيات بجامعة كامبريدج أنّ «مبادىء الرياضيات» استنفد من كيانه ما يجعله يعتقد أحياناً أنه لن يصبح نفس الشخص أبداً .

وبلغ ما بذله راسل من جهود ذهنية في وضع هذا الكتاب من الضخامة مبلغاً يجعل المرء يميل إلى الافتراض بأنه لم يجد لديه متسعاً من الوقت لأن يفعل أي شيء آخر ذا بال بين عامي ١٩٠٠ و ١٩١٠ . ولكن واقع الأمر يشير إلى أنه ظل خلال هذه الفترة يمارس ما اعتاد عليه من تدبيج المقالات الفلسفية المتناثرة وعرض الكتب والمقالات التي نجدها منشورة في مجلة «العقل» فضلاً عن إصدار مطبوعات متخصصة مماثلة . ويبدو أن محرر مجلة العقل، كان، كلما تلقى مقالاً فلسفياً مكتوباً باللغة الألمانية او الفرنسية أو الايطالية يعجز عن فهمه الآخرون، يبادر بإرساله إلى راسل كإجراء طبيعي. وكان راسل دائماً يبادر بالاستجابة إلى طلب المحرر فيبعث إليه بتقييم له يجمع بين السرعة والإتقان.

ويجب أن نذكر في هذا الصدد أن راسل كان في أغلب الأحيان ناقداً قاسياً لا يرحم ، وخاصة في مبدأ عهده بالاشتغال بعرض الكتب والمقالات . وكان أسلوبه في النقد شبيهاً بأسلوب جراح يقف على منضدة العمليات. وكان تشريحه الدقيق الخالي من العاطفة مدمراً في بعض الأحيان لمختلف المؤلفين الذين كان النسيان سيطويهم في غياهبه إلى الأبد لو أنه لم يذكرهم فيما كتب .

ولعله ، على سبيل المثال ، كان من الأهون على المؤلف سيء الحظ أدموند جوبلوت الذي

كتب « مقال في تصنيف العلوم » أن يتحمل سيلاً من السباب والنقد من أن يواجه تلخيص راسل القاسي لعمله بلهجة من يقرر أمراً واقعاً : « يبدو أن المقال يتمتع بقليل من المزايا » * . وتلقى الدكتور يوليوس سكولتز مؤلف « علم النفس والبديهيات » من راسل إدانة بالغة القسوة لهذا العمل مثل قوله ، « إن ملاحظاته عن علم الهندسة لا تعدو أن تكون خليطاً من الزيف المنطقي والتخبط التاريخي والأخطاء الرياضية » . وقوله « إن الموضوع نفسه يدعو إلى الالتباس بين المنطق وعلم النفس ، ولا يفعل المؤلف شيئاً لتبديد هذا اللبس » .

وإنه لمن العسير علينا أن نوفق بين مثل هذا النقد وبين قدرة راسل الهائلة على الشفقة الإنسانية التي كانت تمتد حتى تشمل بعض الحمقى من الفلاسفة ، كما أنه من العسير علينا أن نوفق بينها وبين العون الكبير الذي كان دائماً على استعداد لتقديمه بسخاء وكرم إلى تلاميذه . وكما وصفه سانتيانا « كان راسل تجسيداً للكرم نفسه في معاملة أكثر الناس من الناحية الفكرية تفاهة وهواناً في الشأن ومدعاة لليأس » .

ولو أن راسل سئل عن مبرر لقسوته ، فإنه من المحتمل أن يجيب بقوله : إن الضرورة تقتضي منا أن نقول الصدق بشأن أي كتاب دون أدنى مهادنة ، وإن كل شيء بعد ذلك يجيء في المرتبة الثانية . ولعل بياتريس وب قد أعطتنا أصدق وصف لهذا الجانب من شخصية راسل عندما كتبت تقول : « إن شخصيته لا تعرف المهادنة أو التخفيف من وطأة ما يشنه من هجوم ، كما أنها لا تعرف الدوافع المتعددة المختلطة واعتلال البدن والعقل ، والعبارات المتحفظة ، والمشاعر غير الأكيدة ؛ فكل هذا يبدو وكأنه لا معرفة له به . فأية قضية ، في نظره ، إما صادقة أو كاذبة ، وأية شخصية إما طيبة أو شريرة ، كما أن أي شخص إما محب أو حقود ، وهو إما صادق أو كاذب » .

ولكن فكاهته في تلك الأعوام بل حتى بقية حياته كانت أحياناً جارحة بلا مسوغ . وفي اعتقادي أن راسل ، شأنه في ذلك شأن آخرين كثيرين ممن يتميزون بالشعور والحس المرهفين ، قد كون لنفسه في فترة من حياته ، كشرط ضروري للبقاء ، طبقة سطحية جلدية سميكة حتى تقيه من الرضوض والقبح ومآسي الحياة الانسانية . وهذا نفسه ما حدث لشو ، الذي كان في بدء

---

* يعطينا عرض راسل لهذا البحث مثالا جليا على حافظته القوية . فقد نشر راسل هذا العرض في عام ١٨٩٨ ، عندما كان في السادسة والعشرين من عمره . وقد اختصصت هذا العرض بالذكر في هذا المقام نظرا لأنه محدود الذيوع والانتشار، وليس من المحتمل أن يكون أحد قد أشار إليه منذ ظهوره. وعندما قرأت هذه الفقرة في مسودتها على راسل بصوت مرتفع في عام ١٩٥٥ وهو في الثالثة والثمانين ، احتج على الفور بأن الفقرة المقتطفة مبتورة ناقصة ، ثم ردد من الذاكرة الفقرة كما وردت في الأصل تقريبا. «يبدو أن العمل يتمتع بمزايا قليلة، اللهم إلا ذكر ما اعتمد عليه من مصادر بأمانة غير عادية». وفي ص ٤٣ مثلا تأكيد بأن المعرفة تمنح الإنسان أسباب القوة والسلطان، مع إشارة إلى ما ورد على لسان المسيو اجار في هذا الصدد على أنه قول سابق يمهد لحكمة مسيو جوبلوت الجديدة الغالية .

حياته في مثل خجل راسل وعصبيته تقريباً. ولكن راسل لم يصل مطلقاً إلى ما وصل إليه شو من استخدام لاذع الكلم .

وهناك تفسير آخر مفاده أن دعابة راسل كانت من النوع الفائر الجياش الذي غالباً ما يحمل صاحبه على الاسترسال فيها دون تفكير . ويمكننا أن نذهب إلى أن راسل لم يتفوه مطلقاً بقول جارح إلاّ على سبيل المزاح . وراسل ، شأنه في ذلك شأن إحدى شخصيات اوسكار وايلد التي كانت تستطيع أن تقاوم كل شيء إلاّ الإغراء ، كان في استطاعته أن يقاوم كل شيء إلاّ النكتة . وللفلاسفة ذوي التفكير البطيء بعض العذر عندما يجأرون بالشكوى من أنه يغير مجرى هجومهم عليه عن طريق إطلاق وهج مدمر من النكتة ، كلما لاح أنهم قد استطاعوا أن يمسكوا بتلابيبه أثناء المناقشة ، تماماً كما كان من عادة ونستون تشرشل الالتجاء إلى النكتة الصاخبة كلما وجد نفسه في مركز بالغ الدقة في مجلس العموم .

وحتى في خلال الأعوام التي قضاها راسل في تأليف « مبادىء الرياضيات» وجد لديه بعض الوقت للاشتغال بالسياسة ، فانضم إلى جماعة للمناقشة معروفة باسم « جماعة الأكفاء» . ويرجع السبب في هذه التسمية إلى أن الأمل كان يحدو أعضاء الجماعة إلى إظهار كفاءتهم المشتركة . وكان هـ . ج . ويلز عضواً آخر في هذه الجماعة . ودفعت الدعوة إلى حماية التجارة راسل إلى أن يكتب ويتحدث مدافعاً بكل جوارحه عن التجارة الحرة . وفي عام ١٩٠٧ رشح نفسه لانتخابات البرلمان .

وكان هناك انتخاب فرعي في دائرة ويمبلدون التي بدت لقمة سائغة في أفواه حزب المحافظين . وشعر مرشح الأحرار (الليبرالي) ، بعد أن أصبح عملة ، أنه ينبغي عليه أن يمتنع عن الاشتراك في السياسة الحزبية . ووافق راسل على ترشيح نفسه عن «الاتحاد القومي لجمعيات حصول المرأة على حقوقها الانتخابية» . وكانت في تلك الفترة هيئتان تدعوان إلى حصول المرأة على حقوقها الانتخابية . وأكد راسل أنه يمثل الهيئة النسائية التي تؤمن باستخدام الوسائل الدستورية دون سواها .

وأظهر راسل في هذا الصدد ، مثلما أظهر في معظم المسائل السياسية ، مقتاً للتطرف . فعندما ذكرت سيدة تدافع في عنف عن حقوق المرأة « أن الجنون يشيع في نصف كل رجل» ، وافقها على ذلك ، ولكنه أضاف قائلاً : أنه يشيع في « نصفه الحلو» .

وفي ويمبلدون شرح راسل أنه يمثل مبادىء الديمقراطية والحرية والعدالة التي تعنى جميعها باعطاء المرأة حقها الانتخابي . وطبقاً لما أوردته إحدى الصحف بشأن إحدى الخطب التي

ألقاها ، كان راسل يؤيد حكومة الأحرار (الليبرالية) في شتى المسائل باستثناء موقفها من حقوق المرأة الانتخابية . قالت هذه الصحيفة : « لقد كان ليبرالياً وظل ليبرالياً طيلة حياته» . ويمثل الايمان بالتجارة الحرة أهم جانب في السياسة الليبرالية .

وبالرغم من أن راسل لم يكن مرشحاً رسمياً عن حزب الأحرار الليبرالي فقد نعم من زعيم هذا الحزب بعطفه الشخصي وتمنياته الطيبة . وكان منافسه هنري شابلن أحد زعماء المحافظين حينذاك .

ولعل في قول راسل « إن مسألة إعطاء المرأة حق التصويت وإن لم تكن أهم موضوع على الاطلاق، فإنها تكاد تكون أهم مسألة تواجه البلاد في الوقت الحاضر» دلالة على ما وصل إليه الجو السياسي في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى من سكينة. وبالرغم من أن هذه المشاكل السياسية المثارة حينذاك قد تبدو أقل خطورة من المشكلات الراهنة، فإن عامة الناس كانت تولي المنازعات السياسية قدراً أكبر مما توليه الآن من اهتمام.

وكانت الحملات الانتخابية حينذاك تستخدم الخطابة من المنصات العامة بدلاً من عرض البرامج التليفزيونية الهادئة . وعندما عقد راسل أول اجتماع له تعـدت عصابـة من المشاغبـين التهويس عليه وإرغامه على الصمت معظم الوقت . وحاول منافسوه أن يسخروا من الدعوة إلى حصول المرأة على حقوقها ، وذلك بإطلاق سراح فأرين كبيرين بين المستمعين بينما كانت إحدى السيدات المؤيدات له، تلقى خطابها بغية دفعهن إلى التصاريح والصراخ . ووصفـت جريدة التيمز الحادث بقولها : « حدث هرج ومرج حتى تم الاجهاز على الفأرين» . ولكن الخطة باءت بالفشل كما ذكرت الجريدة المحلية : ويمبلدون بوروانيوز ، فبدلاً من أن يثيرا الذعر في نفـوس المدافعات عن حقوق المرأة الانتخابية ، أظهر الفأران المرتاعـان قدراً أكبـر من الادراك والتمييز عندما اتجها نحو مجموعـة صغـيرة من الرجـال أمـام منصـة الخطابـة ، فلاح عليهـم شيء من الاضطراب عند رؤية الفأرين غير المرغوب فيهما . وأمكن التخلص من الفأرين بعد مطـاردة قصيرة ، وعاد إلى الرجال هدوؤهم الطبيعي مرة أخرى .

ويجب الاعتراف بأن صحيفة ويمبلون بوارنيوز لم تكن تلتزم الحيدة تماماً . فقد كانت تقف بجانب راسل تؤيده بكل ما أوتيت من قوة وقدرة على السبـاب الفاضـح الـذي كان يميز الحياة السياسية في ذلك الوقت . ويكفي للدلالة على ذلك أن نسوق بعض عناوينها البارزة : « بعض الأوغاد الجبناء يطلقون سراح الفئران في ويربل هول» ، و « السفلة والسوقة يصرخون حتى تبح أصواتهم» و « خطب السيدات البارعة تستحوذ على قلوب المستمعين» و « هجوم يشنـه بعض

السفلة على مسز راسل في رنيس بارك» . ووصفت الصحيفة هذه الحادثة الأخيرة على النحو التالي :

« ارتكبت فضيحة حقيرة اخرى في مساء يوم الثلاثاء ، عندما ألقيت بيضة على مسز راسل - السيدة الجذابة التي كانت تشترك اشتراكاً حياً في حملة زوجها الانتخابية - وهي تستقل مركبتها التي انطلقت مبتعدة عن مكان الاجتماع في رينيس بارك . وأصابتها القذيفة غير البهيجة بين عينيها مباشرة ، وسببت لها ألماً ممضاً . وسرعان ما ظهر ورم كبير في مكان القذيفة . وقد قوبلت بالاشمئزاز العظيم وحشية هؤلاء البرابرة الذين يبدو أنه ليس لهم مكان حتى بين وحوش جنوب أفريقيا» .

وفي نهاية الأمر ، فاز شابلن على راسل بحصوله على ١٠٢٦٣ صوتاً مقابل ٣٢٩٧ صوتاً .

وفي مايو ١٩١٠ ، بعد أن كاد راسل أن يفرغ من تأليف «مبادىء الرياضيات» بذل محاولة أكثر جدية لانتخابه عضواً في البرلمان على أساس أنه مرشح رسمي لحزب الأحرار (الليبرالي) . وليس هناك أدل على أن توقع الحرب أو التفكير فيها لم يخطر على بال الكثيرين من أن راسل لم يشر في خطابه الذي ألقاه بمناسبة ترشيحه الى السياسة الخارجية . وهاجم راسل حق مجلس اللوردات في الاعتراض على التشريعات ، ودافع عن فكرة فرض الضرائب على قيمة الأراضي ، كما دافع عن التجارة الحرة وحقوق المرأة الانتخابية . وبدا نجاحه في الانتخاب أكيداً لولا أن لجنة الدائرة الانتخابية المحلية اكتشفت أنه ممن يعتنقون مذهب اللا أدرية . وعندما رفض راسل أن يتردد على الكنيسة حفاظاً من جانبه على المظاهر ، تم ترشيح شخص آخر لعضوية البرلمان وفاز في الانتخاب .

وإنه لمما يثير الاهتمام أن نتأمل العواقب التاريخية المحتملة التي كانت ستنجم عن اشتراك راسل في الحياة العامة في هذه المرحلة لو أنه انضم الى حزب الأحرار الممثل في البرلمان بزعامة اسكويث كرئيس لوزراة تضم ونستون تشرشل ولويد جورج وهولدان وهربرت صامويل وجون مورلي . وإني شخصياً أتفق في الرأي مع تشارلس تريفيليان على أن « شخصية راسل ترفض الحلول الوسطى إلى الحد الذي يمنعه من النجاح كرجل سياسي» .

وفي أثناء الأزمة الدستورية عام ١٩١١ ، وقعت حادثة تقل في أهميتها عن الحادثة السابقة حين كان مجلس اللوردات يعوق الاصلاحات التي كانت حكومة الأحرار بصدد إصدارها . فقد اقترح البعض منح عدد جديد كان من الأحرار لقب لورد للتأكد من حصولهم على أغلبية في مجلس العموم واللوردات . وعندما تقدم بعضهم باقتراح لمنح راسل لقب لورد رد بأنه يفضل لنفسه لقب

هزلي هو اللورد سنوكس . وعندما أثار هذا الرد الدهشة ، احتج راسل بقوله : « إنني كنت أظن أن الحكومة تريد أن تظهر مجلس اللوردات بمظهر مضحك إلى أقصى حد ممكن» .

والرأي عندي أن راسل يذهب أحيانا ، بسبب جموح شخصيته ، إلى أنه ليست هناك صلة تربط بين آرائه في الفلسفة وآرائه في السياسة . وكان راسل مغرماً بأن يبين أنه يقترب في آرائه الفلسفية أشد الاقتراب من هيوم الحافظ. ولكني أعتقد أن هناك صلة واضحة تماماً بين آراء راسل في الفلسفة وغيرها من الآراء . وكانت إحدى نتائج فلسفته أنه أوضح أن كثيراً من المشكلات الفلسفية التي كان من المظنون فيما مضى أنه يمكن الوصول إلى حل لها عن طريق المنطق ، يمكن الفصل فيها عن طريق المزاج الفردي وحده . وكان من الطبيعي أن المزاج الذي يفضي بصاحبه إلى نتائج معينة في الفلسفة من شأنه أن يفضي إلى نتائج موازية لها في السياسة .

ومن الطبيعي ، بادىء ذي بدء ، أن نجد فيلسوفاً محللاً يرفض الواحدية مثل راسل يدافع عن الفرد في وجه الدولة ، في حين أن هيجل فعل العكس (وبالنظر إلى ما أسهمت به الفلسفة الهيجيلية في خلق الفاشية والشيوعية فإن الاطاحة بهذه الفلسفة في كل من بريطانيا وأمريكا تنطوي على أهمية تتجاوز ما لها من أهمية أكاديمية) .

وتميل عقلية راسل الفلسفية بكليتها الى محاولة استبعاد المنهج القبلي وتأكيد المنهج التجريبي ويتميز تفكيره السياسي بنفس هذا الاتجاه على الرغم من أنه يستخدم أحياناً كلمات مجردة مثل « العدل* » . ومن المستحيل تماماً أن نفهم السبب فيما ظهر على آراء راسل من تقلبات كثيرة إلاّ إذا أدركنا أن معالجته للمسائل السياسية كانت في العادة تجريبية وعملية تنهض على ما يوفره الموقف من أدلة وليس عن مبادىء وأفكار مسبقة قبلية . وقد كان هذا مشروعاً تماماً بل مدعاة للثناء في عالم تتقلب أحواله من لحظة إلى أخرى، وتتقلب ظروفه المتغيرة كفتي الميزان في أية حجة على الدوام.

ويمكن أن يؤدي الإخفاق في فهم هذه القضية كذلك إلى إحساس بخيبة الأمل لا مبرر لها فيما يتصل ببعض كتابات راسل السياسية . وقد يزعم البعض بأن مهمة راسل تقتضي منه حل كل مشكلة عن طريق اختراع مذهب فلسفي أو ايديولوجية أو نظرية منمقة يدعي أنها تمثل الحقيقة الخالدة . ولكن بداية الحكمة السياسية أن تدرك أنه ليس لمثل هذه النظريات أي وجود.

ومع ذلك فيجب أن أذكر في هذا المقام غرابة ظاهرة يتسم بها راسل . ففي حين أنه يعترف في بشاشة بكل ما طرأ على تفكيره الفلسفي من تغيرات ، فإنه يميل الى النظر إلى أية إشارة إلى ما طرأ

---

* وهذا أيضاً يسير الفهم ، لأن العدل والتحرر الموضوعي من التحيز هما المقابلان الإجتماعيان والسياسيان للبحث عن العموميات الذي يتميز به العالم الرياضي العظيم ، والتي نجد لها أمثلة في صفحات كتابية « مبادىء الرياضة » و « مبادىء الرياضيات » .

على تفكيره السياسي من تغير على أنه نقد شخصي موجه إليه ، بالرغم من أن هذه التغيرات التي أصابت فكره السياسي لها ما يبررها أكثر من التغيرات التي أصابت أفكاره الأخرى . وأعتقد أن السبب في هذا يرجع إلى أنه تعمد استبعاد أية اعتبارات أخلاقية أو عملية من مناقشاته التي تتصف بالتشدد الفكري للمشاكل الفلسفية . وذهب راسل - مصيباً فيما يرى - إلى أن الذين يعترضون على تغير الفيلسوف وتطوره أنما يخلطون بين الفلسفة وبين أصولها النابعة من اللاهوت فيعتقدون أن النظرية الفلسفية ينبغي أن تتصف بجمود العقيدة اللاهوتية وتحجرها . وانصب الجانب الملتهب العاطفة من طبيعته ، الذي لم يجد متنفساً في عمله المتخصص ، في المشاكل السياسية والأجتماعية . ولم يتبن الدفاع عن أية قضية سياسية مطلقاً إلاّ إذا حرك مشاعره من الأعماق ، الرعب من العذاب الإنساني المروع الذي يرى أنه ليس له مسوغ أو ضرورة ، أو حركها تصميم على محاربة الحماقة التي كانت سبباً في وجود هذا العذاب . وكان انسجامه الفلسفي الواضح ينهض من مبدأه الى منتهاه على ما اتبعه من منهج ، وما وضع نصب عينيه من غرض ، شأنه في ذلك شأن الصانع المبدع الذي يجد أقصى درجات الفخر فيما تبدعه يداه . . . وكان انسجامه السياسي ينهض أساساً على إحساسه العارم الضاري بالشفقة الإنسانية . وكان يشترك في أحداث السياسة بروح حامل العلم الذي يتصدر الجيش وهو ينوي الدفاع عنه في وجه جميع الهجمات .

ومهما كانت النتائج التي توصل إليها راسل بشأن أية مشكلة سياسية محددة ، فإنه كان دائماً قادراً على التفكير في وجهتي نظرها المتعارضتين ثم استعراضهما استعراضاً محايداً. وتنطبق هذه العادة في رؤية جانبي أية مشكلة على راسل كفيلسوف بمثل ما تنطبق عليه كمفكر سياسي . وقد أسماه هوايتهد ذات مرة بديالوج سقراطي في حد ذاته .

ومن المحتمل أن يصطدم من يحاول استقصاء التطور الذي طرأ على آراء راسل السياسية ببضعة ألغاز رغم أنني لا أرى أن لهذه الألغاز أية أهمية نظراً للأسباب التي أبديتها . لقد شب راسل وترعرع كليبرالي ثم تأثر بعائلة سيدني ويب فالتحق بالجمعية الفابية (الذي لم يكن الالتحاق بها في تلك الأيام يقتضي الانفصال عن حزب الأحرار الليبرالي) . وظل راسل لبعض الوقت مناصراً للاستعمار يؤيد حرب البوير . ولكنه في أوائل ١٩٠١ ، كما قال في أحد أحاديثه الإذاعية : « دخلت في تجربة لا تختلف عما يسميه الناس المتدينون الولادة الجديدة . . . ففي غضون بضعة دقائق غيرت آرائي الخاصة بحرب البوير وقسوة النظام التعليمي وقسوة قانون العقوبات وروح التقاتل التي تشوب العلاقات الشخصية» . ومنذ ذلك الحين نجد أن نظرة راسل السياسية لم تسع أبداً إلى اتخاذ نفس الموقف المبتعد الذي يتجلى في المحاضرات التي ألقاها في شبابه عن الاشتراكية الألمانية .

وترجع ولادة راسل الجديدة في عام ١٩٠١ إلى أنه أصبح : « يدرك فجأة وبصورة حية الوحشة التي يعيش فيها معظم الناس ، ويرغب رغبة متأججة في إيجاد الوسائل التي تخفف من حدة هذه الوحدة المأساوية» . وانعكست آثار هذا الشعور ، على المستوى الشخصي في مقال له بعنوان : « عبادة الانسان الحر» لعله أفضل ما كتب راسل من مقالات على الاطلاق . وكل ما سوف أذكره بشأن هذا المقال هو أن أقترح على القارىء ضرورة شراء كتاب « التصوف والمنطق» الذي يضم هذا المقال فيقرؤه في إحدى طبعاته المعادة ، حتى يكتشف من بين ما يكتشف أن بعض معتقدات راسل لها ما لنصوص العهد الجديد في الكتاب المقدس من رنين .

وانفصل راسل عن جماعة الفابيين نظراً لتحمسه المفرط للتجارة الحرة . وكان راسل من ناحية السياسة الخارجية يعارض أي اتفاق مع فرنسا وروسيا ضد ألمانية . وقد سمع أول دفاع عن هذا الاتفاق من السير إدوارد جراي لأول مرة في اجتماع عقدته جماعة « الأكفاء المشتركة» في عام ١٩٠٢ . ورغم هذا ، وصف راسل نفسه في انتخابات ويمبلدون الفرعية بأنه يؤيد كل السياسة التي تنتهجها حكومة الأحرار . وهناك دليل آخر على أنه كان ، فيما يبدو ، يؤيد سياسة جراي الخارجية .

وفي نوفمبر عام ١٩١١ كان ليونارد وولف قد عاد لتوه من سيلان وجاء إلى كامبريدج ليمكث فيها مع ج . أ . مور . ويذكر وولف بصورة حية عن هذه الزيارة إحدى المناسبات التي زار فيها راسل وسانجر معاً مور واحتدمت فيما بينهما مناقشة حول سياسة جراي الخارجية . وكان سانجر يعارضها بشدة ومرارة في حين أن راسل كان يقف منها موقع المدافع .

وفي عام ١٩٥٦ فسر لي راسل هذه الحادثة بأنه كان يؤيد سياسة جراي الخارجية لا لشيء إلاّ لأنه لم يكن يدرك حقيقة شخصيته في ذلك الوقت، فقد كان جراي يدمن الكذب لاخفاء مدى ارتباط بريطانيا بفرنسا. وقال راسل: «لقد كنت أظن أنه إنسان شريف نسبياً، وأنه كان يتحرى وجه الصدق عندما يلقي بياناً في البرلمان».

الفصل الثامن

حياة هادئة

نستطيع ، فيما أظن أن نذهب إلى أن عام ١٩٠١ ، حين أصبح راسل يدرك « فجأة وبصورة حية الوحشة التي يعيش فيها الناس » ، كان إيذاناً كذلك ببداية تغير طرأ على آرائه في الزواج . وانتهى به الأمر تدريجياً ، في غضون عدة سنوات ، إلى الإيمان بالحب الطليق ، لا يحد انطلاقه شيء سوى إنجاب الأطفال .

وتزوج راسل في حياته أربع مرات . وكانت له صداقات أخرى أبعد ما تكون عن الحب الأفلاطوني . ولن يكشف هذا الكتاب النقاب عن هذه العلاقات . ذلك أني لا أعتقد أن العلاقات الخاصة بين أي رجل وامرأة تهم أي شخص عداهما . فيجب أن يترك الأمر لراسل وحده ليروي قصة هذا الجانب من حياته ، وهو جانب مهم . وإنه لمن المهم كذلك معرفة الحقائق المجردة ، واستبعاد الأقاويل والشائعات الشريرة . ولكني أزمع أن أقصر جهدي على تلخيص موجز للحقائق التي يستطيع أي إنسان في يومنا الراهن ، أو أي مؤرخ في المستقبل ، أن يعثر عليها فيما تنقله الصحف من إجراءات الطلاق المتنوعة ، وفي المذكرات وكتب السيرة وفي كتابات راسل نفسها . وقد كان راسل يكتب من وقت لآخر ، مقالات عديدة عن الزواج والأخلاق الخاصة بالجنس . وسأناقش ، فيما بعد آراءه التي يتضمنها كتابه « الزواج والأخلاق » المنشور في عام ١٩٢٩ ، وهو أكمل بحث له يتناول هذا الموضوع .

لاحظت بياتريس ويب ، منذ مايو ١٩٠٢ ، أن « العلاقة بين راسل وزوجته الأولى ليست على ما يرام » . وسجلت مفكرتها في العام التالي أن « علاقتهما يشوبها انتفاء التلقائية والتزمت المفجع » . ويبدو أن سرعة بديهة راسل ودعابته لم تتمشيا مع نظرة إليس الجادة التي تميز طائفة الإصلاح (الكويكرز) ، فقد كانت تخاطب الناس بأسلوب المنتمين إلى هذه الطائفة الذي يتم عن الإحترام المفرط ، كما أنها كانت تشغل نفسها بعمل الخير . وعرف عنها أنها

كانت ، عند دخولها في أية حجرة استقبال ، تبحث عن أبعث شخص فيها على الملل ، يحرص كل الناس على تجنبه فتتحدث إليه .

وبما أننا لسنا أطرافاً في هذه المشكلة الشخصية ، فلسنا بحاجة سوى أن نذكر الأثر الناجم عن قرار راسل القاطع الحاسم المميز لشخصيته الذي يتلخص في أنه رأى أنه من الأفضل ، في نهاية الأمر ، أن ينفصل عن زوجته نهائياً من أن يتظاهر بالسعادة الزوجية التقليدية التي ليس لها وجود . لقد كان دائماً أرستقراطي المزاج من الصعب إرضاؤه . ولكن الوشائج التي كانت تربطه بطبقته ونظرة هذه الطبقة إلى الحياة بدأت تتقطع بسبب إقدامه على الطلاق أولاً ، ثم لما كان يقوم به ، فيما بعد ، من دعاية للسلام خلال الحرب العالمية الأولى . ونجم عن ذلك سعيه إلى عقد صداقات مع أناس متمردين على التقاليد يدينون بأفكار كانت تعتبر حينذاك أفكاراً عصرية .

ولقد كان من العسير للغاية أن تساعده سمعة أخيه السيئة . فقد تحول فرانك راسل إلى البوذية أثناء الطلب في جامعة أكسفورد ، فطردته كلية باليول . وتزوج فرانك ثلاث مرات ، وزج به في السجن لاحتفاظه بزوجتين في وقت واحد (بسبب نقطة قانونية تتعلق بشرعية طلاق أصدرته المحاكم الأمريكية) . وكانت الشائعات تشير إليه باسم « الإيرل الشرير » . وطبقاً لما يذكره صديقه سانتيانا ، إنه أوشك على الإفلاس بسبب المنازعات في المحاكم وما تكبدته أعماله التجارية من خسائر . واستمر يعيش على مصدر للرزق غير مضمون تدره عليه إدارته لعدد مختلف من الشركات غير المستقرة . ولهذا فقد كان من الطبيعي أن يميل الناس إلى النظر إلى راسل وأخيه على أنهما شاذان بعض الشيء ، ولا يستحقان غير القليل من الإحترام » .

ولكن هذا كله سابق للأحداث . فانفصال راسل عن إليس لم يتم إلا في عام ١٩١١ ، ولم يتم طلاقه منها قبل عام ١٩٢١ . ويجدر بنا أن نسجل ، لزوجة راسل الأولى بالعرفان دينا يطوق عنق الأجيال القادمة ، ذلك أنه قام بتأليف الكتاب الذي يعتبر عادةً أحسن مؤلفاته في خلال الفترة التي كان يعيش معها تحت سقف واحد . فقد كانت زوجته توفر له الضرورات الخارجية اللازمة للتفكير الخلاق ، مثل توفير حجرة مكتب في بيت منتظم الإدارة حيث يستطيع أن يعمل دون انقطاع .

وقد كتب راسل ذات مرة « إن الحياة الهادئة تميز سيرة العظماء . وليست ملذاتهم من النوع الذي يبدو مثيراً لغيرهم . ولا يمكن ، تحقيق أي عمل عظيم إلا بالجهد العسير المثابر الذي يستنفد كل وقت المرء وانتباهه إلى الحد الذي لا يترك وراءه سوى طاقة ضئيلة لا تسمح له بالانصراف إلى أنواع اللهو والتسلية المجهدة . وينطبق هذا إلى حد ما على راسل نفسه . فقد كان ، على سبيل المثال ، مغرماً بالرقص ، ولكنه أقلع عنه عندما رحل إلى الريف ليدرس الرياضيات . وكان لا

يتقن الألعاب الرياضية . وبالرغم من أنه كان يلعب قليلاً من (التنس) ، فقد قال : « إن الشخص الوحيد الذي كنت أستطيع أن أهزمه هو الفيلسوف ماك تاجارت » .

وفي يونيو ١٩٠٢ ، بعد أن انتهى من وضع « مبادىء الرياضيات » كتب راسل إلى بياتريس وب من كامبريدج حيث كان يقيم مع عائلة هوايتهد :

« إن فصل مايو الدراسي في كامبريدج عبارة عن حلقة متصلة لا تنتهي من الحفلات الإجتماعية . ولكني أضيق ذرعاً بهذه الحفلات المقامة في الحدائق والحفلات الراقصة ، وما شابهها من لغو وعبث .

« وإني أذهب إلى الكلية في معظم الأحيان ، وأجلس في الحديقة المخصصة لأساتذة الكلية حتى وقت متأخر ، حيث أرقب الغسق الآفل من خلال أشجار الصفصاف . ومنذ أن انتهيت من تأليف كتابي ، كرست نفسي لما يمكن أن نسميه الصحة العقلية ، ووصلت إلى نتائج طيبة في هذا الشأن . ولم أقم بأي عمل طوال الأسبوعين الأخيرين ، اللهم إلا قراءات مخطوط في الرياضيات كتبه هوايتهد . ولكني كنت أقضي كل أيامي خارج البيت ، أستمتع بدفء الصيف العائد . »

ولكن يجب أن نذكر أن فكرة راسل المعتادة عن قضاء إجازة غير مجهدة كانت تعني السير من النمسا إلى ايطاليا ، أو الإنضمام إلى جماعة للقراءة تزور منطقة ليك دستريكت ، حيث كان باستطاعته أن يمزج العمل بتسلق الجبال والسباحة .

كان روبرت تريفيليان متزوجاً من فتاة هولندية جذابة استطاعت رغم انقضاء سنوات عديدة ، أن تذكر الأيام القليلة التي اشتركت خلالها مع زوجها وراسل في القيام بجولة للتنزه في منطقة ويست كنتري . واكتشفت مسز اليزابيث تريفيليان ، التي لم تألف عادة الشبان الإنجليز الغريبة حينذاك ، وقد ملأ الرعب قلبها ، أن رفيقيها يتوقعان منها أن تسير ما لا يقل عن خمسة عشر أو عشرين ميلاً في اليوم . ومما زاد الأمر سوءاً أن راسل كان يتحدث في الفلسفة طيلة الوقت ، بدلاً من أن ينظر إلى الأشياء في دعة ويظهر إعجابه بالمناظر الطبيعية . وشرحت مسز تريفيليان الموقف فيما بعد شرحا معقولاً فقالت : « إنني لا أستطيع أن أسير وأتفلسف في نفس الوقت ، فإنه يتعين علي الجلوس حتى أتمكن من التفكير في الفلسفة » . وكانت مسز تريفيليان ، على سبيل الاسترخاء ، تقرأ رواية « ميدلماوش » ل « جورج اليوت » بصوت مرتفع إلى راسل وزوجها « تريفيليان » . واستمرت هذه السيدة في السير بشجاعة واستبسال مدة ثلاثة أيام . ولكنها نبذت السير في اليوم الأخير واستقلت إحدى المركبات .

كان راسل دائماً أنيقاً نظيفاً في ملبسه تكاد ألا تعلق بملابسه ذرة واحدة من الغبار . وكان يلبس بنيقة منشاه بيضاء مصقولة لامعة تزيد في ارتفاعها عن أية بنيقة أخرى . وبلغ ارتفاعها إلى الحد الذي جعل ذقنه تبدو وكأنها تغوص فيها . ووافق راسل خلال جولة التنزه أن يلبس بنيقة رخوة أثناء النهار . ولكنه كان لا يزال يعنى باستبدالها ببنيقة عالية أثناء الليل حتى إذا كان نزيلاً من أقصى الحانات الصغيرة وأبعدها عن العمران .

(ومرت مسز تريفليان ، التي تجيد للغاية العزف على الكمان بتجربة مربكة عندما قابلت ج . ا . مور لأول مرة . فقد كان مور مغرماً جداً بالعزف على البيانو . وطلب منها مور أن تعزف معه بعض السوناتات . وكان لديه إحساس قوى بالإيقاع ، وشغف لا يقهر جعله يبدو أحياناً وكأنه قد نسي الدور الذي تلعبه الكمان تماماً) .

وكان راسل مغرماً بركوب الدراجات كما كان مغرماً بالمشي . وفي ١٩٠٢ وقعت له حادثة دراجة في لندن كادت تودي بحياته . فقد انحشر بين عربة خفيفة يجرها حصان وعربة أخرى ثقيلة . وبسرعة خطر له أن يصطدم بالعربة الثقيلة حتى ترده بعيداً عنها ، فيسقط تحت العربة الخفيفة التي مرت عليه دون أن تلحق به أذى خطيراً .

كانت جوازات السفر في تلك الأيام غير معروفة ، وكان الرجل المثقف حينذاك يتنقل بحرية ويشعر بالإلفة سواء في إنجلترا أو في أوربا . وشملت أسفار راسل زيارات قام بها لفلورنسا ليمكث فيها مع برنارد بيرنسون الذي صحبه على دراجة في رحلات للتجوال في الريف المحيط بها . وذكر بيرنسون ، فيما بعد ، أن راسل كان « يتغنى أحياناً بالرياضيات في طريقة شاعرة ومتصوفة جعلتني أنصت إليه في نشوة فاغر الفم » . وكان بيرينسون أقل نجاحاً منه في إثارة أي اهتمام متبادل بأعمال فن الرسم فهو لا يذكر سوى مناسبة واحدة أظهر فيها راسل تقديراً للجمال المنظور . كانا خارجين من فيلا بيرنسون المسماة « ي تاتى » في اتجاه التلال . وأشار بيرنسون إلى الجمال الواضح في النظام العفوي لبعض الحصى وقطع الخشب الملقاة إلى جانب الطريق . فتحركت من الأعماق مشاعر راسل برهة وقال : « ولكن هذا تصوف كامل غير منقوص » .

وهناك شواهد أخرى تدل على أن راسل كان أكثر حساسية في تقديره للمشاهد المنظورة مما كان بيرنسون يعتقد ، ولكن الفنون السمعية كانت تستهويه أكثر من الفنون المنظورة ، وخاصة الشعراء الغنائيون . وكان باستطاعته أن يعيد تلاوة نصوص كاملة من شعر شيلي أو سوناتات شكسبير أو من شعراء آخرين كثيرين كما كان يحمل لبليك عاطفة متأججة .

ولم يكن ذلك العصر عصراً ذهبياً للمفكرين الإنجليز فيما يتعلق بالأسفار التي يقومون بها في البلاد الأجنبية فحسب ، بل إنه كان أيضاً عصراً يتمتع أهله بالدخول الكافية والدعة والفراغ المستفيضين . وكما سجلت بياتريس وب عن نفسها وزوجها سيدني في مذكراتها عندما ذهبت لقضاء أسبوع في بيتشى هيد مع جماعة تضم جراهام والاس وبرنارد شو وتشارلس تريفيليان وهربرت صامويل :

« يا لنا من أناس محظوظين . يتوفر لنا الحب والعمل والأصدقاء وصحة البدن كما يتوفر لنا الإستمتاع بالعطلات كلما شعرنا بالحاجة إليها ! فيا لها من حياة مثالية ! »

وليس في استطاعة الأجيال اللاحقة أن تظفر بغير بعض النظرات العابرة إلى هذه الحياة كما تصورها الذكريات المتناثرة التي تسجل إقامة عائلة راسل المشتركة مع عائلة وب ، وعائلة شو لفترات طويلة في بيوت الريف الحلوة ، وقد انصرفوا جميعاً في الصباح كل إلى عمله . ولكنهم كانوا يكرسون فترة ما بعد الظهر للمشي وتبادل الأحاديث . وهناك ذكريات عن راسل وهو يرقب شو مأخوذا أثناء انصرافه إلى تأليف إحدى مسرحياته وهو يدون أسماء شخصياته على قطع مربعة من الورق يحركها في تخطيط ومناورة على رقعة شطرنج حتى يذكر نفسه أي أبطاله يجب أن يكون معتلياً خشبة المسرح في ذلك الوقت . وكان شو في مناسبة أخرى يتعلم ركوب الدراجات ، فارتطمت دراجته بدراجة راسل وحطمتها . وكان هـ . ج . ويلز يقوم بزيارتهم بصفة متكررة . وأذهل ويلز راسل بقوله إنه بالرغم من إيمانه بالحب الطليق ، فإنه لا ينوي أن يجهر بهذا الرأي حتى يدخر قدراً كافياً من المال من حقوق النشر يمكنه من أن يعيش على ريعه . وكانت هناك نكات لا تنتهي حول الحياة النباتية التي تحياها بياتريس وب وتساؤل عما إذا كانت هذه الحياة النباتية قد هذبت طبائعها أم لا .

كانت مسز وب تتبع في عناية نظماً في التغذية ، أولها نظام فرض عليها أن تقصر طعامها اليومي على رطل واحد بالتمام والكمال - ٤ أوقيات في الفطور ، و٦ أوقيات في الغداء ، و ٦ أوقيات في العشاء . وأصبح هذا النظام أشد إحكاماً وأكثر تشدداً ، لا يسمح لها إلا بتناول أوقيتين بالضبط من الخبز تأكلهما مع بيضة واحدة في وجبة الفطور وهكذا دواليك . وذات مرة أخبرت راسل أن امتناعها عن تناول الطعام جعلها أكثر روحانية كما جعلها ترى رؤى بديعة . فأجابها راسل بقوله : « نعم . إذا أكلت أقل مما ينبغي فإنك ترين الرؤى ، أما إذا شربت أكثر مما ينبغي ، فإنك تشاهدين الثعابين » .

وكان سيدنى - بعقليته الجادة - يضيق أحياناً بدعابة راسل وفكاهته . فقد قال راسل ذات مرة إن للديموقراطية ميزة واحدة على أقل تقدير تتلخص في أن نائب البرلمان في ظلها لا يمكن أن

يكون أكثر غباوة من ناخبيه، لأنه كلما ازداوت غباوته، ازدادت غباوة الذين يقومون بانتخابه. واستقبل وب هذه الملحوظة التي يتميز بها أسلوب راسل في الحديث بجدية تامة وحنق ظاهر.

ويمكن لنا أن نصف أية ملحوظة يبديها راسل بأنها شيء شبيه بالنكتة التي يطلقها ج . ب . شو . ولكن دعابة راسل كانت تفوق بكثير دعابة شو في دقتها ونعومتها ، كما كانت ، اللهم إلا في الحالات التي ينغمس فيها في السخرية الرقيقة ، تقوم على الإستنتاج المنطقي من الحقائق . وقد قال جين نيكور ، الفيلسوف الرياضي الفرنسي ، إن ملاحظات راسل كانت تتصف بتلك الصفة الباعثة على الضحك الخفيف الناجمة عن كونها مستمدة من الحقيقة . وكان شو يحب أن يقف على رأسه في حين أن راسل كان يحب أن « يتشقلب » ليستقر في الموضع الصحيح مرة أخرى . وذكر راسل ذات مرة ، في واقع الأمر ، أنه كان من عادته أن يجد متعة في « الشقلبة » بمعناها الحر في صباه .

وكان جلبرت مرى عضواً آخر في الجماعة . ويذكر مرى أن راسل كان يشرب عدداً من أقداح الشاي يصل إلى الأربعة في المرة الواحدة وهو يمسك بالقدح بكلتا يديه لتدفئتهما . واشتهر راسل بين أصدقائه بهذه العادة لدرجة أن ج . م . تريفيليان ، الذي أحضر خطيبته في إحدى المناسبات لتأخذ الشاي معهم لأول مرة ، لم يتمالك نفسه فصاح قائلاً : « أنظري يا جانيت . إنه يفعلها . »

ويذكر جلبرت مرى كذلك أن برقية وردت أثناء انشغال راسل بلعب التنس تعلن أن أخاه فرانك في ورطة من الورطات التي اعتاد أن يقع فيها ، وأنه بحاجة لمن يدفع له الكفالة المطلوبة . فقال : « تباً له . دعنا ننتظر حتى نفرغ من الشوط . »

وفي الأعوام اللاحقة، أخذ مرى يقارن بين جماعتهم وبين شلي وجودوين ودائرتهما ، فقد كانوا جميعاً يتصفون بنفس التشكك والإيمان بالمذهب العقلاني ، كما كانوا يذهبون إلى نفس الرأي الذي يفترض خطل العادات القديمة والتقاليد الماضية .

وتوثقت معرفة مرى (الذي تزوج من إحدى بنات عم راسل) براسل لأول مرة عندما حضر إلى كامبريدج ليقرأ بصوت مرتفع ترجمته لـ« هيبوليتس » . وابتهج راسل بهذه الترجمة وتوجه بعد ذلك إلى مرى ليسأله إذا كان في إمكانه أن يقترض نسخة من هذه الترجمة . ثم أصبح الإثنان صديقين حميمين .وكانت هذه الصداقة سبباً من الأسباب التي دعت راسل وزوجته إلى الانتقال في عام ١٩٠٥ إلى باجلى وود الواقعة على مشارف أكسفورد حتى يستطيعا رؤية المزيد من عائلة مرى .

ولعل السبب الآخر الذي جذب راسل إلى أكسفورد هو أنه كان يأمل في الاستمتاع

بالمناقشة مع الفلاسفة « المثاليين » الموجودين هناك . ويصعب أحياناً أن نذكر البطء الشديد في تقبل الناس لأفكار راسل ومور الجديدة . ويذكر البروفيسور براند بلانشارد من ييل ، الذي التحق بأكسفورد كطالب في عام ١٩١٣ ، أن الفلسفة المثالية كانت حينذاك « مزدهرة للغاية يصل وهجها الوضاء الرفيع إلى درجة تطمس معها أي شيء آخر في سماء الفكر . . . » وكانت شخصية برادلي العظيمة « التي كبرت الآن حتى اكتسبت أبعاداً أسطورية » تحلق فوق مسرح الفكر في أكسفورد . وكانت أكسفورد دون منازع « عاصمة بريطانيا الفلسفية » . ويبدو مثل هذا القول مذهلاً إذا استرجعنا النظر إلى الموقف ، كما أنه ليس من المبالغة أن نقول إن ذلك كان شعور معظم الناس في ذلك الوقت . ولكن أكسفورد كانت بالنسبة لراسل قلعة معادية يتلذذ بالهجوم عليها .

وكان راسل ، بوجه خاص ، يحمل كراهية مشبوبة لـ ج . ا . سميث من كلية باليول بأكسفورد . وهو فيلسوف يتبع المثالية الهيجيلية . وذات مرة بعد أن قال سميث « إن الحقيقة تتكون من أفكار في عقل المطلق » سأله راسل « هل يعني هذا أنه إذا توقف المطلق عن التفكير في شعر رأس فإن الصلع سيصيبها ؟ » وأجاب سميث بصوت رجل أذهلته الصدمة : « إنني أشعر أن الملاحظة التي أبداها مستر راسل تهدف إلى السخرية من قول صادر عن مؤسس الدين الذي نعتنقه ، وهو دين يكن له بعضنا التبجيل والقداسة ، وفي أحضانه شببنا جميعاً وترعرعنا » .

أما راسل فقد استقر رأيه على أن سميث « دعي ومنافق » . وذكر راسل ، فيما بعد ، ملاحظة تتفق مع ما عرف عن شخصيته بشأن هذا الرجل : « إنه كان يفسد الشباب زاعماً أنه يقوم أخلاقهم ، وذلك بتلقينهم الايمان بأشياء لا نصيب لها من الصحة . وأملي أن يتلظى في النار » .

وكان جلبرت مرى وراسل ذات مرة يتجادلان بشأن أحد الأساتذة في أكسفورد الذي امتدحه مرى . أما راسل فكان متطرفاً يرفض أن يسمع كلمة ثناء واحدة عليه . وذكر مرى كيف أن هذا الأستاذ يتمتع بموهبة التغلغل في عقول تلاميذ مما جعلهم يشعرون بأهمية أفكارهم « فقال راسل على الفور : « إنك تعني أنه يخبرهم الأكاذيب حتى يجعلهم يحبونه » .

وكان من عادة راسل كذلك أن يتجادل مع شيلر من كلية كوربوس : فيلسوف البراجماتية البريطاني الرائد . ورغم أنهما كانا يتفقان في نقد فلسفة أكسفورد المثالية ، فإن راسل كان ينتقد البراجماتية كذلك ، التي وصفها ذات مرة بأنها الفلسفة التي تؤمن بأن الحقيقة في جانب القوة . ويذكر طالب شاب سمع ما احتدم بين راسل وشيلر من جدال ما كان بين الإثنين من تناقض صارخ . فقد كان المفروض في فلسفة شيلر أنها إنسانية . ولكن شيلر أثناء الجدال كان متزمتاً قاطعاً وجافاً ، في حين أن فلسفة راسل كان المفروض فيها أنها باردة ومنطقية . ولكن راسل أثناء الجدال كان يشيع بالدفء والإنسانية .

وانتهى راسل باتخاذ موقف من أكسفورد يقوم على الإحتقار المرح الذي يميز أحياناً أهل كامبريدج . وفي حالة راسل نراه يؤكد الأسلوب الذي اعتادته أكسفورد في إهمال دراسة العلوم . وهو يذكر في مزاح كيف أنه قيل له بنوع من الفخر ، عند زيارته لأكسفورد أول مرة ، إن جامعة أكسفورد أصبحت تضم الآن قسماً للعلوم يتكون من محاضر واحد معه فانوس سحرى وشرائح زجاجية توضح صور مشاهير العلماء . كما كان من عادته أن يقول أن روجر بيكون قام بتجربة ذات مرة ، فزج به في السجن مدة أربعة عشر عاماً . ومنذ ذلك الوقت لم يقم أحد بأية تجربة أخرى في أكسفورد .

ويقول راسل إن الرجل الوحيد الذي وجده في أكسفورد قادراً على فهم المنطق الرياضي هوج . ح . بيرى (الذي ورد ذكره في « مبادىء الرياضيات ») ، وهو كاتب مغمور في بودليان لم يكن له أي نصيب من التقدير الأكاديمي في الجامعة . وراق بيرى في عين راسل عندما عرفه بنفسه حاملاً إليه لغزاً منطقياً مكتوباً في نظام وأناقة . فقد طرق هذا الرجل باب راسل وسلمه ورقة كتب عليها « إن البيان الموجود على الصفحة الأخرى زائف » . وعندئذ قلب راسل الصفحة فوجد مكتوباً على الصفحة المقابلة « إن البيان الموجود على الصفحة الأخرى زائفاً . »

وكان أحد عدادات الغاز في ذلك الوقت التي تشوه منظر أكسفورد من ناحية الجنوب ، مصدراً للشكوى . ولكن راسل دافع عنه على أساس « أنه الشيء الوحيد في أكسفورد الذي يقصد به إعطاء النور . »

وكانت دعابته أثناء الجدال تضفي أيضاً حيوية على اجتماعات الجمعية الأرسطية في لندن . فعندما هاجم راسل كانط بعنفه المعتاد ذات مرة قال شخص سليم الطوية استمراراً للهجوم الذي شنه راسل : « لقد كان كانط باراً بأمه . وعندما يطوي النسيان فلسفته ، سيذكر التاريخ ذلك . » فأجابه راسل على الفور : « إنني لا أستطيع أن أقبل الإفتراض الهازل بأن بر المرء بأمه أكثر ندرة من القدرة الفلسفية العظيمة التي يملكها كانط . »

وفي خلال فترة رئاسته للجمعية الأرسطية حلق راسل شاربه الذي كان في لون « الموستاردة » ، والذي كان أحد معالمه المميزة لصوره الفوتوغرافية المبكرة . وكان التغير الذي طرأ على مظهره عظيماً إلى الحد الذي جعل الناس جميعاً لا يتعرفون عليه في بادىء الأمر أثناء اجتماع الجمعية التالي . وذكر راسل أنه اكتشف لأول مرة عندما أزال شاربه بالمقص والموسى أن له فماً ساخراً وأن هذا الاكتشاف قد غير شخصيته تماماً . ومع ذلك فقد لا يعدو هذا القول أن يكون إحدى ملحوظات راسل الهازلة المتفكهة .

ويقال ان إزالة شاربه ترجع إلى رغبة الليدي أوتولين موريل الذي ذاع فيما بعد صيت بيتها

الريفي في جارسنجتون الواقع على بعد بضعة أميال فقطمن أكسفورد . ومن المحتمل ألا ينساها الناس بسبب صداقتها الوطيدة براسل أساساً . ولكنها كانت في حد ذاتها امرأة متميزة يجب أن يرد ذكرها في أي سجل يؤرخ لهذه الفترة . فضلاً عن أنها سيدة في مثل أرستقراطية راسل . فهي أخت دوق بورتلاند غير الشقيقة . كانت قامتها الطويلة تربو على ستة أقدام يكسو رأسها شعر أسمر ينبض بالحياة . وكانت تجد لذة في ارتداء الثياب الصارخة وتلفت الأنظار إليها حيثما حلت . وبعد أن قابلها سانتيانا وصفها بأنها « مخلوق مدهش قامتها طويلة للغاية ، ونحيفة للغاية تصنع حاشية ردائها من الحرير الأزرق . »

وذاعت سمعتها في الولع بارتداء الثياب الغريبة ، والسلوك غير المتفق مع العرف السائد حتى بلغت أبعاداً أسطورية بسبب ما نشر من قصص مستفيضة حولها لم يكن لها سند من الصحة في أغلب الأحيان . ولكنها كانت سيدة واسعة الإطلاع ، تولي الفنون تقديرها . كما كانت عبقريتها الحقيقية تكمن في اكتشاف المواهب وتشجيعها ، تستضيف في بيتها أكثر الناس تنوعاً واختلافاً وأكثرهم إثارةً للتفكير وأبعثهم على الإهتمام . وهو دور تفوقت في آدائه في بيتها في جارسنجتون خلال الحرب العالمية الأولى كما سنرى فيما بعد .

ووقعت حادثة لراسل خلال الفترة التي كان يعيش فيها على مقربة من أكسفورد . وهذه الحادثة تميز شخصيته إلى الحد الذي لا يمكن تغافله . فقد كان هناك عامل زراعي فقير ـ زاد إدمان الشراب حالته سوءاً ـ يمر بجوار منزل رجل منفر يعيش في المنطقة المجاورة له . وكتب هذا العامل الفقير على سور البيت عبارة تتضمن قذفاً في صاحبه . وقدم العامل للمحاكمة وحكم عليه بالحبس إذا لم يدفع الغرامة الموقعة عليه . ولم يكن الرجل يملك المال اللازم لدفع هذه الغرامة كما كان معنى الزج به في السجن فقدان وظيفته ، والتحاق زوجته الحامل بأحد الملاجىء . واكتشف راسل كل هذه الأمور ودافع عن هذا العامل في الوقت الذي تخلى فيه جميع الناس عنه . وقابل راسل المدعي وهو خارج لتوه من الكنيسة في يوم الأحد وناشده أن يفرج عن العامل . فرفض الرجل قائلاً بلغة حماة الفضيلة : إنه يجب إنزال العقاب بالمذنبين ، الأمر الذي أسخط راسل سخطاً عنيفاً على هذا الضرب من الإدعاء المسيحي للشفقة وجعله يدفع بنفسه الغرامة الموقعة على العامل .



الفصل التاسع

كامبريدج وهارفارد

في أكتوبر من عام ١٩١٠ عاد راسل إلى كلية ترينيتي كمحاضر في المنطق ومبادىء الرياضيات (بمكافأة قدرها مئتان وعشرة جنيهات في السنة.) وكانت الفصول التي يدرسها ضئيلة في عدد طلبتها ، ولكنها تميزت بالتفوق. ولم يتجاوز عدد الذين تلقوا دورة محاضراته في المنطق الرياضي ثلاثة طلبة فقط هم س .د. برود الفيلسوف، وأ. هـ . نيفيل عالم الرياضة وهـ . ت .ج نورتون الذي سبق ج. ب.س. هولدين في أبحاثه عن تطبيق الرياضيات على مشكلة الوراثة. وتمكن راسل بسبب قلة عدد تلاميذه أن يتباهى بقوله : «إن مائة في المائة من تلاميذي يحصلون على منح دراسية».

وكان ج.م. كينز يحاضر أيضا في كامبريدج في ذلك الوقت . وترك هوايتهد كامبريدج في نفس العام الذي عاد فيه راسل إليها. ولكن ج. ا . مور عاد إليها كمحاضر في العام التالي . وبوصول لودويج فيتجنشتين اكتملت جماعة فلاسفة كامبريدج التي قدر لها أن تسود الفكر الفلسفي لعدة أعوام قادمة.

كان فيتجنشتين شابا نمساويا غنيا التحق بجامعة مانشستر كطالب أبحاث في الهندسة، فتنه علم الطيران الجديد المليء بالمغامرة. وأجرى تجاربه على طائرات مصنوعة من الورق. ثم قرر أنه من العبث أن يقوم بتصميم طائرة دون أن يصمم قبل ذلك محركا لها، وهو الأمر الذي انتهى به بعد ذلك إلى التفكير في تصميم محرك. ولكن ذلك اقتضى منه الوصول إلى الصيغة الرياضية الصحيحة . وفي أثناء بحثه عن هذه الصيغة ، استهوته الرياضة إلى الحد الذي جعله ينسى كل شيء عن المحرك. وسأل فيتجنشتين عن رجل ملم بأسس الرياضة حتى يستطيع الرجوع إليه ، فذكر عليه المحيطون به اسم راسل. وهكذا ذهب فيتجنشتين إلى كامبريدج لحضور محاضرات راسل وتلقى العلم على يديه.

وفي السنوات التي أعقبت ذلك ، وصف س .د. برود شخصية فيتجنشتين ، فقال: «إنه عبقري يوحي ـ لأول وهلة ـ بكل مظاهر الدجال» . وكان راسل في بادىء الأمر يظن ان فيتجنشتين قد يكون مهووسا . ومما يدل على ذلك مثلا ان فيتجنشتين عنّ له ذات يوم أن يعبر عن نظرية غريبة مفادها أن كل القضايا التي تؤكد أو تنكر الوجود لا معنى لها . فطرح عليه راسل قضية فحواها : «ليست هناك فرس بحر في هذه الحجرة في الوقت الراهن » . ثم شرع يبحث تحت كل الأدراج في قاعة المحاضرات دون أن يعثر على أثر له . ولكن هذا لم يفلح في إقناع فيتجنشتين .

وحضر فيتجنشتين كذلك المحاضرات التي كان مور يلقيها . وسأل راسل زميله مور عن رأيه في فيتجنشتين، فأجاب مور بأنه يكن له الإحترام الشديد . وعندما سأل راسل عن السبب، رد عليه مور بإجابته التقليدية : «لأنه الشخص الوحيد الذي تظهر عليه دلائل الحيرة أثناء محاضراتي» . . . وقد كان من عادة فيتجنشتين أن «يقطب جبينه» تقطيبا ينم عن استغراقه في التفكير وعلى اختلافه في الرأي في أغلب الأحيان .

وفي نهاية الفصل الدراسي الأول في كامبريدج، طلب فيتجنشتين من راسل أن يصارحه برأيه فيه ، فيقول له إذا كان مصابا بالبلاهة التامة ، لأنه قرر أن يهجر الفلسفة إذا كان الأمر كذلك ، ويقفل راجعا إلى دراسة الطيران . وطلب إليه راسل ان يكتب مقالا في موضوع فلسفي . وبعد أن قرأ راسل أول جملة في هذا المقال، أكد لفيتجنشتين ضرورة استمراره في دراسة الفلسفة .

ولا تترك رسائل فيتجنشتين أدنى شك في فضل راسل عليه وتشجيعه له . وكان من عادة مور (الذي كان يقطن في كلية ترينيتي في الجانب الآخر من نيفلز كورت) أن يتطلع إلى حجرة راسل المقابلة ليشاهد ضوءاً وحيداً يشتعل فيها وسط الظلمة التي تحيط بها، فيدرك أن فيتجنشتين في حجرة راسل يتناقش هناك معه في المنطق .

وكان فيتجنشتين في بعض الأحيان لا يفعل شيئاً أكثر من أن يذرع غرفة راسل جيئة وذهابا في صمت. وطبقا لرواية راسل فيما بعد، فإن أول ما كان يتفوه به فيتجنشتين عند زيارته له أنه يعتزم الإنتحار حين يغادر غرفته ، الأمر الذي كان يسبب لراسل شيئا من الحرج عند محاولته التخلص من ضيفه ليأوي إلى فراشه . وإذا أخذنا في الإعتبار ما عرف عن راسل من حب للمبالغة ، فإني أظن أن هذا قد حدث مرة واحدة على أقل تقدير .

وفي بعض الأحيان كانت جدية فيتجنشتين التيوتونية تجعل من العسير عليه أن يفهم راسل ومور. فقد اجتمع ثلاثتهم ذات مرة لتناول القهوة وتبادل الأحاديث . وفجأة التفت راسل إلى

مور وقال له: «أنت لا تحبني يا مور. أليس كذلك؟» وفكر مور مليا ثم أجاب: «نعم، إنني لا أحبك».

وظل الإثنان يتبادلان الحديث في أمور شتى. واستبدت الحيرة بفيتجنشتين كما استبد به الإنزعاج، متعجبا كيف يمكن لمور وراسل، بالرغم من هذا، ان يحرصا على الالتقاء وأن يجدا متعة في صحبة أحدهما للآخر. وتمثل تلك الحادثة الصغيرة أصدق تمثيل ما تميزت به شخصيات هؤلاء الرجال الثلاثة.

وكان هناك في ذلك الوقت حزب كنسي قوي يضم جانبا من أعضاء هيئة التدريس في ترينتي. وبدا أن راسل يتلذذ في مثل شقاوة الصبية باستثارة هذا الحزب المتدين ومضايقته. عن عمد. والتقط راسل في إحدى المناسبات أثناء وجوده في حجرة المدرسين ورقة أسئلة تحتوي على عشرة أسئلة، كتبت في أسفلها الملحوظة المعتادة إنه يجب على الطالب أن يجيب عن ستة أسئلة منها فقط. فعلق راسل على ذلك بقوله: «نعم. إن ورقة الأسئلة تشبه الوصايا العشر تماما، من حيث أنه لا ينتظر من الإنسان تنفيذ ما يزيد على ست وصايا منها».

والانطباع الذي يتركه ما كتبه كينز بعنوان «مذكرتان» بشأن الجو السائد في كامبريدج قبل نشوب الحرب العالمية الأولى هو أن شخصية ج. أ. مور كانت الوحيدة البارزة فيه، في حين ان اسم راسل يكاد ألا يذكر سوى على سبيل النقد. وليس هناك أدنى شك، في مدى نفوذ مور الهائل في كامبريدج قبل وبعد عودته للتدريس فيها. ولكن من الجائز أن كينز يعطينا انطباعا خاطئا عن راسل يعكس آراء جماعة في كلية كنجز كان هو زعيما لها، وأطلق أهل كامبريدج الآخرون على هذه الجماعة ـ على سبيل النقد ـ إسم «الجماليون» وقد كان بعض أعضاء هذه الجماعة مكروها لسبب معين.

وهناك، على أية حال، دليل عن أن مور كان الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يقف على قدم المساواة مع راسل في الجدال، بإصراره على التساؤل: «هل تعنى ذلك حقا؟» وبأسلوبه الذي لا سبيل للرد عليه حين يهز رأسه بأسى للتعبير عن ملامته وعدم تصديقه. ويرى بعض الذين استمعوا إلى جدالهما في خلال هذه الفترة أن مور كان يعنى بالبحث عن الحقيقة وحلها، في حين أن راسل كان يحب أن يسجل نقاطا تدل على ما يحرزه من انتصارات في المناظرة. وإنى أرى كذلك، أن العيب يكمن في نزعة راسل التي لا ترعوي إلى الفكاهة تلك النزعة التي جعلته دائما يقول أشياء تهدف إلى إدخال التسلية وإثارة الدهشة وفتح أبواب للجدل، دون ان ترى مطلقا إلى أن يفهمها الناس فهما حرفيا. ويكفيني مثلا على ذلك أن أشير إلى ملحوظة اقتبسها البعض فعلا وساقها إليّ كدليل على عدم إخلاصه، فقد قال راسل: «إن معتقداتي الخاصة بسيطة للغاية في حقيقة الأمر. ولكني لا أطرحها أمام الناس، لأنها لا تعطيني فرصة لممارسة قدرتي على الفكاهة والسخرية.

وهذه الملحوظة ، بطبيعة الحال، تشبه ملحوظة أخرى له ، يقول فيهـا إنـه لو عقـد له امتحان تحريري يوم القيامة ، فإنه ليس متأكدا من قدرته على اجتيازه ، ولكنه يتأكد نجاحه إذا جرى هذا الامتحان شفويا .

يقول دكتور جونسون إن الطبيعة البشرية تنزع بوجه عام إلى لفت أنظار الناس إليهـا . ويتعين على كل رجل حكيم أن يبرأ من هذه النزعة ، بل أن يبرأ منها بكل تأكيد . ولست أعتقد أن راسل قد برأ منها أبدا . ولكن ليس في ذلك ما يدعو أحداً ممن تمتعوا بأحاديثه إلى الأسف .

ويبدو أن شيئا من العداء الكامن المتبادل كان يشوب العلاقة بين كينز وراسل . وقد ذ سب كينز إلى أن راسل تردى في خطأ (تورط فيه كينز نفسه دون شك) حين ظن أن الناس الع ديين يتسمون بقدر زائد من العقلانية . وكان راسل، من الناحية الأخرى، يجد في شخصية كينز مسحة ميكيافيلية، ترجع إلى ما تميز به هذا الرجل من ذكاء جعله يكن قدرا من الاحتقـار للناس العاديين. ويرى راسل أن كينز يملك «أمضى عقل وأوضح منطق» قيض له أن يلتقي به . «فقد كانت محاجاته المدمرة التي تفني ما تقابله في طريقها من اعتراضات تنطلق منه بنفس السرعة التي ينطلق بها لسان الأفعى. وفي كل مرة تجادلت معه فيها، كنت أضطرب أشـد الاضطراب وأحس أنني أحمل حياتي بين كفتي. ومن النادر أني خرجت من المناقشة معه دون أن أشعر بشيء من غفلتي وغباوتي» . ولا تتفق هذه الفكرة، على أية حال، مع انطباع ليونارد وولف الذي يشهد بتفوق راسل على كينز في سرعته في تسجيل النقاط أثناء النقاش المحتدم بينهما .

وهناك حادثة تستحق الذكر هنا، وهي المحاضرة الشهيرة عن برجسون التي ألقاها راسل في جمعية كامبريدج المعروفة باسم «المهرطقون» كانت فلسفة برجسون المتصوفـة في التطـور تتمتع حينذاك بالذيوع الهائل. وآلى راسل على نفسه أن يحطم هذه الفلسفة . وكان المستمعون يتوقون إلى سماعه . وغمر كل الحضور إحساس بأهمية تلك المناسبة . ويمكننا ان نجد نص هذه المحاضرة مطبوعا في كتاب راسل تاريخ الفلسفة الغربية» . ويتعين على القارىء إذا شاء الاستمتاع بنكهة هذه المحاضرة، أن يتصور راسل وهو يلقيها بصوته الجاف المحدد الساخر، وقد تخللها الضحك والتصفيق اللذان استقبل به المستمعون نكاته . وكان لهذه الحادثة شيء من الأهمية في حياة راسل إذ أنها ساعدته في أن تجعل منه للمرة الثانية واحداً من الشخصيات الرائدة في كامبريديج، وخاصة لأنها كانت أول نجاح كبير أحـرزه كمتحـدث في المحافـل العامة .

ويمكن العثور على آراء راسل الفلسفية في هذه الفترة مشروحة بوضوح عجيب في كتابه «مشاكل الفلسفة» وهو الكتاب الذي كتبه بناءً على اقتراح من جلبرت مري، ونشرته دار «هوم

ينيفرستي ليبراري». وكان ذلك الكتاب هاما في حد ذاته، يظل حتى الآن وفي كل مكان أفضل مدخل إلى هذا الموضوع. وبالرغم من هذا، فإن مما يبعث في القارىء المبتدىء شيئاً من خيبة الأمل أن يفرغ من قراءته ويبتهج لقدرته على استيعاب كل ما جاء به، ليكتشف في النهاية أن راسل قد غير رأيه تماما فيما بعد بشأن عدد كبير من النقاط الواردة ولا يتوفر بين أيدينا تلخيص موجز مماثل لما طرأ على أفكاره من تغيرات لاحقة. إذ أنه كلما تقدمت أفكاره ازدادت الفروق في وجهات نظره دقة. كما ازدادت التغيرات التي طرأت عليها تعقيدا. ولا يستطيع المرء تلخيص فلسفته بإقران اسمه بمذهب فلسفي معين كما هو الحال أحيانا مع ديكارت وباركلي مثلا.

ومن المعتاد أن نجد فيلسوفا عظيما يتخذ لنفسه موقفا يثير الإهتمام أو التحدي - في أيام شبابه النسبي غالبا - بحيث يصبح هذا الموقف مقترنا باسمه وسببا في ذيوع صيته، ثم يدفعه الغرور الإنساني العادي إلى الإستمساك بما اتخذه من موقف طيلة حياته دون أن يجري عليه أية تعديلات سوى تلك التي يجريها وهو كاره في أضيق الحدود. ولم يكن راسل، شأنه في ذلك شأن كل البشر، مجردا من الضعف الإنساني. فقد ذهب في خواطره ذات مرة إلى أن كل نشاط غير عادي يرجع إلى درجة غير عادية من الغرور والخيلاء. ولكنه كان - على غير العادة - معصوما من الغرور الذي يدفع معظم الفلاسفة إلى التقيد بفلسفاتهم. فهو على استعداد لأن يضع نظرية جديدة يفخر بنسبتها إليه، ثم لا يلبث أن ينبذها بعض مضي عام أو ما ينيف. كما أنه على استعداد لتمزيق مبادئه وتغييرها بنفس الضراوة التي يقدم بها معظم الفلاسفة الآخرين على تمزيق المبادىء التي يدعو إليها منافسوهم.

ويرجع هذا إلى رغبته المتأججة العارمة في الوصول إلى الحقيقة. وقد يكون هناك، مرة أخرى، تفسير آخر أقل أهمية لهذا النهج يسهل فهمه من الناحية الإنسانية. فقد استطاع راسل أن يحقق لنفسه الخلود قبل أن يبلغ منتصف عمره الفكري، وأصبح يحتل مكانة أكيدة بوصفه مفكرا أدخل أعظم التطورات في علم المنطق منذ عهد الإغريق. ولهذا، فإنه عندما أولى الفلسفة العامة اهتمامه، لم يكن هناك ما يدعوه عن وعي أو غير وعي إلى خلق مذهب فلسفي يتميز به، وأن يدعم هذا المذهب ويحصنه في وجه كل الهجمات. وقد يعطينا ولعه بالنكات الثاقبة المستثيرة انطباعا زائفا بتزمته المتحرش. ولكن الدراسة المتعمقة تكشف لنا عن تحفظه الحريص واستعداده الدائم لإعادة النظر فيما يقول، كما تبين انه يرى الأدلة التي تعارض وجهة نظره في أي وقت بجلاء لا يقل عن الجلاء الذي يراها به ناقدوه، مبديا استعداده لإعادة النظر في أية أفكار جديدة مهما كان مصدرها.

وبالرغم من كل ما طرأ على موقفه من تغير ، فإن المنهج الذي كان يتبعه يتصف بالانسجام دائما ، وهو منهج معروف بـ « نصل أوكام » الذي يقوم على مبدأ يتلخص في أنه لا ينبغي مضاعفة الأشياء إذا لم يكن هناك ما يدعو لذلك . (ويقول أوكام في هذا الشأن : « من العبث أن نستخدم الأكثر إذا كان استخدام الأقل يكفي) . ويرجع استعمال راسل لـ « نصل أوكام » إلى عمله في الفلسفة الرياضية ونظرية التعريف بالوصف . فمثلا ، هل يوجد شيء اسمه العدد (٢) ؟ كان راسل في بادىء الأمر يعتقد أن له وجودا مثل وجود الفكرة الأفلاطونية في السماء . ولكنه فيما بعد التصق بالواقع بعد أن قام بتعريفه المشهور للأعداد كأصناف الأصناف ، وأعلن أن العدد (٢) هو ببساطة صنف كل الأزواج ، وأنه ليس هناك عدد (٢) غامض يقترن بكل زوج من الأزواج . وشبيه بذلك ، أن نقول : إن طول ٢ قدم هو ببساطة صنف يجمع لأشياء التي طولها ٢ قدم . ولسنا بحاجة إلى أن نتخيل مقياسا للقدم موجودا في السماء ينطبق على كل هذه الأشياء .

ولهذه النقطة بعض الأهمية بالنسبة للذين ترجع إلى تداخل الأفلاطونية في صلب اللاهوت المسيحي . فهناك صلة تجمع بين الإيمان بالأعداد السرمدية والإيمان بمقياس للقدم موجود في السماء والإيمان بالحياة الأخرى .

لقد أوضح راسل في نظرية التعريف بالوصف أن جملة تحتوي على شبه جملة مثل « الجبل الذهبي » يمكن أن يكون لها معنى دون أن تصدق شبه الجملة هذه على الواقع . وأطلق راسل على مثل شبه الجمل هذه « الرموز الناقصة » وبعد أن قام راسل بتعريف الأعداد بأنها أصناف الأصناف ، قرر أن الرموز التي تمثل الأعداد والأصناف هي « رموز ناقصة » بنفس الطريقة . وبعدئذ استبعد راسل ، متأثرا في ذلك بهوايتهد ، النقط ولحظات الزمن الخ . . .

ويقترن منهج التحليل بمذهب « نصل أوكام » . وبطريقة فجة ، يمكن أن نقول : إن المنهج الذي يتبعه راسل كفيلسوف فيما يتعلق بالكون يتلخص في استبعاد كل شيء يمكن الإستغناء عنه ، ثم يقوم بتمزيق ما تبقى إلى قطع صغيرة بقدر الإمكان حتى يرى بالضبط ما يبقى في نهاية الأمر . وما توصل إليه في النهاية هو « معطيات الحواس » . . . إدراكنا بالحواس لبقع الألوان المختلفة في اتجاهات مختلفة إلخ . . . وقد أطلق راسل عليها اسم « معطيات الحواس الصلبة » * وهي أكثر المعارف التي تقوم على المشاهدة والتجربة يقينا . والمشكلة هي كيف نصل إلى وجود العالم الطبيعي بعد أن نبدأ بمثل معطيات الحواس هذه التي تقوم على المشاهدة والتجربة .

وعلى سبيل الإيضاح المحدد ، دعنا ننظر إلى منضدة . فالفلاسفة يجلون دائما ـ لسبب ما ـ

متعة في الحديث عن المناضد . وقد تحدث راسل عن المناضد في كل من « مشاكل الفلسفة » وكتابه التالي « معرفتنا بالعالم الخارجي » ويوضح لنا التناقض فيما ذكره بشأن المناضد في كل من هذين الكتابين ما طرأ على أفكاره من تغير توضيحا دقيقا .

ففي كتابه « مشاكل الفلسفة » ، لم يخالجه شك ، بعد نقاش طويل ، في أن أصحاب الفلسفة المثالية يجانبهم الصواب ، وأن المنضدة التي كان يكتب عليها لها وجود في الواقع . أما في « معرفتنا بالعالم الخارجي» ، فنحن نجد أنه يستخدم أحد استعمالاته لـ « نصل أوكام » المذهلة للغاية . فهو يسأل : ماذا نعرف عن المنضدة في حقيقة الأمر ؟ إنها تقدم لنا بعض الظواهر المعينة عند النظر إليها ، كما أنها تصدر أصواتا معينة عند النقر عليها ، وتعطينا ملمسا معينا عندما نضع أصابعنا عليها . فلماذا نفترض إذن وجود منضدة ميتافيزيقية مكونة من « مادة » تقبع وراء هذه الظواهر ؟ وهكذا وصل راسل إلى رأي ينطوي في مظهره على المفارقة ، مفاده أن « كل جوانب أي شيء حقيقية ، في حين أن الشيء نفسه لا يعدو أن يكون بناء منطقيا » .

وسرعان ما وجد راسل صعوبات في الوصول إلى المنضدة كـ « بناء منطقي » يستند إلى « معطيات الحواس الصلبة » وحدها . وتعين عليه أن يضيف المزيد من المعرفة غير اليقينية ـ وهو ما أطلق عليه اسم « معطيات الحواس الناعمة » ** وفضلا عن معطيات الحواس اضطر راسل إلى الإعتراف بما يمكن تسميته بـ « معطيات الحواس غير المحسوسة » *** ، أو ظواهر المنضدة في مكان لا يوجد فيه من ينظر إليها . وإنني لن أسترسل في هذا المقام في الكتابة عن برنامجه الخاص بالبناء المنطقي، نظراً لشدة تخصصه . وأظن أنه يثير اهتمام القارىء العادي فقط عندما نتبين أنه يفضي ـ كما سنرى بعد ـ إلى «الواحدية المحايدة»، أو الاعتقاد بأنه ليس هناك فرق جوهري بين العقل والمادة .

ولكني سأذكر في نفس الوقت نقطتين فحسب مما يتصل ببرنامجه في البناء المنطقي . ولنبدأ أولا بالدافع الرئيسي الكامن وراءه . أراد راسل أن يستبعد أية حاجة إلى الاستدلال غير الأكيد المستمد من الظواهر على الأشياء الفيزيقية ، وذلك بتعريف الأشياء الفيزيقية عن طريق ظواهرها ، بنفس الأسلوب الذي اتبعه في تعريف العدد (٢) بأنه « صنف الأزواج » . وبهذا تمكن راسل من وصف علم الفيزياء بلغة الأشياء التي نعرفها ، بدلا من الحديث عن أشياء لا نعرفها ، ولكن هناك صعوبة جلية واحدة في تعريف المنضدة بأنها صنف ظواهرها . فالصنف

---

* Logical construction

** Soft data

*** Sensibilia

يعني مجموعة . ونحن نسأل بطبيعة الحال عن السبب الذي يجعل « معطيات الحواس » تجتمع لتشكل منضدة على هذا النحو . وسأذكر فيما بعد المزيد بهذا الصدد .

وقد يظن القارىء في بادىء الأمر ان استخدام راسل « نصل أوكام » وأن برنامجه في « البناء المنطقي » نموذجان يمثلان الجانب الفني من الفلسفة الذي لا يثير اهتمام أحد غير الفلاسفة المتخصصين ، وقد اعترف راسل ذات مرة بأنه استمد أحد دوافعه الثانويه من مجرد المتعة التي يجدها في المهارة الفنية التي يتطلبها تشييد صرح كبير على أساس غاية في الضآلة . وهي متعة وصفها راسل بأنها لذة « صنع فطائر فلسفية من الطين » . ولكن استخدام « نصل أوكام » يقودنا في الواقع إلى ما قد يكون أكثر مسالك الفكر سحرا وفتنة ، حيث يتداخل العلم مع الفلسفة وحيث يستطيع كل منهما أن يدفع الآخر قدما إلى الأمام . والعلم الحديث يتبع منهج راسل في إستبعاد كل ما يمكن استبعاده . فقد تخلصت نظرية النسبية مثلا من فكرة « الأثير » السائدة في القرن التاسع عشر ، كما أنها تخلصت من فكرة الزمان والمكان المطلقين . وفيما بعد ، نبذت النظرية الذرية شكل الذرة الخيالي على أنها صورة مصغرة للنظام الشمسي ، وذهبت إلى أننا لا نعرف شيئا عن الذرة اللهم إلا حين تنبعث منها طاقة يمكن ملاحظتها .

وقد كتب راسل « معرفتنا بالعالم الخارجي » بهدف إلقائه كمحاضرات لو ويل في جامعة هارفارد عام ١٩١٤ . ولكنه قام بإلقاء هذه المحاضرات في كامبريدج أولا في بداية ذلك العام كنوع من التجربة التمهيدية . وكان س . ك . أوجدن الذي اشتهر باختراعه « أساسيات اللغة الإنجليزية » محررا لمجلة كامبريدج حينذاك . ورأى أوجدن أن الناس كانوا على علم بمحاضرات راسل سلفا . ونجم عن ذلك أن ستين أو سبعين شخصا جاؤوا لحضورها ، الأمر الذي دعا إلى فتح الباب المزدوج العريض الذي يفصل بين الحجرة وقاعة المحاضرات ، حتى يمكن إستقبال الحاضرين . وكان راسل الذي اعتاد ان يلقي محاضراته الجامعية في حجرات دراسية صغيرة لا يزال خجولا ولا يثق بنفسه كمتحدث ـ إلى الحد الذي جعله بادي التردد يكاد ينكص على عقبيه عندما وصل وشاهد حجم الحضور الكبير . ومما يذكر عن هذه المناسبة انه تصادف وجود أوجدن خلفه مباشرة . وبدا كما لو كان أوجدن يدفع به دفعا إلى داخل قاعة المحاضرات .

وعندما أخذ راسل يلقي محاضرته ، ورأى ما قوبلت به دعاباته من ترحاب ، بدأ يطمئن تدريجيا . وأصابت محاضراته نفس النجاح الذي أصابته فيما بعد في جامعة هارفارد .

ومن الطريف أن نتوقف قليلا في هذا المقام كي نذكر شيئا عن زيارته لأمريكا التي سبقت مباشرة سنوات الحرب العالمية المأساوية الأولى . ومن الطريف كذلك أن نسجل هنا أن راسل امتدح الأمريكان (في ذلك الوقت على أية حال) لما أظهروه من استعداد لتقبل الأفكار الجديدة .

وقال راسل في هذا الصدد : « إن من حاول أن يقدم فلسفة جديدة إلى جامعة أكسفورد أو السوربون أو جامعات أمريكا تعتريه الدهشة لما يبديه الأمريكان من استعداد يفوق استعداد الإنجليز والفرنسيين للتفكير في إطار غير مألوف .

وإلى جانب محاضرات لوويل ألقى راسل سلسلة من المحاضرات في « المنطق الرمزي » . ودعا طلبته إلى تناول الشاي معه وتبادل الآراء بعيدا عن الكلفة . وكتب راسل حينذاك من هارفارد يقول إن طلبته الأمريكان ليس بينهم من يثير الإهتمام أو يملك المقدرة باستثناء طالبين أحدهما يوناني اسمه رافائيل ديموس ، الذي أصبح أستاذ الفلسفة في جامعة خارفارد وثانيهما ت . س . اليوت .

وكتب اليوت وصفه الخاص براسل في قصيدته المسماة « مستر أبوليناكس » . وذكر إليوت عندما تقدم به العمر انه وجد قدرا كبيرا من اللهو الممتع في دراسة المنطق الرمزي تحت إشراف راسل . كما قال : بدا لي أن هذه الدراسة ليست لها أية علاقة بالواقع . ولكن معالجة تلك الرموز الصغيرة العجيبة أعطتني إحساسا باللذة والقوة معاً . ويذكر اليوت كذلك أن راسل نفسه كان « ممتعا للغاية » كمدرس للفلسفة نظرا « لخلو شخصيته من الرغبة في مظاهر الفخامة ولسهولة الإتصال به » . وكان معظم أساتذة الفلسفة الأمريكان حينذاك ينتهجون نهج أقرانهم من الألمان الذين تعودوا على الابتعاد عن طلبتهم كلما كان لهذا الإبتعاد سبيل رغبة منهم في الظهور بمظهر العمق .

وبعد أن عاد راسل إلى إنجلترا ، ترك ت . س . إليوت أمريكا ليستقر في الأراضي الإنجليزية . وذات يوم خرج راسل من بيته لشراء لبن يشربه مع الشاي ، فالتقى بإليوت مصادفة في الشارع على مقربة من المتحف البريطاني . ورجع الإثنان معا إلى شقة راسل الواقعة في شارع بيوري . وعندما تزوج إليوت إستضافه راسل مع زوجته في بيته نظرا لضيق مواردهما . وقام راسل بتقديم إليوت إلى سيدني واترلو الذي كان مندوبا عن مجلة « مونيست » ومجلة فلسفية أمريكية أخرى في بريطانيا ، مما أتاح لإليوت فرصة العمل في عرض الكتب الفلسفية . واستأجر راسل فيما بعد كوخا في مارلو حتى يوفره كسكن لعائلة اليوت .

وكان إليوت أحيانا يقرأ قصائده لراسل بصوت مرتفع . ومن الحق أن نقول : إن راسل كان واحداً من أول الذين اكتشفوا جودتها . ومن الجائز ان تكون الأحاديث التي تبادلها راسل وإليوت قد أوحت إلى إليوت ببعض الأفكار التي ضمنها أشعاره . والذي لا شك فيه أن هناك أوجه شبه بينها وبين كتابات راسل . وعندما نشر راسل «التصوف والمنطق » في نهاية الحرب العالمية الأولى ، صرح بأن عرض اليوت له في مجلة « ذي نيشن » هو العرض الوحيد الذي يدل على التفهم .



الفصل العاشر

الحرب العالمية الأولى

كتب كينز في مذكراته يصف الحالة الفكرية السائدة في كامبريدج قبل نشوب الحرب العالمية الأولى يقول : « كان برتي بصفة خاصة صاحب رأيين متناقضين بصورة مضحكة . فقد كان من رأيه أن شؤون الإنسان تجري ، في واقع الأمر ، على نهج لا يخضع لمنطق العقل إلى أبعد الحدود، في حين أن علاج هذا هين يسير للغاية، لأن كل ما يلزمنا في ذلك هو أن نسير بها على هدي من العقل» .

ولست على يقين من أن هذه الصورة تمثل أسلوب راسل في الحديث تمثيلا صادقا . ومن المحتمل أن يكون الأمر كذلك . ولكن ما من شك في أن النقد الذي يوجهه كينز يثير الدهشة ، نظرا لأن راسل تبين ، على أقل تقدير ، منذ اللحظة التي اندلعت فيها ألسنة الحرب في أغسطس من عام ١٩١٤ أن الصواب يجانب الكثير من أفكاره السابقة ، وأن الناس ليسوا عقلانيين بقدر ما كان يعتقد ، الأمر الذي حدا به إلى تغيير أسلوب تفكيره وطريقة حياته تغييرا جذريا . ولكن الحرب لم تكن تعني بالنسبة لكينز وبعض أصدقائه في جماعة « البلومزبري » ما عاناه راسل من امتحان في الفكر والشعور . كانت الحرب بالنسبة لكينز تعني حصوله على منصب يثير الاهتمام في وزارة الخزانة وإعفاءه من الخدمة العسكرية . ومن الواضح انه كان سعيدا بالطريقة التي مكنته بها الحرب من الحصول على مركزه المرموق في المجتمع ، وأتاحت له الفرصة لعقد صداقات بين علية القوم أمثال أسكويث عندما كان رئيسا للوزارة ـ وقد سأل راسل كينز ذات مرة كيف يمكنه الجمع بين التعاطف مع جماعة المعترضين على الحرب باسم الضمير الإنساني* واستمراره في العمل في الوقت نفسه بوزارة الخزانة (فقد كان العمل بوزارة الخزانة ، في نظر راسل ، يتلخص في توضيح أرخص السبل الممكنة لقتل الألمان) ، أي تحقيق أكبر عدد من القتلى بأقل قدر من النفقات » ، فلم يحر كينز جوابا .

* Conscientious objectors

وبالرغم من أن الكثيرين من أصدقاء كينز المنتمين إلى جماعة البلومزيري كانوا من « هؤلاء المعترضين باسم الضمير » ، فإنهم لم يصلوا في اعتراضهم إلى الحد الذي يفضي بهم إلى السجن . وكانوا يضمنون إعفاءهم من الخدمة العسكرية عن طريق العمل في فلاحة الأراضي . لقد كانوا يمقتون الحرب دون أن يبذلوا من جانبهم الجهد المضني للوقوف المباشر في وجهها أو ما تجلبه عليهم معاداتهم الصريحة للحرب من عار . ومن ثم فقد حاولوا تجاهلها وكرسوا أنفسهم للكتابة أو الرسم أو مجرد الكلام .

ويمكن ـ دون مجافاة للحق ـ تلخيص موقفهم بسرد قصة ذلك الشاب الأنيق الذي التقت به في الطريق سيدة عجوز غاضبة فبادأته بالحديث قائلة : « ألا تحس بالخجل وأنت لا ترتدي الزي العسكري ، في حين أن الشبان الآخرين يحاربون ذودا عن المدنية ؟ » فكان رده : « سيدتي أنا المدنية التي يحاربون من أجلها » . ولم يكن هذا ، بكل تأكيد ، موقف راسل بالرغم أن لديه ـ أكثر من أي شخص آخر ـ مبررات كثيرة لاتخاذ مثل هذا الموقف .

وكان أول أثر تركته الحرب في راسل أن غشيته صدمة من اليأس والهلع . وبعد انقضاء أيام قليلة على نشوب الحرب ، تناول راسل العشاء مع زوجة تشارلس سانجر في مطعم شيب حيث لاحظا أن كل من يقابلهم ـ ومن بينهم ـ أيدي مارش سكرتير تشرشل الخاص ـ تغمرهم الفرحة بالمعركة ويتنبأون بتحقيق نصر سريع . وبينما كان يسير بعد ذلك مع مسز سانجر على كورنيش التيمس ، قال راسل إنه لا يطيق الحرب . وتحدث عن التقاعد ورغبته في التزام العزلة . وظل اشتعال الحرب دائما يمثل بالنسبة لراسل علامة مميزة في طريق حياته وقد قال ذات مرة : « إن الحياة في هذه الأيام هي الجحيم بعينه . كم وددت أن أموت قبل ١٩١٤ »

وعلى أية حال ، فإنه سرعان ما تبدلت حالته النفسية من اليأس السلبي إلى التمرد الإيجابي ضد الحرب ، مما جعل منه لأول مرة شخصية معروفة . وكان من بين الإتهامات التي تعرض لها راسل دائما اتهامه بالتناقض لأنه عارض الحرب العالمية الأولى في حين أنه أيد الحرب العالمية الثانية . غير أن نقاده قد جانبهم الصواب هذه المرة من غير شك . فقد كان راسل محقا فيما ذهب إليه من أن « الحرب أسوأ من أن نلقى هزيمتنا على يد القيصر ، ولكن أن يهزمنا هتلر ، فذلك أسوأ من الحرب » . إن راسل لم يقل أبدا أن الحرب تنطوي على خطأ أخلاقي تحت جميع الظروف . ومن ثم فإن معارضته لها لم تكن مسألة مبدأ .

هذه هي النقطة الأساسية في العلاقة التي تربط بين فلسفته وكتاباته التي تعالج المشاكل الإنسانية والمدخل الضروري لفهم هذه الكتابات . ولا بد لنا أن نتذكر أن سانتيانا كان قد أقنع راسل قبيل عام ١٩١٤ أن القيم الأخلاقية ليس لها وجود موضوعي . فكلمتا « خير » و« شرير »

لا تعدوان أن تكونا مجرد تعبير ذاتي عما نحب أو نكره . ويجب علينا أن نذكر أيضا أن راسل قد أكد لنا أن ما يستطيع المنطق أن يحققه محدود . وأن كل جدل عقلي إن هو إلا مسألة افتراضية ، تجري على النحو التالي : « إذا أردت أن تصل إلى نتيجة معينة . فعليك أن تفعل كذا وكذا . . . »

ولذلك ، فإن راسل لم يكن في استطاعته أن يدين الحرب على أساس عقلي محض أو على أساس أخلاقي بحت . وقد تعين عليه أن يعتمد في نقاشه لهذا الموضوع ولكل موضوع سياسي أو اجتماعي آخر على مزيج من الدعاية العاطفية (فيما يتعلق بالغايات) ، وعلى الجدل العلمي والمنطقي (فيما يتعلق بالوسائل) .

ويوضح لنا هذا الخليط الغريب من العواطف المتأججة والخلو من المشاعر في وقت واحد لماذا يسهل على الناس إساءة فهم راسل أو تفسيره . ومما زاد من إساءة فهمه أنه شخصيا لم يكن دائما يحرص بالاحتفاظ بالفرق بين هاتين الحالتين المتناقضتين واضحا ، كما أنه لم يقتصر دائما في إبداء آرائه على تخصصه كفيلسوف . وكان دوما يستخدم كلمتي « خير » و« شرير » في كتاباته ، كما لو كان لهاتين الكلمتين قدر من المعنى الموضوعي . فقد قال : « إن التعليم الخاطىء يمكن أن يؤدي إلى قلب كامل للقيم لدرجة أن الخير يصبح شراً » . وكان راسل يستخدم دائما كلمات شجعت على الاعتقاد الخاطىء بأنه عقلاني من الطراز القديم يبالغ في أهمية العقل . فقد كتب ، على سبيل المثال ، يقول : « إنني لا يمكن أن أشك أن العقل سينتصر ، إن آجلا أو عاجلا ، على الدوافع النفسية العمياء التي تقود الأمم الآن إلى الحروب ».

ولا بد أنه كان يعني بكلمة « العقل » شيئا شبيها بـ « ضبط النفس » أو « المصلحة الذاتية المستنيرة » لأنه كان يعني أساسا أنه يمكن التغلب على النوازع الشريرة عن طريق تشجيع الدوافع الطيبة .

ومن الظلم بعض الشيء ، بطبيعة الحال ، أن نواجه فيلسوفا ببضع عبارات نستمدها من كتاباته غير المتخصصة التي تشيع بين عامة الناس لنبين أنها تتعارض مع آرائه التي أمعن فيها النظر ومحصها في كتاباته المتخصصة . وليس هناك شك في أن راسل سيدافع عن نفسه بقوله أنه يستخدم كلمتي « خير » و« شرير » بمعناهما الشائع كأوصاف موجزة مناسبة يسهل على القراء فهمها ، تماما كما يستطيع عالم في الفلك في الأوقات التي لا يباشر فيها مهام وظيفته أن يتحدث عن « شروق الشمس » و« غروبها » دون أن يدعونا هذا إلى اتهامه بأنه لا يفهم كوبرنيكس . ولكنني أظن أن موقف راسل يتضمن شيئاً أكبر من هذا النوع من التناقض اللفظي . لقد كنت أشعر دائما شعورا أكيدا أن راسل لا يؤمن مطلقاً ، في قرارة نفسه ، بفلسفته الأخلاقية الرسمية

التي عبر عنها في كتاباته ، الأمر الذي أفضى إلى وجود تناقض داخلي كان يدركه أحيانا دون أن يتمكن من أن يجد له حلا على الإطلاق . وعندما احتج على سياسة قتل الشباب بالجملة في الحرب ، لم يكن يعني مجرد كراهيته الذاتية لها . وقد برزت آراؤه الحقيقية بوضوح كاف في أسلوب حديثه وكتابته ومسلكه .

وهناك ميل للاعتقاد بأن راسل كان عندما يؤلف كتبا تعالج موضوعات يفهمها عامة الناس فإن مستواها يقل عن مستوى مؤلفاته في الفلسفة الرياضية . ولكن راسل نفسه يرى غير هذا فقد اقتضت الحملات السياسية والاجتماعية التي قادها جهداً متأجج العاطفة استغرق كل وجدانه . وقد لا تكون الصعاب الفكرية التي جابهته عند تأليف كتبه العامة هي نفس الصعوبات التي واجهته عند تأليف كتبه المتخصصة ، ولكنه جابه عند تأليف كتبه العامة صعوبات إضافية تتمثل في الشعور الذي يلتهب بالخيال ، كما تتمثل في حث الناس على الإقتناع بها . ومنذ عام ١٩١٤ شعر راسل أن الحياة الأكاديمية البحتة لا تكفي لإرضائه .

وقد قال راسل فيما بعد : ليس هناك من عمل استغرق كل حواسي ولم يخامرني فيه تردد ما مثل عملي في الدعوة إلى السلام التي تحمست لها خلال الحرب . ولأول مرة في حياتي أجد شيئاً أفعله يستغرق كل كياني . وهكذا ألقى راسل بنفسه في خضم الدعاية ضد الحرب متحديا تيار الرأي العام الجارف حينذاك :

لا تساير الجموع في فعل الشر . . .
إن الإرادة القوية مرغوب فيها قبل كل شيء
حتى تصارع كل إرادة شريرة
تبغي مرضاة رفاق السوء وتعارض صيحات جموع الناس
وحتى تدفع أمامنا نوايا الأمراء الطيبة كأنها قش تذروه الرياح

ولم يكن راسل مواليا لألمانيا . فكراهيته للقيصر والعسكرية البروسية ترجع إلى زيارته لبرلين عام ١٨٩٥ . وقد كتب يقول إنه « أبعد ما يكون عن كراهية إنجلترا . فإنني أحرص على إنجلترا أكثر من أي شيء آخر فيما عدا الحق » . ويقول راسل أيضا إن اللوم على اندلاع الحرب يقع على عاتق ألمانيا أكثر من الحلفاء ، وأنه كان يريد النصر للحلفاء . ولكن الحرب كانت وبالا بلغ من الضخامة بحيث انه فضل السلام غير الحاسم على إطالة الصراع لأجل غير محدود .

بالرغم من هذا ، فقد فرق راسل بين أنواع الحروب في مقال له بعنوان «أخلاقيات الحرب» قائلا : ان هناك بعض الحروب التي يمكن تبريرها . فهزيمة الهنود الحمر على أيدي المستعمرين

الأمريكيين تمثل « حرب استعمار » لها ما يبررها ، نظرا لأن المستوطنين الجدد كانوا يمثلون حضارة أرقى . ويستطرد راسل قائلا : « لو حكمنا بالنتائج ، فإننا لا يمكن أن نأسف على حدوث مثل هذه الحروب » . وليس هناك شيء يدعو إلى مضايقة أنصار السلام ومناهضي الإستعمار أكثر من هذا . وتعطينا صراحة راسل وإخلاصه في التعبير عن وجهة نظره هذه مثلا واضحا ليس على الأسلوب النفعي في معالجة الموضوعات فحسب ، بل على موهبته في إدخال الأمانة الفكرية على أي نقاش سياسي .

وكمثال على حرب المبادىء المشروعة أورد راسل حرب الهولنديين في عهد شارل الثاني . وفي مناقشته لحروب « الدفاع عن النفس » التي نادرا ما تكون مشروعة كتب راسل : « إنه لا يمكننا أن ندمر ألمانيا حتى بتحقيق نصر عسكري كامل عليها ، وبالعكس من ذلك لا يمكن لألمانيا ان تدمر إنجلترا حتى لو تم إغراق أسطولنا واحتل الألمان لندن . فالحضارة الإنجليزية واللغة الإنجليزية والمنتجات الإنجليزية ستظل قائمة . ومن ناحية السياسة العملية ، سيصبح من المستحيل تماما على الألمان أن يمارسوا طغيانهم في إنجلترا .

ومن بين الحروب التي تشنها الدول بدعوى الحفاظ على هيبتها والتي لا يمكن تبريرها على الإطلاق ، يسوق راسل العالمية الأولى . ويقول راسل في هذا الشأن : « عندما يتقاتل كلبان في الشارع ، فإن أحدا لا يتصور أن هناك ما يدفعهما إلى ذلك سوى الغريزة كما أنه لا يتصور أن الغايات النبيلة السامية هي التي تحركهما . فهما يتشاجران لمجرد أن شيئا يتعلق برائحة كل منهما يستثير الآخر . وما يصدق على الكلاب في الشارع يصدق أيضا على الأمم في هذه الحروب »

ويجب ألا نقرأ كل هذا دون الإشارة الواعية لنوع المانيا التي ظهرت أيام هتلر . وعلينا الا ننسى أن راسل وغيره من الناس قد استبعدوا من تصوراتهم تماما أن تحاول أية دولة إبادة عدوها الذي ألحقت به الهزيمة أو استعباده ، وهو أمر يذكرنا في جلاء بموقف حضاري انصرم من العالم دون رجعة . وفيما بعد ، برر راسل دعوته إلى السلام بأن الحرب العالمية الأولى هي التي أدت إلى فظائع الحكم الشمولي وبشاعات الحرب العالمية الثانية .

وفي عام ١٩١٥ تنبأ راسل أنه بعد ان تلحق بألمانيا الهزيمة فإن « المواطن الألماني العادي سيعقد العزم على أن يكون أكثر استعداداً في المرة القادمة وسيصغي بإخلاص أكبر لنصائح العسكريين ».

وبالطبع ، سرعان ما وجد راسل نفسه متضافراً مع غيره من أنصار السلام على الرغم من الاختلافات في الرأي بينه وبين الداعين لمبادىء السلام التقليدية الراسخة . وكان د . هـ .

لورانس الذي ذهب للإقامة معه في كامبريدج واحدا منهم . ويذكر لنا كينز بعد انقضاء فترة طويلة كيف أن راسل طلب إليه أن يتناول الفطور مع لورانس ، وكيف التزم لورانس الصمت جل الوقت في حين أنه وراسل تبادلا معظم ما دار أثناء الجلسة من حديث . ويضيف كينز أن لورانس : « كان مكتئباً نكد المزاج منذ البداية يتكلم قليلا جدا فيما عدا بعض التعبيرات غير الواضحة التي تنم في برم وضجر عن إختلافه في الرأي » . وبطبيعة الحال ، وجد لورانس نفسه ينفر من العقلانية والأسلوب الكلبي (نسبة إلى مذهب الكلبيين الذي يشك في دوافع البشر ويسخر من نواياهم) اللذين بلغا أوجهما في كامبريدج حينذاك .

وقد تبادل لورانس وراسل طائفة كبيرة من الرسائل . وإنه لما يعكس شخصيتهما أن راسل احتفظ بخطابات لورانس ، في حين أن لورانس لم يعبأ بالاحتفاظ بالرسائل التي أرسلها راسل إليه . وتعكس هذه الرسائل المتبادلة العداوة المتزايدة التي لم يكن هناك سبيل للتخفيف من حدتها بين دقة راسل الفكرية وعاطفة لورانس وفقدانه الثقة بالديموقراطية . (وفي رأي راسل أن « لورانس كان فاشيا قبل أن تظهر الفلسفة الفاشية إلى الوجود) . وعبثا حاول لورانس أن يكسب تأييد راسل لإضرام نار ثورة إجتماعية تؤمم الصناعات «بضربة واحدة قاضية»، ويستطيع الإنسان بعدها أن يبدأ مغامراته لاكتشاف عالم المرأة المجهول. «ولذا كتب لورانس إلى راسل يقول: «دعنا نفترق ونصبح غرباء مرة أخرى. «ثم أخبره في شيء من الشذوذ والغرابة : «إنك ببساطة مليء بالرغبات المكبوتة. وكما ذكرت لي إمرأة حضرت أحد اجتماعاتك: «لقد بدا غريبا أن يتحدث (راسل) عن السلام والحب، ووجهه ينطق بكل هذا الشر» .

وعلى أية حال ، استمر راسل في صلته بغيره من دعاة السلام وانضم إلى لجنة « منظمة مناهضة التجنيد » وهي المنظمة الدعائية الرئيسية لأنصار السلام .

وكان راسل من الناحية الفكرية مصدر إلهام للمعترضين باسم الضمير يتحدث ويكتب لجريدة « الزعامة العمالية » ويتولى أعمالها الصحفية الروتينية المملة ، كما كان أيضا حلقة اتصال بين المعترضين في « منظمة مناهضة التجنيد » الذين أثاروا سخط الناس عليهم بدعايتهم النشيطة ضد الحرب وبين المعترضين في جماعة البلومزبري التي سبقت الإشارة إليها ـ وقد وجد أعضاء هذه الجماعة أثناء الحرب ملاذا لهم يلتجئون إليه في الاجتماعات التي تنظمها الليدي أوتولين موريل التي تزعم زوجها فيليب موريل حركة أنصار السلام في البرلمان بوصفه نائبا من الأحرار .

وكانت الليدي موريل تدعو المعترضين المنبوذين من المجتمع إلى منزلها في ٤٤ ميدان بدفورد ، حيث يجتمعون في قاعة فسيحة تتكون من غرفتين متداخلتين في الطابق الأول بأضوائها الهادئة ولوحاتها العصرية والزهور التي تزدان بها جوانبها . وفي هذه القاعة كانوا يتبادلون

الحديث وهم يدخنون ويحتسون القهوة ، ويستمعون إلى أنغام الموسيقى الهادئة ويرقصون وهم يرتدون (البلوفرات) وبنطلونات مصنوعة من الأقمشة القطنية . ولم يكن راسل يشترك في الرقص معهم بل كان يجلس ويتحدث تحيطبه حلقة من المستمعين المتحمسين .

وكانت الحفلات التي تقيمها الليدي أوتولين موريل بمنزلها في جارسنجتون مانور بالقرب من أكسفورد تفوق الحفلات السابقة في أهميتها حيث استطاع بعض المعترضين باسم الضمير الحصول على إعفائهم من التجنيد بالقيام ببعض أعمال الفلاحة في مزرعة فيليب موريل . وكان الضيوف يقضون معظم أوقاتهم في أحاديث لا تنتهي . وكثيرا ما كانوا يغيرون هذا الروتين بالخروج للتريض مشيا على الأقدام .

واعتادت الليدي أوتولين موريل أن تدخل البهجة في نفوس الحاضرين أثناء انشغالهم بالحديث بانصرافها إلى شغل مفارش السرير في ألوان واضحة التباين بإبرة الكروشيه . وأهدت الليدي موريل إلى د . هـ . لورانس مفرشا صارخ الألوان بشكل غيرعادي . وكان اشتراكها في المناقشات محدودا ولكنه كان واضحا وصريحا دائما . وحدث ذات مرة أثناء إنهماكها في شغل مفرش للسرير ـ بينما كان كلايف بل وآخرون يتحدثون بما اعتادوا من أسلوب بارع ذكي أن استدار بل وقال لها معاتبا : « إنك لا تصغين يا « أوتولين » ، فأجابته وهي تواصل شغل إبرة الكروشيه : « إن الحديث لا يستحق الإصغاء إليه » .

ووجد بعض المدعوين في جارسنجتون كذلك أن راسل محدث متعب أحيانا لما تتصف به مجادلاته من تدفق وسرعة وصلابة . وهناك إشارة في أحد خطابات ليتون ستراتش إلى « أن برتي استخدم كعادته منشاره العقلي الدائري الذي لا يكف عن نشر كل ما يتناوله من موضوعات وإني لم أستطع قط أن أشعر أني على سجيتي معه . وفي اعتقادي أنهُ يكرهني . لماذا ؟»

ولم ينقطع راسل مع معظم المفكرين الآخرين الداعين للسلام عن زيارة جارسنجتون . وقد عاش كل من ليتون ستراتش والدوس هكسلي هناك فترة من الوقت . وأصبحت جارسنجتون ملجأ لكثير من الكتاب الشبان الموهوبين الذين شجعتهم الليدي موريل وقدمت لهم العون . ولكن بعضهم ألف فيما بعد كتبا تتضمن نقداً وهجاءً لها . فنحن نجد مثلا تصويراً كاريكاتورياً لها وللحفلات التي تقيمها في جارسنجتون في كتاب الدوس هكسلي « يلو كروم » * .

* تصور « يلو كروم » أيضاً أستاذاً ينسب إليه هكسلي أقوالاً جادة هي في واقع الأمر بعض النكات التي أطلقها راسل .

وشرح راسل فيما بعد الطريقة التي هاجم بها بعض الكتاب لبدي أوتولين ، قائلا انه كان لا بد من أن تعاقب على شدة طيبتها معهم . فالناس لا يطيقون أن يكونوا مدينين لأحد ، وهم دائما يطعنون في أصحاب الفضل عليهم للتقليل من شعورهم بالفضل نحوهم . وهذا قانون من قوانين الطبيعة البشرية .

وكان كينز زائرا آخر من زوار جارسنجتون . وبينما كان راسل محور إنتباه الحاضرين ، كان كينز « يجلس في هدوء ويشترك في الحديث بين الحين والآخر بصوت ناعم خفيض . وكانت دعوة أوتولين موريل لمستر أسكويث رئيس الوزراء بمثابة إضافة غير ملائمة إلى المدعوين ، ولكنه كان يجد متعة في كل الأحاديث التي تمتلىء بالنكتة والدعابة وصحبة النساء الجذابة التي تتوفر في جارسنجتون دائما . وكان اسكويث يعامل دائما بدون تكلف أو رسميات . ولم يكن من المستطاع في أي مكان آخر من إنجلترا أن تسمع خادمة جديدة تقدم الزائرين معلنة « وصول مستر كينز وجنتلمان آخر » ، وليس هذا الجنتلمان الآخر سوى رئيس الوزراء .

وكان هناك غير هؤلاء زوار بارزون أيضا . ففي إحدى المناسبات التاريخية قامت الليدي أوتولين بطلاء حجرة الجلوس بلون صناديق البريد الحمراء . ثم قررت أن منظر الحجرة سيصبح أفضل إذا طليت الأبواب بلون الذهب . وكان معها في ذلك الوقت راسل والأسقف جور ، أسقف أكسفورد . وما كان منها إلا أنها صممت على أن يساعدها هذان الرجلان في الطلاء . واستدارت نحو جور قائلة : « تعال أيها الأسقف . فإنك ترتدي مريلتك » وهكذا اشترك راسل والأسقف في الطلاء جنبا إلى جنب . وقيل إن راسل أثبت أنه أفضل من الأسقف في ذلك العمل .

وفي الوقت الذي كان راسل يكتسب أصدقاء ومعجبين جدد بسبب دعوته للسلام ، نراه يتعرض للعداء المتزايد من جانب الحكومة وزملائه من أعضاء هيئة التدريس في جامعة كامبريدج . وغالبا ما كانت نكتته الذكية تضايق أنصار الحرب في كلية ترينيتي وتوجعهم . ولاحظ راسل انه عندما كان يتناول طعامه في الكلية ، كان زملاؤه من الأساتذة يتحاشون المائدة التي يجلس إليها . وحدث ذات مرة ان قال ا . ا . هوسمان لـ ا . هـ . نيفيل العالم الرياضي : « لو أنني كنت أميرا للسلام لاخترت سفيراً أقل منه استفزازاً لتمثيلي» . وعلى الرغم من أن لوويس ديكنسون الرقيق كان من أنصار السلام المقتنعين بمبادئهم مثل راسل تماما ، فإنه لم يثر من العداوة بين زملائه من الأساتذة في كلية كنجز ما أثاره راسل .

وكان المدرسون الشبان في كلية ترينيتي يؤمنون بحق راسل في حرية التعبير عما يريد . ولكن نظراً لأنهم كانوا حينذاك قد تركوا الجامعة ليشتركوا في القتال ، فإنهم لم يتمكنوا من أن يقولوا ذلك إلا فيما بعد . وكان الأساتذة القدامى الذي لم يتحركوا من أماكنهم ـ كما يحدث في أغلب الأحيان ـ

أكثر الناس رغبة في إشعال نار الحرب وبعداً عن التسامح . ومما يؤسف له أن ماك تاجارت كان أشد المناصرين للحرب غلواء وسنحت لأنصار السلام فرصة حين أثيرت قضية إيفريت .

فقد استدعى الجيش للتجنيد واحدا من معترضي الضمير اسمه إرنست أيفريت ثم حكم عليه بسنتين مع الأشغال الشاقة لعصيانه الأوامر . وأصدرت « منظمة مناهضة التجنيد » منشوراً تحتج فيه على هذا الحكم . وألقي القبض على ستة رجال لتوزيعهم هذا المنشور . ولذلك كتب راسل خطاباً لجريدة التيمز يقول فيه : « أحب أن يعرف الناس أنني الذي كتبت هذا المنشور . وإذا كان هناك من يقدم للمحاكمة ، فإنني المسؤول االأول » .

وحوكم راسل أمام اللورد مايور (العمدة) في مانشيون هاوس في ١٥ يونيو عام ١٩١٦ بتهمة التصريح « بأقوال من المحتمل أن تسيء إلى التجنيد والنظام في قوات صاحب الجلالة المسلحة » . وكان لظهور الليدي أوتولين مويل أثناء إجراءات المحاكمة بمعطفها الكاشمير المتعدد الألوان وقبعتها الجميلة الزاهية وقع لطيف في نفوس الحاضرين . ولكن السخط استبد بها لأن المحكمة أمرتها ـ بعد أن وجدت مكانا على الدرج تجلس فيه ـ بالوقوف لأنه لا ينبغي على الناس أن « يرقدوا حيثما اتفق » .

وقام راسل بالدفاع عن نفسه قائلا ، على سبيل المثال ، إن الغرض من المنشور هو توضيح أن من يخرج على النظام يتعرض للسجن لمدة سنتين مع الأشغال الشاقة ، فهل هذا يشجع الناس على مقاومة النظام ؟» وكان منطقه الحاد مدمراً لكل ما يعترض سبيله ، لدرجة ان الحكومة صادرت تقريراً نشرته « ن . س . ف » (منظمة مناهضة التجنيد) يتضمن نص الخطاب الذي ألقاه كما يتضمن إجراءات المحاكمة . ولكن المحكمة أدانت راسل وحكمت عليه بغرامة قدرها مائة جنيه .

وبناء عليه قرر مجلس كلية ترينيتي بالإجماع في ١١ يوليو ١٩١٦ طرد راسل من التدريس فيها . وفي تلك الأيام كان ـ كما هو دائما ـ أكثر حساسية مما بدا في ظاهره . وآلمه طرده من الكلية إلى الحد الذي جعله يرفع اسمه من سجلاتها ، أي أنه قطع علاقته بها تماما . وقد أدى التوتر الناجم عن تحمل راسل العداء العام المستمر ونفور الناس منه إلى أنه أصبح في حالة من شأنها ان تسبب له الوخز ، كما أنه سبب لغيره الوخز . وذكر راسل بعد ذلك بسنوات : « أن كل الزملاء في ترينيتي كانوا يكرهونني » وهي عبارة لم أستطع الحصول على ما يؤيدها تأييدا كاملا من زملائه الأحياء (وهذه العبارة لا تنطبق بالتأكيد على هاردي وجيمس وارد اللذين كانا أستاذين لراسل في الفلسفة حين كان طالبا) . وفي الحقيقة كان الرأي السائد بعد الحرب على الأقل أن ماك تاجارت هو الذي

* يستثنى ج . ا . مور من هذا . فقد اقترح ساخراً أنه ينبغي إلغاء القداس من كنيسة ترينيتي الصغيرة ، نظراً لأنه من الواضح أن الآية المسيحية التي تقول « أحبوا أعداءكم » آية هدامة .

فقد الإحترام بسلوكه نحو راسل .

واستمر راسل في دعايته من أجل السلام . وأعد للنشر تحت عنوان « مبادىء إعادة البناء الإجتماعي » سلسلة من المحاضرات كان قد ألقاها في مستهل ذلك العام . وتضمنت هذه المحاضرات أفكارا راديكالية ليس عن الحرب فحسب بل عن التعليم والزواج وموضوعات أخرى سأناقش رأيه فيها فيما بعد .

وفي بداية الحرب استرعى انتباه راسل شيء واحد بصفة خاصة ، وهو أن الناس بدوا كأنهم يستمتعون بها . وعلق على ذلك لروبرت تريفليان الذي اقترح عليه أن يقرأ ما كتبه برنارد هارت عن « سيكولوجية الجنون » . وكانت نظرية هارت تقوم على أسس علم النفس الفرويدي مع التركيز على الدوافع اللاشعورية . وأدرك راسل انه شخصيا قد توصل إلى ما يشبه نظرية فرويد مستقلا عن فرويد . وكما ذكرنا قبل ذلك ، توصل راسل إلى اللاشعور عندما أدرك انه يمكنه أن ينشغل بمشكلة ثم يدعها جانبا ليكتشف بعد ذلك أن عقله قد وجد حلاً لها. وقرر راسل ان السلام مستحيل ما دامت هناك أنظمة للتعليم تعبىء الناس بالنوازع اللاشعورية للقتال والحرب وتبعا لذلك ، فلا بد من إعادة النظر في كل مقومات البناء الإجتماعي ومراجعته .

وكتب ليتون ستراتشي وصفا لما تتميز به محاضرات راسل ، فقال : « بالأمس توجهت إلى قاعة كاكستون المروعة بالرغم من أنني كنت على حافة الموت أكثر من أي وقت مضى . ولكن الأمر كان يستحق كل ما تجشمت من عناء . إن طريقته في تمزيق كل شيء رائعة حقا ـ إبتداء من الحكومات والأديان والقوانين والملكية حتى الذوق السليم نفسه ـ كلها تتهاوى كما تتهاوى قطع الخشب في لعبة القناني الخشبية . إنها لمنظر بديع . وبالرغم من هذا فإن آراءه البناءة رائعة للغاية . فهو يعيد تركيب جميع الأجزاء المتهاوية ويقيم منها بناء راسخا متينا مضيئا أمام العقول . إنني لا أعتقد أن هناك على الأرض في وقتنا هذا إنساناً هائلاً مروعاً مثله.

وقال راسل في حديثه عن الحرب إن أسلم طريق يسلكه الجانبان المحاربان هو التوصل فوراً لإقرار السلام بأفضل الشروط الممكنة .

وإذا كان إلقاء المحاضرات وتأليف كتاب على هذا المنوال شيئا ، فان نشره في عام ١٩١٦ كان شيئا آخر . ولم يساعده على نشره سوى صلته بستانلي أنوين ، وهو ناشر من أنصار السلام .

وآلت دار النشر الين وأنوين في أوائل يوليو ١٩١٤ إلى أنوين ـ الذي أصبح فيما بعد السير ستانلي أنوين وعميد الناشرين البريطانيين وتسلم أنوين ـ الذي كان في بادىء الأمر مجرد واحد من أربعة مديرين ـ هذه الدار بالاشتراك مع آخرين يساهمون بأموالهم لقاء فوائد محددة ثابتة .

وتأثر أنوين ببعض مقالات راسل التي كتبها أثناء الحرب إلى الحد الذي جعله يكتب إليه مستفسرا عما إذا كانت لديه ، مادة كافية لإصدار كتاب . ورد عليه راسل بأن أرسل إليه مخطوطة « مبادىء إعادة بناء التنظيم الإجتماعي » . وابتهج أنوين بالكتاب بينما تضايق المديرون الثلاثة الآخرون منه بحيث أصبحوا يمثلون الأغلبية بنسبة ٣ إلى ١ . والتجأ أنوين إلى حيلة تنطوي على الدهاء فقد اقترح إرسال المخطوطة الى البروفيسور مويرهيد محرر « المكتبة الفلسفية » حتى يتخذ قرارا في شأن الكتاب . وكان زملاء أنوين المديرين على يقين من أن مويرهيد سيرفض الكتاب فوافقوا على هذا الاقتراح . ولكن أنوين كان واثقاً من أن مويرهيد سيقبل الكتاب . واتضح انه كان على صواب . فقد ذكر مويرهيد في تقريره ما معناه أنه يكاد ألا يوافق على كل ما جاء في الكتاب ولكنه يرى أن للكتاب من الأهمية البالغة ما يقتضي نشره .

ولا يزال للكتاب حتى اليوم أهميته البالغة .

كان نشر هذا الكتاب بمثابة علامة مميزة في مستقبل راسل ، لأنه كان أول كتاب له يبين أنه يستطيع أن يبيع كتاباته على نطاق واسع بين القراء العاديين . وظل بقية حياته يكتب ليس كفيلسوف يؤلف لأساتذة الجامعات فحسب ، ولكن كنبي يستحوذ على قلوب الناس ويدافع عن السعادة الإنسانية . وكتب راسل يقول : « لقد جعلتني الحرب أشعر بأهمية البناء الرهيبة وتشييد الأشياء الإيجابية . إنني لا أريد أن أظل صوتا صارخا في البرية . إنني أود أن أصبح صوتا يسمعه الناس ويستجيبون له ، وأن أقول أشياء يهتم الناس بسماعها . »

وكان كتاب « مبادىء إعادة البناء الإجتماعي » بداية علاقة بين راسل وستانلي أنوين . وهي علاقة كان لها أهميتها بالنسبة لكليهما واستمرت طول الحياة مع استمرار تعامل راسل مع غيره من الناشرين من وقت لآخر .

وكان أنوين رجل أعمال من النوع الذي كان شائعا في القرن التاسع عشر يجمع بين أسس المبادىء الأخلاقية مع أشد حاسة تجارية . وعرف عنه بصفة خاصة دقته الشديدة في تسويق كتبه في الأسواق الخارجية . وقد قضى فترة تمرسه بأعمال النشر والتدرب عليها في ألمانيا . وقام بزيارات شخصية في جميع أنحاء العالم . وقد وضع أنوين بنفسه قائمة دقيقة التفاصيل عن تجار الكتب البعيدين ـ على أساس المعلومات التي استقاها من هذه الرحلات ـ في نظام مفهرس للبطاقات .

وكان راسل قد أصبح يتمتع بذيوع الصيت في مجال تخصصه في أوروبا وأمريكا . ولكن الفضل يرجع إلى أنوين في ذيوع شهرة راسل بين عامة القراء في خارج بريطانيا فقد جعله هذا الناشر أكثر الفلاسفة البريطانيين شعبية في ألمانيا كما جعل كتبه أكثر الكتب توزيعا في بلاد مثل الهند

واليابان . ولقد جاء وقت أصبح فيه بعض الفلاسفة الآخرين يحظون في بريطانيا بإعجاب يزيد عن الإعجاب الذي يحظى راسل به ، تبعا للتغير المستمر الذي يطرأ على ذوق العصر الفكري وتبعاً للتغير الذي تتميز به الدوائر الأكاديمية ، ومع ذلك فقد ظلت شهرة راسل الدولية دائماً لا نظير لها .

وبطبيعة الحال ، يمكن القول بأن أعمال راسل الفلسفية الخالدة لا تدين بأي فضل لأي ناشر . ولكن بدون أنوين ما كانت كتاباته لعامة الناس ، بالتأكيد ، لتجد هذا الجمهور الواسع . واستطاعت هذه الكتابات بدورها عن طريق إثارة الإهتمام به كإنسان أن تشجع الناس على دراسة أعماله العلمية المتخصصة . فلولا الإلهام الذي يوحي به معلم عظيم لما اهتم بالميتافيزيقيا غير عدد ضئيل من الناس. وقد جذب سحر شخصية راسل آلاف الناس في جميع أنحاء العالم نحو دراسة الفلسفة من وانج في الصين حتى كوين في أمريكا، وهكذا انتشر أبناء راسل في مجال الفكر وتضاعف عددهم في كل مكان ، بينما انحصر مريدو فيتجنشتين وهوايتهد في دائرة ضيقة مختارة من الأتباع والتلاميذ.

الفصل الحادي عشر

سجين بركستـــو ن

كانت شهرة راسل العالمية وثناء الأجيال عليه أقل أهمية من الناحية العملية ـ بعد طرده من كلية ترنيتي ـ من مشكلة الحصول على عمل على كل حال سنة ١٩١٦ . ولقد وجهت الدعوة لكي يحاضر في جامعة هارفارد ، ولكن وزارة الخارجية رفضت منحه جواز سفر إلى أمريكا ، فقرر أن يلجأ إلى احتراف إلقاء المحاضرات العامة في بريطانيا . ولكنه بعد أن أعد برنامجاً عن « المبادىء الفلسفية للسياسة » اصطدم بأوامر بالغة الغباوة أصدرتها وزارة الحربية تبلغه فيها أنه يستطيع ان يحاضر في المدن الداخلية مثل مانشستر ، ولكنه لا يمكن أن يحاضر في المناطق المحظورة ، والمدن الساحلية بشكل خاص . ومن الناحية النظرية ، كانت الفكرة وراء هذا الحظر أنه هو أو مستمعيه قد يتشجعون على إرسال إشارات لاسلكية للزوارق الحربية الألمانية .

وكان ذلك الحظر واضح الغباوة لدرجة ان تشارلز تريفليان قدم استجوابا للويد جورج في هذا الشأن . وأجاب لويد على ذلك بأن أحاديث راسل « تتدخل دون شك في مواصلة الحرب . . . ولدينا معلومات من مصادر وثيقة للغاية ان المستر برتراند راسل على وشك القيام بإلقاء سلسلة من المحاضرات من شأنها أن تتدخل بصورة خطيرة في تعبئة جنود الجيش .

وقد رد راسل على هذا الإتهام بقوله : « إنني آمل أن تكون المخابرات أكثر دقة فيما يتعلق بمعلوماتها عن الألمان عما كانت بالنسبة للمعلومات التي تتعلق بي » . وتساءل عن السبب في الإذن له بإلقاء المحاضرات في مانشستر إذا كانت خطرة فعلا .

ومن السهل حقا أن نفهم كيف كانت الحكومة تبدو وكأنها فقدت صوابها بخصوص راسل . فقد كانت تخشى بصفة خاصة أن تسبب أحاديثه الإضرابات بين عمال الذخيرة ، إذ انه كان الرجل الوحيد في حركة أنصار السلام الذي يحظى اسمه بالمهابة والتقدير ، كما أن تخطيه سن التجنيد كان دليلا على موضوعية الموقف الذي اتخذه . ومن ثم أصبح تأييده في ذلك الوقت لشبان غير معروفين من أمثال فنربروكواي ، وكليفورد ألن بالغ الأهمية ، فقد كان لهم بمثابة البطل والمستشار والرفيق .

وكان كليفورد ألن ، الذي أصبح صديق راسل الحميم لمدة ما ، الرجل الذي استطاع فعلا تحويل المعترضين على الحرب باسم الضمير الإنساني إلى كيان متكامل . كان كليفورد رئيسا يثير الإعجاب . لهذه الجماعة ، ملماً بكل المشاكل التي تواجه مختلف الشبان من أنصار السلام ، كما كان خطيبا ممتازا . وقد وقفت إصابته بالسل عائقا في سبيل طموحه السياسي الذي زادت من سوئه فترات سجنه الطويلة كواحد من هؤلاء المعترضين وقد رفض كليفورد الخدمة البديلة للخدمة العسكرية مثل العمل في فلاحة الأرض . ولم يقدر أحد مواهبه ولا الصعوبات التي اعترضت طريقه ، بل إن أحداً لم يبذل جهداً لتشجيعه في شبابه ، مثلما فعل راسل .

ولعل الخطاب الذي أرسله راسل إلى ألن بعد الإفراج عنه من السجن مباشرة يعكس لنا جانباً من حرارة الحب الإنساني في طبيعة راسل الذي يختفي وراء ما يبدو عليه أمام الناس من سخرية لاذعة وحضور بديهة دقيقة وجافة .

> عزيزي ألن ،
> في خبر إطلاق سراحك سعادة لا يمكن التعبير عنها . إنني لا أستطيع أن أخبرك مقدار سروري العظيم ، وسآتي لرؤيتك بمجرد أن يسمح لي الطبيب بذلك .
>
> ألن العزيز ، لقد كانت فترة سجنك أمرا مزعجا لكل الذين يهتمون بك . إن الكثير آت قبل مرور وقت طويل ـ إسترح سعيدا حتى تتحسن صحتك . فالأمور في طريقها إلى النضوج . وسيكون أمامك أن تفعل كثيرا من الأشياء المدهشة فيما بعد .

وفي لحظات الإكتئاب كان راسل يروح عن أصدقائه الشبان قائلا : « هذا هو التاريخ ونحن نساعد في صنعه » . وعندما جادل أمين صندوق « منظمة مناهضي التجنيد » قائلا : « إن إنتاج الضمائر لا يجب أن يكون من شأننا ، أزاح راسل كل التردد جانبا وهو يصيح : « يا للسماء ! لقد كنت أفعل ذلك لعدة سنين »

وذهب راسل ذات مرة مع كليفورد ألن لتناول الغداء مع لويد جورج ـ وكان اللقاء غير ناجح . وحين أراد الرجلان أن يحدثاه عن تحسين معاملة المعترضين ، قال لهما لويد جورج إنه ليس لديه وقت لمناقشة هذه المسائل سوى فترة الغداء . وقبل راسل ضيافة لويد جورج عن كره ولكنه رفض أن يدخن أو يشرب . (رغم أنه كان حينذاك قد تخلى عن إقلاعه التام عن تناول المسكرات وتدخين السجائر) . وعندما أعلن الملك جورج الخامس أنه سيمتنع عن الشراب

خلال فترة الحرب ، قرر راسل أن يفعل العكس وأن يتخلى عن امتناعه الكامل عن المسكرات .

وقد قام فينر بروكواي ، الذي أصبح فيما بعد عضواً إشتراكياً بارزاً في البرلمان ، بتلخيص ذكرياته عن راسل في فترة نشاطه في « منظمة مناهضي التجنيد » بقوله : « لم يكن راسل في غرور شو ورغبته الإستعراضية ، ولكنه كان له نفس ولع شو بتحطيم الأصنام الزائفة » . وفي رأي بروكواي : « كان راسل ممتعا . تملؤه روح الدعابة مثل عفريت ذكي وشقي لا سبيل إلى كبح جماحه . وكان في تلك الفترة يعاني من الضيق المالي . ووصل إلى اللجان متأخرا أكثر من مرة لأنه لم يكن في جيبه أجرة الأوتوبيس . ولعل ذلك كان يرجع أحيانا إلى نسيانه للأمور الدنيوية » واتضح مرة أن راسل كان قد قابل شحاذا له قصة تدل على الحظ العاثر ، وهو يتجه إلى أحد الإجتماعات ، فأفرغ له كل ما في جيبه ثم اضطر إلى السير على الأقدام .

وعرف راسل أحيانا بين لجنة « منظمة مناهضي التجنيد » بميفستوفوليس أو ميفستو (أي الشيطان) بسبب عظام خديه المرتفعة ووجهه الضيق ، والطريقة التي كان يستمتع بها بالمؤامرات التي يحيكها والخطط التي يدبرها للتمويه على رجال البوليس .

ونظرا لأنهم كانوا يخشون أن يقمع البوليس « منظمة مناهضي التجنيد » ، فقد كان لديهم تنظيم سري كامل آخر له نظام محكم للأسماء الحركية . وحدث ذات مرة أن ترك فينبر بروكواي حقيبة صغيرة تحتوي على كل خططهم السرية في تاكسي . وسلمت هذه الحقيبة إلى قسم البوليس . وعندما أعلن هذا الخبر في اجتماع اللجنة قال راسل : « أقترح أن نرجىء الإجتماع ونتوجه إلى سكوتلانديارد وبذلك نوفر على البوليس مشقة القبض علينا » . ولكن هذه الحقيبة التي تحتوي على الأوراق أعيدت سالمة إليهم . إذ كان لأحد أعضاء اللجنة أخ من كبار موظفي البوليس .

وكان لـ « منظمة مناهضي التجنيد » مكتب إضافي . وذات يوم بينما هم مجتمعون وصل إليهم خبر يفيد أن مكتبهم الرئيسي يتعرض لحملة تفتيش من البوليس . وكان هناك ستة من رجال الشرطة السريين في الشارع . واستمتع راسل بما نجم عن ذلك من اضطراب . وقال : « إنهم يبحثون عنا . دعهم يلقون القبض علينا في منزل لورد » ، ولذلك ، فقد شحن أعضاء اللجنة في ثلاثة تاكسيات واتجه بهم إلى منزل أخيه فرانك في جوردون سكوير ، وهو يفكر في مرح فيما سوف يقوله الايرل راسل إذا جاء البوليس للقبض على أخيه الأصغر هناك . ولم يستطع راسل أن يخفي خيبة أمله عندما وجد أخاه الايرل خارج المنزل ، وأن البوليس لم يحضر بالمرة .

وكان السبب الذي أفضى به في نهاية الأمر إلى السجن هو مقال نشرته « ذي تريبيونال » وهي الجريدة الأسبوعية التي كانت « منظمة مناهضي التجنيد » تصدرها . كان راسل على استعداد دائما

لأن يكتب أي شيء من أجل « منظمة مناهضي التجنيد » بتوقيعه أو بدون توقيعه . وفي أواخر ١٩١٧ قرر راسل الإنسحاب من الإشتراك في نشاط الدعوة إلى إنهاء الحرب إيمانا منه في ذلك الوقت بأنه من الأهم أن ينتظر ويعمل من أجل السلام البناء بعد ان تضع الحرب أوزارها . ولكنه عندما احتاجت « ذي تريبيونال » إلى مقال للصفحة الأولى بصورة عاجلة ، كان راسل كعادته على استعداد لإجابة الطلب . في هذا المقال كتب راسل يقول : « ما لم نتوصل إلى إقرار السلام سريعا ، فإن الجوع سيصيب أوروبا كلها . وسيقاتل الناس بعضهم بعضا للحصول على أبسط ضروريات الحياة »

« حينئذ ، فإن الحامية الأمريكية التي ستكون قد احتلت إنجلترا وفرنسا ـ سواء أثبتا كفاءتهما ضد الألمان ام لا ـ ستصبح بلا شك قادرة على إرهاب المضربين وهو عمل اعتاد الجيش الأميركي القيام به في بلاده .

« ولست أقول إن هذه الأفكار تشغل بال رجال الحكومة البريطانية . فكل الدلائل تشير إلى خلو عقولهم من أية أفكار . وأنهم يعيشون دون انتهاج سياسة ثابتة مستقرة مدخلين العزاء إلى أنفسهم بالجهل والثرثرة العاطفية الرخيصة » .

ومن المؤكد أن هذا التعليق على الجيش الأمريكي كان خفيفا ملطفا إذا قورن ببعض ما قيل بحرية ضد الأمريكان منذ ذلك الحين . والإشارة إلى قمع الإضرابات تستند في الحقيقة إلى تقرير رسمي للكونجرس. ومن الصعب ان نقول إذا كانت الحكومة البريطانية قد استاءت من هجوم راسل على الأمريكان أكثر من استيائها من هجومه عليها. ولكن هجوم راسل على الأمريكان كان العذر الذي تعللت به الحكومة البريطانية لاتخاذ إجراء من شأنه أن تنفس به عن الضيق الذي عانت منه من جراء هجومه عليها.

وظهر المقال في ٣ يناير ١٩١٨ وبعد ذلك بشهر تقريبا زار رجلان من رجال الشرطة السريين راسل ذات صباح ووجداه في الحمام وسألاه عما إذا كان هو كاتب المقال، فأكد لهما ذلك.

وقدم راسل للمحاكمة في بوستريت حيث غصت المحكمة بجمع من أصدقائه المرموقين . وقرأ ممثل الإدعاء فقرات من مقال راسل في « ذي تريبيونال » . ولكنه لم يحدث التأثير الذي كان يرجوه . ووصل إلى الفقرة التي تقول : « ولست أقول إن هذه الأفكار تشغل بال رجال الحكومة البريطانية فكل الدلائل تشير إلى خلو عقولهم من أية أفكار » . وهنا ضج الحاضرون من أصدقاء راسل بالضحك . وقطب المدعي جبينه بشدة وقرأ الفقرة للمرة الثانية بصوت أكثر استهجانا . فضج المكان بالضحك مرة أخرى . ولكن هذا الضحك المدوي في قاعة المحكمة لم يستطع أن ينقذ راسل . وحكم عليه القاضي سيرجون ديكنسون بالسجن ستة شهور مع حبسه في الدرجة الثانية .

وعلق ديكنسون على موقف راسل وهو ينطق بالحكم قائلا : « يبدو ان مستر راسل قد فقد كل احساس بالتهذيب والحكم الصائب . وتمادى إلى الحد الذي أهان فيه عمداً ومع سبق الإصرار جيش أمة عظيمة حليفة لنا . . . والإساءة التي ارتكبها تدعو إلى الإحتقار الشديد » .

وعلق راسل على كلام ديكنسون في خطاب كتبه في اليوم التالي : « لقد كان القاضي قاسيا عنيفا بدرجة لا يمكن تصديقها . ولم يحدث أبدا أنني واجهت كراهية مشبوبة مثل تلك الكراهية التي أظهرها نحوي . لقد كان بوده لو أنه استطاع أن يشنقني ويجرني ويقطعني إربا » .

وقد ورد وصف آخر لإجراءات المحاكمة في خطاب كتبه ليتون ستراتشي قال فيه : « إنه لأمر مفضوح حقا . كما أنه شرير ويبعث على التقزز عموما . منظر حشرة مثل السير جون ديكنسون وهو يوبخ برتي ويتهمه باللاأخلاقية ويرسله إلى السجن . وخرجنا من قاعة المحكمة - جيمس سترتيش وأنا - وأسناننا تصطك غضبا . إن حدوث مثل هذه الفظاعة تجعل المرء يفقد الأمل » ولكن راسل نفسه قال بعد ذلك وهو يسترجع سني الحرب » إنني لا أستطيع أن أشكو من الطريقة التي عاملتني بها السلطات . ولم أبذل من ناحيتي أي جهد على الإطلاق للمصالحة ، الأمر الذي اضطرهم إلى إتخاذ إجراء ضدي » .

واستأنف راسل ، ولكن المحكمة أيدت الحكم الصادر بحبسه ستة أشهر . وهكذا نقل راسل في مايو ١٩١٨ في تاكسي الى سجن بركستون . وقد تأسف بعد ذلك على أنه فاتته تجربة نقله في « عربة المسجونين » . وسجل في سجن بركستون تحت رقم ٢٩١٧ وباسم راسل (ب) .

وبفضل تدخل جلبرت مري وآخرين تم نقل راسل بناء على استئنافه إلى سجن من الدرجة الأولى حيث استثمر وقته في القراءة والكتابة . وأجبر فرانك راسل السلطات على السماح لأخيه بالحصول على كل ما يريد . ووضعت اليزابيث زوجة فرانك - مؤلفة كتاب « اليزابيث وحديقتها الألمانية » - في زنزانته أثاثا مريحا : مكتباً وكرسياً وسجادة . فضلاً عن أنه كان يتلقى دائما الكتب والزهور .

وكانت زنزانة راسل أوسع من المعتاد . وكان عليه ان يدفع إيجارا أسبوعيا لها قدره ٢ شلن و٦ بنسات . وكان من أول ما قام به راسل في السجن أنه توجه إلى حاكم السجن - وهو جندي سابق محترم يدعى كابتن هاينز - وسأله بجدية ووقار عن عقوبة من يتأخر في دفع الإيجار ، ذاكراً أنه إذا كانت العقوبة هي الطرد من السجن ، فإنه لن يدفع بنسا واحدا .

وقد عهد إلى زميل له من المساجين مهمة تنظيف زنزانته . وقد أثلج صدر راسل أن يسمع من هذا الزميل انه « جرب جميع السجون فوجد أن سجن بركستون أحسن سجون لندن » . وقال

راسل في معرض الحديث عن رفاقه في السجن : « إن الحياة هنا في السجن مثل الحياة على عابرة محيطات يخالط فيها المرء عددا من الناس المتوسطين ويعجز عن أن يلوذ بالفرار إلا في حجرته على ظهر السفينة . ولست أرى أية علامة تدل على أنهم دون المتوسط فيما عدا أنه من المحتمل أنهم يفتقرون إلى قوة الإرادة ـ ذلك إذا كان المرء يستطيع أن يحكم عليهم من وجوههم »

وقد قال أحد حراس السجن لراسل بفخر واعتزاز إنه عضو في « حزب العمال المستقل » وأن الفرع الذي يتبعه قد وافق على قرار يطالب بإطلاق سراحه .

وسمح لراسل بإضاءة نور حجرته حتى العاشرة مساء بدلاً من الثامنة وبطريقته المنظمة التي عرف بها ، نظم راسل روتين حياته اليومية في السجن ، فخصص أربع ساعات يقضيها في الكتابة عن الفلسفة وأربع ساعات ثانية في القراءة فيها ، ثم أربع ساعات أخرى في قراءات عامة متنوعة من فولتير الى تشيكوف ، من تاريخ الثورة الفرنسية إلى كتب الرحلات عن الأمازون والتبت مع بعض الروايات البوليسية المثيرة أحيانا .

وكان الحرمان الوحيد الذي عانى منه راسل هو منعه من التدخين ـ الذي كاد يكون التغير الوحيد الذي طرأ على حياته (باستثناء المرض) على مدى ستين سنة متصلة قضاها راسل في التدخين ، فضلا عن شوقه لرؤية أصدقائه . وكان يأكل الشيكولاته بدلا من التدخين . ونظرا لأن سلطة السجن كانت تسمح بأن يزوره ثلاثة أصدقاء معا كل أسبوع ، فقد كان ينظم أصدقاءه بدقة في جماعات تتكون كل منها من ثلاثة أشخاص بحيث تتفق مشاربهم ويستطيعون الإستمتاع باللقاء معا .

وكانت زيارة راسل في السجن تجربة لا تمحى من الذاكرة بالنسبة لأولئك الذين توفر لهم ذلك الحظ النادر في رؤيته . وفي إحدى المناسبات اتفق فرانك راسل مع الليدي أوتولين موريل وجلاديس ريدير ـ وهي موظفة في «منظمة مناهضي التجنيد» ـ على الإلتقاء على الكورنيش ليأخذوا الترام الى سجن بركستون. وكانت الليدي أوتولين موريد أول من لحق بالآنسة ريندر. وجاءت وهي ترتدي فستانا رائعا من ثلاث طبقات من التافتاه الملونة ترصع الفضة أطرافه العليا وتتحلى بقلادة من اللؤلؤ من طراز ماري انطوانيت. وجاء بعدها فرانك مرتديا قبعة عالية ومعطف الفراك الطويل. وصعد ثلاثتهم إلى أعلى الترام وسط نظرات الإنبهار من كل الركاب الموجودين الذين أنصتوا فيما يشبه السحر إلى فرانك وهو يتحدث بأعلى صوته عن تجاربه الشخصية عندما أرسل إلى السجن بتهمة تعدد الزوجات.

وذكرت . ت . س . اليوت انه ذهب إلى زيارة راسل مع فرانك راسل وديزموند ماكرثي .

وجلسوا جميعا يتحدثون تحت تكعيبة في فناء السجن ـ وكأنهم في عربة بولمان ـ والحارس يرقبهم من مسافة محسوبة بدقة .

وكان راسل يستعد لهذه الزيارات بإعداد قوائم طويلة بالأشياء التي يريد أن يسأل أو يتحدث عنها . ولكن عندما يصل أصدقاؤه فعلا ، فإنه كان في العادة ينسى في شدة انفعاله ما كان يريد أن يقول . وكتب راسل إلى جلاديس ريندر يقول : « تذكري أن ما يريده المرء هو الأخبار عن أصدقائه . إنني أحصل على أخبار السياسة من الصحف وأستطيع أن أنتج العواطف والنكات في مقر السجن . ولكني أستقي أخبار الأصدقاء من الزيارات والخطابات . » ووردت عليه مس ريندر بخطاب مليء للغاية بالخوض في القيل والقال عن أناس أشارت إليهم بالحروف الأولى من أسمائهم لدرجة ان مأمور السجن صادره ظنا منه أن هذه الحروف قد تمثل شفرة معقدة .

وفي السجن وضع راسل الأعمال الفلسفية التالية « مقدمة الفلسفة الرياضية » ، وعرض طويل لكتاب ديوى « مقالات في المنطق التجريبي » كما أنه أمضى وقتاً في قراءاته التمهيدية فيما يتصل بالبحث الذي انتهى به إلى وضع كتابه عن « تحليل العقل » وكان مأمور السجن الكابتن هاينز يراقب أي مخطوط يرسله للخارج . وتعب هذا المأمور جداً وهو يقرأ بجهد جهيد « مقدمة الفلسفة الرياضية » وهو كتاب لا تسهل قراءته كما توحي بذلك كلمة « مقدمة » . وعندما تعثر مأمور السجن في قراءته منذ البداية ، قال إنه يكفيه أن يقدم راسل له تأكيدا شخصيا بأن الكتاب لا يحوي أفكارا هدامة . وكان أنصار السلام متفاهمين على أن يفعلوا دائما كل ما في وسعهم لعرقلة الأمور أمام المسؤولين . ولكن راسل قرر أن فرض الفلسفة الرياضية فرضا إجباريا على مأمور السجن يعتبر تطبيقا مبالغاً فيه لهذا المبدأ . ومن ثم فقد قدم إليه التأكيد المطلوب .

وإنه ليصعب علينا ألا نظهر شيئا من العطف على كابتن هاينز الذي لم يعرف قطماذا يفعل بالضبطإزاء ضيفه الممتاز . وذات مرة أرسل إليه ديزموند مكارثي يقول إن راسل يرغب في عصفور كناريا في قفص . واستدعى المأمور راسل وسأله إذا كان الأمر كذلك . فأجابه راسل بقوله : « لا ، إن ما أريده هو قرد من نوع الأورانج تانج » (لأنه كما أوضح في خطاب له لجلاديس ريندر كان يأمل أن يلقى هذا القرد ضوءا على العقل في أصله وكما يتمثل في مجلس الوزراء) . وكلما شاهد راسل مأمور السجن تعمد أن يطلق النكات محاولا أن يجعله يضحك كي يسلي نفسه بمنظر المأمور وهو يغالب نفسه للمحافظة على صرامة وجهه .

ويخالج المرء شعور بأن السجن قد ترك في نفس راسل أثراً عميقاً على الرغم من كل ما أظهره هنا من مرح واستخفاف تماماً مثلما أحس عندما طردته كلية ترينتي. وفي الأيام الأولى كتب راسل يقول : « لقد تتابعت الأيام رتيبة . ولكنها كانت مقبولة إلى حد ما . وأعتقد أنني أخطأت الهدف

عندما لم أتحول إلى راهب يتبع أحد أنظمة الرهبنة التي تستغرق في التأمل . « ولكن شيئاً من شعوره الحقيقي تكشف في أحد خطاباته التي هربها خارج السجن » . آه . أليس رائعاً أن تتمكن من المشي عبر الحقول وأن تشاهد الأفق وتتحدث بحرية وأن تكون مع أصدقاء ؟ . . . إنني مستقر في هذا الوجود وأنعم بشيء من الهدوء . ولكني أنعم بالإستقرار والهدوء في هذا الوجود فقط لأنه سينتهي حالاً . إن كل أنواع المباهج تلوح أمام مخيلتي ـ وفوق كل هذه المباهج الحديث ثم الحديث ثم الحديث. إنني لم أعرف قط كيف يتعطش الإنسان للحديث. لقد استفدت من الوقت الذي أمضيته هنا. إذ أني قرأت كثيراً وفكرت كثيراً وازددت تماسكاً. إنني أتفجر بالحيوية ـ ولكني أتشوق إلى الحضارة والحديث المتحضر. كما أني أشتاق إلى البحر والإنطلاق الوحشي وإلى الريح. إنني أكره أن أكون مرتباً نظيفاً مثل كتاب في مكتبة لا يرتادها أحد للقراءة إن السجن شيء في مثل هذه الفظاعة. تصور أنك كتاب لذيذ اشتراه مليونير ووضعه مجلداً مع كتب كثيرة غيره مجلدة بنفس الطريقة، وأغلق عليه في رف وراء لوح من زجاج، حيث يصبح مجرد صورة لكمال النظام دون أن يسمح لأي فوضوي، بالإطلاع عليه ـ هذا هو ما أحس به ـ ولكن سرعان ما سوف يتمكن أحد من الإصرار على قراءته».

وبعد إطلاق سراح راسل في سبتمبر ١٩١٨ كتب لكليفورد ألن قائلاً: «لقد خرجت من السجن بحساسية غريبة مفرطة جعلتني أظن أن كل واحد يكرهني». ولكنه أضاف أن هذا الشعور يزايله بسرعة وأنه سيصبح في القريب العاجل شخصاً عادياً وقوياً. ولحسن الحظ أن هذا التنبؤ تحقق. ولا يمكنني أن أنهي هذا الفصل بصورة أفضل من أن أذيله بشيء مما كتبه راسل قبل مغادرته السجن مباشرة. وهو شيء سيظل من أجمل الشواهد على حرية النفس البشرية:

« ليس هناك أبداً مكان كالسجن تتزاحم فيه الصور ، التي تترى واحدة تلو الأخرى ملحة على الانسان : صور الصباح المبكر في جبال الألب مع الجليد الذي يغطي أشجار الصنوبر العبقة ، والمراعي المرتفعة تلمع بالندى ، وبحيرة جارداً كما يراها المرء لأول وهلة وهو يقبل من أعلى الجبال ، وميضاً نائياً بعيداً من أسفل تتراقص وتتلألأ في ضوء الشمس مثل عيني غجرية أسبانية ضاحكة مجنونة ، والعاصفة الرعدية في البحر الأبيض المتوسط بين لجج الماء البنفسجية الداكنة ، وجبال كورسيكا في إشراق الشمس من الخلف البعيد ، وجزر صقلية في غروب الشمس فاتنة حالمة لدرجة أنك تتصور أنها ستختفي عن الأنظار قبل أن تصل إليها ، فتبدو وكأنها جزر علوية لا يمكن أن تتحقق في عالمنا الفاني ، ورائحة بركة الريحان في سكاي ، وذكريات غروب الشمس منذ أمد بعيد ، كلها تعود بالذاكرة إلى أيام الطفولة . إنني أستطيع الآن وكأنه بالأمس القريب أن أسمع نداء رجل في شارع من شوارع باريس يبيع : « الخرشوف أخضر وجميلاً » رغم

أنه مضت على سماع ندائه أربع وعشرون سنة تكاد تكون كاملة باليوم . وبغض النظر عن ذكريات الطفولة ، فإني أتذكر صفاً من أشجار اللاركس بعد هطول الأمطار وقد تعلقت بكل فرع من فروعها قطرة مطر . وإنني أستطيع أن أسمع حفيف الريح بأعلى أشجار الغاب في منتصف ليالي الصيف ـ كل شيء حر وجميل يرد إلى خاطري آجلاً أو عاجلاً .

« ما جدوى حبس الجسد ما دام العقل طليقاً ؟ لقد عشت وأنا هنا بين جدران السجن خارج حياتي الخاصة في البرازيل والصين والتبت والثورة الفرنسية . وفي هذه المغامرات نسيت السجن الذي يحبس فيه العالم نفسه في هذه اللحظة . إنني حر وسيكون العالم حراً كذلك » .



الفصل الثاني عشر

تحليل العقل

شغل راسل نفسه بعد أن خرج من السجن ـ على حد قوله ـ ب « الزحف عائداً إلى عالم الفلسفة» . وكان أول عمل له هو إلقاء سلسلة من المحاضرات في لندن، أعاد إلقاءها في بكين، ثم نشرت في نهاية الأمر تحت عنوان «تحليل العقل» وهو عمل كان قد بدأ العمل فيه سجن بركستون .

وكان لهذه المحاضرات بداية غريبة . فعلى الرغم من أن راسل كان قد ورث مبلغاً من المال يكفي لأن يمده بدخل مستقل صغير ، فإنه كاد يبدد كل ما لديه من مال بالتدريج على مر السنين. فقد دفع على سبيل المثال نفقات منح دراسية في مدرسة لندن للاقتصاد استفاد منها يوماً ما توم جونز الذي اشتهر فيما بعد بأنه سكرتير لأربعة رؤساء وزارة .

واتضح من كتاب راسل « مبادىء إعادة البناء الاجتماعي» أن بوسعه أن يكسب قوته كمؤلف شعبي يكتب لعامة الناس . ولكن نظراً لرفع سن التجنيد ، فقد كان من الممكن استدعاؤه للخدمة لعسكرية إذا لم يتم إعفاؤه منها بسبب اشتغاله بالتدريس . وفي أواخر ١٩١٨ أنشأ مجموعة من أصدقائه فيما بينهم صندوقاً خاصاً لامداد راسل بما يكفيه في معاشه لمدة ثلاث سنوات يهب فيها نفسه للبحث العلمي وإلقاء المحاضرات. وكانت أولى نتائج هذا الصندوق هي ما حصل عليه من أجر مقابل محاضراته عن « تحليل العقل* » . وبمجرد أن انتهت الحرب طالب راسل بالغاء صندوق المساعدة وقال إنه يفضل أن يكسب قوته عن طريق الكتابة . بل إنه استطاع في أواخر ١٩١٩ أن يقرض مبلغ ٤٠ جنيهاً استرلينياً لكليفوردالن الذي قاسمه شقته في

* تثير فينا القائمة الأصلية للمساهمين في هذا الصندوق شيئاً من حب الإستطلاع فهي تضم الأسماء التالية : تشارلس سانجر ، ويلدون كار ، لوسي سيلكوكس ، سيجفريد ساسون ، تشارلس تريفيليان ، ليدى أوتولين موريل ، الأمير أنتونيو بيلبسكو ، ج . م . كينز ، ريندل هاريس ، س ج . أ . نورتون ، جيمس وارد .

باترسي لبعض الوقت . وكان هذا المبلغ أكثر مما طلبه ألن ، غير أن راسل قال : « أعرف أن الانسان ينتقص من تقديره لما يحتاج إليه في مثل هذه الظروف . فأنا على الأقل أفعل ذلك» . وقال أيضاً : « أستطيع دائماً أن استغني عن بعض المال باستثناء شهر ديسمبر الذي أدفع فيه أقساط التأمين» .

لقد رأينا كيف نادى راسل في سجنه بحرية الروح الانسانية وقدرة العقل على التحرك دون قيود حتى وإن كان الجسد مكبلاً بالأغلال . ولقد قال في هذا الشأن كما رأينا : « إنني حر ولسوف يكون العالم حراً كذلك» . ولكن راسل انصرف في نفس الوقت للتوصل إلى فلسفة تكاد بمقتضاها الأفكار التي تدور في عقله ألاّ تكون حرة . بل أيضاً ألاّ يكون لعقله وجود بالمعنى الشائع لهذه الكلمة ، فأي فرق في النوع بين العقل والمادة لا يعدو أن يكون وهماً صارخاً .

وفي أبريل ١٩١٩ قال راسل لكلفورد ألن : « نظراً لأن الآلهة تدرك أنني أحاول أن أثبت أنه ليس هناك شيءاسمه العقل، فقد جعلتني أصاب ببرد ليعطيني في الوقت الحاضر دليلاً شخصياً على صحة مبحثي» .

وبدقة أكثر ، فإن مبحثه في « تحليل العقل» يتمثل في « أن المادة ليست مادية والعقل ليس عقلياً بالقدر الذي نفترضه بوجه عام» . . . . « يبدو أن العقل والمادة خليطمشترك . ونكمن المادة* التي يتكون هذا الخليطمنها بمعنى ما بين الاثنين ، وبمعنى آخر في منزلة أعلى منهما كما لو كانت سلفاً مشتركاً لهما» .

ويدين هذا النوع من الفلسفة الذي استحدث في أمريكا تحت أسم « الواحدية المحايدة» بالفضل الكثير إلى وليم جيمس . ويمكن أن نذكر تأكيد راسل في هذا الوقت لهذا النوع من الفلسفة كمثال على شيء كان يصر دائماً عليه ، وهو التمييز الكامل بين آرائه الفنية المتخصصة كفيلسوف وبين كتاباته السياسية واليومية . وليس في هذا أي تناقض منطقي . فمن المسموح به استخدام كلمة « حر» بطريقة مختلفة في الفلسفة عنها في السياق البلاغي . إذ لا يعرف أحد بالضبطمعنى هذه الكلمة على أية حال . وحتى من يؤمن « بالواحدية المحايدة» قلما يستطيع أن يتجنب استعمال كلمتي « عقل ، جسد» في حديثه العادي ، الأمر الذي ينتهي بالقارىء العادي لتفسيرهما بطريقة عادية .

والحديث العادي ، كما يرى راسل ، هو الأصل في سوء الفهم . فنحن حين نقول أن المنضدة « بنية اللون» فإننا نفترض ضرورة وجود منضدة من مادة . بيد أن ما نعرفه في الحقيقة هو

---

* substœnce

أن هناك معطيات حسية هي بقعة بنية اللون . وعندما نقول : « أنا أفكر » ، فإننا نفترض وجود « أنا» تفكر ، بينما كل ما نعرفه هو أن هناك تجربة تفكير* . وكتب راسل يقول : « إن الذات» ـ التي ننسب إليها التفكير المقصود بها في هذه الحالة راسل نفسه ـ « يتضح أنها وهم منطقي تماماً كالنقط واللحظات في علم الرياضة . ونحن نستخدمه ليس لأننا نتبينه بالملاحظة، ولكن لأنه مناسب من الناحية اللغوية وتتطلبه قواعد اللغة . وكما قال راسل في محاضراته عن « الذرية المنطقية» التي ألقاها في أوائل عام ١٩١٨ « إن الشخص سلسلة معينة من الخبرات والتجارب** .

وكان هدف راسل في «تحليل العقل»، كما يقول: «هو أن أخضع العقل لنفس النوع من التحليل الذي طبقته على المادة في كتاب « معرفتنا بالعالم الخارجي» وفيه عالج راسل قطعة من المادة على أنها بناء منطقي*** يقوم على الأحاسيس**** ، وقرر أن الاحاسيس ، ومعطيات الحواس شيء واحد .

وكانت هذه الخطوة الثانية أصعب خطوة بالنسبة له في الوصول إلى « الواحدية المحايدة» .

وقد أصر راسل في كتابه « معرفتنا بالعالم الخارجي» على التمييز بين إحساسنا الذي هو حدث ذهني يتمثل في إدراكنا لشيء حسي والشيء الحسي الذي ندركه عن طريق الاحساس» . ويعد راسل التجاهل لهذا الفرق تجاهلاً عن جزء من اقتناعه الذي يدحض به آراء باركلي ويسخر به من بيرجسون . وما يأخذه عليهما هو أنهما خلطا بين الذات والموضوع بطرق شتى . وقال بعض المثاليين في هذا الشأن إنه إذا كان كل ما نعرفه عن المنضدة لا يعدو أن يكون فكرتنا عنها في أذهاننا ، فإن المنضدة نفسها تكون ذهنية بوجه ما . وكتب راسل يقول : « لا يستطيع أن يقبل مذهب بيرجسون في الحدسية سوى من لا يميز بوضوح بين الذات والموضوع» .

غير أن التخلي عن هذا التمييز هو ما يتسم به أسلوب راسل في معالجة الأمور ، فبعد أن يكون قد أولى خطاً يتتبعه في البحث والاستقصاء كل تفكيره ، نراه يستمر فيه مهما كانت نتائجه كريهة على أفكاره المسبقة الأصلية .

ويبدو أنه اضطر إلى إعادة النظر في المسألة وتوصل إلى الواحدية المحايدة والتطابق بين

* an experience of thinking

** a certain seies of experiences

*** logical construction

**** sensations

الاحساس ومعطيات الحواس عن طريق الاتجاهات المعاصرة في علـم النفس والفيزياء. وكان راسل على علم تام بأبحاث الدكتور واطسون والسلوكيين ورأيهم القائل بأن الانسان كله جسد. وليس عقلاً. فالأفكار على سبيل المثال ليست سوى ردود فعل حركية أولية بسيطة في الحنجرة. وفي نفس الوقت كان أنيشتين يحدث تغييراً في وجهة النظر التقليدية عن الكتلة والمادة. وهكذا فإنه طبقاً لما توصل إليه علم النفس والفيزياء الحديث، فقد أصبح العقل أكثر اعتماداً على المادة، بينما أصبحت المادة أقل مادية عن ذي قبل. وظهرت «الواحدية المحايدة» على أنها نقطة التقاء طبيعية بين هذه الاتجاهات.

وبعد أن دلل راسل على أن الأشياء المادية « بناء» * يقوم على معطيات الحواس ، رر أن المعطيات الحسية للون البني والاحساس برؤية اللون البني هما نفس الشيء، اتجه هذا الا يلسوف نحو توضيح أن العقل «بناء» يستخدم نفس مكونات الأشياء المادية الفيزيقية. وقال إن الفيزياء، من ناحية كونها علماً يقوم على المشاهدة والتجربة وليس خيالاً منطقياً، تعنى بدراسة جزئيات من نفس نوع الجزئيات التي يدرسها علم النفس تحت اسم الإحساسات** .

وترتب على ذلك أن توصل راسل إلى فلسفة تمثل الجهد الدؤوب الصبور ، وهي فلسفة لا تنتبه إليها في أغلب الأحيان بسبب لمعان نكتته ووهج دعابته ، وحصيلتها أنه إذا كانت وظيفة العقل الوحيدة أن يحصل على الإحساسات ، وإذا كان الوعي يتمثل ببساطة في رؤية الأشياء وسماعها ولمسها ، فإن من الممكن إثبات « الواحدية المحايدة» بصورة كاملة . ويمكن النظر إلى كل من العقل والمادة على أنهما بناءان يقومان على الاحساسات (او معطيات الحواس) مجمعة بطرق مختلفة . غير أن العقول تحتوي أيضاً على معتقدات ورغبات وذاكرات وهكذا . ولو كانت كل هذه الأشياء أبنية تتكون من الاحساسات ، لأمكن بنجاح إثبات الواحدية المحايدة بحذافيرها . ولقد كان من الممكن أن يعتقد بعض الفلاسفة أن هذا يجب أن يكون ممكناً لمجرد إحساسهم الغريزي بأن مثل هذه الفلسفة المذهلة في دقتها ونظامها المتناسق لا بد وأن تكون صحيحة .

وعلى سبيل المثال ، كان فيتجنشتين الشاب ينساق وراء نظرية كهذه على هذا النحو دون أن يتوقف لفحص التفاصيل ومعرفة ما إذا كانت هذه النظرية يمكن العمل بها أم لا . غير أن راسل في « تحليل العقل» حاول أن يدرس هذه الوظائف الاضافية للعقل الواحدة تلو الأخرى

---

* construction

** إن صنف كل ظواهر كرسي في حجرة كما يراه سائر الناس المختلفين فيها ـ حسب شرح راسل في قاعة المحاضرات ـ يعطي شيئاً ينتمي إلى علم الفيزياء . أما صنف ظواهر كل الكراسي المختلفة ـ إذا نظر إليها من منظور معين ـ يعطي شيئاً ينتمي إلى علم النفس .

ليرى هل يمكن للواحدية المحايدة أن تجد تفسيراً لها . وأصاب راسل في ذلك نجاحاً كبيراً ، إلاّ أنه لم يسمح لرغباته المسبقة أن تخدعه وتجعله يظن أن نجاحه كان كاملاً . ومن ثم فإنه بدلاً من أن يصل إلى تعميمات مرضية كاملة انتهى به الأمر إلى نظرية غير محكمة مفككة الأطراف ، ينقصها التناسق ، واعترق بأنه هو نفسه لا يرضى دائماً عما وصل إليه من نتائج .

ولقد فسر راسل بعض الوظائف الإضافية للعقل على أساس النظرية السلوكية وقرر على سبيل المثال أن الرغبة دورة سلوكية تنبع من الإحساس بعدم الراحة . « إن العنصر البدائي غير المدرك* في الرغبة يبدو أنه دفع لا جذب ، دافع للبعد عن الواقع أكثر من كونه جذباً نحو المثال».

وعندما بدأ راسل في دراسة الايمان والذاكرة والخيال واجه صعوبات أكبر . وعلى الرغم من أنه قد ردها جميعاً الى مركبات من الإحساسات** ، فإنه خالف السلوكيين باعترافه بالاستبطان والصور الذهنية . وجاء في خطاب له : « يقول السلوكيون إن الصور الذهنية هي حركات صغيرة للسان والزور وهما ينطقان الكلمات في صمت . وهذا هراء واضح» .

وهكذا بقي أمام راسل عنصران في العقل لا يمكن ردهما لشيء ، وهما الإحساسات والصور الذهنية . غير أن الصور الذهنية لا تختلف في جوهرها عن الإحساسات ، تماماً كما تتشابه « معطيات الحواس غير المحسوسة» (إن وجدت) في طبيعتها مع الإحساسات» . إن العقل بناء من الصور الذهنية والإحساسات ، كما أن المادة بناء مستمد من الإحساسات وربما معطيات الحواس غير المحسوسة . وبذلك تكون الإحساسات« هي نقطة تقاطع العقل مع المادة» .

وهكذا نجح راسل الى هذا الحد في القضاء على الاختلافات الجوهرية بين العقل والمادة . بيد أن نوعاً آخر من الثنائية بدأ يظهر أمامه . فقد تكون الرغبة دورة سلوكية ، غير أنه كان من الضروري أن نفسر لماذا يتميز سلوك الآدميين بالقدرة على التعلم من التجارب والخبرات . وتعين على راسل أن يفسر لماذا يخشى الطفل النار التي اكتوى بها من قبل ويتصرف طبقاً لهذا، بينما لا تفعل ذلك قطعة من الخبز المقدد . وكان رد راسل على ذلك أن القوانين السببية النفسية تختلف عن القوانين السببية الفيزيقية . والفرق الجوهري بينهما هو أن الوحدة السببية* في علم النفس ليست حدثاً واحداً وإنما حدثين أو أكثر اختفى أحدهما أو أحدها . (في المثال المشار إليه حدث حرق الطفل فيما سبق) .

---

* non — cognitive

** complexes of sensations

* causal unit

ومن الجلي أن راسل كان يود أن يوضح أنه يمكن رد القوانين النفسية ، بقدر أكبر من المعرفة ، إلى قوانين فيزيقية . ولكنه اعترف بصراحته المعهودة بأنه لا يعرف إذا كان في وسعه أن يفعل ذلك . وهكذا بقيت أمامه ثنائية رئيسية لعلها أكثر إقلاقاً للإدراك العام الفلسفي من الثنائية الأصلية بين العقل والمادة .

واستمرت فلسفة راسل عن الواحدية المحايدة في التطور خلال السنوات التالية . غير أنني سأذكر هنا بعض الشكوك والاقتراحات التي تقوم على أساس الإدراك العام . وذلك فيما يتعلق بموقفه في كتابه « تحليل العقل » .

أولاً : نظراً لأنه لم ينجح في الوصول إلى واحدية محايدة كاملة ، فإني أعتقد أنه كان يجدر به أن يعيد النظر في بعض الخطوات التي اتخذها للوصول إليها ، وبخاصة تحليله للرغبة . ولست أظن أن ما يقوله يمكن تفنيده . ولكني أفضل ونحن بصدد تفسير السبب الذي من أجله صعد سيراد موند هيلاري جبل افرست أن نقول : إنه كان يريد أن يصعد إلى قمة الجبل ، لا أن نقول إنه كان يشعر بعدم الراحة أسفله .

(أصبح راسل فيما بعد يميل إلى الموافقة على أن نظريته عن الرغبة في « تحليل العقل » قد لا تكون سليمة . ولكنه لم يكن يوافق على أن النظرية السليمة تقتضي إرجاع « الأنا » إلى مكانتها السابقة) .

ثانياً : إن السبب الرئيسي الذي استند إليه راسل في إنكار النفس هو عجزه عن أن يجد الدليل عليها القائم على المشاهدة والتجربة . فالأفكار تتضمن خبرة التفكير ولكنها لا تتضمن «الأنا» التي تفكر. ولقد فقدت هذه الحجة شيئاً من قوتها بعد أن أصبح راسل أكثر استعداداً للاعتراف بحدود مذهب المشاهدة والتجربة، بل وتأكيد ذلك.

ثالثاً : يجب الإعتراف بأن فشل راسل في إثبات وجود تناسق* بين العقل والمادة كان له فائدة عظيمة . فقد دفعه ذلك إلى رفض التوازي النفسي ـ المادي** ، وإلى الاعتقاد تبعاً لذلك بأن العقل يمكن أن يتفاعل مع المادة ، وبالعكس . ولقد يسرت الواحدية المحايدة كثيراً من قبول وجهة النظر التي تقوم على الإدراك العام لمشكلة العلاقة بين العقل والجسد ، والتي أعتقد أنها واضحة الصحة وأنها أقرب إلى الحقيقة من معظم الفلسفات .

ويجدر بي أيضاً أن أعاود الحديث هنا عن محاضرات راسل عن الذرية المنطقية ، التي

* symmetry

** psycho — physical parallelism

سبقت الاشارة إليها . وتستمد هذه المحاضرات مادتها من أفكار أثارتها مناقشاته في المنطق مع فيتجشتين ،وفي فترة الحرب أكمل فيتجنشيتن كتابه « رسالة في فلسفة المنطق» أثناء خدمته في الجيش النمساوي . وفي حوالي ١٩١٩ تقابل راسل وفيتجنشتين في لاهاي لمناقشة هذا الكتاب ، الذي نشر لأول مرة باللغة الألمانية ثم صدرت له ترجمة بالانجليزية في عام ١٩٢٢*.

وكتب راسل مقدمة لهذا الكتاب أثارت غضب فيتجنشتين الشديد ، قائلاً إنها تسيء تقديم أفكاره . وعلى قدر ما أعرف كان فيتجنشتين يرفض دائماً تفسير أي شخص آخر ـ غير نفسه ـ لآرائه . والواقع أن هناك شكاً في مدى نجاحه في شرح آرائه بنفسه.

وكان أنجب تلامذة راسل وفيتجنشتين فرانك رامزي الذي كانت وفاته المبكرة المحزنة سبباً في عدم انتهائه من عمله الأصيل المبتكر . وذات مرة ضاق فرانك ذرعاً بالمناقشات المحتدقة التي لا تنتهي في جامعة كامبردج حول تفسير «رسالة» فيتجنشتين، وقرر أن يذهب إليه في النمسا حيث آثر اعتزال الحياة لبضعة أعوام ليسأله مباشرة عما يعنيه في بعض الفقرات الغامضة من كتابه. غير أنه مني بشيء من خيبة الأمل عندما أجابه فيتجنشتين بأنه لا يذكرها.

ولن أحاول في الوقت الحاضر أن اكتب شيئاً عن « رسالة» فيتجنشتين بالرغم مما لها من أهمية قصوى . ولكني سأكتفي بأن أذكر ما أعتقد أنه أهم فكرة تقاسمها فيتجنشتين مع راسل في ذلك الوقت ، والتي أعتقد أنه ليس هناك شك في نسبتها إلى راسل ، نظراً لأنه يمكننا أن نتتبع أصلها في « مبادىء الرياضيات» وفي أعمال راسل السابقة على هذا الكتاب .

وتتلخص هذه الفكرة في تأكيد « البناء** » . ومثال ذلك ما ذكرناه من قبل عن النظرية التي تذهب الى أن الجملة لها نفس الحقيقة التي تصفها . ولكن هذه الفكرة أوسع من هذا في مدى أهميتها . وإني أورد في هذا الصدد فقرة كتبها راسل في « مقدمة الفلسفة الرياضية» .

« غالباً ما يقال إن الظواهر ذاتية غير أن سببها يرجع إلى الأشياء في حد ذاتها . وحيث تقدم هذه الفروض ، فإننا نفترض بوجه عام أننا لا نستطيع أن نعرف إلاّ القليل جداً عن المقابل الموضوعي لها . والواقع على أية حال أنه لو كانت هذه الفروض ـ كما وردت ـ صحيحة ، فإن مقابلاتها الموضوعية سوف تكون عالماً له نفس بناء عالم الظواهر ويسمح لنا بأن نستدل من

* لما كان أحد الكتاب قد ذكر أن راسل مسؤول عن الترجمة ، فإنه يجدر بنا أن نسجل هنا أنه لم تكن له علاقة بها . ولكن لا سبيل إلى إنكار أن الأخطار التي وردت فيها والتي زادت من غموض الكتاب بالنسبة للقراء الإنجليز زيادة كبيرة قد ساعدت « فيتجنشتين » على أن يشتهر بصفة العمق في تفكيره .

** structure

الظواهر على حقيقة كل القضايا التي يمكن أن نضعها بشكل مجرد والتي نعرف أنها تصدق على الظواهر» .

ولم تكن هذه الفكرة على نفس القدر من الأهمية من وجهة نظر فلسفة راسل في ذلك الحين . غير أنها أصبحت ذات أهمية كبرى بعد عودته إلى وجهة النظر العادية عن العالم الخارجي ، الذي هو سبب مدركاتنا الحسية . والمعرفة التي نحصل عليها عن طريق مدركات الحواس هي معرفة ببنائها لا يمكن التعبير عنها إلاّ في صياغات رياضية مجردة . وهنا نصل إلى مملكة من السحر والفتنة تتلاقى فيها الفلسفة بالعلم . فالعلم الحديث بعد أن اتفق مع راسل في محاولة استبعاد ذلك النوع من الموجودات التي لا تخضع للملاحظة والتي أقصاها « بنصل أو كام» اتفق معه أيضاً على أن معرفة البناء هي الشيء الوحيد الذي يتبقى.

ولكي يشعر القارىء بالاقتناع فيما يتعلق بهذه النقطة ، فليس عليه إلاّ أن يلاحظ كيف كان أدنجتون يكثر من اقتباس هذه الفقرة التي أشرنا إليها فيما سبق من كتابات راسل . وقد يرجع القارىء إلى ما كتبه سكرود ينجر تحت عنوان « العلم والمذهب الإنساني» حتى يجد مثالاً ميسوراً آخر على أهمية البناء بالنسبة للعلماء . وفيه يذهب سكرود ينجر إلى أن التفرد يحدده البناء وليس هوية المادة . وأعود على سبيل المثال إلى توضيحي السابق فأقول : إننا نستطيع أن نذهب إلى أن تشرشل الشاب وتشرشل السياسي العجوز يتميزان بتشابه معين في البناء .

الفصل الثالث عشر

زيارة للاتحاد السوفييتي

اتسم الفكر اليساري في بريطانيا بين الحربين العالميتين الأولى والثانية بانحرافين رئيسين . أولهما هو الاقتناع بأن الحرب العالمية الثانية تعني نهاية الحضارة الغربية ، وأن أية محاولة للدفاع عديمة الجدوى . وثانيهما الاعتقاد اعتقاداً حسن النية أن أي شخص يؤمن أن قادة روسيا السوفيتية كانوا طغاة شموليين غلاظ القلوب إنما هو من المحافظين الرجعيين . ولقد أدى انتشار الخطأ الأول إلى انتصار هتلر في عام ١٩٤٠ . وكاد ينجم عن الخطأ الثاني فقدان السلام في سنوات ما بعد ١٩٤٥ .

ولا يمكن تبرئة راسل من ارتكاب الخطأ الأول كما سنرى فيما بعد . ولكنه كان بريئاً تماماً من ارتكاب الخطأ الثاني . ويكاد راسل أن يكون فريداً بين الراديكاليين البريطانيين في مواجهة الحقيقة بالنسبة لروسيا .

وساعدت الحرب العالمية الأولى على تحول راسل من الليبرالية إلى الإشتراكية . ويرجع تحوله أساساً إلى المحاجة التي تذهب إلى أن الرأسمالية تؤدي إلى الحروب . وأعلن راسل ، شأنه في ذلك شأن الماركسيين ، إن النظام الرأسمالي القائم مقضي عليه حتماً . . . ولكنه عندما دافع عن الإشتراكية في ذلك الوقت كان يعنى الإشتراكية الحرفية* أو الإشتراكية النقابية** (السندكالية) ، فقد كان يريد أن تدار الصناعات بواسطة العاملين فيها وليس عن طريق الحكومة . ولكن الإشتراكي في يومنا الراهن هو الشخص الذي يبتهج بتوسيع نشاط الدولة ومجال عملياتها . وكان راسل يرى أنه لا محيص عن زيادة بعض سلطات الدولة . ولكنه كان ينظر إلى ذلك على أنه شر لا بد منه . وقد اعترف بأنه يميل بالمزاج نحو الفوضوية . ووصف سلطة الدولة المتزايدة ، كواحد

---

* Guild Socialism

** Syndicalism

من الأسباب الرئيسية للشقاء الإنساني في العالم الحديث . (وفوق كل شيء ، كان النشاط الأساسي للدولة في تلك السنوات يتلخص في صناعة الحرب) . وتنبأ صائباً أن التأميم أو إحلال الدولة محل صاحب العمل الخاص سيجعل العامل الفرد أقل في قدرته على السيطرة على عمله مما هو عليه الآن .

وفي محاضرة ألقاها في ما نشستر عام ١٩١٦ تحت عنوان « ثغرات الإشتراكية » ، أظهر راسل مرة أخرى موهبته في التنبؤ الصحيح . إن العيب الأساسي في اشتراكية الدولة هو اعتقادها في إمكانية الإصلاح بمجرد تغيير جهاز الدولة . ولكن التأميم لن يقضي على الشرور الموجودة في الصناعة إذا لم يصاحبه تغيير في نظرة الإنسان إلى الأمور .

ويقول راسل إن سلطة الموظف الرسمي « خطر عظيم متزايد في الدولة الحديثة . . . إن حب السلطة حافز على درجة قصوى من الخطورة ، وذلك لأن الدليل الأكيد الوحيد على امتلاك السلطة يتلخص في منع الآخرين من القيام بما يبغون عمله » .

ومما يؤسف له أن الإنسان في أيامنا الراهنة يقرن مثل هذه الإنتقادات الموجهة إلى بيروقراطية الدولة بمعارضي الإشتراكية . ولكنه منذ أربعين عاماً كان هناك عدد كبير من الإشتراكيين الحرفيين الآخرين يشاركون راسل في تفكيره . وحتى الماركسيين كانوا يرون في « زوال الدولة » مثلهم الأعلى الذي يأملون في تحقيقه في نهاية الأمر . وقد كان الإعجاب غير المتمعن وغير المدقق بروسيا السوفيتية هو الذي أقنع المفكرين اليساريين إن إشتراكية الدولة هي الأسلوب الإشتراكي الوحيد الذي يمكن أخذه في الاعتبار . وبالتأكيد ، فإن الدولة في روسيا لم يبد عليها أية علامات « الزوال » ، الأمر الذي حدا بالإشتراكيين البريطانيين أن يذهبوا إلى أن روسيا لا بد أن تكون على صواب . وهكذا ارتفع التأميم ـ الذي كان حتى بالنسبة للنظرية الماركسية مجرد غاية إلى وسيلة ـ فأصبح غاية في حد ذاته .

حقيقة أن راسل ـ مثله في ذلك مثل بقية الإشتراكيين ـ بدأ بإزجاء التحية المتحمسة للثورة الروسية . ففي يناير ١٩١٨ كتب لكليفورد ألن يقول : إن العالم مكان ملعون . ولينين وتروتسكي هما الجانب المشرق الوحيد فيه . ثم كتب بعد وقت قصير يقول : « إن كل يوم يمر يملأ العالم بالأمل . إن البلاشفة يدخلون البهجة إلى نفسي . ومن السهل علي أن ألتمس لهم العذر في طردهم المجلس الإنتخابي إذا كان يشبه مجلس العموم عندنا بأية صورة . عجبي من نجاحهم : لقد حركوا الثورة في النمسا وألمانيا . بل إنهم جعلوا بعض الإنجليز يفكرون . ولكنهم لن ينجحوا أبداً في دفع أميركا إلى التفكير » .

ويختلف راسل عن غيره من التقدميين في أن إعجابه بروسيا السوفيتية لم يستمر بعد زيارته لها .

قام راسل بزيارة الإتحاد السوفيتي في صيف ١٩٢٠ عندما دعي كعضو غير رسمي في وفد عمالي ضم كليفورد ألن ودكتور هادن جست (الذي أصبح لورد هادن جست فيما بعد) ومسز فيليب سنودن . ومكثوا في روسيا من ١٩ مايو إلى ١٦ يونيو . ووصلوا إليها في حالة من الحماس البالغ إلى الحد الذي جعلهم ينفجرون تلقائياً في إنشاء « الأنترناشيونال » و « العلم الأحمر » الشيوعيين عندما وقعت أنظارهم لأول مرة على العلم السوفيتي وهو يرفرف على الحدود .

وتذكر راسل فيما بعد هذه الزيارة قائلاً : « كنت على استعداد لتحمل الصعاب الجسدية ، والمتاعب والقذارة والجوع في سبيل الأمل الرائع للإنسانية . وليس من شك أن رفاقنا الشيوعيين رأوا ـ وهم مصيبون في ذلك ـ أننا لا نستحق مثل هذه المعاملة . فبعد أن عبرنا الحدود أقاموا لنا وليمتين وقدموا لنا فطوراً جيداً وعدداً من السيجار من أرقى الأصناف وقضينا ليلة في حجرة نوم بالغة الروعة في قصر احتفظ بكل بذخ العهد البائد » .

وعلى أية حال ، لم تكن الأحوال أحياناً بمثل هذا البذخ . وكان راسل يتسلى عندما يرى أن رفاقه من نقابات العمال أكثر منه ضيقاً حين يجدون بقا في أسرة الفندق الذي ينزلون فيه . وعزا راسل مناعته ضد قرصات البق إلى امتلاء دمه بالنيكوتين .

وسافر الوفد في قطارات خاصة زينت بالأعلام الحمراء وأغصان الشجر الخضراء والشعارات الكثيرة عن الثورة الإجتماعية والبروليتاريا في العالم . وفي أول استقبال عام لهم عزف نشيد الأنترناشيونال الشيوعي لا أقل من سبعة عشر مرة لتحية كل قادم جديد من الشخصيات الهامة ، وبعد الانتهاء من إلقاء الكلمات . وخلقت مسز سنودن نوعاً من تلطيف الجو عندما تساهلت في الاستمساك بمبدأ الامتناع عن الخمور لتكريم ضيوفها وشربت من الفودكا مما جعلها تفاجىء هادن جست بإظهار شيء من الهيام نحوه .

وذات مساء انضم إليهم تروتسكي وهم يشاهدون عرضاً في الأوبرا باعتباره قائد جيش عاد منتصراً من الجبهة البولندية . وعندما تم تقديمه إلى واحد من المعترضين على الحرب باسم الضمير الإنساني من أعضاء الوفد ، علق تروتسكي قائلاً : « إننا لا يمكن أن نقبل هنا أحداً ممن يبشرون بالسلام ويريدون إيقاف الحرب » . ولكن هذا التشدد زايل تروتسكي بعد ذلك ، فقد مال على مسز سنودن أثناء أداء أحد مناظر الحب الرقيقة على المسرح وهو يقول : « ها هي اللغة العالمية العظيمة » .

وقد سجل راسل حينذاك وصفاً لتروتسكي فقال إنه : « يترك انطباعاً نابليونياً للغاية : عيناه لامعتان وقامته عسكرية ، خاطف الذكاء ساحر الشخصية . وقد أدهشني أنه حسن المنظر إلى أقصى حد ، وسحره للنساء لا يقاوم . وهو حبيب لطيف المعشر ما دامت جذوة حبه لم تخمد . وشعرت أنه يتمتع بروح الدعابة والمرح ما لم يطرأ شيء يعكر صفو مزاجه بأي شكل من الأشكال ، وهو معدوم الشفقة ولكنه غير قاس . له شعر مموج رائع . وزهوه أعظم من حبه للسلطة . إنه زهو فنان أو ممثل » .

واشتملت أسفار الوفد على رحلة في نهر الفولجا بدأت من نجنى نوفجورود . وكانت الليالي قارصة البرودة . وأوشك كليفورد ألن أن يموت بالالتهاب الرئوي وبالتهاب في الغشاء المحيطبالرئة . وكتب راسل وصفاً للرحلة ـ نشره في جزء من كتاب « مشكلة الصين » ـ اعتبره أفضل قطعة كتبها نثراً .

ولأن راسل لم يكن مبعوثاً رسمياً ، فإنه استطاع أن يتغيب عن بعض الإحتفالات الرسمية وأن يقابل الناس العاديين في الشوارع والقرى . (والتقى ببعض الروس ممن كانوا مسجوني حرب في ألمانيا ، والذين استطاع أن يتحدث إليهم باللغة الألمانية . وحاول راسل أن يتعلم بعض الأمور مثل الإجراءات المتبعة لشراء شمسية من الجمعيات السوفيتية في موسكو ، الأمر الذي اتضح أنه يبلغ من العسر ما تبلغه محاولة الولوج إلى غوامض الكون وأسراره . وشاهد طوابير من النساء المتعبات ينتظرن بصبر خارج محلات الخبز الحكومية ليحصلن على مقرراتهن من الخبز الأسود . وارتاع راسل لما وجده من فقر وبؤس شأنه في ذلك شأن بقية أعضاء الوفد . وقد ذكرت مسز سنودن فيما بعد أنه على الرغم من أن أعضاء الوفد قد جاءوا جميعاً وهم يرتدون أقدم ملابسهم عن عمد فقد ظن الروس أنهم « يرتدون ملابس الأمراء » ، وكانوا يديرون أجسام هؤلاء الأعضاء بهدف إظهار الإعجاب بهم كما كانوا يتحسسون معاطفهم وملابسهم ويربتون عليها.

ولكن راسل لاحظ أنه ليس هناك إقبال على تعاطي المسكرات . أو أن تعاطي المسكرات « كان محدوداً للغاية بحيث لم يلحظه أحد منا » . كما كانت الدعارة في موسكو أقل بكثير جداً منها في أية عاصمة أخرى . وكانت النساء في مأمن من المعاكسات أكثر من أي مكان آخر في العالم . وقال راسل : « إن الإنطباع العام الذي تتركه الحياة هناك يعطى صورة لنشاط منظم فاضل » .

وانتهى راسل في الواقع إلى أن البلاشفة يشبهون إلى حد ما البيوريتانيين المتزمتين في مجال الأخلاق . ولعلنا نجد في هذه المقارنة ظلماً قليلاً للبيوريتانيين . ولكنا يجب أن نذكر أن راسل

نفسه كان يمقت البيورتانيين مقتاً مشبوباً بكل جوارحه ، الأمر الذي لم يكن يتسنى حدوثه لو لم يكن راسل نفسه بيورتانياً في وقت من الأوقات ولقد قال راسل : « يكاد شكل الحكومة السوفيتية أن يطابق تماماً شكل الحكومة التي أقامها كروموبل في إنجلترا في القرن السابع عشر . فكلاهما ينتميان إلى مرحلة تتشابه إلى حد ما في التطور الإقتصادي في ظل نظام إقطاعي متداع وطبقة متوسطة تنشأ بالتدريج . وشعب أمي في غالبيته . كما أن الجيش الأحمر يقابل جيش القديسين عند كروموبل يقوده رجال يتم اختيارهم على أساس قوة اقتناعهم بالعقيدة » .

واجتمع راسل في الكرملين مع لينين الذي قال أنه يود أن يرى حكومة للعمال تقام في لندن وأنه يريد من الشيوعيين البريطانيين أن يعملوا من أجل تحقيق ذلك . ولكنه ببساطة كان يهدف من وراء ذلك إلى كشف عدم جدوى الحياة البرلمانية . وعندما قال راسل ؛ « إنه من الممكن تحقيق الإشتراكية في إنجلترا دون الالتجاء إلى سفك الدماء ، أزاح لينين هذا الرأي جانباً على أنه خيالي . وكان من الواضح أن لينين ليست لديه فكرة عن موقف العمال البريطانيين الذي حال دون شن حرب شاملة ضد روسيا السوفيتية .

ووجد راسل لينين على نقيض تروتسكي . ويقول راسل في وصف لينين : « ليس هناك شيء في مسلكه أو مظهره يوحي بأنه الرجل صاحب السلطة . وهو ينظر إلى زائره عن كثب مغمضاً إحدى عينيه نصف إغماضة » .

وغادر الكثيرون من أعضاء الوفد روسيا وهم في حالة خيبة أمل مريرة وأفاقوا من أحلامهم . وقد نقلت مسز سنودن عن أحدهم قوله « تكاد ألا توجد في روسيا إشتراكية جديرة بهذا الإسم ويعيش الناس في بؤس تام » . كما كتبت هي بصراحة عن « الشقاء الذي يتحمله شعب روسيا البائس » . ولكن عند عودة الآخرين من أعضاء الوفد إلى أرض الوطن استقبلتهم الجماهير في اجتماعاتها الشعبية بحفاوة منتشية وهي تتعطش لسماع المديح لروسيا ، الأمر الذي أغراهم بأن يقدموا تقارير عن الحالة في روسيا تزيد في إشراقها عن الواقع الذي بدأ يخبو في ذاكرتهم . أما فيما يختص براسل فقد شرع يكتب تحليلاً نقدياً أمعن فيه النظر تحت عنوان « تطبيق البلشفية ونظريتها» .

واستطاع راسل أن يعيد طبع هذا الكتاب بدون تعديلات تقريباً في عام ١٩٤٩ . وهو مثال مدهش على دقة ملاحظته السياسية وقدرته على التنبؤ الذي يصمد أمام مرور الزمن . ولكن راسل في الحقيقة لم يكن مناهضاً للبلشفية تماماً كما استخلص بعض الناس من تصريحات له صدرت فيما بعد مثل التلخيص الذي أعده عام ١٩٤٣ عن زيارته لروسيا والذي يقول فيه : « عندما ذهبت هناك في عام ١٩٢٠ لم أجد شيئاً يثير الحب أو الاعجاب» . وكان كتابه في بعض فقراته أقل عداء

وكان كليفورد ألن ، الذي أصبح صديق راسل الحميم لمدة ما ، الرجل الذي استطاع فعلا تحويل المعترضين على الحرب باسم الضمير الإنساني إلى كيان متكامل . كان كليفورد رئيسا يثير الإعجاب . لهذه الجماعة ، ملماً بكل المشاكل التي تواجه مختلف الشبان من أنصار السلام ، كما كان خطيبا ممتازا . وقد وقفت إصابته بالسل عائقا في سبيل طموحه السياسي الذي زادت من سوئه فترات سجنه الطويلة كواحد من هؤلاء المعترضين وقد رفض كليفورد الخدمة البديلة للخدمة العسكرية مثل العمل في فلاحة الأرض . ولم يقدر أحد مواهبه ولا الصعوبات التي اعترضت طريقه ، بل إن أحداً لم يبذل جهداً لتشجيعه في شبابه ، مثلما فعل راسل .

ولعل الخطاب الذي أرسله راسل إلى ألن بعد الإفراج عنه من السجن مباشرة يعكس لنا جانباً من حرارة الحب الإنساني في طبيعة راسل الذي يختفي وراء ما يبدو عليه أمام الناس من سخرية لاذعة وحضور بديهة دقيقة وجافة .

عزيزي ألن ،
في خبر إطلاق سراحك سعادة لا يمكن التعبير عنها . إنني لا أستطيع أن أخبرك مقدار سروري العظيم ، وسآتي لرؤيتك بمجرد أن يسمح لي الطبيب بذلك .

ألن العزيز ، لقد كانت فترة سجنك أمرا مزعجا لكل الذين يهتمون بك . إن الكثير آت قبل مرور وقت طويل - إسترح سعيدا حتى تتحسن صحتك . فالأمور في طريقها إلى النضوج . وسيكون أمامك أن تفعل كثيرا من الأشياء المدهشة فيما بعد .

وفي لحظات الإكتئاب كان راسل يروح عن أصدقائه الشبان قائلا : « هذا هو التاريخ ونحن نساعد في صنعه » . وعندما جادل أمين صندوق « منظمة مناهضي التجنيد » قائلا : « إن إنتاج الضمائر لا يجب أن يكون من شأننا ، أزاح راسل كل التردد جانبا وهو يصيح : « يا للسماء ! لقد كنت أفعل ذلك لعدة سنين »

وذهب راسل ذات مرة مع كليفورد ألن لتناول الغداء مع لويد جورج - وكان اللقاء غير ناجح . وحين أراد الرجلان أن يحدثاه عن تحسين معاملة المعترضين ، قال لهما لويد جورج إنه ليس لديه وقت لمناقشة هذه المسائل سوى فترة الغداء . وقبل راسل ضيافة لويد جورج عن كره ولكنه رفض أن يدخن أو يشرب . (رغم أنه كان حينذاك قد تخلى عن إقلاعه التام عن تناول المسكرات وتدخين السجائر) . وعندما أعلن الملك جورج الخامس أنه سيمتنع عن الشراب

خلال فترة الحرب ، قرر راسل أن يفعل العكس وأن يتخلى عن امتناعه الكامل عن المسكرات .

وقد قام فينر بروكواي ، الذي أصبح فيما بعد عضواً إشتراكياً بارزاً في البرلمان ، بتلخيص ذكرياته عن راسل في فترة نشاطه في « منظمة مناهضي التجنيد » بقوله : « لم يكن راسل في غرور شو ورغبته الإستعراضية ، ولكنه كان له نفس ولع شو بتحطيم الأصنام الزائفة » . وفي رأي بروكواي : « كان راسل ممتعا . تملؤه روح الدعابة مثل عفريت ذكي وشقي لا سبيل إلى كبح جماحه . وكان في تلك الفترة يعاني من الضيق المالي . ووصل إلى اللجان متأخرا أكثر من مرة لأنه لم يكن في جيبه أجرة الأوتوبيس . ولعل ذلك كان يرجع أحيانا إلى نسيانه للأمور الدنيوية » واتضح مرة أن راسل كان قد قابل شحاذا له قصة تدل على الحظ العاثر ، وهو يتجه إلى أحد الإجتماعات ، فأفرغ له كل ما في جيبه ثم اضطر إلى السير على الأقدام .

وعرف راسل أحيانا بين لجنة « منظمة مناهضي التجنيد » بميفستوفوليس أو ميفستو (أي الشيطان) بسبب عظام خديه المرتفعة ووجهه الضيق ، والطريقة التي كان يستمتع بها بالمؤامرات التي يحيكها والخطط التي يدبرها للتمويه على رجال البوليس .

ونظرا لأنهم كانوا يخشون أن يقمع البوليس « منظمة مناهضي التجنيد » ، فقد كان لديهم تنظيم سري كامل آخر له نظام محكم للأسماء الحركية . وحدث ذات مرة أن ترك فينبر بروكواي حقيبة صغيرة تحتوي على كل خططهم السرية في تاكسي . وسلمت هذه الحقيبة إلى قسم البوليس . وعندما أعلن هذا الخبر في اجتماع اللجنة قال راسل : « أقترح أن نرجىء الإجتماع ونتوجه إلى سكوتلانديارد وبذلك نوفر على البوليس مشقة القبض علينا » . ولكن هذه الحقيبة التي تحتوي على الأوراق أعيدت سالمة إليهم . إذ كان لأحد أعضاء اللجنة أخ من كبار موظفي البوليس .

وكان لـ « منظمة مناهضي التجنيد » مكتب إضافي . وذات يوم بينما هم مجتمعون وصل إليهم خبر يفيد أن مكتبهم الرئيسي يتعرض لحملة تفتيش من البوليس . وكان هناك ستة من رجال الشرطة السريين في الشارع . واستمتع راسل بما نجم عن ذلك من اضطراب . وقال : « إنهم يبحثون عنا . دعهم يلقون القبض علينا في منزل لورد » ، ولذلك ، فقد شحن أعضاء اللجنة في ثلاثة تاكسيات واتجه بهم إلى منزل أخيه فرانك في جوردون سكوير ، وهو يفكر في مرح فيما سوف يقوله الايرل راسل إذا جاء البوليس للقبض على أخيه الأصغر هناك . ولم يستطع راسل أن يخفي خيبة أمله عندما وجد أخاه الايرل خارج المنزل ، وأن البوليس لم يحضر بالمرة .

وكان السبب الذي أفضى به في نهاية الأمر إلى السجن هو مقال نشرته « ذي تريبيونال » وهي الجريدة الأسبوعية التي كانت « منظمة مناهضي التجنيد » تصدرها . كان راسل على استعداد دائما

لأن يكتب أي شيء من أجل « منظمة مناهضي التجنيد » بتوقيعه أو بدون توقيعه . وفي أواخر ١٩١٧ قرر راسل الإنسحاب من الإشتراك في نشاط الدعوة إلى إنهاء الحرب إيمانا منه في ذلك الوقت بأنه من الأهم أن ينتظر ويعمل من أجل السلام البناء بعد ان تضع الحرب أوزارها . ولكنه عندما احتاجت « ذي تريبيونال » إلى مقال للصفحة الأولى بصورة عاجلة ، كان راسل كعادته على استعداد لإجابة الطلب . في هذا المقال كتب راسل يقول : « ما لم نتوصل إلى إقرار السلام سريعا ، فإن الجوع سيصيب أوروبا كلها . وسيقاتل الناس بعضهم بعضا للحصول على أبسط ضروريات الحياة »

« حينئذ ، فإن الحامية الأمريكية التي ستكون قد احتلت إنجلترا وفرنسا ـ سواء أثبتا كفاءتهما ضد الألمان ام لا ـ ستصبح بلا شك قادرة على إرهاب المضربين وهو عمل اعتاد الجيش الأميركي القيام به في بلاده .

« ولست أقول إن هذه الأفكار تشغل بال رجال الحكومة البريطانية . فكل الدلائل تشير إلى خلو عقولهم من أية أفكار . وأنهم يعيشون دون انتهاج سياسة ثابتة مستقرة مدخلين العزاء إلى أنفسهم بالجهل والثرثرة العاطفية الرخيصة ».

ومن المؤكد أن هذا التعليق على الجيش الأمريكي كان خفيفا ملطفا إذا قورن ببعض ما قيل بحرية ضد الأمريكان منذ ذلك الحين . والإشارة إلى قمع الإضرابات تستند في الحقيقة إلى تقرير رسمي للكونجرس. ومن الصعب ان نقول إذا كانت الحكومة البريطانية قد استاءت من هجوم راسل على الأمريكان أكثر من استيائها من هجومه عليها. ولكن هجوم راسل على الأمريكان كان العذر الذي تعللت به الحكومة البريطانية لاتخاذ إجراء من شأنه أن تنفس به عن الضيق الذي عانت منه من جراء هجومه عليها.

وظهر المقال في ٣ يناير ١٩١٨ وبعد ذلك بشهر تقريبا زار رجلان من رجال الشرطة السريين راسل ذات صباح ووجداه في الحمام وسألاه عما إذا كان هو كاتب المقال، فأكد لهما ذلك.

وقدم راسل للمحاكمة في بوستريت حيث غصت المحكمة بجمع من أصدقائه المرموقين . وقرأ ممثل الإدعاء فقرات من مقال راسل في « ذي تريبيونال » . ولكنه لم يحدث التأثير الذي كان يرجوه . ووصل إلى الفقرة التي تقول : « ولست أقول إن هذه الأفكار تشغل بال رجال الحكومة البريطانية فكل الدلائل تشير إلى خلو عقولهم من أية أفكار ». وهنا ضج الحاضرون من أصدقاء راسل بالضحك . وقطب المدعي جبينه بشدة وقرأ الفقرة للمرة الثانية بصوت أكثر استهجانا . فضج المكان بالضحك مرة أخرى . ولكن هذا الضحك المدوي في قاعة المحكمة لم يستطع أن ينقذ راسل . وحكم عليه القاضي سيرجون ديكنسون بالسجن ستة شهور مع حبسه في الدرجة الثانية .

وعلق ديكنسون على موقف راسل وهو ينطق بالحكم قائلا : « يبدو ان مستر راسل قد فقد كل احساس بالتهذيب والحكم الصائب . وتمادى إلى الحد الذي أهان فيه عمداً ومع سبق الإصرار جيش أمة عظيمة حليفة لنا . . . والإساءة التي ارتكبها تدعو إلى الإحتقار الشديد ».

وعلق راسل على كلام ديكنسون في خطاب كتبه في اليوم التالي : « لقد كان القاضي قاسيا عنيفا بدرجة لا يمكن تصديقها . ولم يحدث أبدا أنني واجهت كراهية مشبوبة مثل تلك الكراهية التي أظهرها نحوي . لقد كان بوده لو أنه استطاع أن يشنقني ويجرني ويقطعني إربا ».

وقد ورد وصف آخر لإجراءات المحاكمة في خطاب كتبه ليتون ستراتشي قال فيه : « إنه لأمر مفضوح حقا . كما أنه شرير ويبعث على التقزز عموما . منظر حشرة مثل السير جون ديكنسون وهو يوبخ برتي ويتهمه باللاأخلاقية ويرسله إلى السجن . وخرجنا من قاعة المحكمة - جيمس ستراتيش وأنا - وأسناننا تصطك غضبا . إن حدوث مثل هذه الفظاعة تجعل المرء يفقد الأمل » ولكن راسل نفسه قال بعد ذلك وهو يسترجع سني الحرب » إنني لا أستطيع أن أشكو من الطريقة التي عاملتني بها السلطات . ولم أبذل من ناحيتي أي جهد على الإطلاق للمصالحة ، الأمر الذي اضطرهم إلى إتخاذ إجراء ضدي ».

واستأنف راسل ، ولكن المحكمة أيدت الحكم الصادر بحبسه ستة أشهر . وهكذا نقل راسل في مايو ١٩١٨ في تاكسي الى سجن بركستون . وقد تأسف بعد ذلك على أنه فاتته تجربة نقله في « عربة المسجونين » . وسجل في سجن بركستون تحت رقم ٢٩١٧ وباسم راسل (ب) .

وبفضل تدخل جلبرت مري وآخرين تم نقل راسل بناء على استئنافه إلى سجن من الدرجة الأولى حيث استثمر وقته في القراءة والكتابة . وأجبر فرانك راسل السلطات على السماح لأخيه بالحصول على كل ما يريد . ووضعت اليزابيث زوجة فرانك - مؤلفة كتاب « اليزابيث وحديقتها الألمانية » - في زنزانته أثاثا مريحا : مكتباً وكرسياً وسجادة. فضلاً عن أنه كان يتلقى دائما الكتب والزهور .

وكانت زنزانة راسل أوسع من المعتاد . وكان عليه ان يدفع إيجارا أسبوعيا لها قدره ٢ شلن و٦ بنسات . وكان من أول ما قام به راسل في السجن أنه توجه إلى حاكم السجن - وهو جندي سابق محترم يدعى كابتن هاينز - وسأله بجدية ووقار عن عقوبة من يتأخر في دفع الإيجار ، ذاكراً أنه إذا كانت العقوبة هي الطرد من السجن ، فإنه لن يدفع بنسا واحدا .

وقد عهد إلى زميل له من المساجين مهمة تنظيف زنزانته . وقد أثلج صدر راسل أن يسمع من هذا الزميل انه « جرب جميع السجون فوجد أن سجن بركستون أحسن سجون لندن » . وقال

راسل في معرض الحديث عن رفاقه في السجن : « إن الحياة هنا في السجن مثل الحياة على عابرة محيطات يخالطفيها المرء عددا من الناس المتوسطين ويعجز عن أن يلوذ بالفرار إلا في حجرته على ظهر السفينة . ولست أرى أية علامة تدل على أنهم دون المتوسط فيما عدا أنه من المحتمل أنهم يفتقرون إلى قوة الإرادة ـ ذلك إذا كان المرء يستطيع أن يحكم عليهم من وجوههم »

وقد قال أحد حراس السجن لراسل بفخر واعتزاز إنه عضو في « حزب العمال المستقل » وأن الفرع الذي يتبعه قد وافق على قرار يطالب بإطلاق سراحه .

وسمح لراسل بإضاءة نور حجرته حتى العاشرة مساء بدلاً من الثامنة وبطريقته المنظمة التي عرف بها ، نظم راسل روتين حياته اليومية في السجن ، فخصص أربع ساعات يقضيها في الكتابة عن الفلسفة وأربع ساعات ثانية في القراءة فيها ، ثم أربع ساعات أخرى في قراءات عامة متنوعة من فولتير الى تشيكوف ، من تاريخ الثورة الفرنسية إلى كتب الرحلات عن الأمازون والتبت مع بعض الروايات البوليسية المثيرة أحيانا .

وكان الحرمان الوحيد الذي عانى منه راسل هو منعه من التدخين ـ الذي كاد يكون التغير الوحيد الذي طرأ على حياته (باستثناء المرض) على مدى ستين سنة متصلة قضاها راسل في التدخين ، فضلا عن شوقه لرؤية أصدقائه . وكان يأكل الشيكولاته بدلا من التدخين . ونظرا لأن سلطة السجن كانت تسمح بأن يزوره ثلاثة أصدقاء معا كل أسبوع ، فقد كان ينظم أصدقاءه بدقة في جماعات تتكون كل منها من ثلاثة أشخاص بحيث تتفق مشاربهم ويستطيعون الإستمتاع باللقاء معا .

وكانت زيارة راسل في السجن تجربة لا تمحى من الذاكرة بالنسبة لأولئك الذين توفر لهم ذلك الحظ النادر في رؤيته . وفي إحدى المناسبات اتفق فرانك راسل مع الليدي أوتولين موريل وجلاديس ريدير ـ وهي موظفة في «منظمة مناهضي التجنيد» ـ على الإلتقاء على الكورنيش ليأخذوا الترام الى سجن بركستون. وكانت الليدي أوتولين موريد أول من لحق بالآنسة ريندر. وجاءت وهي ترتدي فستانا رائعا من ثلاث طبقات من التافتاه الملونة ترصع الفضة أطرافه العليا وتتحلى بقلادة من اللؤلؤ من طراز ماري انطوانيت. وجاء بعدها فرانك مرتديا قبعة عالية ومعطف الفراك الطويل. وصعد ثلاثتهم إلى أعلى الترام وسط نظرات الإنبهار من كل الركاب الموجودين الذين أنصتوا فيما يشبه السحر إلى فرانك وهو يتحدث بأعلى صوته عن تجاربه الشخصية عندما أرسل إلى السجن بتهمة تعدد الزوجات.

وذكرت . ت . س . اليوت انه ذهب إلى زيارة راسل مع فرانك راسل وديزموند ماكرثي .

وجلسوا جميعا يتحدثون تحت تكعيبة في فناء السجن ـ وكأنهم في عربة بولمان ـ والحارس يرقبهم من مسافة محسوبة بدقة .

وكان راسل يستعد لهذه الزيارات بإعداد قوائم طويلة بالأشياء التي يريد أن يسأل أو يتحدث عنها . ولكن عندما يصل أصدقاؤه فعلا ، فإنه كان في العادة ينسى في شدة انفعاله ما كان يريد أن يقول . وكتب راسل إلى جلاديس رينلر يقول : « تذكري أن ما يريده المرء هو الأخبار عن أصدقائه . إنني أحصل على أخبار السياسة من الصحف وأستطيع أن أنتج العواطف والنكات في مقر السجن . ولكني أستقي أخبار الأصدقاء من الزيارات والخطابات . « وردت عليه مس رينلر بخطاب مليء للغاية بالخوض في القيل والقال عن أناس أشارت إليهم بالحروف الأولى من أسمائهم لدرجة ان مأمور السجن صادره ظنا منه أن هذه الحروف قد تمثل شفرة معقدة .

وفي السجن وضع راسل الأعمال الفلسفية التالية « مقدمة الفلسفة الرياضية » ، وعرض طويل لكتاب ديوى « مقالات في المنطق التجريبي » كما أنه أمضى وقتاً في قراءاته التمهيدية فيما يتصل بالبحث الذي انتهى به إلى وضع كتابه عن « تحليل العقل » وكان مأمور السجن الكابتن هاينز يراقب أي مخطوط يرسله للخارج . وتعب هذا المأمور جداً وهو يقرأ بجهد جهيد « مقدمة الفلسفة الرياضية » وهو كتاب لا تسهل قراءته كما توحي بذلك كلمة « مقدمة » . وعندما تعثر مأمور السجن في قراءته منذ البداية ، قال إنه يكفيه أن يقدم راسل له تأكيدا شخصيا بأن الكتاب لا يحوي أفكارا هدامة . وكان أنصار السلام متفاهمين على أن يفعلوا دائما كل ما في وسعهم لعرقلة الأمور أمام المسؤولين . ولكن راسل قرر أن فرض الفلسفة الرياضية فرضا إجباريا على مأمور السجن يعتبر تطبيقا مبالغاً فيه لهذا المبدأ . ومن ثم فقد قدم إليه التأكيد المطلوب .

وإنه ليصعب علينا ألا نظهر شيئا من العطف على كابتن هاينز الذي لم يعرف قطماذا يفعل بالضبطإزاء ضيفه الممتاز . وذات مرة أرسل إليه ديزموند مكارثي يقول إن راسل يرغب في عصفور كناريا في قفص . واستدعى المأمور راسل وسأله إذا كان الأمر كذلك . فأجابه راسل بقوله : « لا ، إن ما أريده هو قرد من نوع الأورانج تانج » (لأنه كما أوضح في خطاب له لجلاديس رينلر كان يأمل أن يلقى هذا القرد ضوءا على العقل في أصله وكما يتمثل في مجلس الوزراء) . وكلما شاهد راسل مأمور السجن تعمد أن يطلق النكات محاولا أن يجعله يضحك كي يسلي نفسه بمنظر المأمور وهو يغالب نفسه للمحافظة على صرامة وجهه .

ويخالج المرء شعور بأن السجن قد ترك في نفس راسل أثراً عميقاً على الرغم من كل ما أظهره هنا من مرح واستخفاف تماماً مثلما أحس عندما طردته كلية ترينتي . وفي الأيام الأولى كتب راسل يقول : « لقد تتابعت الأيام رتيبة . ولكنها كانت مقبولة إلى حد ما . وأعتقد أنني أخطأت الهدف

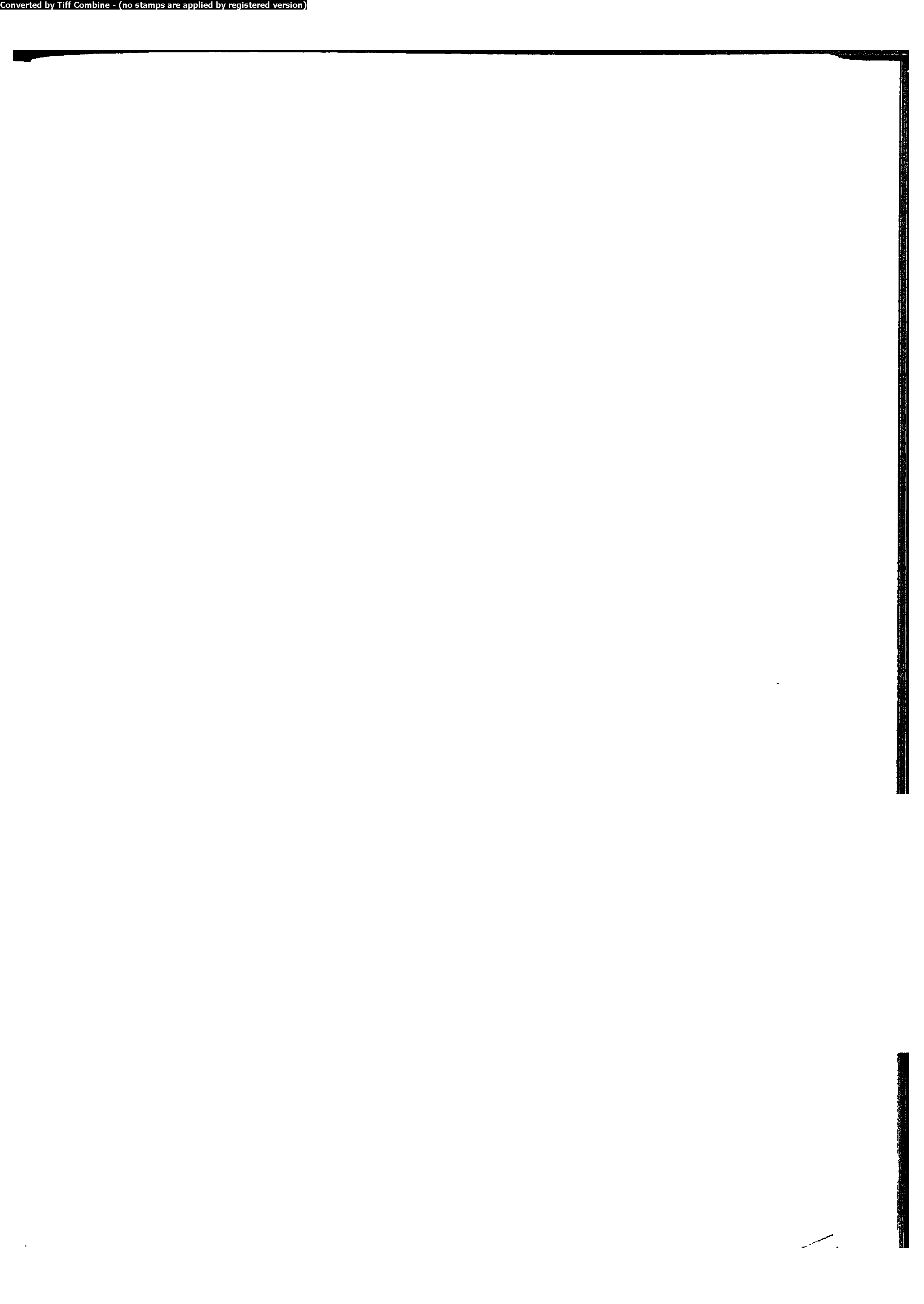
عندما لم أتحول إلى راهب يتبع أحد أنظمة الرهبنة التي تستغرق في التأمل . « ولكن شيئاً من شعوره الحقيقي تكشف في أحد خطاباته التي هربها خارج السجن » . آه . أليس رائعاً أن تتمكن من المشي عبر الحقول وأن تشاهد الأفق وتتحدث بحرية وأن تكون مع أصدقاء ؟ . . . إنني مستقر في هذا الوجود وأنعم بشيء من الهدوء . ولكني أنعم بالإستقرار والهدوء في هذا الوجود فقط لأنه سينتهي حالاً . إن كل أنواع المباهج تلوح أمام مخيلتي ـ وفوق كل هذه المباهج الحديث ثم الحديث ثم الحديث. إنني لم أعرف قط كيف يتعطش الإنسان للحديث. لقد استفدت من الوقت الذي أمضيته هنا. إذ أني قرأت كثيراً وفكرت كثيراً وازددت تماسكاً. إنني أتفجر بالحيوية ـ ولكني أتشوق إلى الحضارة والحديث المتحضر. كما أني أشتاق إلى البحر والإنطلاق الوحشي وإلى الريح. إنني أكره أن أكون مرتباً نظيفاً مثل كتاب في مكتبة لا يرتادها أحد للقراءة إن السجن شيء في مثل هذه الفظاعة. تصور أنك كتاب لذيذ اشتراه مليونير ووضعه مجلداً مع كتب كثيرة غيره مجلدة بنفس الطريقة، وأغلق عليه في رف وراء لوح من زجاج، حيث يصبح مجرد صورة لكمال النظام دون أن يسمح لأي فوضوي، بالإطلاع عليه ـ هذا هو ما أحس به ـ ولكن سرعان ما سوف يتمكن أحد من الإصرار على قراءته».

وبعد إطلاق سراح راسل في سبتمبر ١٩١٨ كتب لكليفورد ألن قائلاً: «لقد خرجت من السجن بحساسية غريبة مفرطة جعلتني أظن أن كل واحد يكرهني». ولكنه أضاف أن هذا الشعور يزايله بسرعة وأنه سيصبح في القريب العاجل شخصاً عادياً وقوياً. ولحسن الحظ أن هذا التنبؤ تحقق. ولا يمكنني أن أنهي هذا الفصل بصورة أفضل من أن أذيله بشيء مما كتبه راسل قبل مغادرته السجن مباشرة. وهو شيء سيظل من أجمل الشواهد على حرية النفس البشرية:

« ليس هناك أبداً مكان كالسجن تتزاحم فيه الصور ، التي تترى واحدة تلو الأخرى ملحة على الانسان : صور الصباح المبكر في جبال الألب مع الجليد الذي يغطي أشجار الصنوبر العبقة ، والمراعي المرتفعة تلمع بالندى ، وبحيرة جارداً كما يراها المرء لأول وهلة وهو يقبل من أعلى الجبال ، وميضاً نائياً بعيداً من أسفل تتراقص وتتلألأ في ضوء الشمس مثل عيني غجرية أسبانية ضاحكة مجنونة ، والعاصفة الرعدية في البحر الأبيض المتوسط بين لجج الماء البنفسجية الداكنة ، وجبال كورسيكا في إشراق الشمس من الخلف البعيد ، وجزر صقلية في غروب الشمس فاتنة حالمة لدرجة أنك تتصور أنها ستختفي عن الأنظار قبل أن تصل إليها ، فتبدو وكأنها جزر علوية لا يمكن أن تتحقق في عالمنا الفاني ، ورائحة بركة الريحان في سكاي ، وذكريات غروب الشمس منذ أمد بعيد ، كلها تعود بالذاكرة إلى أيام الطفولة . إنني أستطيع الآن وكأنه بالأمس القريب أن أسمع نداء رجل في شارع من شوارع باريس يبيع : « الخرشوف أخضر وجميلاً » رغم

أنه مضت على سماع ندائه أربع وعشرون سنة تكاد تكون كاملة باليوم . وبغض النظر عن ذكريات الطفولة ، فإني أتذكر صفاً من أشجار اللاركس بعد هطول الأمطار وقد تعلقت بكل فرع من فروعها قطرة مطر . وإنني أستطيع أن أسمع حفيف الريح بأعلى أشجار الغاب في منتصف ليالي الصيف ـ كل شيء حر وجميل يرد إلى خاطري آجلاً أو عاجلاً .

« ما جدوى حبس الجسد ما دام العقل طليقاً ؟ لقد عشت وأنا هنا بين جدران السجن خارج حياتي الخاصة في البرازيل والصين والتبت والثورة الفرنسية . وفي هذه المغامرات نسيت السجن الذي يحبس فيه العالم نفسه في هذه اللحظة . إنني حر وسيكون العالم حراً كذلك » .



الفصل الثاني عشر

تحليل العقل

شغل راسل نفسه بعد أن خرج من السجن ـ على حد قوله ـ ب « الزحف عائداً إلى عالم الفلسفة». وكان أول عمل له هو إلقاء سلسلة من المحاضرات في لندن، أعاد إلقاءها في بكين، ثم نشرت في نهاية الأمر تحت عنوان «تحليل العقل» وهو عمل كان قد بدأ العمل فيه سجن بركستون.

وكان لهذه المحاضرات بداية غريبة. فعلى الرغم من أن راسل كان قد ورث مبلغاً من المال يكفي لأن يمده بدخل مستقل صغير، فإنه كاد يبدد كل ما لديه من مال بالتدريج على مر السنين. فقد دفع على سبيل المثال نفقات منح دراسية في مدرسة لندن للاقتصاد استفاد منها يوماً ما توم جونز الذي اشتهر فيما بعد بأنه سكرتير لأربعة رؤساء وزارة.

واتضح من كتاب راسل « مبادىء إعادة البناء الاجتماعي» أن بوسعه أن يكسب قوته كمؤلف شعبي يكتب لعامة الناس. ولكن نظراً لرفع سن التجنيد، فقد كان من الممكن استدعاؤه للخدمة العسكرية إذا لم يتم إعفاؤه منها بسبب اشتغاله بالتدريس. وفي أواخر ١٩١٨ أنشأ مجموعة من أصدقائه فيما بينهم صندوقاً خاصاً لامداد راسل بما يكفيه في معاشه لمدة ثلاث سنوات يهب فيها نفسه للبحث العلمي وإلقاء المحاضرات. وكانت أولى نتائج هذا الصندوق هي ما حصل عليه من أجر مقابل محاضراته عن « تحليل العقل*». وبمجرد أن انتهت الحرب طالب راسل بالغاء صندوق المساعدة وقال إنه يفضل أن يكسب قوته عن طريق الكتابة. بل إنه استطاع في أواخر ١٩١٩ أن يقرض مبلغ ٤٠ جنيهاً استرلينياً لكليفوردالن الذي قاسمه شقته في

* تثير فينا القائمة الأصلية للمساهمين في هذا الصندوق شيئاً من حب الإستطلاع فهي تضم الأسماء التالية: تشارلس سانجر، ويلدون كار، لوسي سيلكوكس، سيجفريد ساسون، تشارلس تريفيليان، ليدى أوتولين موريل، الأمير أنتونيو بيلبسكو، ج. م. كينز، ريندل هاريس، س ج. أ. نورتون، جيمس وارد.

باترسي لبعض الوقت . وكان هذا المبلغ أكثر مما طلبه ألن ، غير أن راسل قال : « أعرف أن الانسان ينتقص من تقديره لما يحتاج إليه في مثل هذه الظروف . فأنا على الأقل أفعل ذلك» . وقال أيضاً : « أستطيع دائماً أن استغني عن بعض المال باستثناء شهر ديسمبر الذي أدفع فيه أقساط التأمين» .

لقد رأينا كيف نادى راسل في سجنه بحرية الروح الانسانية وقدرة العقل على التحرك دون قيود حتى وإن كان الجسد مكبلاً بالأغلال . ولقد قال في هذا الشأن كما رأينا : « إنني حر ولسوف يكون العالم حراً كذلك» . ولكن راسل انصرف في نفس الوقت للتوصل إلى فلسفة تكاد بمقتضاها الأفكار التي تدور في عقله ألاّ تكون حرة . بل أيضاً ألاّ يكون لعقله وجود بالمعنى الشائع لهذه الكلمة ، فأي فرق في النوع بين العقل والمادة لا يعدو أن يكون وهماً صارخاً .

وفي أبريل ١٩١٩ قال راسل لكلفورد ألن : « نظراً لأن الآلهة تدرك أنني أحاول أن أثبت أنه ليس هناك شيءاسمه العقل، فقد جعلتني أصاب ببرد ليعطيني في الوقت الحاضر دليلاً شخصياً على صحة مبحثي» .

وبدقة أكثر ، فإن مبحثه في « تحليل العقل» يتمثل في « أن المادة ليست مادية والعقل ليس عقلياً بالقدر الذي نفترضه بوجه عام» . . . . « يبدو أن العقل والمادة خليطمشترك . ونكمن المادة* التي يتكون هذا الخليطمنها بمعنى ما بين الاثنين ، وبمعنى آخر في منزلة أعلى منهما كما لو كانت سلفاً مشتركاً لهما» .

ويدين هذا النوع من الفلسفة الذي استحدث في أمريكا تحت أسم « الواحدية المحايدة» بالفضل الكثير إلى وليم جيمس . ويمكن أن نذكر تأكيد راسل في هذا الوقت لهذا النوع من الفلسفة كمثال على شيء كان يصر دائماً عليه ، وهو التمييز الكامل بين آرائه الفنية المتخصصة كفيلسوف وبين كتاباته السياسية واليومية . وليس في هذا أي تناقض منطقي . فمن المسموح به استخدام كلمة « حر» بطريقة مختلفة في الفلسفة عنها في السياق البلاغي . إذ لا يعرف أحد بالضبطمعنى هذه الكلمة على أية حال . وحتى من يؤمن « بالواحدية المحايدة» قلما يستطيع أن يتجنب استعمال كلمتي « عقل ، جسد» في حديثه العادي ، الأمر الذي ينتهي بالقارىء العادي لتفسيرهما بطريقة عادية .

والحديث العادي ، كما يرى راسل ، هو الأصل في سوء الفهم . فنحن حين نقول أن المنضدة « بنية اللون» فإننا نفترض ضرورة وجود منضدة من مادة . بيد أن ما نعرفه في الحقيقة هو

---

substœnce

أن هناك معطيات حسية هي بقعة بنية اللون . وعندما نقول : « أنا أفكر» ، فإننا نفترض وجود « أنا» تفكر ، بينما كل ما نعرفه هو أن هناك تجربة تفكير* . وكتب راسل يقول : « إن الذات» - التي ننسب إليها التفكير المقصود بها في هذه الحالة راسل نفسه - « يتضح أنها وهم منطقي تماماً كالنقط واللحظات في علم الرياضة . ونحن نستخدمه ليس لأننا نتبينه بالملاحظة، ولكن لأنه مناسب من الناحية اللغوية وتتطلبه قواعد اللغة . وكما قال راسل في محاضراته عن « الذرية المنطقية» التي ألقاها في أوائل عام ١٩١٨ « إن الشخص سلسلة معينة من الخبرات والتجارب** .

وكان هدف راسل في «تحليل العقل»، كما يقول: «هو أن أخضع العقل لنفس النوع من التحليل الذي طبقته على المادة في كتاب « معرفتنا بالعالم الخارجي» وفيه عالج راسل قطعة من المادة على أنها بناء منطقي*** يقوم على الأحاسيس**** ، وقرر أن الاحاسيس ، ومعطيات الحواس شيء واحد .

وكانت هذه الخطوة الثانية أصعب خطوة بالنسبة له في الوصول إلى « الواحدية المحايدة» .

وقد أصر راسل في كتابه « معرفتنا بالعالم الخارجي» على التمييز بين إحساسنا الذي هو حدث ذهني يتمثل في إدراكنا لشيء حسي والشيء الحسي الذي ندركه عن طريق الاحساس» . ويعد راسل التجاهل لهذا الفرق تجاهلاً عن جزء من اقتناعه الذي يدحض به آراء باركلي ويسخر به من بيرجسون . وما يأخذه عليهما هو أنهما خلطا بين الذات والموضوع بطرق شتى . وقال بعض المثاليين في هذا الشأن إنه إذا كان كل ما نعرفه عن المنضدة لا يعدو أن يكون فكرتنا عنها في أذهاننا ، فإن المنضدة نفسها تكون ذهنية بوجه ما . وكتب راسل يقول : « لا يستطيع أن يقبل مذهب بيرجسون في الحدسية سوى من لا يميز بوضوح بين الذات والموضوع» .

غير أن التخلي عن هذا التمييز هو ما يتسم به أسلوب راسل في معالجة الأمور ، فبعد أن يكون قد أولى خطأً يتتبعه في البحث والاستقصاء كل تفكيره ، نراه يستمر فيه مهما كانت نتائجه كريهة على أفكاره المسبقة الأصلية .

ويبدو أنه اضطر إلى إعادة النظر في المسألة وتوصل إلى الواحدية المحايدة والتطابق بين

* an experience of thinking

** a certain seies of experiences

*** logical construction

**** sensations

الاحساس ومعطيات الحواس عن طريق الاتجاهات المعاصرة في علـم النفس والفيزياء. وكان راسل على علم تام بأبحاث الدكتور واطسون والسلوكيين ورأيهم القائل بأن الانسان كله جسد. وليس عقلاً. فالأفكار على سبيل المثال ليست سوى ردود فعل حركية أولية بسيطة في الحنجرة. وفي نفس الوقت كان أنيشتين يحدث تغيراً في وجهة النظر التقليدية عن الكتلة والمادة. وهكذا فإنه طبقاً لما توصل إليه علم النفس والفيزياء الحديث، فقد أصبح العقل أكثر اعتماداً على المادة، بينما أصبحت المادة أقل مادية عن ذي قبل. وظهرت «الواحدية المحايدة» على أنها نقطة التقـاء طبيعية بين هذه الاتجاهات.

وبعد أن دلل راسل على أن الأشياء المادية « بناء» * يقوم على معطيات الحواس ، برر أن المعطيات الحسية للون البني والاحساس برؤية اللون البني هما نفس الشيء، اتجه هذا الفيلسوف نحو توضيح أن العقل «بناء» يستخدم نفس مكونات الأشياء المادية الفيزيقية. وقال إن الفيزياء، من ناحية كونها علماً يقوم على المشاهدة والتجربة وليس خيالاً منطقياً، تعنى بدراسة جزئيات من نفس نوع الجزئيات التي يدرسها علم النفس تحت اسم الإحساسات**.

وترتب على ذلك أن توصل راسل إلى فلسفة تمثل الجهد الدؤوب الصبور ، وهي فلسفة لا تنتبه إليها في أغلب الأحيان بسبب لمعان نكتته ووهج دعابته ، وحصيلتها أنه إذا كانت وظيفة العقل الوحيدة أن يحصل على الإحساسات ، وإذا كان الوعي يتمثل ببساطة في رؤية الأشياء وسماعها ولمسها ، فإن من الممكن إثبات « الواحدية المحايدة» بصورة كاملة . ويمكن النظر إلى كل من العقل والمادة على أنهما بناءان يقومان على الاحساسات (او معطيات الحواس) مجمعة بطرق مختلفة . غير أن العقول تحتوي أيضاً على معتقدات ورغبات وذاكرات وهكذا . ولو كانت كل هذه الأشياء أبنية تتكون من الاحساسـات ، لأمكن بنجـاح إثبـات الواحـدية المحـايدة بحذافيرها . ولقد كان من الممكن أن يعتقد بعض الفلاسفة أن هذا يجب أن يكون ممكناً لمجرد إحساسهم الغريزي بأن مثل هذه الفلسفة المذهلة في دقتها ونظامهـا المتناسـق لا بد وأن تكون صحيحة .

وعلى سبيل المثال ، كان فيتجنشتين الشاب ينساق وراء نظرية كهذه على هذا النحو دون أن يتوقف لفحص التفاصيل ومعرفة ما إذا كانت هذه النظرية يمكن العمل بها أم لا . غير أن راسل في « تحليل العقل» حاول أن يدرس هذه الوظائف الاضافية للعقل الواحدة تلو الأخرى

* construction

** إن صنف كل ظواهر كرسي في حجرة كما يراه سائر الناس المختلفين فيها ـ حسب شرح راسل في قاعة المحاضرات ـ يعطى شيئاً ينتمي إلى علم الفيزياء . أما صنف ظواهر كل الكراسي المختلفة ـ إذا نظر إليها من منظور معين ـ يعطي شيئاً ينتمي إلى علم النفس .

ليرى هل يمكن للواحدية المحايدة أن تجد تفسيراً لها . وأصاب راسل في ذلك نجاحاً كبيراً ، إلاّ أنه لم يسمح لرغباته المسبقة أن تخدعه وتجعله يظن أن نجاحه كان كاملاً . ومن ثم فإنه بدلاً من أن يصل إلى تعميات مرضية كاملة انتهى به الأمر إلى نظرية غير محكمة مفككة الأطراف ، ينقصها التناسق ، واعترق بأنه هو نفسه لا يرضى دائماً عما وصل إليه من نتائج .

ولقد فسر راسل بعض الوظائف الإضافية للعقل على أساس النظرية السلوكية وقرر على سبيل المثال أن الرغبة دورة سلوكية تنبع من الإحساس بعدم الراحة . « إن العنصر البدائي غير المدرك* في الرغبة يبدو أنه دفع لا جذب، دافع للبعد عن الواقع أكثر من كونه جذباً نحو المثال» .

وعندما بدأ راسل في دراسة الايمان والذاكرة والخيال واجه صعوبات أكبر . وعلى الرغم من أنه قد ردها جميعاً الى مركبات من الإحساسات** ، فإنه خالف السلوكيين باعترافه بالاستبطان والصور الذهنية . وجاء في خطاب له : « يقول السلوكيون إن الصور الذهنية هي حركات صغيرة للسان والزور وهما ينطقان الكلمات في صمت . وهذا هراء واضح» .

وهكذا بقي أمام راسل عنصران في العقل لا يمكن ردهما لشيء ، وهما الإحساسات والصور الذهنية . غير أن الصور الذهنية لا تختلف في جوهرها عن الإحساسات ، تماماً كما تتشابه « معطيات الحواس غير المحسوسة» (إن وجدت) في طبيعتها مع الإحساسات» . إن العقل بناء من الصور الذهنية والإحساسات ، كما أن المادة بناء مستمد من الإحساسات وربما معطيات الحواس غير المحسوسة . وبذلك تكون الإحساسات « هي نقطة تقاطع العقل مع المادة» .

وهكذا نجح راسل الى هذا الحد في القضاء على الاختلافات الجوهرية بين العقل والمادة . بيد أن نوعاً آخر من الثنائية بدأ يظهر أمامه . فقد تكون الرغبة دورة سلوكية ، غير أنه كان من الضروري أن نفسر لماذا يتميز سلوك الآدميين بالقدرة على التعلم من التجارب والخبرات . وتعين على راسل أن يفسر لماذا يخشى الطفل النار التي اكتوى بها من قبل ويتصرف طبقاً لهذا، بينما لا تفعل ذلك قطعة من الخبز المقدد . وكان رد راسل على ذلك أن القوانين السببية النفسية تختلف عن القوانين السببية الفيزيقية . والفرق الجوهري بينهما هو أن الوحدة السببية* في علم النفس ليست حدثاً واحداً وإنما حدثين أو أكثر اختفى أحدهما أو أحدها . (في المثال المشار إليه حدث حرق الطفل فيما سبق) .

---

* non — cognitive

** complexes of sensations

* causal unit

ومن الجلي أن راسل كان يود أن يوضح أنه يمكن رد القوانين النفسية ، بقدر أكبر من المعرفة ، إلى قوانين فيزيقية . ولكنه اعترف بصراحته المعهودة بأنه لا يعرف إذا كان في وسعه أن يفعل ذلك . وهكذا بقيت أمامه ثنائية رئيسية لعلها أكثر إقلاقاً للإدراك العام الفلسفي من الثنائية الأصلية بين العقل والمادة .

واستمرت فلسفة راسل عن الواحدية المحايدة في التطور خلال السنوات التالية . غير أنني سأذكر هنا بعض الشكوك والاقتراحات التي تقوم على أساس الإدراك العام . وذلك فيما يتعلق بموقفه في كتابه « تحليل العقل» .

أولاً : نظراً لأنه لم ينجح في الوصول إلى واحدية محايدة كاملة ، فإني أعتقد أنه كان يجد به أن يعيد النظر في بعض الخطوات التي اتخذها للوصول إليها ، وبخاصة تحليله للرغبة . ولست أظن أن ما يقوله يمكن تفنيده . ولكني أفضل ونحن بصدد تفسير السبب الذي من أجله صعد سيراد موند هيلاري جبل افرست أن نقول : إنه كان يريد أن يصعد إلى قمة الجبل ، لا أن نقول إنه كان يشعر بعدم الراحة أسفله .

(أصبح راسل فيما بعد يميل إلى الموافقة على أن نظريته عن الرغبة في « تحليل العقل » قد لا تكون سليمة . ولكنه لم يكن يوافق على أن النظرية السليمة تقتضي إرجاع « الأنا » إلى مكانتها السابقة) .

ثانياً : إن السبب الرئيسي الذي استند إليه راسل في إنكار النفس هو عجزه عن أن يجد الدليل عليها القائم على المشاهدة والتجربة . فالأفكار تتضمن خبرة التفكير ولكنها لا تتضمن «الأنا» التي تفكر. ولقد فقدت هذه الحجة شيئاً من قوتها بعد أن أصبح راسل أكثر استعداداً للاعتراف بحدود مذهب المشاهدة والتجربة، بل وتأكيد ذلك.

ثالثاً : يجب الإعتراف بأن فشل راسل في إثبات وجود تناسق* بين العقل والمادة كان له فائدة عظيمة . فقد دفعه ذلك إلى رفض التوازي النفسي ـ المادي** ، وإلى الاعتقاد تبعاً لذلك بأن العقل يمكن أن يتفاعل مع المادة ، وبالعكس . ولقد يسرت الواحدية المحايدة كثيراً من قبول وجهة النظر التي تقوم على الإدراك العام لمشكلة العلاقة بين العقل والجسد ، والتي أعتقد أنها واضحة الصحة وأنها أقرب إلى الحقيقة من معظم الفلسفات .

ويجدر بي أيضاً أن أعاود الحديث هنا عن محاضرات راسل عن الذرية المنطقية ، التي

---

* symmetry

** psycho — physical parallelism

سبقت الاشارة إليها . وتستمد هذه المحاضرات مادتها من أفكار أثارتها مناقشاته في المنطق مع فيتجشتين ،وفي فترة الحرب أكمل فيتجنشيتن كتابه « رسالة في فلسفة المنطق» أثناء خدمته في الجيش النمساوي . وفي حوالي ١٩١٩ تقابل راسل وفيتجنشتين في لاهاي لمناقشة هذا الكتاب ، الذي نشر لأول مرة باللغة الألمانية ثم صدرت له ترجمة بالانجليزية في عام ١٩٢٢*.

وكتب راسل مقدمة لهذا الكتاب أثارت غضب فيتجنشتين الشديد ، قائلاً إنها تسيء تقديم أفكاره . وعلى قدر ما أعرف كان فيتجنشتين يرفض دائماً تفسير أي شخص آخر ـ غير نفسه ـ لآرائه . والواقع أن هناك شكاً في مدى نجاحه في شرح آرائه بنفسه.

وكان أنجب تلامذة راسل وفيتجنشتين فرانك رامزي الذي كانت وفاته المبكرة المحزنة سبباً في عدم انتهائه من عمله الأصيل المبتكر . وذات مرة ضاق فرانك ذرعاً بالمناقشات المحتدقة التي لا تنتهي في جامعة كامبردج حول تفسير «رسالة» فيتجنشتين، وقرر أن يذهب إليه في النمسا حيث آثر اعتزال الحياة لبضعة أعوام ليسأله مباشرة عما يعنيه في بعض الفقرات الغامضة من كتابه. غير أنه مني بشيء من خيبة الأمل عندما أجابه فيتجنشتين بأنه لا يذكرها.

ولن أحاول في الوقت الحاضر أن اكتب شيئاً عن « رسالة» فيتجنشتين بالرغم مما لها من أهمية قصوى . ولكني سأكتفي بأن أذكر ما أعتقد أنه أهم فكرة تقاسمها فيتجنشتين مع راسل في ذلك الوقت ، والتي أعتقد أنه ليس هناك شك في نسبتها إلى راسل ، نظراً لأنه يمكننا أن نتتبع أصلها في « مبادىء الرياضيات» وفي أعمال راسل السابقة على هذا الكتاب .

وتتلخص هذه الفكرة في تأكيد « البناء** » . ومثال ذلك ما ذكرناه من قبل عن النظرية التي تذهب الى أن الجملة لها نفس الحقيقة التي تصفها . ولكن هذه الفكرة أوسع من هذا في مدى أهميتها . وإني أورد في هذا الصدد فقرة كتبها راسل في « مقدمة الفلسفة الرياضية» .

« غالباً ما يقال إن الظواهر ذاتية غير أن سببها يرجع إلى الأشياء في حد ذاتها . وحيث تقدم هذه الفروض ، فإننا نفترض بوجه عام أننا لا نستطيع أن نعرف إلاّ القليل جداً عن المقابل الموضوعي لها . والواقع على أية حال أنه لو كانت هذه الفروض ـ كما وردت ـ صحيحة ، فإن مقابلاتها الموضوعية سوف تكون عالماً له نفس بناء عالم الظواهر ويسمح لنا بأن نستدل من

* لما كان أحد الكتاب قد ذكر أن راسل مسؤول عن الترجمة ، فإنه يجدر بنا أن نسجل هنا أنه لم تكن له علاقة بها . ولكن لا سبيل إلى إنكار أن الأخطار التي وردت فيها والتي زادت من غموض الكتاب بالنسبة للقراء الإنجليز زيادة كبيرة قد ساعدت « فيتجنشتين » على أن يشتهر بصفة العمق في تفكيره .

** structure

الظواهر على حقيقة كل القضايا التي يمكن أن نضعها بشكل مجرد والتي نعرف أنها تصدق على الظواهر» .

ولم تكن هذه الفكرة على نفس القدر من الأهمية من وجهة نظر فلسفة راسل في ذلك الحين . غير أنها أصبحت ذات أهمية كبرى بعد عودته إلى وجهة النظر العادية عن العالم الخارجي ، الذي هو سبب مدركاتنا الحسية . والمعرفة التي نحصل عليها عن طريق مدركات الحواس هي معرفة ببنائها لا يمكن التعبير عنها إلاّ في صياغات رياضية مجردة . وهنا نصل إلى مملكة من السحر والفتنة تتلاقى فيها الفلسفة بالعلم . فالعلم الحديث بعد أن اتفق مع راسل في محاولة استبعاد ذلك النوع من الموجودات التي لا تخضع للملاحظة والتي أقصاها « بنصل أو كام» اتفق معه أيضاً على أن معرفة البناء هي الشيء الوحيد الذي يتبقى.

ولكي يشعر القارىء بالاقتناع فيما يتعلق بهذه النقطة ، فليس عليه إلاّ أن يلاحظ كيف كان أدنجتون يكثر من اقتباس هذه الفقرة التي أشرنا إليها فيما سبق من كتابات راسل . وقد يرجع القارىء إلى ما كتبه سكرود ينجر تحت عنوان « العلم والمذهب الإنساني» حتى يجد مثالاً ميسوراً آخر على أهمية البناء بالنسبة للعلماء . وفيه يذهب سكرود ينجر إلى أن التفرد يحدده البناء وليس هوية المادة . وأعود على سبيل المثال إلى توضيحي السابق فأقول : إننا نستطيع أن نذهب إلى أن تشرشل الشاب وتشرشل السياسي العجوز يتميزان بتشابه معين في البناء .

الفصل الثالث عشر

زيارة للاتحاد السوفييتي

اتسم الفكر اليساري في بريطانيا بين الحربين العالميتين الأولى والثانية بانحرافين رئيسين . أولهما هو الاقتناع بأن الحرب العالمية الثانية تعني نهاية الحضارة الغربية ، وأن أية محاولة للدفاع عديمة الجدوى . وثانيهما الاعتقاد اعتقاداً حسن النية أن أي شخص يؤمن أن قادة روسيا السوفيتية كانوا طغاة شموليين غلاظ القلوب إنما هو من المحافظين الرجعيين . ولقد أدى انتشار الخطأ الأول إلى انتصار هتلر في عام ١٩٤٠ . وكاد ينجم عن الخطأ الثاني فقدان السلام في سنوات ما بعد ١٩٤٥ .

ولا يمكن تبرئة راسل من ارتكاب الخطأ الأول كما سنرى فيما بعد . ولكنه كان بريئاً تماماً من ارتكاب الخطأ الثاني . ويكاد راسل أن يكون فريداً بين الراديكاليين البريطانيين في مواجهة الحقيقة بالنسبة لروسيا .

وساعدت الحرب العالمية الأولى على تحول راسل من الليبرالية إلى الإشتراكية . ويرجع تحوله أساساً إلى المحاجة التي تذهب إلى أن الرأسمالية تؤدي إلى الحروب . وأعلن راسل ، شأنه في ذلك شأن الماركسيين ، إن النظام الرأسمالي القائم مقضى عليه حتماً . . . ولكنه عندما دافع عن الإشتراكية في ذلك الوقت كان يعنى الإشتراكية الحرفية* أو الإشتراكية النقابية** (السندكالية) ، فقد كان يريد أن تدار الصناعات بواسطة العاملين فيها وليس عن طريق الحكومة . ولكن الإشتراكي في يومنا الراهن هو الشخص الذي يبتهج بتوسيع نشاط الدولة ومجال عملياتها . وكان راسل يرى أنه لا محيص عن زيادة بعض سلطات الدولة . ولكنه كان ينظر إلى ذلك على أنه شر لا بد منه . وقد اعترف بأنه يميل بالمزاج نحو الفوضوية . ووصف سلطة الدولة المتزايدة ، كواحد

* Guild Socialism

** Syndicalism

من الأسباب الرئيسية للشقاء الإنساني في العالم الحديث . (**وفوق كل شيء ، كان النشاط الأساسي للدولة في تلك السنوات يتلخص في صناعة الحرب**) . وتنبأ صائباً أن التأميم أو إحلال الدولة محل صاحب العمل الخاص سيجعل العامل الفرد أقل في قدرته على السيطرة على عمله مما هو عليه الآن .

وفي محاضرة ألقاها في ما نشستر عام ١٩١٦ تحت عنوان « ثغرات الإشتراكية » ، أظهر راسل مرة أخرى موهبته في التنبؤ الصحيح . إن العيب الأساسي في اشتراكية الدولة هو اعتقادها في إمكانية الإصلاح بمجرد تغيير جهاز الدولة . ولكن التأميم لن يقضي على الشرور الموجودة في الصناعة إذا لم يصاحبه تغيير في نظرة الإنسان إلى الأمور .

ويقول راسل إن سلطة الموظف الرسمي « خطر عظيم متزايد في الدولة الحديثة . . . إن حب السلطة حافز على درجة قصوى من الخطورة ، وذلك لأن الدليل الأكيد الوحيد على امتلاك السلطة يتلخص في منع الآخرين من القيام بما يبغون عمله » .

ومما يؤسف له أن الإنسان في أيامنا الراهنة يقرن مثل هذه الإنتقادات الموجهة إلى بيروقراطية الدولة بمعارضي الإشتراكية . ولكنه منذ أربعين عاماً كان هناك عدد كبير من الإشتراكيين الحرفيين الآخرين يشاركون راسل في تفكيره . وحتى الماركسيين كانوا يرون في « زوال الدولة » مثلهم الأعلى الذي يأملون في تحقيقه في نهاية الأمر . وقد كان الإعجاب غير المتمعن وغير المدقق بروسيا السوفيتية هو الذي أقنع المفكرين اليساريين إن إشتراكية الدولة هي الأسلوب الإشتراكي الوحيد الذي يمكن أخذه في الاعتبار . وبالتأكيد ، فإن الدولة في روسيا لم يبد عليها أية علامات « الزوال » ، الأمر الذي حدا بالإشتراكيين البريطانيين أن يذهبوا إلى أن روسيا لا بد أن تكون على صواب . وهكذا ارتفع التأميم ـ الذي كان حتى بالنسبة للنظرية الماركسية مجرد غاية إلى وسيلة ـ فأصبح غاية في حد ذاته .

حقيقة أن راسل ـ مثله في ذلك مثل بقية الإشتراكيين ـ بدأ بإزجاء التحية المتحمسة للثورة الروسية . ففي يناير ١٩١٨ كتب لكليفورد ألن يقول : إن العالم مكان ملعون . ولينين وتروتسكي هما الجانب المشرق الوحيد فيه . ثم كتب بعد وقت قصير يقول : « إن كل يوم يمر يملأ العالم بالأمل . إن البلاشفة يدخلون البهجة إلى نفسي . ومن السهل علي أن ألتمس لهم العذر في طردهم المجلس الإنتخابي إذا كان يشبه مجلس العموم عندنا بأية صورة . عجبي من نجاحهم : لقد حركوا الثورة في النمسا وألمانيا . بل إنهم جعلوا بعض الإنجليز يفكرون . ولكنهم لن ينجحوا أبداً في دفع أميركا إلى التفكير » .

ويختلف راسل عن غيره من التقدميين في أن إعجابه بروسيا السوفيتية لم يستمر بعد زيارته لها .

قام راسل بزيارة الإتحاد السوفيتي في صيف ١٩٢٠ عندما دعي كعضو غير رسمي في وفد عمالي ضم كليفورد ألن ودكتور هادن جست (الذي أصبح لورد هادن جست فيما بعد) ومسز فيليب سنودن . ومكثوا في روسيا من ١٩ مايو إلى ١٦ يونيو . ووصلوا إليها في حالة من الحماس البالغ إلى الحد الذي جعلهم ينفجرون تلقائياً في إنشاء « الأنترناشيونال » و « العلم الأحمر » الشيوعيين عندما وقعت أنظارهم لأول مرة على العلم السوفيتي وهو يرفرف على الحدود .

وتذكر راسل فيما بعد هذه الزيارة قائلاً : « كنت على استعداد لتحمل الصعاب الجسدية ، والمتاعب والقذارة والجوع في سبيل الأمل الرائع للإنسانية . وليس من شك أن رفاقنا الشيوعيين رأوا - وهم مصيبون في ذلك - أننا لا نستحق مثل هذه المعاملة . فبعد أن عبرنا الحدود أقاموا لنا وليمتين وقدموا لنا فطوراً جيداً وعدداً من السيجار من أرقى الأصناف وقضينا ليلة في حجرة نوم بالغة الروعة في قصر احتفظ بكل بذخ العهد البائد » .

وعلى أية حال ، لم تكن الأحوال أحياناً بمثل هذا البذخ . وكان راسل يتسلى عندما يرى أن رفاقه من نقابات العمال أكثر منه ضيقاً حين يجدون بقا في أسرة الفندق الذي ينزلون فيه . وعزا راسل مناعته ضد قرصات البق إلى امتلاء دمه بالنيكوتين .

وسافر الوفد في قطارات خاصة زينت بالأعلام الحمراء وأغصان الشجر الخضراء والشعارات الكثيرة عن الثورة الإجتماعية والبروليتاريا في العالم . وفي أول استقبال عام لهم عزف نشيد الأنترناشيونال الشيوعي لا أقل من سبعة عشر مرة لتحية كل قادم جديد من الشخصيات الهامة ، وبعد الانتهاء من إلقاء الكلمات . وخلقت مسز سنودن نوعاً من تلطيف الجو عندما تساهلت في الاستمساك بمبدأ الامتناع عن الخمور لتكريم ضيوفها وشربت من الفودكا مما جعلها تفاجىء هادن جست بإظهار شيء من الهيام نحوه .

وذات مساء انضم إليهم تروتسكي وهم يشاهدون عرضاً في الأوبرا باعتباره قائد جيش عاد منتصراً من الجبهة البولندية . وعندما تم تقديمه إلى واحد من المعترضين على الحرب باسم الضمير الإنساني من أعضاء الوفد ، علق تروتسكي قائلاً : « إننا لا يمكن أن نقبل هنا أحداً ممن يبشرون بالسلام ويريدون إيقاف الحرب » . ولكن هذا التشدد زايل تروتسكي بعد ذلك ، فقد مال على مسز سنودن أثناء أداء أحد مناظر الحب الرقيقة على المسرح وهو يقول : « ها هي اللغة العالمية العظيمة » .

وقد سجل راسل حينذاك وصفاً لتروتسكي فقال إنه : « يترك انطباعاً نابليونياً للغاية : عيناه لامعتان وقامته عسكرية ، خاطف الذكاء ساحر الشخصية . وقد أدهشني أنه حسن المنظر إلى أقصى حد ، وسحره للنساء لا يقاوم . وهو حبيب لطيف المعشر ما دامت جذوة حبه لم تخمد . وشعرت أنه يتمتع بروح الدعابة والمرح ما لم يطرأ شيء يعكر صفو مزاجه بأي شكل من الأشكال ، وهو معدوم الشفقة ولكنه غير قاس . له شعر مموج رائع . وزهوه أعظم من حبه للسلطة . إنه زهو فنان أو ممثل » .

واشتملت أسفار الوفد على رحلة في نهر الفولجا بدأت من نجني نوفجورود . وكانت الليالي قارصة البرودة . وأوشك كليفورد ألن أن يموت بالالتهاب الرئوي وبالتهاب في الغشاء المحيط بالرئة . وكتب راسل وصفاً للرحلة ـ نشره في جزء من كتاب « مشكلة الصين » ـ اعتبره أفضل قطعة كتبها نثراً .

ولأن راسل لم يكن مبعوثاً رسمياً ، فإنه استطاع أن يتغيب عن بعض الإحتفالات الرسمية وأن يقابل الناس العاديين في الشوارع والقرى . (والتقى ببعض الروس ممن كانوا مسجوني حرب في ألمانيا ، والذين استطاع أن يتحدث إليهم باللغة الألمانية . وحاول راسل أن يتعلم بعض الأمور مثل الإجراءات المتبعة لشراء شمسية من الجمعيات السوفيتية في موسكو ، الأمر الذي اتضح أنه يبلغ من العسر ما تبلغه محاولة الولوج إلى غوامض الكون وأسراره . وشاهد طوابير من النساء المتعبات ينتظرن بصبر خارج محلات الخبز الحكومية ليحصلن على مقرراتهن من الخبز الأسود . وارتاع راسل لما وجده من فقر وبؤس شأنه في ذلك شأن بقية أعضاء الوفد . وقد ذكرت مسز سنودن فيما بعد أنه على الرغم من أن أعضاء الوفد قد جاءوا جميعاً وهم يرتدون أقدم ملابسهم عن عمد فقد ظن الروس أنهم « يرتدون ملابس الأمراء » ، وكانوا يديرون أجسام هؤلاء الأعضاء بهدف إظهار الإعجاب بهم كما كانوا يتحسسون معاطفهم وملابسهم ويربتون عليها.

ولكن راسل لاحظ أنه ليس هناك إقبال على تعاطي المسكرات . أو أن تعاطي المسكرات « كان محدوداً للغاية بحيث لم يلحظه أحد منا » . كما كانت الدعارة في موسكو أقل بكثير جداً منها في أية عاصمة أخرى . وكانت النساء في مأمن من المعاكسات أكثر من أي مكان آخر في العالم . وقال راسل : « إن الإنطباع العام الذي تتركه الحياة هناك يعطى صورة لنشاط منظم فاضل » .

وانتهى راسل في الواقع إلى أن البلاشفة يشبهون إلى حد ما البيوريتانيين المتزمتين في مجال الأخلاق . ولعلنا نجد في هذه المقارنة ظلماً قليلاً للبيوريتانيين . ولكنا يجب أن نذكر أن راسل

نفسه كان يمقت البيورتانيين مقتاً مشبوباً بكل جوارحه ، الأمر الذي لم يكن يتسنى حدوثه لو لم يكن راسل نفسه بيورتيانياً في وقت من الأوقات ولقد قال راسل : « يكاد شكل الحكومة السوفيتية أن يطابق تماماً شكل الحكومة التي أقامها كروموبل في إنجلترا في القرن السابع عشر . فكلاهما ينتميان إلى مرحلة تتشابه إلى حد ما في التطور الإقتصادي في ظل نظام إقطاعي متداع وطبقة متوسطة تنشأ بالتدريج . وشعب أمي في غالبيته . كما أن الجيش الأحمر يقابل جيش القديسين عند كروموبل يقوده رجال يتم اختيارهم على أساس قوة اقتناعهم بالعقيدة » .

واجتمع راسل في الكرملين مع لينين الذي قال أنه يود أن يرى حكومة للعمال تقام في لندن وأنه يريد من الشيوعيين البريطانيين أن يعملوا من أجل تحقيق ذلك . ولكنه ببساطة كان يهدف من وراء ذلك إلى كشف عدم جدوى الحياة البرلمانية . وعندما قال راسل : « إنه من الممكن تحقيق الإشتراكية في إنجلترا دون الالتجاء إلى سفك الدماء ، أزاح لينين هذا الرأي جانباً على أنه خيالي . وكان من الواضح أن لينين ليست لديه فكرة عن موقف العمال البريطانيين الذي حال دون شن حرب شاملة ضد روسيا السوفيتية .

ووجد راسل لينين على نقيض تروتسكي . ويقول راسل في وصف لينين : « ليس هناك شيء في مسلكه أو مظهره يوحي بأنه الرجل صاحب السلطة . وهو ينظر إلى زائره عن كثب مغمضاً إحدى عينيه نصف إغماضة » .

وغادر الكثيرون من أعضاء الوفد روسيا وهم في حالة خيبة أمل مريرة وأفاقوا من أحلامهم . وقد نقلت مسز سنودن عن أحدهم قوله « تكاد ألا توجد في روسيا إشتراكية جديرة بهذا الإسم ويعيش الناس في بؤس تام » . كما كتبت هي بصراحة عن « الشقاء الذي يتحمله شعب روسيا البائس » . ولكن عند عودة الآخرين من أعضاء الوفد إلى أرض الوطن استقبلتهم الجماهير في اجتماعاتها الشعبية بحفاوة منتشية وهي تتعطش لسماع المديح لروسيا ، الأمر الذي أغراهم بأن يقدموا تقارير عن الحالة في روسيا تزيد في إشراقها عن الواقع الذي بدأ يخبو في ذاكرتهم . أما فيما يختص براسل فقد شرع يكتب تحليلاً نقدياً أمعن فيه النظر تحت عنوان « تطبيق البلشفية ونظريتها» .

واستطاع راسل أن يعيد طبع هذا الكتاب بدون تعديلات تقريباً في عام ١٩٤٩ . وهو مثال مدهش على دقة ملاحظته السياسية وقدرته على التنبؤ الذي يصمد أمام مرور الزمن . ولكن راسل في الحقيقة لم يكن مناهضاً للبلشفية تماماً كما استخلص بعض الناس من تصريحات له صدرت فيما بعد مثل التلخيص الذي أعده عام ١٩٤٣ عن زيارته لروسيا والذي يقول فيه : « عندما ذهبت هناك في عام ١٩٢٠ لم أجد شيئاً يثير الحب أو الاعجاب» . وكان كتابه في بعض فقراته أقل عداء

للاتحاد السوفيتي ولينين من الكتاب الذي ألفته مسز سنودن . ويعطي كتاب راسل في باديء الأمر انطباعاً بتقلب صاحبه الغريب بين ذم البلاشفة والثناء عليهم بسبب حرصه على أن يقدم كلا الجانبين السيء والطيب في عدل وموضوعية .

ويتضح لناشيء من الانقسام الفكري الذي عاناه راسل فيما يتعلق بروسيا في ذلك الوقت في خطاب له يقول فيه :

« أنحيت على نفسي باللائمة لأني لم أحبها . فقد كانت لها كل سمات البداية الفنية . كانت قبيحة ومتوحشة ولكنها مليئة بالطاقة البنائة والايمان بقيمة ما تصنع . . .

« لقد كنت في ذلك الجو تعساً تعاسة لا حد لها ـ تخنقني نفعيته وعدم مبالاته بالحب والجمال والحياة النابضة . إذ لا يمكنني أن أعطى احتياجات الإنسان الجسدية باعتباره حيواناً فقط ذلك الإهتمام الذي أعطاه رجال السلطة هناك لها . ولا شك أن ذلك يرجع إلى أنني لم أقض نصف عمري في عوز وجوع كما حدث لكثيرين منهم . ولكني أتسائل : « هل يؤدي الجوع والعوز بالضرورة إلى الحكمة ؟ هل يجعلان الإنسان قادراً بدرجات متفاوتة على إدراك المجتمع المثالي الذي لا بد أن يكون مصدر إلهام لكل مصلح ؟

« إنني لا أستطيع أن أتخلى عن الاعتقاد بأن الجوع والعوز يضيقان الأفق أكثر مما يوسعانه . ولكن يظل هناك شك يقلقني وأني أجد نفسي ممزقاً إلى نصفين » .

وكانت النقطة الأساسية في كتاب « تطبيق البلشفية ونظريتها » هي أن يوضح أن الاشتراكيين البريطانيين كانوا مخطئين في اعتقادهم بأن « ديكتاتورية البروليتاريا » ليست سوى شكل جديد للحكومة النيابية . وأصر راسل على تسمية الديكتاتورية باسمها الحقيقي وهو الديكتاتورية في حين أن كلمة « بروليتاريا » تستخدم بمفهوم مضحك (يذكرنا بشخصية ديكنز المعروفة المستر بيكويك) للدلالة على الحزب الشيوعي .

وقال راسل إنه في ظل حكم الديكتاتوريين البلاشفة ، « كانت المعارضة يتم سحقها بدون رحمة ودون جفول باستخدام أساليب البوليس القيصري الذي استمر كثير من أفراده يقومون بعملهم القديم » . وبعد ما رآه في الحرب ، فإنه لم يعد يقبل ـ كما كان يقبل عندما حاضر عن ألمانيا في عام ١٨٩٦ ، فكرة وجود مزايا معوضة في الحماس المحموم الذي يصاحب التعصب والتزمت في الاستمساك بالأراء القاطعة . «إن الاحتكاك بمن لا يعتريهم شك قد زاد من شكوكي ألف مرة ليس بالنسبة للاشتراكية نفسها ولكن بالنسبة إلى حكمة الاستمساك الراسخ بعقيدة ما رسوخاً يجعل الناس على استعداد لأن ينشروا البؤس والشقاء من أجل ذيوعها » .

وتتلخص النتيجة التي توصل إليها راسل في أن « الشخص الذي يؤمن مثلي بأن العقل الحر هو المحرك الرئيسي في التقدم البشري ، لا يمكنه سوى أن يعترض على البلشفية اعتراضاً رئيسياً ، بقدر ما يعترض على كنيسة روما . إن الآمال التي تلهم الشيوعية هي في أساسها جديرة بالإعجاب مثل الآمال التي تثيرها « موعظة المسيح على الجبل » . ولكن الناس يستمسكون بكلا الشيوعية وموعظة المسيح على الجبل استمساكاً متعصباً مما يجعل من المحتمل أن يحدثا ضرراً متساوياً » .

وأعتقد أن راسل كان أول من تنبه وأوضح أن الشيوعية شكل من أشكال العقيدة ، وهي عقيدة يمكن استخدامها كالمسيحية في تبرير الإضطهاد (ولعلنا نذكر أنه وصف الماركسية على أنها عقيدة منذ الوقت الذي كتب فيه « الديموقراطية الإشتراكية في ألمانيا) . وفيما يتعلق بالنظرية البلشفية ، فقد استكمل راسل نقده لها الذي بدأه في عام ١٨٩٦ . فقال إن الماركسين التفتوا أكثر من اللازم بالدوافع الإقتصادية ولم يهتموا بالقدر الكافي بقوة القومية والدين والكبرياء وحب السلطة . ثم عاد يؤكد من جديد أن نوع الاشتراكية المناسب لبريطانيا ليس الشيوعية ولكنه الإشتراكية الحرفية أو الحكم الذاتي في الصناعة .

كان ذلك أحد جوانب الصورة وهو يتمثل في تلخيص موقفه المناهض للنظام السوفيتي . أما عن الجانب الآخر فقد كتب راسل يقول : « إن روسيا ليست مستعدة لقبول أي شكل من أشكال الديموقراطية . . . وهي تحتاج إلى حكومة قوية . . . وفي روسيا تصبح الأساليب البلشفية أمراً لا محيص عنه بصورة أو بأخرى » .

وهكذا ظل راسل طيلة الوقت يتأرجح بين إدانة النظام السوفيتي وتخفيف الحكم الذي يصدره عليه شارحاً أسباب الإتهام والدفاع . وفي إحدى الصفحات نراه يكتب : « لا يمكنني أن أشارك البلاشفة آمالهم . إنني أنظر إلى البلشفية على أنها أوهام مأساوية قدر لها أن تجلب إلى العالم قروناً من الظلمة والعنف غير المجدي». ولكننا نراه يكتب في صفحة أخرى: «إنني أومن بأن الاشتراكية ضرورية للعالم كما أومن بأن بطولة روسيا قد ألهمت الناس بطريقة لازمة لتحقيق الاشتراكية في المستقبل».

وبالرغم من المحاولات التي بذلها حتى يكون عادلاً في حكمه على الشيوعيين فقد استقبل الإشتراكيون البريطانيون كتابه بكراهية مشبوبة . فقد كان هناك شعور بأنه حتى لو كان نقده على حق ، فإنه كان ينبغي عليه ألا يصرح بهذا النقد لأنه سيساعد أي محافظ يرغب في مهاجمة روسيا السوفيتية لأسباب رجعية .

وقد كان نقده سبباً لإثارة المشكلة الخاصة بموقف المفكر في السياسة وكيف يمكن له أن يجمع بين حب الحق والنشاط السياسي التنظيمي .

وكانت هذه المشكلة بالنسبة لراسل حادة بصفة خاصة . وظل يتأرجح بين هذين الشعورين المتعارضين . وآمن راسل بالعقل الفرد المستقل وليس بعواطف الغوغاء الهوجاء . وكتب يقول : « إن روسيا زادتني إيماناً بأن كل ما هو خير يوجد في الأفراد وليس في المجتمعات . « وقد ذكر ذات مرة » إن الشيء الوحيد الذي أخشاه هو القطيع » . وبالرغم من ذلك ، فقد كان يتوق إلى الصداقة والمودة . وبالنسبة له فإن حب الحق وحب رفاقه من بني البشر يسيران جنباً إلى جنب . وإنه لأمر طبيعي لرجل فريد في حبه للحق أن يكون فريداً كذلك في حبه للبشر . وقد كتب أثناء الحرب يقول : « إنني أشعر هذه الأيام بأن الإنسانية حيوان أبكم يثير الشفقة والرثاء مصاب بجرح مفتوح تنزف منه الدماء وتغيض منه الحياة فتذوي معها حياتي ، إذا لم يتيسر لي أن أصبح بلا شعور في هذه الفترة من الزمان . إنني أجد أحياناً في الأنانية راحة من الشعور بالشفقة الذي لا يطاق . ولكنها راحة مؤقتة فحسب . فإن حياة الإنسان ليست حياة ما لم ترتبط بحياة العالم » . ولقد وجد راسل في العلاقات الإنسانية ـ شأنه في ذلك شأن الفلسفة ـ أن مذهب الذرية الصارم (الفردية المطلقة) أمر مستحيل . . ومن ثم فقد سعى دائماً إلى أن يربط نفسه في الحركات السياسية بأصدقاء يعتقد أنهم يشاركونه الرأي ويحاول أن ينظر إلى اختلافه معهم على أنه مسألة غير هامة نسبياً .

ولقد قال راسل ذات مرة : « لقد ظللت طيلة حياتي أتوق إلى الشعور بالاتحاد مع مجموعات كبيرة من بني البشر . . . ذلك الشعور الذي يحس به أفراد الجماهير المتحمسة . وفي أغلب الأحيان كان شوقي إلى هذا الشعور قوياً إلى الحد الذي أدى بي إلى أن أخدع نفسي . لقد تصورت نفسي على هذا النحو من الترتيب ليبراليا ثم إشتراكياً ثم داعياً للسلام . ولكني لم أكن أياً من هذه الأشياء بأي معنى عميق . فقد كان عقلي الشكاك يهمس بالشكوك في أذني عندما كنت أتشوق إلى صمته . . . كنت أخبر طائفة الكويكز (اصلاح) المؤمنين بالسلام أنني أعتقد أن هناك كثيراً من الحروب في التاريخ التي لها ما يبررها ، كما كنت أخبر الإشتراكيين بفزعي من طغيان الدولة » .

ويبدو أن الحل الوحيد لمشكلة المفكر الذي يشترك في السياسة يكمن في أن يكون نشاطه غير حزبي من ناحية وغير متفرغ من ناحية أخرى . وكما أن الحرب من الخطورة بحيث لا يجب أن تترك للجنرالات ، فإن المشاكل السياسية من الخطورة بحيث لا يجب تركها للسياسيين المحترفين لأنهم أنفسهم هم الأشخاص الذين تحول مهنتهم بينهم وبين مناقشة هذه المسائل بصدق . ومن الملاحظ أن راسل كان في العادة على صواب في آرائه السياسية عندما كان يختلف مع كل الناس . كما كان التوفيق لا يحالفه عندما يقترب اقتراباً شديداً من أية وجهة نظر سياسية متفق عليها .

وهناك نقطة أخرى لا بد من الاعتراف بها ، وهي أنه حين يتناول فيلسوف أو عالم في كتاباته

الموضوعات السياسية ، فإنه ينبغي الحكم على كتاباته بمقاييس تختلف عن المقاييس التي نحكم بها على أعماله المتخصصة . وقد أكد راسل ذلك بنفسه المرة تلو المرة . ففي فترة من فترات الحرب مثلاً اقترح راسل نظرية فحواها أنه يجب أن نقصر ما نبشر به في السياسة على ما يمكن أن نضعه موضع التنفيذ فحسب : « فإنني مثلاً أؤمن بانتهاج الأساليب العلمية في التناسل ، ولكني لا أرى ما يدعو إلى التبشير بهذا في الوقت الحاضر » . وكان راسل يحرص على أن يردد أن كتابه « مبادىء إعادة البناء الاجتماعي » لم يكن يقصد به أن يكون إضافة للعلم ، ولكنه يخدم غرضاً عملياً تماماً » . وهو لم يكتبه بوصفه فيلسوفاً ولكنه كتبه بوصفه » إنساناً يشقى بأحوال العالم » . وبالرغم من تصريحات راسل في هذا الصدد ، فإن ذيوع صيته قد دعا الناس أحياناً إلى الانبهار به وبأعماله التي تستغلق على أفهامهم ، إلى الحد الذي جعلهم يخافون حتى من نقد الأعمال التي يفهمونها .

وقد أكد استقبال الكتاب الذي تناول فيه راسل روسيا السوفيتية الصعاب التي يجدها المرء عندما يريد أن يجمع بين قول الصدق ومحاولة الاحتفاظ بالارتباطات السياسية في نفس الوقت . وبعد أن خسر راسل كثيراً من صداقاته بسبب اعتراضه على الحرب ، نراه الآن كذلك يفقد كثيراً من صداقاته الجديدة بين دعاة السلام بسبب معارضته لروسيا . فقد كانت هذه المعارضة مثلاً سبباً في بداية انفصام وشائج الصداقة التي تربطه بكليفورد ألن الذي كتب إلى اليزابيت راسل بمجرد عودة الوفد من روسيا : « ستجدين أني وبرتي بالذات مثار لاهتمامك في الوقت الحاضر ، لأننا نتقاتل قتالاً مريراً ، مثل قطتين ـ لأول مرة في حياتنا حول روسيا » .

وكانت معارضته لروسيا أيضاً سبباً في خلافه مع تشارلس تريفليان الذي دافع أثناء الحرب عن قضيته في مجلس العموم ضد لويد جورج .

وليس من شك أن النقد الذي وجهه الاشتراكيون البريطانيون إلى راسل لم يكن بالقوة التي كان يعتقد أنه عليها . فقد بلغت حساسيته حداً جعله يميل دائماً إلى الظن بأن الناس يتخذون منه موقفاً معادياً أكثر مما كان في واقع الأمر . ولكن هذا النقد كان يكفي لإعطائه شعوراً بالعزلة السياسية في عالم يناصبه العداء .



الفصل الرابع عشر

«الصين بلاد ممتعة»

عندما كان راسل في السجن فكر في العودة إلى جامعة كامبردج بعد الحرب لإلقاء المحاضرات فيها بصورة غير رسمية . وقال : « لا زلت أريد أن أعلم الشباب وأتعامل معه ولكني لا أريد مطلقاً أن أنتمي مرة أخرى إلى الجامعة بصفة رسمية . وإني أتنبأ لنفسي بمستقبل بهيج ـ مثل أبيلارد ـ كفيلسوف غير مرتبط بوظيفة معينة » . وتحدث عن رغبته في الترويج لمجموعة محاضرات يلقيها في الميتافيزيقا : « يفهمها الجميع باستثناء دارسو الفلسفة » وفي نهاية عام ١٩١٩ قبل مع ذلك عرضاً بعودته إلى وظيفته السابقة في كلية ترنيتي . وقدم راسل إلى هذه الكلية طلباً للحصول على إجازة لمدة عام عندما طلبت إليه جامعة بكين الحكومية أن يحاضر فيها . ثم استقال ثانية من العمل بكلية ترنيتي لأنه لم يشأ أن يحتدم جدل جديد حول طلاقه من زوجته الأولى الذي كان وشيك الوقوع . وظن راسل أن هذا سوف يسبب ارتباكاً وحيرة للذين دافعوا عنه عندما فصل عام ١٩١٦ وعملوا على دعوته إلى وظيفته التي فقدها .

وكان لراسل في تلك الأعوام صديقتان حميمتان . وفي وقت من الأوقات تلخصت مهمة كليفورد ألن عندما كان يعيش مع راسل ونفر من أصدقائهما الآخرين في إحدى المزارع في التأكد من أن واحدة من هاتين الصديقتين قد استقلت القطار قبيل وصول صديقة راسل الأخرى خشية أن يلتقيا . وكانت إحدى هاتين الصديقتين دورا بلاك ، التي أصبحت زوجة راسل الثانية . كانت دورا فتاة تتمتع بقدرة فائقة وحيوية ونشاط فائقين ، وتعتنق آراء كانت تعتبر حينذاك خارجة عن العرف والتقاليد إلى أبعد الحدود . وفي إحدى المناسبات سمع راسل وقع أقدامها على الدرج الخارجي وهي في طريقها إليه فالتفت إلى صديق له قائلاً : « لا تتركني بمفردي معها » ، ولكن دورا رافقت راسل عندما ذهب في عام ١٩١٩ إلى لاهاي لرؤية فيتجنشتين وسافرت معه إلى الصين في عام ١٩٢٠ .

ولقد أثمرت زيارة راسل للشرق الأقصى ، فألف كتاباً بعنوان « مشكلة الصين » ، وهو كتاب يضارع « تطبيق البلشفية ونظريتها » في دقة ملاحظته وذكاء تحليلاته . واستطاع الكتابان أن يصمدا صموداً مشرفاً أمام اختبار الزمن . وقد وصف لي أحد الثقات في شؤون الصين وهو البروفيسور س . ب. فيتز جرالد «مشكلة الصين » بأنه « كتاب ممتاز إذا قسناه بأي مستوى » . كما وصفه أنه كتاب يتميز « بالفطنة والمقدرة الذكية على استكناه المستقبل » والنقطة الوحيدة التي ثبت فيها حتى الآن أن راسل كان مخطئاً هي تنبؤه بإقامة شكل من أشكال الحكم الفيدرالي في الصين .

وقد أكد راسل أن الصين سوف تكون لها أهمية في الشئون الدولية في وقت كان من العسير فيه إقناع معظم رجال الحكومة البريطانية ـ بما في ذلك وزارة الخارجية ـ أن يظهروا أي اهتمام بها . وأوضح أن الضغط السكاني كان يدفع اليابان نحو النعرة القومية والعدوان . وقال : « إنه إذا لم يتم تحديد النسل ، فإن الكارثة ستحدث حتماً إن عاجلاً أو آجلاً » . ورأى بجلاء ضرورة أن تتخلى الصين عن أسلوبها التقليدي في الحياة وأن تذكي الروح الوطنية والعسكرية إذا شاءت أن تتجنب الغزو العسكري . غير أنه رأى الخطر الكامن في هذا وأن الصين قد تتجاوز الحدود في هذا الصدد . وحذر من أن الصينيين ـ بالرغم من هدوئهم المعتاد ـ يمكن أن يكونوا قادرين على « الهياج المتوحش » . وقال إن « المرء يستطيع أن يتصور قطاعاً منهم يؤمن بالبلشفية إيماناً متعصباً » .

ويتلخص رأيه في أن « جميع الدول الكبرى دون استثناء لها مصالح تتعارض مع مصالح الصين في المدى الطويل . . . ويجب على الصينيين أن يبحثوا عن خلاصهم في قوتهم ومنعتهم الخاصة وليس في البر والإحسان الذي تقدمه إليها أية دولة أجنبية . وهناك خوف كبير من أن يصبح الصينيون ـ وهم يقومون بدعم أنفسهم للمحافظة على استقلالهم ـ أقوياء إلى الحد الذي يبدأون معه في انتهاج سياسة استعمارية .

وليست هناك حاجة لأن نقول أن راسل كان ينظر إلى هذا التغيير المحتمل في الصين بمقت شديد . ويصف المعارك التي حارب فيها قواد الحرب الصينيون بعضهم البعض حينذاك بقوله : « كان كل من الجانبين يولي الأدبار . وكان النصر من نصيب الجانب الذي يكتشف أولاً هرب الجانب الآخر » وفي حقيقة الأمر ، راق لراسل كل شيء وجده في الصين تقريباً . وانحصر نقده الوحيد ضد أمور مثل الشح والفساد وشيء من غلظة القلب . وكان رأيه الذي استخلصه بوجه عام في جانب الحضارة الصينية بصورة كاملة . فقد رأى أن « الصين والصينيين ممتعون للغاية » . واعتبر الصين « أمة فنانة ، لها فضائل الفنان ورذائله » . وصرح بقوله : « إن لدى الصينيين ما نتعلمه منهم بقدر ما لدينا مما يتعلمون منا ، غير أن فرصنا في التعلم منهم تقل عن فرصهم بكثير » .

وفي الصين تخلص راسل لفترة ما من آثار إيمانه الفكتوري اللاشعوري بالتقدم ، ومن افتراض أن أية فكرة جديدة لا بد وأن تكون أفضل من الفكرة القديمة . ووجد نفسه لأول مرة في حياته محافظاً ، بمعنى أنه وجد نفسه معجباً بحضارة في سبيلها إلى الزوال ، ويندم على اختفائها . واشتكى راسل من أن أصدقاءه الصينيين حريصون أكثر مما ينبغي على تأثيث منازلهم بالأثاث الغربي الرديء وعلى محاكاة الأفكار الغربية . أما راسل فقد ابتهج عندما اشترى بعض الأثاث الصيني القديم . ولكن المترجم الصيني الذي كان يرافقه نظر إلى ما يشتريه باشمئزاز قائلاً : « إن له رائحة بوذية » .

ويقول البروفيسور شوارتز بجامعة هارفارد الذي ظهرت كتاباته عن الصين بعد أن نشر راسل كتابه عنها : « «إن الكثيرين من الطليعة المثقفة أثار حنقهم ما رأوه فيه من ميل صبياني مشاكس لأن يجد قيماً تستحق التقدير في الحضارة الصينية التقليدية . وتنبأ راسل نفسه في يأس وتشاؤم بأنه سيأتي وقت « يكون فيه الفرق الوحيد بين الشرق والغرب هو أن الشرق سيصبح أكثر غربية » .

وقد يكون مما يثير اهتمام أولئك الذين يذهبون إلى أن راسل كان دائماً في قرارة نفسه أرستقراطياً ليبرالياً من القرن الثامن عشر ـ الأمر الذي لا يعتبر نقداً بالضرورة ـ أن نشير هنا إلى بعض الفضائل التقليدية التي امتدح الصينيين من أجلها . فقد مدحهم لتسامحهم وهدوئهم ووقارهم ومناعتهم ضد الاستثارة والاستفزاز وخلوهم الظاهري من العواطف المتأججة الهوجاء وتفضيلهم أن يقولوا أقل مما يعنون ـ وهذه جميعاً فضائل إنجليزية . وتقترن الفضائل الأخيرة بالأرستقراطية الإنجليزية على وجه الخصوص . ولاحظ راسل كذلك أن الصينيين ـ شأنهم في ذلك شأن الإنجليز ـ يحبون الحلول الوسطى» وأن النكتة يمكن أن تخفف من حدة المنازعات ، وأن الصينيين ـ مثل الإنجليز ـ يؤمنون بالإتيكيت (السلوك المهذب) أكثر من إيمانهم بالأخلاق. وهم لا يؤمنون بمبادىء دينية لا تقبل النقاش أو الجدل ولكنهم يتبعون قواعد راسخة ثابتة للسلوك. ودافع راسل عن مبدأ «دعه يعمل» (وهو دفاع قمين بأن يصدر عن ليبرالي إنجليزي من القرن الثامن عشر) قائلاً: «إن تسعة أعشار النشاط الذي تقوم به الحكومة الحديثة نشاط ضار. ولهذا، فكلما تحقق هذا النشاط بصورة أسوأ، كان ذلك أفضل . وفي الصين حيث الحكومة كسول وفاسدة وغبية ، فإن هناك قدراً من الحرية الفردية التي فقدها بقية العالم تماماً».

وبالرغم من هذا فقد رأى راسل في الصين ـ مثلما رأى في روسيا ـ وجهي المسألة . فلم يمنعه ثناؤه على « دعه يعمل » من أن يقول في كتابه « مشكلة الصين » إن « هناك أدلة كثيرة تؤيد اشتراكية الدولة أو على وجه الدقة ما يسميه لينين رأسمالية الدولة في بلد متخلف اقتصادياً دون أن يكون متخلفاً من الناحية الثقافية » . وأيد راسل ملكية الدولة للسلك الحديدية والمناجم في الصين (غير

أنه اقترح أن تؤجل ملكية الدولة للمناجم مؤقتاً ، نظراً إلى تطور التعدين تطوراً سريعاً) . ويبدو أن آراءه تحركت بصورة أكبر في اتجاه الإشتراكية التقليدية حين عاد إلى إنجلترا وكتب « مشاكل الصين » أكثر مما كان عليه وهو لا يزال في بكين . ووفقاً لما ذكره البروفيسور شوارتز فإنه :

« خلال الجزء الأخير من عام ١٩٢٠ أثار برتراند راسل وصحفي صيني شاب اسمه تشانج تونج ، جدلاً عنيفاً بما ذهبا إليه من أن جذور البؤس الذي تعاني منه الصين تكمن في فقرها وانخفاض إنتاجيتها . وأن هذا الفقر لا يمكن التخفيف من حدته إلا عن طريق التصنيع وليس عن طريق مناقشة هذا المبدأ أو ذاك . وأنه مهما اشتد اعتراض المرء على الرأسمالية على أساس أخلاقي ، فإنه يبدو أن الرأسمالية وحدها هي التي تستطيع أن تحقق مثل هذا التصنيع » .

ولعل الخلاف بين أتباع أي من النظامين : الإشتراكي والرأسمالي لم ينشأ من أهمية الإيمان بضرورة التصنيع بصورة أو أخرى . ولقد رأى راسل أن مشكلة الصين ذات شقين ، فقد كان عليها من ناحية أن تتسلح بدرجة تكفي لرد أي عدوان عليها ، دون أن تصطبغ بأية صبغة عسكرية . كما كان عليها من ناحية أخرى أن تطبق الأساليب العلمية حتى تتمكن من الانتصار على الفقر دون أن تكتسب رذائل التصنيع في الغرب . وكان يشكك في إمكانية تحقيق أي منهما . غير أن طرح اقتراحاته الخاصة لحل المشكلة الثانية ـ وهي مشكلة الجمع بين التكنيك العلمي واحترام القيم الإنسانية ـ في كتابه « مستقبل الحضارة الصناعية » الذي ألفه بالاشتراك مع دورا بلاك (وقد استوحيا أفكار هذا الكتاب من زيارتيهما المنفصلتين لروسيا « حيث أظهرت دورا إعجابها المتحمس بالبلشفية) ومن زيارتهما معاً للصين .

وفيما يتعلق بالصين ، فقد علق راسل آماله على سون يات سن الذي وصفه بأنه الاستثناء الوحيد للقاعدة التي تقول : « بأن سادة الحرب الصينيين ليسوا سوى قطاع طرق طموحين » . وشبه راسل نظرة سون يات سن بنظرة الليبراليين الإنجليز الذين عفا عليهم الدهر ، فقال إنه كان يهدف إلى التخفيف من حدة الفقر وليس إلى الثورة الإقتصادية . وقد قال راسل ذلك في وقت كانت فيه وزارة الخارجية البريطانية ببلاهتها التي لا تصدق (والتي كانت تتميز بها سياستها نحو الصين حينذاك أثناء ظهور ماو) تنصرف إلى تأييد أحد منافسي سون يات سن ، وتبذل قصارى جهدها لزعزعة الثقة بسون والإساءة إلى سمعته .

وبعد أن سجلنا فكرة راسل عن الصين والصينيين ، فإنه مما يدعو إلى الإهتمام أن نسأل عن فكرة الصينيين عنه . ولقد ترك راسل فيهم أثراً بالغاً . فقد استمعوا لأول مرة إلى أرستقراطي إنجليزي على استعداد لانتقاد الإستعمار البريطاني . كما أنهم التقوا لأول مرة بأجنبي على استعداد لأن يفكر في مشاكل الصين من وجهة نظر الصينيين أنفسهم . وقيل أن سون يات سين صرح أن

راسل كان الإنجليزي الوحيد الذي فهم الصين . وبدأ طلبة جامعة بكين الـذين ملأ الحماس قلوبهم إعداد مجلة خاصة باسم « مجلة راسل » لنشر أفكاره . ويجب أن نذكر في هذا الصدد أن الصينيين يكنو ن للعلماء الممتازين نفس الإحترام العميق الذي تكنه الدول الأخرى لنجوم الرياضة والسينما . وقد نجد في الصين حتى يومنا الراهن أناساً يقدرون بريطانيا تقديراً كبيراً بسبب فهم راسل لمشاكلهم .

وكان جون ديوى موجوداً في الصين في نفس الوقت الذي كان فيه راسل هناك . وطبقاً لما يقوله البروفيسور شوارتز : « بينما كان تأثير راسل محدوداً سريع الزوال ، فإن ديوى ترك أثراً باقياً على تفكير الصينيين » . غير أن هذا الرأي الخاص بتأثير راسل لا يجد تأييداً كاملاً من البروفيسور فيتزجيرالد الذي ذهب أول مرة إلى بكين في وقت مبكر يرجع إلى عام ١٩٢٣ ، الأمر الذي يجعله في وضع يمكنه من الحكم في هذا الشأن . ويبـدو أن أثـر ديوى كان في حقيقـة الأمـر قاصراً على الكومنتانج .

وثمة آخرون كانت شكواهم تتلخص في أن تأثير راسل لم يكن ضئيلاً للغاية ، بل أنه كان كبيراً للغاية . وكان المبشرون أقوى من تعرضوا له بالنقد . فعندما نظمت رابطة الصـين الفتـاة سلسلة من المحاضرات عن الدين في بكين قال إنه يمكن أن يكون الملحد رجلاً ذا مبادىء أخلاقية سامية . وأن الأخلاق تصبح نفاقاً عندما ترتبطبالدين أكثر مما ينبغي . ورأى المبشرون أيضاً أنه من المؤسف أن تجد نساء الصين ـ في الوقت الذي يتعلمن فيه أسلوب الحياة الغربية ـ رحلة راسـل بصحبة دورا بلاك أمام أعينهم كمثل على هذا الأسلوب . ومثل هذا النقد لا يجـد قبـولاً لدى البروفيسور فيتزجرالد الذي يقول إن الشابات الصينيات المتحررات في ذلك الوقت لم يكن بحاجة إلى تشجيع . ولاحظ راسل بنفسـه في زيارة له لمدرسـة في بكين لتدريب البنات كي يصبحـن مدرسات « أن روح البحث الحر التي تشيع بين هذه الفتيات قمينة بأن تثير فزع معظم مديرات المدارس البريطانية » .

وكانت زيارته للصين أكبر من أن تكون فترة عابرة في حياته . فقد كادت هذه الزيارة أن تقضي عليه ، إذ أنه أنهك نفسه في إلقاء المحاضرات المتتابعة في قاعات بكين الباردة والتي تكثر فيها تيارات الهواء . ثم أصابته نوبة من الرعشة بعد انقضاء يوم واحد على سفره بالسيارة إلى الجبال الغربية وسباحته في حمام الكبريت الساخن . وعند عودته إلى بكين تبين أنه مصاب بالتهاب رئوي حاد . وبدأت مضاعفات المرض ونفذت الإصابة إلى الرئتين فبقي لعدة أسابيع طريح الفراش في المستشفى الألماني بين الحياة والموت .

وأرسلت مجموعة من الروس الموجودين في بكين هدايا من الشمبانيا والقشدة إلى المستشفى

قائلة : « إن راسل يجب أن يعيش لأن الثورة ستكون في حاجة إليه » ، وبذلك ظهر خطأهم المؤسف فيما يتعلق باتجاه آرائه . ووصل وفد من حكماء الصين الذين كانوا أكثر تشاؤماً ليقولوا أنه سيحظى بأرفع شرف بدفنه في محراب يبنى خصيصاً له بجوار البحيرة الغربية وهي مثوى الشعراء والعلماء من السلف ، كما طلبوا إلى المسئولين في المستشفى أن يسمحوا لهم بسماع آخر كلمات يفوه بها الفيلسوف المحتضر .

ونحن نسمع قصصاً كثيرة عن المتشككين الذين يعودون إلى الإيمان التقليدي الراسخ في أواخر حياتهم . ولكن راسل واجه الموت بشجاعة تخلو من الندم وبسخرية مرحة . فهو يفيق للحظة من هلوسة الحمى ليقول لأطبائه متحدياً : « إنني على ما يرام . وأنا لم أشعر في حياتي قط بأني أحسن حالاً من حالتي الآن » . وسأل دورا عن موعد حلول عيد ميلادها ، ثم علق قائلاً : « يجدر بك أن تشتري هدية لنفسك باسمي الآن فقد تفيض روحي قبل أن يحل عيد ميلادك » . وقال لها إنها إذا احتاجت إلى المال ، فليس عليها سوى أن تنشر إعلاناً في الصحف تقول فيه : « لقد مات راسل ونحن بحاجة للمال لدفن الكلب العجوز » .

وقال أحد الأطباء فيما بعد وهو ينحي على راسل باللائمة قائلاً إنه كان « يسلك مسلك الفيلسوف الحق مان دام الضعف يحول بينه وبين الكلام . » ولكنك (مخاطباً راسل) كنت تلقي نكتة في كل مرة تفيق فيها » .

ولقد نشر الصحفيون اليابانيون بالفعل أنباء عن موته . وعندما وصلت الأنباء إلى إنجلترا رفض فرانك راسل أن يصدقها معلناً بقوة : « إن المسألة كلام فارغ من أصلها . فإن برتى لن يموت في الصين دون أن يخبرني » . ولكن الآخرين لم تساورهم في صحة النبأ ما ساوره من شكوك . وبعد أن أنقذ الأطباء الألمان في بكين حياته في نهاية الأمر أتيح لراسل أن يستمتع بإمتياز خاص ، فقد تسنى له أن يقرأ بعض إعلانات الوفيات التي خرجت تنعيه إلى الناس .

وكانت دورا بلاك تقوم بتمريض راسل بكل إخلاص ووفاء طيلة فترة مرضه وفي الوقت الذي لم تكن تمكث فيه بجواره في الحجرة بالفعل ، كانت تنتظر خارجها في الممر وتتناول طعامها على كرسي هناك . وعجبت دورا من تزايد شهيتها للطعام . ولكنها أدركت فيما بعد أنها حامل وأنها سوف تنجب لراسل وريثاً .

ولقد وقعت حادثة تستحق الذكر اعترضت رحلة عودتهما إلى بريطانيا تبين منها أن راسل لم يكن يتصف بالاستسلام الذي قد نتوقعه من فيلسوف مجرد يعتنق آراء تدعو إلى السلام . كان راسل ودورا بلاك يهبطان بعض درجات سلم في اليابان عندما فاجأهما بعض مصوري الصحف بتسليط ضوء آلات التصوير الخاطف على وجهيهما . وكادت المفاجأة تجعل دورا تتعثر في مشيتها وتسقط ، فهاج راسل وثار لدرجة أنه هجم على المصورين بعصاه وفرقهم .

الفصل الخامس عشر

مرشح في شيلسي ومحاضر في أمريكا

بعد أن عاد راسل من الصين ، تزوج من دورا واستقر معها في المنزل رقم ٣١ شارع سيدني بشيلسي حيث أنجبا طفليهما . وخلال فترة زواجه الثاني ، أو خلال السنوات العشر التالية تقريباً ، اقترب راسل أكثر من ذي قبل من آراء حزب العمال التقليدية . واعتبر الاشتراكيون أن انتقاداته للامبريالية البريطانية في الصين بمثابة تكفير من جانبه عن الانتقادات السابقة التي وجهها ضد روسيا السوفيتية .

ورشح راسل نفسه للبرلمان عن حزب العمال في شيلسي في الانتخابات العامة سنة ١٩٢٢ ثم سنة ١٩٢٣ . وكانت شيلسي في ذلك الوقت معقلاً من معاقل المحافظين . وكان نائبها هو السير صمويل هور الذي أصبح فيما بعد اللورد « تمبل وود» .

وكان منزل راسل رقم ٣١ في شارع سيدني يستخدم كمقر لجنة حزب العمال . وكتب مراسل لصحيفة التيمز بعد زيارة له للمنزل يقول : « هناك مجموعة مختارة من العمال الذين يعملون بحماس في الدور الأرضي» بينما «تحمل الأشياء الموجودة حولي بصورة تبعث على السرور لمسات الذوق الجميل الذي يتمتع به صاحب المنزل» . وكانت هذه إشارة لقطع الأثاث والسجاجيد التي أحضرها راسل معه من بكين . وبعد أن أعلن راسل تأييده لسياسة حزب العمال حول كل النقاط ، بدأ حملته باجتماع ظافر في قاعة بلدية مدينة تشيلسي . دعا راسل فيه إلى فرض ضريبة على رأس المال ، وإلى تأميم المناجم والسكك الحديدية ، وعارض تخفيض ميزانية التعليم ، وانتقد معاهدة فرساي . وقوبل راسل بتصفيق حاد عندما خاطب المجتمعين قائلاً : « مواطني الدائرة الانتخابية التي سأمثلها مستقبلاً: وعندما قال راسل : « من المحتمل جداً أن الآخرين سيقولون لكم إنني لست وطنياً » ، صاح أحد الحاضرين يرد عليه قائلاً : « إنك جنتلمان» . وأدى التهليل لراسل إلى تعطيل سير الاجتماع لبضعة دقائق .

وانتقد راسل سياسة تمويل « المغامرات الرجعية» في روسيا . وقال إن الاعتراف بروسيا السوفيتية سيكون من بين الأعمال الأولى للحكومة إذا فاز حزب العمال في الانتخابات .

وقد مني راسل بالهزيمة في كلا الانتخابين . وحصل منافسه على ١٣٤٣٧ صوتاً مقابل ٤٥١٣ صوتاً له في انتخاب سنة ١٩٢٢ ، بينما حصل منافسه على ١٠٤٦١ صوتاً مقابل ٥٠٤٧ صوتاً في انتخاب سنة ١٩٢٣ . وبالرغم من ذلك فقد كان الحماس لراسل شديداً . وهلل له الناس وحملوه على الأعناق بعد إعلان نتائج الانتخابات ، بينما خرج منافسه صامويل هور من باب خلفي ليتجنب الجمهور وكان هور قد أصبح غير محبوب على المستوى الشعبي بصفة خاصة عندما اكتشف الناس أنه في الوقت الذي عارض فيه زيادة الضريبة المفروضة على الخمور الغازية ، أيد زيادة الضريبة على البيرة . وفي ذات مرة كان أحد المتحدثين الذين يؤيدونه ـ وهو شاب يتكلم بلهجة أكسفورد الرفيعة للغاية ، يرد على الأسئلة الموجهة إليه وما أن قال هذا الشاب بلهجته هذه « أما بالنسبة للبيه ، (يقصد البيرة التي ابتلع حرف الراء فيها عند نطقها بلهجة اكسفورد الراقية) ، حتى سمعت على التو صيحة صادرة من أحد الحاضرين تسخر من طريقته في نطق الكلمات قائلة : « هيه ، هيه » ، وبعد ذلك فصاعداً ، تعرضت كل الخطب التي يلقيها هور لصيحات الاستهجان تقاطعها مقلدة لهجة اكسفورد التي كان يتحدث بها مؤيده الشاب : « هيه ـ هيه . . . بيه ، بيه» . .

وكانت الهزيمة التي لحقت براسل شيئاً متوقعاً . وهو أمر يكاد لا يدعو للأسف ، كما هو الحال مع فشله في دخول البرلمان في عام ١٩١٠ ، ويكفي ذكر حادثة واحدة وقعت في شيلسي للتأكيد بأنه لم يكن باستطاعته أن يحقق نجاحاً كبيراً في ميدان العمل السياسي . فقد أصيب عضو بحزب العمال كان يقوم بجولة زيارات للدعاية ـ بإصابات طفيفة ـ عندما سقط من فوق مجموعة متصلة من السلالم . وأشار بعض الناس على راسل ان يقوم بزيارة هذا العضو وهو على فراش المرض حتى يترك في نفس هذا الرجل انطباعاً جميلاً . كما أشاروا عليه أن يأخذ معه بعض الزهور له ، وأن يحضر هذه الزيارة مصور صحفي لتسجيل هذه المجاملة الاجتماعية . ولكن راسل رفض رفضاً لا مهادنة فيه أن يظهر غير ما يبطن ، قائلاً : « إنني لا أحبه ولن أذهب لزيارته» .

وهناك حادثة أخرى يجدر ذكرها في هذا الصدد ترجع إلى الفترة التي كان يشارك فيها كليفورد ألان نفس الشقة . وأوضح راسل لألن ذات مرة أنه بما أنهما يتخذان موقفاً يطال الشعب في السياسة ، فإنه يتعين عليهما أن يهتما بعض الشيء بما تهتم به جماهير الشعب . وقال راسل إنه

* أي « أسمعوا ، اسمعوا» منطوقة بحذف الراء من كلمة hear الانجليزية .

من المشين على هذا الاساس أن أحداً منهما لم يسبق له مشاهدة سباق الدربي للخيول . وقرر الإثنان أن الواجب يحتم عليهما أن يتوجها إلى أبسوم لحضور يوم الدربي القادم . ولكن عندما حان الوقت بالفعل كان كلاهما قد نسي كل ما يتعلق بهذاالموضوع .

وبالرغم من أن راسل لم يرشح نفسه مرة أخرى في الانتخابات العامة سنة ١٩٢٤ ، فإن قرينته رشحت نفسها مكانه . وظل المنزل رقم ٣١ بشارع سيدني بمثابة مركز منيع للاشتراكيين في قلب شيلسي التي كان للمحافظين السيادة فيها . وكان من المعتاد حينذاك أن يظل راسل في الطابق العلوي من المنزل وهو يكتب على مكتبه ، بينما دورا زوجته في الطابق السفلي تقوم في نشاط بإدارة اجتماعات اللجنة الانتخابية أو تنظيم حملات الدعاية لمنظمات مختلفة مثل رابطة العمال لتحديد النسل . وذات مرة ، قام عضو غاضب من حزب المحافظين بإلقاء الطماطم من خلال نافذة منزل راسل .

ومما أدى إلى اللبس خلال هذه الأعوام أن أليس وراسل (زوجته الأولى) ، كانت في نفس الوقت تقيم في منزل سانت ليوناردز تيراس . ومن ثم كانت هناك في تشيلسي امرأتان تحملان اسم مسز راسل . وكلتاهما عضو في حزب العمال في تشيلسي . ولهما عدد كبير مشترك من الأصدقاء . ولذلك كان يتم اتخاذ ترتيبات محكمة للتأكد من أن الإثنتين لن تتقابلا . وكان ذلك يحدث على سبيل المثال في الحفلات المسائية المتقشفة التي كانت أسرة سانجر تقيمها في منزلها بشارع أوكلي .

وفي إحدى الحملات الانتخابية التي كان راسل يقوم بها ، قابله ليونارد وولف ، وهو بصحبة زوجته دورا في حفل عشاء . وذكر راسل في حديثه أنه كان يقوم بجولة للدعاية الانتخابية ظهر ذلك اليوم . فقال له وولف بأسلوب من لا يفكر ، وبالطريقة التي يمكن بها أن تخرج من المرء نكتة بصورة تلقائية مفاجئة : « أرجو ألاّ تكون قد نسيت أن تمر في هذه الجولة على سانت ليوناردز تيراس» . وعندئذ سكت وولف كما لو كان قد خرس لسانه فجأة ، وقد روعه ما تفوه به كما روعه التعبير الذي لاحظه يرتسم على وجه دورا . وخيم على المكان صمت عميق . ثم أدرك راسل روح الدعابة التي ينطوي عليها الموقف . ونظر إلى وولف وبدأ يضحك فجأة .

ولولا انعدام المرارة التام من مشاعر كلا الزوجتين فيما يتعلق بفسخ زواج راسل الأول ، لما أمكنهما أن يعيشا معاً في تشيلسي . ولم تتغير أبداً مشاعر أليس تجاه راسل وكانت دائماً تتوق لمعرفة أخباره . وفي الواقع عندما نشرت الليدي كونستانس مالسون كتاباً أشارت فيه إلى صداقتها مع راسل ، أخذت أليس نسخة من هذا الكتاب إلى مسز سانجر ، التي كانت ترقد حينذاك على

سرير المرض في المستشفى وأعطته لها كي تقرأه ، وهي تعلق على ذلك بقولها : « أعتقد أن هذا قد يهمك» .

وكان من بين العبارات التي كتبت في وصف راسل بعد عودته من الصين ما كتبته بياتريس ويب التي التقت به قبل حلول يوم ميلاده الخمسين بشهور قليلة . وقد كان ذلك في الوقت الذي لم يكن قد شفى فيه بعد من المرض الذي أصابه في بكين . وقد وصفته مسز ويب بقولها : « إنه شاخ قبل الأوان» ، وأنه يلعب دور ملاك ساقط له دعابة الشيطان ميفستوفيليس وحضور بديهته» ، وإنه « لا يشعر بالسلام سواء مع نفسه أو مع العالم» . ولكنها أضافت أنه بالرغم من نضوب حيويته ، فإنه يبدو مفكراً لامعاً أكثر من أي وقت مضى . وهو متهكم حاضر البديهة ساخر في موقفه من الحياة . وتفوق مفارقاته اللاذعة في عدائها ونفاد صبرها مفارقات جورج برنارد شو .وهو لا يبدو جاداً أبداً ، ويبني وجهات نظره في الاقتصاد والسياسة وفق هواه وحسب ما يحب أو يكره .

واستطردت مسز ويب بعد ذلك تقول : « وهو يظن أنه يعتقد اعتقاداً ـ يكاد يصل إلى درجة الإيمان الملتهب ـ في الدعوة للسلام المصحوبة بالاعتقاد في حرية المرء أن يفعل ما يريد . ولكنني أشك في ذلك . والرأي عندي أنه على سبيل المثال إذا نشبت حرب عقائدية ، فإنه سينحاز إلى صف التمرد العلماني ، إذ أن الإيمان الديني مع الاتجاه الأخلاقي البيوريتاني يمثلان العيب المشين في نظره» .

ويدلنا نوع اعجابها على الصفات التي تميز شخصيتها . ففي حين أظهر راسل اعجابه بالصين ، أبدت بياتريس إعجابها باليابان . وقد احتدم جدال عنيف بينهما في هذا الصدد . ويبدو أن راسل شرع عن عمد في استفزازها بكيله الثناء على الصين ما أمكن له ذلك ، إلى حد أنه أثنى على عدم اكتراث الصينيين بالعلم . وكتبت بياتريس ويب بصورة تثير الدهشة بعض الشيء تقول إن راسل : « ليس لديه اهتمام بالأسلوب العلمي. بل إنه قد يعارض تطبيق العلم في المجتمع على أساس أن هذا قد يعني فرض ضابط على إرادة بعض هؤلاء الذين يرغبون في فعل أي شيء يحلو لهم بدون مراعاة أن يكون للآخرين مثل هذه الحريات» .

وبعد عودة راسل من الصين ، كاد يعتمد تماماً على قلمه لكسب قوته . وبالاضافة إلى ما كتبه عن الفلسفة كان عليه أن يصدر فيضاً من المقالات والكتب لكي يواصل معيشته . (وعندما أرسل أ . هـ . نيفيل له مسودة مقدمة الكتاب الذي أصدره تحت عنوان : « مقدمة نقدية للهندسة التحليلية» ؛ قال له راسل مرحاً : « إنني سوف أشتري كتابك بالتأكيد إلاّ إذا أصبحت لفاقتي نزيلاً في ملجأ المعوزين») . وغالباً ما كانت كتابات راسل التي تلقى « رواجاً» بين عامة

الناس ذات أهمية أكبر مما يمكن الحكم عليه من النكات التي أطلقها راسل نفسه عن هذه الكتابات . فقد كان على سبيل المثال يقول : « إنني أتقاضى أجرى عن الكتابة على أساس عدد الكلمات ، ولهذا فإني أختار دائماً أقصر الكلمات الممكنة» .

وكتب راسل كثيراً من مقالاته لمجلة « نيوليدر» التي كانت تصدر عن حزب العمال المستقل تتناول موضوعات تتراوح بين العلوم المبسطة بصورة يستسيغها غير المتخصصين الى نقد السياسة البريطانية في الصين . وفي ذلك الوقت وصلت مجلة « نيوليدر» تحت رئاسة تحرير هـ . ن . بريلسفورد إلى مستوى لم يسبق أن وصلت إليه صحافة الجناح اليساري من قبل . حيث كان من بين الذين أسهموا في كتابة مقالاتها ، بالإضافة الى راسل ، كل من ويلز وشو وكينز وجوليان هكسلي . وبالرغم من أن مشاهير كتاب المقالات في المجلات والصحف هوائيون ويصعب التعامل معهم في غالب الأمر ، فإنه من المفيد أن نلاحظ هنا أن راسل كان بمثابة نموذج للكاتب الذي يرغب فيه أي رئيس تحرير . فقد كانت مقالاته تصل دائماً في المواعيد المحددة لها ، مكتوبة بخط يسهل قراءته . وتكاد صفحات مخطوطاته النظيفة أن تخلو تماماً من أية تصحيحات كما أنها كانت بالطول المطلوب تماماً . أو تحمل علامات موضوعة بعناية على فقرات معينة يمكن للمحرر حذفها إذا رغب في ذلك .

(وبنفس الأسلوب عندما أصبح راسل أبرز المتحدثين في الاذاعة والتليفزيون ، كان يصل بصورة لا تتغير إلى الأستوديو في مواعيده المحددة تماماً) .

وقد وجد راسل مصدراً جديداً للدخل عن طريق القيام بجولات لالقاء المحاضرات في امريكا ، البلد الذي بدأ يعرفه معرفة وثيقة .

وعلق راسل ذات مرة في سني حياته المتأخرة أنه يريد أن يكتب على شاهد قبره الكلمات التالية : « عاش ست سنوات في أمريكا ولم يكتب كتاباً واحداً عنها» . ونظراً لأن راسل ألف كتباً عن كل شيء تقريباً ، فإن إغفاله تأليف كتاب عن أمريكا قد يبدو غريباً ، ويكاد ينطوي على قلة الذوق . ومن حسن الحظ أنه يتضح لنا أنه عوض هذا النقص إذا نحن اجتهدنا في التنقيب بين كتاباته الصحفية المنسية إلى جانب إشاراته المتفرقة عن أمريكا في كتبه المختلفة . وبعد مضي ست سنوات على إقامة راسل في الولايات المتحدة التي بدأت قبل اشتعال الحرب العالمية الثانية بعام واحد ، كان راسل قد ألف الحياة الأميركية بحيث خبا اهتمامه الأصلي بها ، رغم أنها بدت غريبة عليه في أول الأمر. ولكن راسل سجل خلال الزيارات الأولى التي قام بها، وخصوصاً خلال جولات المحاضرات التي ألقاها في العشرينات من هذا القرن، عدة انطباعات يجدر جمعها هنا ووضعها إلى جوار دراساته المعاصرة عن كل من روسيا والصين.

وكانت كتاباته الأولى عن أمريكا ، كما أكد هو نفسه ، مجرد انطباعات سطحية . ولكنني لا أستطيع مقاومة إغراء الاقتباس من إحدى المقالات المبكرة له المنشورة في « نيوليدر» كمثال مناسب للدعاية الذكية التي كان راسل - مثل فولتير - ينثرها في إسراف غير مبال شأنه في ذلك شأن رجل يعرف أن لديه فيضاً كبيراً من الدعابات الذكية التي لا ينضب لها معين . (وعندما ذكرت لراسل المقالات التي نشرها في « نيوليدر» بعد انقضاء عدة سنوات على كتابتها ، كان قد نسي تماماً أنه كتبها في يوم من الأيام) . وكتب راسل بعد أن عاد من امريكا في عام ١٩٢٤ يقول :

« هناك نقطتان فقط أستطيع أن أتحدث عنهما عن تجربة كافية . النقطة الأولى أن القطارات تقوم وتصل في مواعيدها بصورة مثيرة للدهشة . . والنقطة الثانية أن الناس هناك مولعون إما بإلقاء المحاضرات أو حضورها ، الأمر الذي يعد غير مفهوم تماماً بالنسبة لرجل انجليزي . ففي انجلترا إذا أعجب الناس بمؤلف فإنهم يقرأون كتبه . أما في أمريكا فهم يريدون الاستماع إليه وهو يحاضر دون أن يخطر على بالهم أن يقرأوا له .

« ومن المستحيل على المرء في امريكا أن يقرأ إلاّ في القطار وذلك بسبب رنين التليفون . فكل فرد هناك عنده تليفون وهو يرن طيلة النهار ومعظم الليل . وهذا يجعل المناقشة والتفكير والقراءة أموراً غير ممكنة . ومن ثم فإننا نجد أن أوجه النشاط هذه مهملة إلى حد ما» .

وهنا قد يضيف ناقد حديث للحياة الأمريكية أنه حتى يمكن جعل ملاحظات راسل ملاحظات معاصرة ، فإن كل ما يلزم هو استبدال التليفون بالتليفزيون .وهناك نقطة أكثر أهمية أشار إليها راسل بعد ذلك بعدة سنوات عندما أخذ في كتاب «الحرية والتنظيم» يتعقب أثر كثير من الصفات الأميركية المميزة التي ارجعها الى القيم النفعية التي تتميز بها حضارتها الجديدة الرائدة . وفي امريكا أصبحت الرجال إلى جمع المال أو مقاتلة الهنود الحمر إلى درجة أن الثقافة أصبحت من الشؤون الخاصة بالنساء تماماً . وكتب راسل في هذا الصدد يقول : « ولما كانت غالبية النساء لم يمارسن الرسم بالزيت أو الأدب أو الفلسفة ممارسة احتراف ، بل اكتفين بإظهار الاهتمام الذكي بهذه الموضوعات جميعاً ، فقد أصبحت كل هذه الموضوعات تتسم بنوع من السطحية تضافرها المحاضرات التي يتلقاها الناس في بداية حياتهم المبكرة» .

ولاحظ راسل أن « الموضة التي أصبحت سائدة في أمريكا هي أن تقوم النساء بقراءة (أو التظاهر بقراءة) بعض الكتب المعينة كل شهر . وبعضهن يقرأن هذه الكتب بالفعل . وبعضهن يكتفين بقراءة الفصل الأول منها وبعضهن الآخر يقرأن عرضاً لهذه الكتب . ولكنهن جميعاً يحتفظن بهذه الكتب على مناضدهن . ولما كانت نوادي قراءة الكتب لم يحدث أبداً أن اختارت مسرحيتي «هاملت» أو «الملك لير» مثلاً ككتاب الشهر، فإن القراءة تقتصر تماماً على الكتب

الحديثة المحدودة القيمة ولا تمتد إطلاقاً إلى روائع الكتب وأمهاتها».

وقد اشتكى راسل من أن « انشغال الرجل الأميركي المفرط بما هو نافع يتضح لنا أيضاً في افتقار طريقة النطق الأمريكية الى الجمال» . وقال إن معظم الأمريكان يعتقدون أن المرء إذا أوضح ما يعنيه ، فليس لشيء آخر أية أهمية . ويقول راسل في هذا الشأن: «إن الشيء الحسن الوحيد في اللغة الأميركية هو لهجتها الدارجة . ومن حسن الحظ أن هذه اللهجة هي بالذات الشيء الذي يميل الانجليز ميلاً شديداً إلى تقليده . ».

وهناك انطباع آخر خرج به راسل من الزيارة التي قام بها للولايات المتحدة الأميركية في عام ١٩٢٤ هو « أن عدد اليهود في اميركا وشغلهم لمراكز بارزة هناك أمر يثير الدهشة . . . لقد خيل لي أن أفضل الأشياء في مجالات السياسة والفكر والفن في جميع أنحاء الولايات الشرقية من ابتكار اليهود وصنعهم . . . ونظراً لامتيازهم وكثرة عددهم ، فإن هناك شعوراً بالعداء للسامية قوياً للغاية ، الأمر الذي يصيب الزائر الانجليزي بالدهشة» . وفيما يتعلق بمشكلة التفرقة بين البيض والسود ، كتب راسل يقول : « إن الطريقة التي يتحدث بها أهل الجنوب عن الزنوج حتى يومنا الراهن طريقة فظيعة للغاية لدرجة أنه يصعب على المرء أن يتحملها وأن يبقى معهم في نفس الحجرة» .

وقال راسل إن أمريكا تهب نفسها للمساواة الديموقراطية من الناحية النظرية . ولكنها من الناحية العملية تمارس الجور الناجم عن حكم الأثرياء .

ولما كان الميزان الاجتماعي في امريكا يتذبذب باستمرار ، فقد « أصبحت كل مشاعر الاستعلاء الاجتماعي أشد اضطراباً مما هي عليه في المجتمعات التي يسودها نظام اجتماعي ثابت . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن قدرة العقل على أن يفكر بلغة النقود هي المقياس المقبول للحكم على رجاحته» . وأصبح رجال الأعمال الأميركيون يشعرون من جراء حالة السوق بنفس القلق الذي يساور الطلبة بسبب الإمتحانات . « وإذا خسر الأمريكي نقوده ، فمعنى ذلك أنه قد رسب في الامتحان» . وحيث « أن كل أمريكي يفضل الحصول على فائدة قدرها ٨٪ من عملية استثمار غير مضمونه عن الحصول على فائدة قدرها ٤٪ من عملية مضمونة» ، فإن نتيجة ذلك شعوره بالقلق وتوتر الأعصاب .

وكتب راسل يقول إن الرجل الأمريكي « قد يشعر بالسخط نتيجة شعوره اللاواعي بحاجته إلى بعض الأشياء . فالأميركيون ، على سبيل المثال ، يحتاجون إلى الراحة ، ولكنهم لا يعرفون أنهم يحتاجون إليها . وأعتقد أن هذا يقدم جانباً كبيراً من التفسير لموجة انتشار الجريمة في الولايات المتحدة» .

ويعلق راسل قائلاً إنه لاحظ عند الزيارة التي قام بها لهارفارد في عام ١٩١٤ أن الحشمة والتحفظ في الكلام كانا أوضح في أمريكا منهما في انجلترا . غير أن الموقف قد انعكس الآن نتيجة لانتشار التحليل النفسي في أمريكا . ومن ناحية أخرى ازداد تأثير مؤسسات الأعمال الكبيرة على التدريس في الجامعات الأميركية . وبالتالي أصبح لدى المثقفين الأمريكيين « حريات شخصية واجتماعية مدهشة ولكنها مصحوبة بعبودية عامة كاملة» .

وقال راسل إن مجلس إدارة جامعة هارفارد منع بعض الناس من أصحاب وجهات النظر الليبرالية من الحديث في اتحاد هارفارد . ونجم عن ذلك أنه اشترك في مناقشة ـ هي واحدة من المجادلات العامة القليلة ـ استطاع فيها خصومه الانتصار عليه . فقد أنكر لويل مدير هذه الجامعة أن مؤسسات الأعمال الكبيرة تمارس «سيطرة شريرة» عليها، كما ذهب إلى ذلك راسل. وأدلى بملاحظة قصيرة تنم عن حضور البديهة مفادها أنه في الوقت الذي فقد فيه راسل منصبه في كامبردج في عام ١٩١٦ ، احتفظت هارفارد بأستاذ ألماني بين هيئة التدريس فيها خلال فترة الحرب.

وكان راسل واحداً من أوائل الانجليز الذين اعترفوا منذ وقت مبكر يرجع إلى عام ١٩٢٢ بأن أمريكا أقوى من أية دولة أخرى . وتنبأ بأن امريكا ستبدأ في انتهاج سياسة امبريالية ـ لن تسعى فيها إلى السيطرة على الأرض بقدر ما تسعى إلى التحكم في اقتصاديات الشعوب . وقال راسل لمستمعيه الأمريكان: إن «حكومة واشنطون لا تحكم أمريكا. من هنا فإن البترول ومورجان هما اللذان يحكمانها. إن امبراطورية المال الأميركية التي تسيطر على العالم كله سيطرة تتسم بالقسوة وضيق الأفق إلى أقصى حد، تضعنا أمام كابوس في المستقبل المرعب» . *

وعندما عاد راسل إلى بريطانيا تنبأ بأن دولة رأسمالية مثل امريكا سوف تعامل بريطانيا العظمى إذا سلكت سبيل الاشتراكية بنفس الطريقة التي عاملت بها بريطانيا روسيا السوفيتية، وأن أمريكا ستمنع عن بريطانيا القمح والامدادات الأخرى. ولهذا السبب فإن الإشتراكية لا يمكن أن تتحقق سوى على النطاق الدولي. وكتب يقول: «لنفرض أننا أقمنا اشتراكية على مستوى الوطن في بريطانيا وخسرنا امبراطوريتنا معها فإننا لن نحصل على البترول. وستتحول جميعاً إلى طبقة البروليتاريا، ونضطر للعمل من أجل امريكا. . . ومن ثم فإن الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع امريكا في الوقت الحاضر، بل ولاجل غير مسمى، أمر ضروري ضرورة مطلقة».

---

* أكد راسل فيما بعد أن حكم روزفلت كان يختلف إلى حد كبير في هذا الصدد .

وكتب راسل يقول إن بريطانيا يجب أن يكون لها بحرية قوية ، وأن تحتفظ بمخزون من البترول يكفي احتياجاتها لمدة ستة أشهر . « إن الدولية هدفنا ، ولكننا سنعجز عن الوصول إلى هدفنا إلاّ إذا توفر لدينا دفاع بحري كاف يقف في وجه شركة ستاندرد أويل وكوميتيه دي فورج التي لن تتركنا في راحة إلاّ إذا كنا أقوياء» .

ومن الغريب أن نجد راسل يطالب بإيجاد بحرية بريطانية قوية . وهو دليل على أنه ، حتى في تلك السنوات ، لم يكن داعية سلام تقليدياً ثابتاً كما أنه لم يكن اشتراكياً تقليدياً ثابتاً . بل إنه أمر يثير الاهتمام أكثر من هذا أن نراه يلقي خطابا قبل بذلك بزمن قصير ، يناقش فيه مكانة أمريكا في العالم من وجهة نظر طويلة الأمد وبأسلوب مختلف ، ويصل فيه إلى نتائج مغايرة تماماً .

فقد ذكر راسل في المحاضرة التي ألقاها في الجمعية الفابية في أكتوبر سنة ١٩٢٣ حول نتائج التقدم العلمي : « يبدو أن أفضل أمل من المحتمل أن يتحقق هو أن تقوم مجموعة واحدة (أحسب أنها أمريكا) بانتزاع النصر على غيرها ، الأمر الذي يؤدي إلى قيام منظمة دولية تقف امريكا على رأسها كدولة رأسمالية بينما تقوم الدول الأخرى بدور البروليتاريا . وإذا أمكن خلق منظمة دولية ، مهما بلغ اضطهادها وجوها ، فإنه سيصبح من الممكن مرة أخرى العودة إلى تحقيق التقدم المنظم» . وقد كان هذا خيطاً فكرياً تكرر ظهوره كثيراً في كتابات براتراند راسل .

إن بعض الصفحات السابقة في هذا الكتاب قد تفسر على أساس أن راسل كان ينتقد أمريكا بصفة دائمة . ولكن هذا قد يرجع إلى أننا نجد في اقتباس عبارات النقد متعة أكبر من اقتباس عبارات المديح . كما أن عبارات النقد تتضمن عادة قدراً أكبر من الأهمية . وهناك كثير من النقاط في أمريكا التي حازت القبول لدى راسل . فقد اعترف راسل بوجه خاص بأن الديبلوماسية الأمريكية تفوق ديبلوماسية أي من الدول الأخرى على الرغم من انتقاداته المرة التي وجهها الى عمليات التمويل الدولية الأمريكية . وعلى سبيل المثال أوضح راسل التناقض بين السجل «المشين» لما ارتكبته كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا في الصين وبين السياسة الكريمة والليبرالية التي انتهجتها أمريكا هناك . ولكن راسل شاهد في الصين أيضاً ، كما شاهدت بنفسي بعد ذلك بما ينيف عن عشرين عاماً ، أنه يبدو أن الأمريكيين هناك غير قادرين على تقدير الحضارة الصينية . وقد أعرب راسل عن ذلك عندما كتب يقول : « ما المذهب الأمريكي في الحياة ؟ أعتقد أن الأمريكي سيرد على هذا السؤال بقوله : إنه المعيشة النظيفة والتفكير النظيف والحيوية . ويعني هذا في مجال التطبيق العملي استبدال الترتيب وحسن النظام بالفن، والنظافة بالجمال، والوعظ الأخلاقي بالفلسفة، والمومسات بالرفيقات (لأنه من الأسهل

إخفاء علاقة المرء بهن) ، كما أنه يعني أن ندع الهدوء المصاحب لقضاء وقت الفراغ الذي يستمتع به الصيني المثقف من آجل ذلك بجو عام يشعر الذي فيه المرء بأنه مشغول بصورة مخيفة» .

وقد نلاحظ أخيراً قدرة راسل على معرفة ما يكمن في ضمير الغيب . فقد تنبأ في وقت مبكر يرجع إلى نوفمبر ١٩٢٦ بأن العالم سيدخل في عصر جديد تدور فيه حروب التعصب بين الفلسفتين المتطاحنتين اللتين تدين بهما الدولتان الكبيرتان الوحيدتان في هذا العصر وهما روسيا وأمريكا . حيث تمثل الأولى المذهب الشيوعي والثانية المذهب الفردي . وذهب راسل في كتابه « مقالات متشككة» المنشور في عام ١٩٢٨ أنه « قد تجيء فترة طويلة ينشطر فيها العالم بالفعل بين امريكا وروسيا حيث تسيطر أمريكا على أوروبا الغربية والدول التي كانت تابعة للامبراطورية البريطانية ثم أصبحت تتمتع الآن بالحكم الذاتي، بينما تفرض روسيا سيطرتها على كل آسيا .

وربما كانت أكثر النقاط إثارة للاهتمام ـ كما يتضح لنا من كتابات راسل عن أمريكا خلال هذه السنوات ـ أن الانتقادات الاساسية التي وجهها ضد أمريكا تسير على نفس النهج الذي سارت عليه انتقاداته ضد روسيا السوفيتية . ففي كلتا الحالتين اشتكى راسل من إفراط كل من هاتين الدولتين في الاتجاه النفعي والافتقار المتزمتين من الناحية الأخلاقية . وكثيراً مما أعاد إلى الأذهان الأسس البيوريتانية إلى حب الجمال . وقارن راسل البلاشفة بالبيوريتانيين التي تقوم عليها أمريكا . وكتب راسل في هذا الصدد يقول : « إن أمريكا ـ شأنها في ذلك شأن روسيا ـ هي بلد الفلاحين الورعين الأتقياء» .

وقال راسل إن أخطر الأشياء في كل من أمريكا وروسيا هي انتقاء التسامح. ففي أمريكا نجد « طغيان القطيع» الناتج عن السلالة البيوريتانية التي ينحدر منها الأمريكيون والظروف القاسية التي واجهها الرواد الذين استوطنوا الأراضي الأمريكية وظروف الهجرة إليها ، الأمر الذي أدى إلى الالتجاء إلى أساليب الدفاع « للمحافظة على التقاليد الأمريكية من أن تنجرف وتضيع كما تضيع مياه النهر في الرمال . أما روسيا فيسودها من الناحية الأخرى طغيان الأقلية القائم على النظرية الماركسية» .

وهناك إيمان لا حدود له في كل من الدولتين بقوة الإنسان ومقدرته بمساعدة الآلة على تشكيل عوامل البيئة المحيطة به . وكان راسل يبدي إعجابه في بعض الأحيان بهذا الاتجاه المتفائل ولكنه كان يخشى الموقف الفكري الذي ينطوي عليه هذا التفاؤل والذي وجده ينعكس على الفلسفة القومية . وقد انتقد راسل المذهب الوسائلي الذي نادى به ديوى بسبب ما ينطوي عليه من انتفاء الورع فيه من الناحية الكونية . ويمثل هذا النقد في واقع الأمر جانباً من شكواه من

ماركس . وقد تضايق ديوى منه ضيقاً شديداً عندما أخبره راسل أن هناك كثيراً من العوامل المشتركة بين المذهب الوسائلي الذي ينادي به وبين كتاب ماركس « بحث حول فيرباخ» .

ولأن راسل كان فيلسوفاً لا يقصر اهتماماته على قاعة المحاضرات ، فقد كان يذهب إلى دور السينما ليشاهد الأفلام الأميركية ووجد أن أفكار هوليوود مرتبطة بالفلسفة الأمريكية البراجماتية . وكتب يقول : « إن الهدف لا يتمثل في إنتاج شيء يتمشى مع الحقيقة ، بل إنتاج شيء يدخل على المرء السعادة بتمشيه مع أحلام اليقظة» . وقد أدرك راسل إمكانيات السينما - التي لا يمكن سبر غورها - كشكل من أشكال الفن . وقال راسل : « لعله من أشد أمثلة البربرية الفنية تمزيقاً لنياط القلب أن يخرج الأفلام السينمائية مثل هؤلاء الرجال الجهلة الأغبياء لتستميل أكثر قطاعات الناس جهلاً وغباوة» . وبالرغم من أن بعض الأفلام التي انتجتها هوليود في السنوات التالية لم تكن تدور حول تصوير أحلام اليقظة على مستوى « قصص الجان الخيالية وحكايات الأطفال» ، فإن انتقادات راسل كانت صحيحة فيما يتعلق بما قدمته السينما في هوليود في العشرينات وأوائل الثلاثينات . ولا يمكننا أن ننحى عليه باللائمة لانه لم يواصل عادة التردد على السينما بعد ذلك .

أما بالنسبة لراسل نفسه فقد اعترف بأن أبسط الأشياء التي شاهدها في الأفلام كانت تدخل عليه السرور . وكتب في هذا الشأن يقول : « إنني أحب أن أرى منظر سباق بين سيارة وقطار اكسبريس . وأنعم برؤية منظر شرير الفيلم وهو يصر بأسنانه لأنه فشل على التو في إصابة سائق السيارة برصاصته . كما إني أستمتع بمنظر الرجال وهم يسقطون من فوق ناطحات السحاب لا ينقذهم من الموت سوى تعلقهم بأسلاك البرق» .



الفصل السادس عشر

راسل والنسبية

من بين خصال السير ستانلي أنوين ، بوصفه رجل أعمال حاذق ، إحجامه عن الخروج عن الطريق الذي اختطه لنفسه ، والقيام بالدعاية للكتب التي يبيعها غيره من الناشرين . ومعنى هذا في واقع الحال أن قائمة مؤلفات راسل كما نجدها في صدر الكتب التي نشرتها دار ألين وأنوين تخلو أحياناً من أسماء الكتب التي نشرها له بعض الناشرين الآخرين . ولعل كتابيه « مبادىء الرياضة » و « مشكلات الفلسفة » لا يحتاجان إلى إعلان من أي ناشر يذكرنا بوجودهما . ولكن النسيان أوشك أن يطوي بعض كتبه الأخرى ، ومن بينها كتب في العلوم حثه س . ك . أوجدن على تأليفها حتى ينشرها له كيجان بول وهي : « ألف باء الذرات » و « ألف باء النسبية » ، كما أنه نشر مقالات في « نيوليدر » التي يملكها بريلزفورد ، جمعها في كتب تحت عنوان : « إيكارزوس أو مستقبل العلم » ، و « تحليل العقل » . . (وقد صدر الكتاب الأخير للمرة الثانية بعد سنوات عديدة من نفاد طبعته عن دار النشر ألين وأنوين في بريطانيا عام ١٩٥٤) .

وحين يكتب المرء عن راسل ، فإنه يجد نفس الصعوبة التي يجدها عندما يعالج روائيي العصر الفيكتوري الذين يدخلون في رواياتهم عشرات من الشخصيات المختلفة وينسجون خيوط ثلاث أو أربع حبكات روائية أساسية أو فرعية في آن واحد . وبعد أن يصف هؤلاء الروائيون ما يجري لإحدى الشخصيات نجدهم دوماً يتركونها ليلاحقوا أفعال شخصية أخرى . وهكذا كانت شخصية راسل تنطوي على عدد كبير من الشخصيات المختلفة في نفس الوقت تتساوى جميعاً فيما تثير من اهتمام . وبعد أن أفردنا فصلين أو ثلاثة فصول تناولنا فيها « راسل » كرحالة وعالم سوسيولوجي وكسياسي ومحاضر ، يجدر بنا الآن أن نعود إلى تصوير سريع لأوجه نشاطه في نفس الفترة باعتباره عالماً وفيلسوفاً .

لقد كان راسل فريداً بين الفلاسفة المعاصرين في مدى معرفته بالعلوم . ولكني أعتقد أنه

كان في أغلب الأحيان يعبر عن أسفه لأنه لم يكرس مزيداً من وقته لدراستها ، وخصوصاً حين أدرك لأول مرة أهمية نظرية النسبية التي وضعها أنشتين . وفي مقدورنا أن نذكر تاريخ هذه الفترة بشيء من التحديد .

ففي مايو عام ١٩١٩ حدث كسوف الشمس التاريخي الذي كان دليلاً نقدياً يؤيد صحة نظرية اينشتين . وبلغت الملاحظات بشأن هذا الكسوف من الدقة مبلغاً جعل نتائجها تستغرق شهوراً في استخلاصها .

وكان راسل يعيش في تلك الفترة في بيت ريفي مع جماعة من الأصدقاء كان من بينهم ج . أ . ليتلوود عالم الرياضيات في جامعة كامبردج . وكان ليتلوود قد قرأ لتوه ما كتبه أدنجتون في موضوع النسبية وتحدث إلى راسل بشأنها . وبلغ الحماس والتشوق وشد الإنتباه الذي صاحب انتظار ظهور نتائج الملاحظات الخاصة بالكسوف مبلغاً جعل ليتلوود يرسل برقية إلى أدنجتون يسأله فيها عما حدث . وأجابه أدنجتون بأن الأمر لا يزال مبكراً لدرجة يتعذر عليه التأكد من صحة النتائج ، وإن كانت النتائج الأولى تبشر بالخير .

واضطرب قلب راسل وهو ينصت إلى ليتلوود حين حدثه عن النسبية . وصاح بأسلوبه الذي تميز به في التقليل في معظم الأحيان من شأن إنجازاته وفلسفته عموماً قائلاً : « ليتني لم أنفق كل هذه الأعوام من عمري على نفايات » .

وسرعان ما انصرف عقل راسل إلى التفكير فيما تنطوي عليه أفكار انيشتين من مضمونات فلسفية . وخلال زيارته للصين ، انصرف راسل إلى دراسة المعادلات الخاصة بنظرية النسبية حتى يألف ما تتضمنه من رياضيات . ووضع خطة لتأليف كتاب تحت عنوان « تحليل المادة » . وعند عودته إلى بلاده ، كان انشغاله في بادىء الأمر بالسياسة والصحافة عائقاً في سبيل تنفيذ خطته . ولكن لحسن الحظ اقترح عليه س . ك . أوجدن أن يكسب عيشه عن طريق آخر هو الكتابة العلمية المبسطة التي يفهمها عامة الناس . وكانت نتيجة ذلك أن كتب راسل « ألف باء الذرات » و « ألف باء النسبية » .

ولا يزال كتابه « ألف باء الذرات » ، الذي نشر عام ١٩٢٣ ، يتميز بتنبئه المبكر بالطاقة الذرية . وكتب راسل يقول : « إذا استطاع الإنسان أن يستخدم مصدر هذه الطاقة بطريقة تجارية ، فإنه من المحتمل عندما يحين الأوان أنها ستحل محل أي مصدر آخر للطاقة . ويستحيل علينا أن نبالغ فيما قد يكون لها من أثر ثوري في ممارسة الصناعة وفي نظريات الفيزياء » . وقال راسل - وهو يشير إلى البحث في تركيب الذرة : « من المحتمل أنها ستستخدم في نهاية الأمر في

صناعة متفجرات وقذائف تفوق في قدرتها على التدمير أية متفجرات أو قذائف قيض لها أن تخترع حتى الآن » .

وظهر كتاب « ألف باء الذرات » في عام ١٩٢٥ وانزعج ليتلوود بعض الشيء عندما ترامى إلى سمعه أن راسل يؤلفا كتاباً شعبياً في النسبية . على أن راسل قد نجح في تبسيطها دون تزييفها ، وفي تقديم أسهل مدخل إلى هذا الموضوع حتى الآن .

(ولكتاب « ألف باء النسبية »أهمية خاصة بالنسبة لي لأنه كان أول كتاب قرأته في حياتي لراسل . ولا زلت أذكر أني حصلت على نسخة منه ـ وأنا صبي ـ من مكتبة بلدية سيدني وكيف وجدت نفسي أعيش في عالم مسحور أغفله كل من علموني باستثناء مدرس واحد . وكانت زوجتي في المستقبل حينذاك تلميذة في برايتون تقرأ كتب راسل عن المشاكل الإجتماعية في ضوء بطارية تحت البطاطين بعد أن يحين موعد إطفاء الأنوار الكهربائية وإني وزوجتي نمثل إلى حد ما جزءاً من سحر راسل الذي فتن الكثيرين في جيلنا) .

ولم ينشر « تحليل المادة » وهو دراسة فلسفية مكتملة ، إلا في عام ١٩٢٧ . وكان من عادة راسل أن يقوم بكتابة أعماله الشعبية خلال الشتاء في تشيلسي في حين أنه يكتب أعماله المتخصصة في كورنوال خلال فترة الصيف . وظل ينتج سيلاً مستمراً من الكتابات ، لم يكن من الممكن أن ينتجه لولا موهبته الخارقة في التركيز ـ ولعله اكتسب هذه الموهبة خلال عمله المبكر في الرياضيات . واعتاد أن يجلس إلى مكتبه يملأ الصفحة تلو الصفحة ويضعها على وجهها بعد الانتهاء منها في نظام تحت ما يتلوها من صفحات دون أن يضايقه أن يلعب الأطفال حوله أثناء العمل . وذات مرة رأى ضيف نزل عليه في كورنوال ـ وقد فتن به ـ أنه لم يلاحظ أثناء انكبابه على عمله حتى وجود زنبور يدور حول رأسه . ولكن راسل وجد أن ذكر اسمه في الحديث كان يشتت انتباهه . وقد أوضح في هذا الصدد بأسلوبه الذي يميزه عن الآخرين أن ذلك يدل على أنه ليس عملياً في حقيقة الأمر أن يحب الإنسان جيرانه مثلما يحب نفسه » . (وكانت نصيحته الواقعية هي : « لا تحاول أن تعيش دون غرور لأن ذلك مستحيل ، ولكن تخير المستمعين المطلوبين الذين تجد الإعجاب بك لديهم ») .

وفي كتابه « تحليل المادة » ، وصف راسل « الأحداث » ـ متبعاً نظرية النسبية ـ باعتبارها المادة الخام التي تصنع البناء المنطقي لكل من العقل والمادة . وهناك تطور آخر طرأ على موقفه في « تحليل العقل » وهو أنه بدأ في نبذ فكرة القوانين السببية المختلفة لكل من العقل والمادة . وكان راسل يأمل في إمكانية تفسير أشياء مثل « الذاكرة » ، عن طريق ما يطرأ على تركيب المخ من تغير

طفيف لا يتناول ماهيته . وهكذا أصبح العقل والمادة أكثر تشابهاً عما كان يؤمن به فيما سبق في مذهبه « الواحدية المحايدة » .

وعبر راسل عن أفكاره بلغة يفهمها عامة الناس فقال : « إن العقل والمادة شيئان مرتبطان إلى حد يكاد يجعل من غير المفيد أن نميز بينهما » . فالغدة الأنفية على سبيل المثال تؤثر على التطور العقلي . وتنشأ هذه الغدة بسبب عادات التنفس السيئة وتنشأ هذه العادات بدورها بسبب القلق العقلي . « فكل شيء يعمل في شكل دائري هكذا » .

وهنا نجد توازياً بين « الواحدية المحايدة » عند راسل وبين آرائه في الدين بالرغم من أنه وصل إلى كل منهما في استقلال تام . فمبادىء الدين وخاصة فكرة خلود الروح بعد اندثار الجسد تنهض في العادة على التمييز المطلق بين الروح والجسد . وقد قال راسل ذات مرة : « إن التمييز بين العقل والمادة دخل مجال الفلسفة عن طريق الدين » . وهناك أيضاً تواز بين ما سبق وبين آراء راسل في الجنس فقد استمدت نظرة العصر الفيكتوري إلى الجنس التي كان يهاجمها جذورها من التقاليد المسيحية التي تذهب إلى أن الروح شيء سام في حين أن الجسد شيء خسيس .

وبالرغم من أن « تحليل المادة » كتاب هام للغاية ويفيد قارئه فائدة عظيمة ، فسوف أكتفي بالحديث قليلاً عنه في هذا المجال . فكثير من أجزائه التي تبعث على الاهتمام أكثر من سواها يتسم بالتخصص . وأفضل سبيل لمناقشة كثير من الأفكار الفلسفية الجديدة التي يحتويها هذا الكتاب هو الانتظار ريثما نناقش فيما بعد كتابه « المعرفة الإنسانية » حيث تبلغ هذه الأفكار ذروتها . ويعترف راسل مثلاً في كتابه « تحليل المادة » بأن العلم يحتاج إلى « مسلمات أو مصادرات* » كما أنه أدخل فيه « الخطوط السببية التي يمكن فصلها »** التي أصبحت إحدى مصادرات كتابه « المعرفة الإنسانية » في عام ١٩٤٨ . وإني أعتقد أن كتاب « المعرفة الإنسانية » كان سيسهل فهمه كثيراً لولا أنه تصادف نفاد طبعة كتابه « تحليل المادة » قبل نشره بأعوام .

وسوف أضيف هنا مجرد نقاط قليلة واضحة بعض الشيء .

وبادىء ذي بدء ، فإن صياغة راسل الجديدة لفكرة « الواحدية المحايدة » كانت تتفق مع وجهة نظر العلم الحديث كما يراه كثير من العلماء المحدثين . وما فعله راسل في حقيقة الأمر أنه استخدم النظريات العلمية الجديدة من أجل استجلاء الخلط الفلسفي الذي استمر قروناً بصدد العقل والمادة ، والمثالية والواقعية ، تماماً مثلما استخدم فيما مضى التقدم الذي أحرزته الرياضيات في استجلاء ما شاب كانط وهيجل من خلط .

---

* postulates

** separable causal lines

وبعد ، فإن من الواضح أن الكون كما رآه راسل في « تحليل المادة » أشد تماسكاً بكثير من فلسفته التي وضعها عندما تمرد لأول مرة ضد برادلي . وفي الحقيقة تبدو آراؤه الجديدة لأول وهلة شبيهة بآراء هوايتهد الذي أنكر كذلك وجود أية ثنائية أساسية بين العقل والمادة .

ولم يواصل راسل سيره في هذا الطريق حتى يصل كما فعل هوايتهد إلى فلسفة تطورية متصوفة تشبه إلى حد ما فلسفة برجسون . لقد قال هوايتهد في مطلع أيامه : « إنها قاعدة مأمونة العواقب عند التطبيق أنه حين يكتب مؤلف رياضي أو فلسفي بعمق غائم ينتفي منه الوضوح ، فإن حديثه لا يعدو أن يكون هراء » . ولكنه يبدو أنه هو نفسه قد نسي أن يطبق هذه القاعدة فيما بعد . ولن أناقش فلسفته في هذا المقام متعللاً في ذلك بعذرين ممتازين . أولهما أن خلافه مع راسل قد بدأ بنقطة فنية متخصصة . ثانيهما أنني لم أستطع مطلقاً أن أكمل قراءة كتابه « العملية والحقيقة » . فقد توقفت محاولتي في هذا السبيل منذ بضعة أعوام عندما علمت أن كلا من راسل و ج . أ . مور لم يقرآه كذلك. وإني أكتفي بآراء صديقي المغوار البروفيسور ويتز الذي درسه بالتفصيل ويقول إنه شبيه للغاية بفلسفة ليبنز بعد أن أدخلت عليها تغييرات بحيث تتفق مع الاستعمال العصري ، كما أني أعتمد على آراء مس أنسكومب أيرز تلاميذ فيتجنشتين في يومنا الراهن ، التي تدين كتاب « العملية والحقيقة » بتلك الصراحة الكبيرة التي تفوق صراحة الرجال والتي تتسم بها المرأة حين تشتغل بالفلسفة .

وبالرغم من هذا فإن شعوراً غير مريح يخامرني أنه نقد مشروع يوجه إلى فلسفة راسل حين نقول إنها فلسفة استاتيكية أكثر من اللازم . ومع هذا فإني لا أعرف أكثر من أي إنسان آخر كيف أستطيع إدخال حقائق التطور والعملية* دون أن نتورط في أخطار إدخال عنصر التصوف فيها .

وإنها لنقطة غريبة بالتأكيد فيما يتعلق براسل أنه ـ عندما يناقش علم الأحياء وفلاسفة التطور الذين يكرههم ـ ينكر على الفلسفة انشغالها بالنتائج الخاصة التي يصل إليها علم معين ، في حين أنه يهتم اهتماماً شديداً بنتائج علمي الفيزياء والفسيولوجيا . وهو لم يؤكد أية أهمية مستمدة من علم الأحياء إلا عندما أصدر كتابه ، المعرفة الإنسانية » في عام ١٩٤٨ .

وعمل مذهب راسل في « الواحدية المحايدة » الشيء الكثير ـ كما ذكرنا من قبل ـ للقضاء على المشكلة الفلسفية القديمة الخاصة بالعلاقة بين العقل والجسد . ولكني لا أعتقد أنه حقق نجاحاً كبيراً في مشكلة لا تقل قدماً هي مشكلة الجبر والإختيار ، التي بدأ يتأملها في صباه في حديقة بمبروك لودج . وهي مشكلة تثير التساؤل إذ كيف يكون العقل حراً إذا كانت القوانين العلمية تحكم الجسد .

---
* process

ولقد اشتركت معه في مجادلات متنوعة تتصل بهذا الموضوع كنت فيها مثلاً أشير بفخر إلى إقلاعي عن التدخين كمثل واضح على حرية الاختيار ، فيجيب بقوله : « إنني لا أنكر شعورك بالزهو الأخلاقي ، ولكني أنكر أن يكون لك مندوحة من ذلك ولم يحرز النقاش بيننا تقدماً أكبر من هذا بكثير ، كما يحدث في معظم المناقشات التي تدور في هذا الموضوع . وأظـن أنـه من الممكن أنه لم يفهم وجهة نظري . وبدا أحياناً أنه يفترض أن كل إنسان يؤمن بحرية الاختيار لا بد وأن يكون إيمانه في هذا الصدد راجعاً إلى أسباب عاطفية أو أخلاقية أو لاهوتية . وأظن أنه من المرجح أنني لم أنجح من ناحيتي في فهم وجهة نظره . ولكنه من الجدير أن أبين أنه كان يميز بين « الحتمية والقـدرية »** . وفي كتاباتـه وأحاديثـه الإذاعية الأخـيرة التـي تتنـاول الموضوعـات السياسية ، نجد أنه يشن حرباً عنيفة على الموقف الذي يرى أن الحروب بمعنى ما حتمية الوقوع . وأكد راسل مراراً وتكراراً أن الإنسانية تستطيع أن تختار بين الحياة والدمار.

ونذكر في خاتمة هذا الفصـل . جانبـاً ساراً على وجـه الخصـوص من جوانـب « تحليل المادة » . وينم هذا الجانب عن التوصل إلى شيء من التصالح والتوفيق بين راسل والسلطات الموجودة في كلية ترنيتي نظراً لأنه استخدم كثيراً من مادته عندما ألقى « محاضرات تارنو » بناء على دعوة منها له . ويمكنني أن أذكر كذلك في هذا المقام مناسبة أخرى معروفة في جامعة كامبردج عندما تقدم فيتجنشتين ببحثه المسمى « تراكتاكوس » للحصول به على درجة الدكتوراه منها . وبالرغم من أن حصول فيتجنشتين على الدكتوراه كان أمراً مفروغاً منـه ، فقـد تعـين مراعـاة الرسميات الشكلية . ولهذا عين راسل و ج . أ . مور الذي أصبح أستاذاً للفلسفـة لاجـراء الإمتحان له .

وحين تذكر فيتجنشتين هذه المناسبة فيما بعد نجده يقول « عندما ذهبت إلى لجنة الإمتحان أصابني ذعر شديد » . واشترك ثلاثتهـم في دردشـة لطيفـة كتلك التـي تدور بـين الأصدقـاء القدامى . ثم التفت راسل - إلى مور قائلاً : « استمر . يتعين عليك أن تسأله بعض الأسئلة - فأنت الأستاذ » . واشتـركوا في نقـاش لم يدم طويلاً حاول راسـل فيه دون نجـاح أن يقنـع فيتجنشتين أن هناك شيئاً من التناقض بين مبدئه الذي يذهب فيه إلى أن يمكن للموضوعـات الفلسفية أن تتوصل إليه شيء ضئيل للغاية وبين دعواه أنه قد توصل إلى حقائق محددة بشأنها لا سبيل إلى تفنيدها . وانتهت مناقشة رسالـة « التراكتاتـوس » نهـاية ودية لطيفـة عندمـا وضـع فيتجنشتين ذراعاً على كتف كل من ممتحنيه وهو يقول لهما « لا تنزعجا . فأنا أعرف أنكما لن تفهماها أبداً » .

** determinism and fatalism

الفصل السابع عشر

مدرسة بيكون هيل

كانت آراء راسل أثناء فترة زواجه الثاني ، كما سبق أن ذكرنا ، أكثر خروجاً عن العرف المألوف مما كانت عليه قبل هذه الفترة أو بعدها . فعلى سبيل المثال كان راسل في هذه الفترة من حياته متشدداً للغاية في الطريقة التي انتقد بها المسيحية التقليدية الجامدة .

وبالرغم من أنه امتدح بعض التعاليم التي تبشر بها أسفار الإنجيل ، فإنه قال : إن المسيح يعد أقل شأناً من كل من بوذا وسقراط يتعلق بالحكمة والفضيلة . واشتكى راسل من أن المسيح كان « يشعر بغضب ورغبة في الانتقام ضد من لا يتعظ بمواعظه» . وشن راسل هجوماً خاصاً على فكرة الجحيم . وكتب يقول في هذا الصدد . « الواقع أنني لا أعتقد أن أي شخص يتمتع بقدر مناسب من الإشفاق والعطف يبث في العالم مثل هذه المخاوف المرعبة» . وأعرب راسل عن اعتقاده في أن المسيح أظهر « نوعاً من السرور في تأمل العويل وصرير الأسنان ، وإلاّ لما تكررت الإشارة إليهما كثيراً» .

وعلى أية حال ، ظلّ اهتمام راسل الرئيسي لعدة سنوات ينصب على التربية . وقد أثارت المدرسة الخارجة على التقاليد التي افتتحها بالاشتراك مع دورا راسل في عام ١٩٢٧ ، والتي كان طفلاهما من بين تلاميذها ، قدراً كبيراً من الضجة الصحيفية التي ضخمت ما هو تافه وطمست ما هو مهم في هذه المدرسة . ولقد كان هناك انطباع خاطىء عن آراء راسل ، يرجع إلى حد ما ، إلى الخلط بينها وبين آراء دورا راسل ، التي كانت أكثر تطرفاً منه في الرأي ، ويرجع أيضاً إلى المشاكل العملية التي ظهرت في إدارة المدرسة التي فشلت لأسباب لا علاقة لها بصواب أفكار راسل أو خطئها وهي أسباب أعطت نقاده فرصة لنسج الأساطير المثيرة حوله .

ومن بين الحكايات المألوفة التي راجت في امريكا ، والتي يشك المرء في صحتها ، حكاية تروي كيف أن القس المقيم في المنطقة توجه ذات يوم إلى باب المدرسة ، فخرجت فتاة صغيرة وقد

تجردت من كل ملابسها ، فتلعثم القس قائلاً : « يا إلهي » ، وردت الفتاة عليه وهي تغلق الباب « ليس لله وجود» .

ولهذا ، فسأتحدث بعض الشيء عن الظروف التي بدأ فيها اهتمام راسل بالتربية ، وعن تجاربه الفعلية في المدرسة حتى نمهد الطريق قبل أن نحاول تقييم نظرياته . بدأ اهتمام راسل حتى قبل ميلاد طفليه يتجه إلى التربية مع نشوب الحرب العالمية الأولى . وقد خصص راسل فصلاً عن هذا الموضوع في كتابه « مبادىء إعادة البناء الاجتماعي» . وأقام راسل حجتيه الرئيسيتين ضد المدارس التقليدية في هذا الوقت وفيما بعد على أساس معاداته للروح العسكرية .

وتنهض حجته الأولى على أن الحروب في واقع الأمر تنم عن الغباوة الشديدة ، للدرجة أنه لا يمكن لأي انسان عاقل أن يشترك فيها . ومن ثم فقد تعين على المدارس الانجليزية الراقية أن تشجع الغباوة حتى تخرج رجالاً يرغبون في القتال . وكتب راسل يقول : « إن حدة الإيمان بعقيدة ما هي التي تخلق الكفاءة في القتال ، ويكون النصر من نصيب هؤلاء الذين يعتقدون اعتقاداً جازماً في أمور من الواضح أن الشك في صحتها هو الاتجاه العاقل الوحيد» . ولهذا السبب نرى أن القائمين بالتربية « يحدثون الالتواء في طبيعة الطفل ، ويشلون نظرته الحرة إلى الأشياء ويشجعون مكبوتاته بهدف الحد من نمو الأفكار الجديدة لديه» .

واستمد راسل حجته الثانية من اعتقاده بأن معظم الناس يستمتعون بالحرب ، كما أنه استمدها من دراسته لعلم النفس بناء على هذا الاعتقاد . وأعلن راسل أن الحروب ترجع أساساً إلى النوازع المجنونة المدمرة التي تكمن في العقل اللاواعي عند الذين لم تحسن تربيتهم في مراحل المهد والطفولة والمراهقة ، وقاده هذا الى أن ينتقد الفكرة « البالية» التي تنادي بالاعتماد على قوة الارادة للسيطرة على الرغبات السيئة . وكتب في هذا الصدد بأسلوب يكاد يكون نفس الاسلوب الفرويدي قائلاً : « إن الرغبات السيئة التي تشبه نهراً أقيم سد على مجراه تجد منفذاً آخر لم تلحظه عين الإرادة الساهرة . والنظريات التي تبرر القسوة تستمد مصدرها بصورة دائمة تقريباً من رغبة ما ، حولتها الإرادة عن مجراها الطبيعي ، إلى مجرى خفي ، حيث تعاود الظهور في آخر الأمر» . وكتب راسل يقول أنه على النقيض من ذلك ، فإن هدف التربية الأخلاقية الحديثة يرمي إلى جعل السلوك الجيد مظهراً من مظاهر العادة لا يعتمد بالضرورة على التحكم في النفس .

وبدأ أن راسل يدافع ، في واقع الأمر ، عما يمكن تسميته بالأخلاق دون ذرف الدموع ، أي دون معاناة أو ألم ، إذ أنه يرى أن عملية اكتساب العادات الجيدة نفسها لا بد أن تتم بدون تحمل أية مشاق . وقال راسل إن النظام ليس ضرورياً لكل شيء بالصورة التي يحلو لعامة الناس أن يتخيلوها . وفي رأيه « أن الطفل الذي يتعرض لعوامل القهر والإرغام بأي شكل من

الأشكال ، يميل إلى الاستجابة بشعور من المقت والكراهية ، فإذا لم يتمكن من أن ينفس عن هذه الكراهية بحرية ، فإنها تسمم عليه حياته من الداخل،وقد تستقر في أعمال عقله اللاواعي مما يكون له نتائج متعددة وغريبة في سنوات حياته التالية . « والتربية التقليدية في نظر راسل : « قد انضبت حياة العقل والعواطف حتى يتسنى لها دعم ارادة الفرد وتقويتها» .

وقد تذبذبت آراء راسل التربوية بصورة مستمرة بين النظريات التي استمدها من علماء النفس المحدثين وبين السداد والرشاد اللذين هداه تفكيره إليهما . ويمكن بسهولة تفسير اتجاه ميوله التعليمية نحو آراء فرويد بالأثر الذي أحدثته فيه الحرب العالمية الأولى . فقد بدا له أن فرويد يقدم تفسيراً لما صدمه وأثار فيه الحيرة إزاء سلوك البشر ، كما أنه يشير إلى مخرج في هذا الصدد يتلخص في تحرر الإنسان من مكبوتاته . ولكن راسل لم يكن يعتقد في هذا المخرج حقيقة . وكان يضطر دائماً إلى الاعتراف بأن الانجازات التي حققها في حياته كانت نتيجة ممارسته لقدر هائل من ضبط النفس وترويضها وقوة الارادة . وأنه لم يكن من الممكن لأي قدر من تشكيل العادات في مرحلة الطفولة أن يصوغ شخصيته بالصورة التي تمكنه من انتاج « مبادىء الرياضيات» ، كما أن راسل لم يكن يعجب بافتقار بعض الناس إلى قوة الارادة . والواقع أن راسل كتب في « مبادىء إعادة البناء الاجتماعي» يقول : « هناك نوع من النظام يعد ضرورياً لتحقيق كل الإنجازات تقريباً» ، كما كتب أيضاً يقول إن « النجاح في خلق النظام العقلي هو الميزة الرئيسية التي تتسم بها التربية العليا التقليدية» .

وعلى أية حال ، عندما أقام راسل مع زوجته دورا مدرستهما الخاصة التي عرفت باسم مدرسة بيكون هيل في تليجراف هاوس بالقرب من هارتنج التي استأجرا مبناها من فرانك راسل ، فقد كانت الفكرة الرئيسية من وراء إنشاء هذه المدرسة تنصب على توفير الحرية للنشء وتجنب ما يتعرض له من عوامل الكبت . وفي بادىء الأمر كان حضور الحصص إجبارياً ولكن راسل اقتنع فيما بعد ـ وهو غير راغب في ذلك تماماً ـ بالتخلي حتى عن هذه القاعدة .

وقال راسل عن أطفال هذه المدرسة : « إننا نسمح لهم بأن يتصرفوا بوقاحة وأن يستخدموا أية ألفاظ يريدون استخدامها ـ وإلاّ فإن الأشياء التي يرغبون في التعبير عنها دون أن يستطيعوا التفوه بها ستنعكس بصورة ضارة عليهم وتسمم حياتهم من الداخل . فإذا أرادوا أن ينعتوني أو ينعتوا أساتذتهم بالغباوة لم يكن هناك ما يحول بينهم وبين ما يريدون . . . وليس هناك عائق يمنعهم من إظهار عدم احترامهم تجاه من يكبرونهم سناً ومقاماً» .

وأدلى راسل بملاحظة قال فيها : « عندما نترك الأطفال على سجيتهم فيما يتعلق بالألفاظ التي يستخدمونها ، فإنهم يتفوهون ، بين الحين والآخر ، بهذه الأشياء التي تؤكد كتب فرويد أنه

لا بد وأنهم يفكرون فيها . ففي أثناء نزهاتهم ، على سبيل المثال ، قد يسمعهم المرء وهم يعلقون ؛ (بالفاظ أكثر صراحة) بأن شكل الشجرة يشبه رمز عضو الذكورة ، وهكذا» . ويعتقد راسل أن السياسة البديلة ، وهي سياسة الحظر التي تتلخص في قول الكبار للطفل « صه ! من العيب أن تتفوه بهذه الألفاظ» تؤدي إلى الكبت والاضطرابات النفسية .

وكانت المسرحية التي يقوم التلاميذ بتمثيلها في كل فترة دراسية مظهر من مظاهر نشاط هذه المدرسة . وفي هذه التمثيلية كان كل ممثل فيها يؤلف الدور الذي يلعبه . وأوضح راسل أن هذه التمثيليات كانت تتراوح بين الكوميديا والتراجيديا الدامية . ويقول في هذا الصدد : « كان التلاميذ يصرون على أن يموت الجميع في نهاية المسرحية ، ولكنهم الآن يكتفون عموماً بجريمة قتل واحدة» . وكان زوار المدرسة في بعض الأحيان يندهشون بعض الشيء عندما يرون صبية وفتيات تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة وهم يكتبون ويمثلون تمثيليات تناقش بجدية مشاكل الزواج ، والحب المتحرر الطليق . . . إلخ ، كما كان أطفال المدرسة يكتبون أيضاً الشعر متعاونين . وعندما لاحظ أحد الزوار قائلاً إن ذلك أمر غريب إلى حد ما، رد راسل عليه بقوله : « هل لي أن أذكر لك أن هوميروس والنسخة المعتمدة من الكتاب المقدس لم يكونا نتاجاً لعبقرية فردية ، وأنه من الجائز أن هناك مبالغة في هذا العصر في تأكيد فردية الفنان» .

ومن المحتمل أن تكون دورا راسل هي صاحبة الفضل الأكبر في إقامة هذه المدرسة ، ولكن راسل نفسه استغرق في دراسة سلوك الأطفال . ومن المؤكد أن راسل هو الفيلسوف الكبير الوحيد ـ باستثناء لوك ـ الذي لم يكتف فقط بتكريس قدر كبير من الوقت لتعليم طفلة صغيرة كيف تتناول وجبات طعامها وكيف تستخدم « قصريتها» لقضاء حاجتها ، بل إنه سجل أيضاً الأساليب التي كان يتبعها تفصيلاً ، وقدم نصائح عملية مفيدة للغاية فيما يتعلق بمثل هذه الأمور . وكتب راسل ، وهو يشعر بزهو الانتصار ، إلى والدي طفلة تبلغ من العمر أربعة أعوام ، يقول :

« إن جيني في حالة مدهشة وطيبة للغاية . وهي تأكل كميات هائلة . وأحشاؤها تفرغ ما فيها كل يوم (وغالباً ما تفرغ ما في أحشائها مرتين في اليوم الواحد) بصورة مرضية تماماً وبدون أن تتناول أي دواء . وإذا كان يحق لي أن أقول هذا دون إفراط في الزهو، فإنني أعتبره انتصاراً للعلم أساساً .

« وفي بادىء الأمر اعتادت جيني أن تكون صعبة المراس . ولكننا كنا نقبل على الفور ، وبدون مناقشة الأسباب ، أي انصراف منها عن تناول الطعام . وفي حالات كثيرة كان امتناعها عن تناول الطعام مجرد كلام . وسرعان ما غيرت الأسلوب الذي تتبعه . وبعد أن أصبحت الآن

تعرف أننا نعلم أنها تأكل كثيراً ، فإنها تلتهم كل ما يمكنها أن تصل إليه من طعام .

« ولكن فيما يتعلق بالإمساك، فقد كنا نعتقد أنه يرجع لأسباب سيكولوجية . (أنظر ما يتردد في كتابات فرويد هنا وهناك في هذا العدد) . وقد رفضنا في أول الأمر أن نعطيها كتاباً تتصفحه أثناء عملية التفريغ ، حتى نزيد من رغبتها في أن تنتهي منها سريعاً . وعندما ذكرت أنها لاتستطيع الانتهاء من قضاء حاجاتها ، قلنا لها إنها لا تزال أصغر من أن تتقن مثل هذه الأشياء إتقاناً تاماً . وربطنا أمامها بين ذلك وبين قدرتها على القفز والسباحة ، وهي مجالات استطاعت أن تحرز فيها تقدماً سريعاً . وأكدت النتيجة صحة تشخيصنا ، فقد أصبحت تجد فخراً في نجاحها في قضاء حاجتها . وقد أدى هذا إلى تحسن كبير في صحتها ومعنوياتها التي أصبحت الآن مدهشة . ويؤكد لي هذا ما أعتقد فيه من صحة علم النفس الحديث فيما يختص بالأطفال ».

ومع ذلك ، فلم تكن النتائج التي توصل إليها راسل نتائج سعيدة تماماً . ومن أكبر المشاكل التي واجهته مشكلة الحصول على المدرسين المناسبين لمدرسته . فعلى سبيل المثال ، كان المدرسون يتجاهلون أفكار راسل العاقلة الخاصة بضرورة امتناعهم عن حث الطفل على تناول الطعام . وأوضحت دورا راسل لأحد الزوار أنها اضطرت إلى طرد المشرفة لأنها ضبطتها متلبسة بخلق عقدة المراحيض « (أي التفريغ) عند الأطفال عندما تنهاهم عن استخدام (القصرية) أمام الناس .

ومع ذلك ، فإن السبب الحقيقي الذي جعل من المستحيل على هذه المدرسة أن تنجح ، هو أنها أصبحت ملاذاً طبيعياً للأطفال الذين يصعب مراسهم بصفة خاصة والذين استبعدتهم المنشئات التعليمية الأكثر اتباعاً لنظم التعليم التقليدية . ومع مثل هؤلاء الأطفال ، فإن محاولة السماح لهم بالنمو الحر كانت بالضرورة تؤدي إلى خلق الفوضى وإقامة مجمع للشياطين . وكان الزوار يندهشون للتناقض القائم بين راسل نفسه الذي كان كعهده دائماً ـ لا يزال يعتني بنظافته وحسن هندامه عناية لا مزيد عليها ، وبين الانطباع العام بالقذارة وعدم النظام الذي أوحت به هذه المدرسة في تيلجراف هاوس. وكان سقف حجرة الطعام مرشوقاً بقطع الطعام نتيجة لأن الاطفال كانوا يمسكون بالفطائر ويتبارون فيمن يستطيع أن يلصق أكبر قطعة منها في السقف.

وقد حذرت إدارة المدرسة الأطفال من إشعال النيران في شجيرات الجولق . وبمجرد أن وجه هذا التحذير اليهم ، قام طفلان على الفور باضرام النار فيها . وبادرت المدرسة بطرد أحدهما ـ وهو صبي ـ واستعاده منها . أما الطفل الآخر فكان فتاة . وكان من المستحيل الالتجاء إلى نفس الإجراء معها، نظراً لأن والدتها كانت في ذلك الوقت في طريق عودتها من مصر إلى

انجلترا . وأخذ راسل هذه الفتاة إلى سريرها ، وأغلق بالمفتاح على كل ما تحتاج إليه من ملابس . وعندما اعترضت الفتاة على هذا الإجراء من جانبه ، قال لها راسل : « إذا تركتك تنهضين من سريرك ، فقد تشعلين النار مرة ثانية أليس كذلك؟» ، فاعترفت الفتاة قائلة : «نعم . قد أفعل ذلك» . وهكذا اضطرت الفتاة إلى ملازمة الفراش حتى عادت أمها .

وفي الوقت نفسه ، كانت المدرسة تعاني بصفة مستديمة من الصعوبات المالية ، فقد بلغت خسائرها أكثر من ١٠٠٠ جنيه سنوياً . ولم يكن لدى برتراند ودورا راسل أية خبرة في المجال العملي بالادارة المدرسية .وأصيبت المدرسة بنكسة تلو النكسة . وكانا قد استأجرا دار تيليجراف هاوس مفروشة من فرانك راسل . ولكن فرانك قام بنقل معظم ما فيها من أثاث . واكتشف راسل وزوجته أن إمدادات المياه ليست كافية . واقتضت زيادتها تكاليف باهظة وبات على راسل أن يتجشم عبئاً مضاعفاً . فقد تعين عليه ، من ناحية ، أن يحاول أن يدير المدرسة - إلى درجة الاهتمام بالتفاصيل الخاصة الصغيرة مثل تكليف أصحاب المحلات بارسال طلبات المدرسة ، كما تعين عليه من ناحية أخرى أن يعمل لكسب المال اللازم لتغطية مصروفات المدرسة ، وذلك عن طريق كتابة المقالات . أو القيام بجولات في امريكا لالقاء المحاضرات هناك .

ومع ذلك فقد ظل انتاجه هائلاً في وفرته . وفي هذا يقول راسل لأحد الذين أجروا حديثاً معه في عام ١٩٣٠ : « إنني لم أمسك بالقلم منذ أن بدأت في تنفيذ مشروع المدرسة ، أي منذ أكثر من ثلاث سنوات مضت، بل أملي بأقصى سرعة يمكن لمن يقوم بعملية الاختزال أن يكتب بها . ثم لا أراجع بعد ذلك مطلقاً أية كلمة أمليها . ويبلغ مجموع ما أمليه في اليوم ثلاثة الاف كلمة . وكان من عادتي أن أعمل في الصباح فقط . فإذا وجدت أنني لم أتم في الصباح كمية العمل التي أقوم بها كل يوم ، فإنني في بعض الأحيان أواصل العمل بعد الظهر . وإنني أخطط كل شيء سلفاً . ولذلك فقبل أن أبدأ يكون كل شيء قد انتهى . وعندما يكون مطلوباً مني أن أكتب كتاباً من ٦٠,٠٠٠ كلمة ، فإنني أبدأ فيه قبل حلول موعد تسليمه للناشرين بعشرين يوماً . . وأنا أكتب كل ما أكتب للحصول على المال . ولا يضايقني أن أكتب المقالات السريعة التافهة ، لأني لا أنظر إلى هذه الكتابات التافهة من علياء المشاعر السامقة» .

وكانت المدرسة تعاني من كثرة الزوار والمتفرجين الوافدين عليها ، الأمر الذي اضطر راسل إلى تغيير العبارة المعلقة في لوحة إعلانات المدرسة من : « مدير المدرسة موجود في بيته كل أربعاء من الساعة ٢,٣٠ إلى الساعة ٥» الى « الزوار يقابلون بناء على موعد سابق» . وبمضى الوقت ازداد اعتكاف راسل في حجرته الواقعة في برج دار تيلجراف هاوس حيث كان الأطفال

يصعدون إليه في بعض الأحيان لتلقى دروسهم . وحتى يومنا الراهن ، فإنه يمكن لمن استمع منهم إلى شرحه في التاريخ حينذاك أن يذكر ما شعر به من متعة .

وقد انتهت علاقة راسل بالمدرسة عند فسخ زواجه الثاني . ولكن دورا واصلت إدارة المدرسة حتى بداية الحرب العالمية الثانية .

وبطبيعة الحال ، كان موقف راسل ودورا من التربية الجنسية سبباً في إثارة معظم الاهتمام بالمدرسة . وسوف أناقش هذا الأمر في الفصل التالي . وفيما يتعلق بمشاكل التربية الأخرى ، فإن الانطباع الذي تعطيه كتابات راسل في الوقت الحاضر إذا قارناها بالمحاولة التي بذلها كي يضع أفكاره موضع التنفيذ العملي ، هو في العادة انطباع بالاعتدال والإدراك السليم . وكان راسل يرى - كما هو الحال بالنسبة لموضوعات عديدة أخرى - أن لأغلب الأمور وجهين - يقوم هو نفسه بعرضهما علينا - كما كان يرى يرى أن الوصول الى الحقيقة ليس أبداً بمثل هذه السهولة التي يظنها معظم المنظرين .

كان راسل لا يوافق على فكرة العقاب ، كما كان يعترف على توقيع العقوبات البدنية تحت أية ظروف . ويقول في هذا الصدد : « كلما وجهت صفعة لطفل ، فإن خليطاً معقداً من العواطف المتقدة المتنازعة يغلي في داخله» . ولكن راسل كان يدرك دائماً أنه « لا مفر من فرض بعض القيود على مبدأ الحرية المطلقة إذا أردنا من الأطفال أن يتعلموا شيئاً» . وأوضح راسل في كتاباته اللاحقة عن التربية الوسائل التي يجب الحد بها من الحرية لتحقيق النظافة والمواظبة واحترام ممتلكات الغير ، ولتحقيق روتين يومي منتظم كاف لاعطاء الطفل الشعور بالامن . ومن الواجب دائماً أن يكون هناك بعض التدخل من جانب الراشدين ، ولو على الأقل لمنع الأطفال من التظاهر بالقوة يصغرونهم سناً . وكمثال على الاستخدام المشروع للضغط على الصغار في هذا الشأن، يصف لنا راسل كيف تمكن هو نفسه من معالجة طفل يخاف البحر خوفاً ليس له ما يبرره عقلاً، وكيف علمه أن يستمتع بالاستحمام عن طريق الإمساك به في الماء بالرغم مما أبداه من مقاومة موضحاً له أنه لم يلحق به أذى نتيجة لذلك.

ولقد ظل راسل أحياناً يظهر احتراماً مبالغاً فيه نحو ما ينادي به فرويد وعلماء النفس المحدثين . فقد كتب يقول ؛ « أظن أن دراسة علم النفس ، وخصوصاً علم نفس الأطفال تجعل من الممكن حقاً تنشئة أناس فاضلين . . . » . ولكن على الرغم من أنه كان دائماً يحترم الطريقة التي كان يشجع بها فرويد الناس على أن يتحدثوا بأمانة في أمور الجنس ، وعلى الرغم من أنه كان يتفق معه على وجود اللاوعي،فإنه لم يقبل وجهة نظره التي ترى أن الجنس هو كل شيء

فيه* . ولكن ملاحظته العملية للأطفال جعلته لا يكن سوى القليل من الاحترام لأسوأ السخافات المضحكة التي تردى فيها الفرويديون . وقد قال راسل إنهم بالغوا في أهمية الجنس خلال سنوات العمر الأولى . وأعلن أن عقدة أوديب ليس لها وجود إلاّ في الحالات « النادرة والمريضة» . ولم ير بأي شكل من الأشكال أنه من الخطأ أن يقبل الآباء أطفالهم ويدللونهم . وخالف راسل نظريات فرويد التي ترى رموزاً جنسية في لعب الأطفال .

وكان راسل يحرص أشد الحرص على عدم تشجيع الروح العسكرية لدرجة أنه قال : إن التدريب على الشجاعة الجسمانية ينبغي أن يتم عن طريق التصدي للقوى غير الحية وتحديها ، وليس عن طريق المنافسة . فرياضة تسلق الجبال في نظره أفضل من كرة القدم . وقال إنه ينبغي ألاّ يرى الأطفال آباءهم وهم يقتلون أي شيء ، ولو كان ما يقتلونه زنبوراً أو أفعى . وأما بالنسبة لمرتكبي الآثام والجرائم من بني البشر ، فينبغي علينا ألاّ نكرههم بل أن نشفق عليهم بروح علمية موضوعية . وإذا رجعنا بأفكارنا القهقرى ، فإن هذه التعاليم تبدو غريبة في عالم شاهد ظهور هتلر وموسوليني وستالين . لقد كان راسل متخلفاً عن زمانه تارة وسابقاً عنه تارة أخرى . ولعلنا نجد له شيئاً من العذر إذا تذكرنا أن هتلر كان في ذلك الوقت مثيراً للفتن مغموراً ، وأن راسل لم يذهب إلى الحد الذي ذهب إليه التربويون الآخرون من دعاة السلام في العشرينات من هذا القرن ، فقد قال إنه لا ينبغي أن نخفي عن أعين الأطفال أن هناك قسوة في هذا العالم . كما أنه بعد مناقشة طويلة قرر أنه ليس هناك خطأ في أن نقص عليهم قصصاً خيالية عن الجن والعفاريت ، تنطوي على مضمونات سادية .

ولقد قال راسل إنه من الطبيعي أن يعيش الأطفال في الخيال حياة أسلافهم المتوحشين رغم بعد هذه الحياة عنهم . والطفل الذي يشعر بالمتعة لسماعه قصة بلوبيرد وهو يطيح برؤوس زوجاته ، ويتقمص في الخيال شخصية بلوبيرد يرضى في نفسه غريزة النزوع نحو السلطة . ويمكنه في حياته المستقبلية أن يشبع نفس هذه الغريزية بطرق مفيدة خلاقة . ولكنه إذا تم القضاء على هذه الغريزة ، وهي لا تزال في مهدها في مرحلة الطفولة ، فإن الطفل سيصبح عندما يكبر شخصاً كسولاً فاقد الروح ويتسم « بالطيبة المستضعفة المخنثة» .

ويتضح من هذا الاستنتاج الذي توصل إليه راسل أنه لا يتمتع بقدر مدهش من الإدراك

---

* فهناك ، على سبيل المثال، الرغبة في البقاء على قيد الحياة. فقد كتب راسل يقول: «إن فرويد لا يضع في الاعتبار ان معظمنا يفضل البقاء على قيد الحياة على الموت». ويرد على اتباع فرويد الذين يبالغون في تحمسهم لآرائه والذين عرضوا وصفا تفصيلياً لما يدور في اللاوعي بالأسلوب الفرويدي المعروف، قائلاً: «إن كل ما تذهبون إليه يقوم على الافتراض. وليس في استطاعتكم اثباته».

السليم فحسب ، بل إنه قد أخذ يبتعد عن آراء فرويد . فمن المفروض أن من يدين بالفرودية تماماً ينكر أن غريزة السلطة المحيطة لدى الطفل من شأنها أن تنتهي إلى الذبول أو الضمور . بل سيذهب إلى أنها ستجد منفذاً ملتوياً لها .

وبالرغم من أن راسل تنبأ بأنه سيكون هناك اتجاه متزايد إلى قيام الدولة برعاية الأطفال بدلاً من آبائهم ، فإنه يقول : « إنني لست متأكداً تماماً من أن هذا سيكون أمراً حسناً» . وكان راسل واحداً من الذين يحبذون مدارس الحضانة بشدة ، ولكنه لم يتفق مع أصحاب تلك النظريات التربوية التي ترى أن مدارس الحضانة يجب أن تتيح للأطفال فرص اللعب والمرح فقط من دون الاهتمام بالعمل ، وأنه يجب عدم تعليم الأطفال أي شيء على الاطلاق . بل يفترض أن الطفل الذي يبلغ من العمر خمسة أعوام ، يجب أن يعرف كيف يقرأ ويكتب ، ومن الجائز أن يكون قد تعلم لغة ثانية عند بلوغه سن السابعة .

ويعد الاشتراكيون البريطانيون المحدثون بعض جوانب تفكير راسل آراء رجعية .

اقترح راسل أن يتم اختيار الصبية الذين يصلحون لمواصلة التعليم الجامعي في الثانية عشرة من العمر بدون إجراء مزيد من الامتحانات لهم ، كما حث أيضاً على إرسال الأطفال الذين يتمتعون بقدر غير عادي من الذكاء إلى مدارس خاصة . وقد تم في بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية تطبيق نظام تعليمي يميل الى هذا الاتجاه . وأصبح قبول طلبة المدارس الثانوية قاصراً على هؤلاء الذين يتم اختيارهم عن طريق إجراء اختبارات خاصة تعقد لهم وهم بين الحادية عشرة والثانية عشرة . وكانت هذه المدارس الثانوية هي تقريباً الطريق الوحيد الذي يمكن للطلبة الفقراء أن يسلكوه حتى يصلوا إلى الجامعة ، وإن كانت هناك امتحانات أخرى تعقد لهم قبل التحاقهم بها . ولكن سرعان ما حدث هجوم على هذا النظام على أساس أنه ينبغي ألا يتقرر مستقبل الطفل في مثل هذه المرحلة المبكرة ، وأن قصر القبول في المدارس الثانوية على الصبية الأذكياء يشبه في سوئه قصر القبول فيها على هؤلاء الذين يستطيع آباؤهم دفع نفقات تعليمهم ، وأنه تحقيقاً لمبادىء المساواة ، ينبغي اختلاط كل الأطفال في « مدارس شاملة» كبيرة .

وقد رد راسل على مثل هذا النوع من الحجج رداً مفحماً وقاطعاً قبل ذلك بعدة سنوات ، فقد كتب في « التربية والنظام الاجتماعي» يقول :

« يمكننا أن نجنب الأطفال الأذكياء قدراً كبيراً لا داعي له من الألم والاحتكاك إذا نحن لم نرغمهم على الاختلاط اختلاطاً مباشراً بزملائهم الأغبياء . ومع ذلك فإن هناك فكرة تقول إن الاحتكاك بين مختلف فئات الطلبة في شبابهم كفيل بإعدادهم لحياتهم المستقبلية . ويبدو لي أن

هذه الفكرة لا تعدو أن تكون سخفاً . فليس هناك فرد يعيش في مراحل حياته التالية على انتهائه من التعليم بين جميع الناس ومختلف الفئات. وليس هناك ما يضطر الذين يعيشون على المراهنة على الخيل مثلاً على أن يعيشوا مع القساوسة . كما أنه ليس هناك ما يرغم القساوسة على أن يعيشوا بين هؤلاء المراهنين» .

وقد كتب راسل في عام ١٩٢٨ يعزو ضآلة الإنجازات الفنية والثقافية في امريكا ، إذا قورنت بما أمكن تحقيقه في فرنسا ، إلى الطريقة المتبعة في فرنسا في إرسال الطلبة النابهين بشكل ملحوظ إلى مدارس منفصلة خاصة بهم .

ولم يخف راسل حقيقة تتلخص في أنه من المرجح أن يصبح أطفال الآباء الأذكياء أكثر تفوقاً من أطفال الآباء الأغبياء . وفي هذا الصدد تعارضت آراء راسل تماماً مرة أخرى مع واقع نظام المخ الذي طبق في بريطانيا ، والذي يجد بمقتضاه أبناء المهنيين صعوبة في الحصول على التعليم الجامعي اكثر من الصعوبة التي يجدها أبناء الموظفين الكتابيين والعمال غير المهرة .

وكما توضح الأمثلة التي سبق أن أوردناها ، فإن كتب راسل في التربية لا تزال ، في يومنا الراهن تحتفظ بتأثيرها وتلقى الاهتمام . وبالرغم من أن بعض آرائه قد أصبحت تلقى الاستجابة الآن على أنها أمور طبيعية ، فإن بعض الاصلاحات الأخرى التي اقترحها لا تزال في انتظار أن توضع موضع التنفيذ . وقد انتقد راسل على سبيل المثال المبالغة في الاهتمام بالثقافة الكلاسيكية القديمة (بل إنه ذهب ذات مرة ، وإن لم يكن يفعل ذلك دائماً ، إلى حد القول بأن الوقت الذي قضاه في دراسة اللغتين اللاتينية واليونانية القديمة « كاد يكون هباء تماماً») . وعلى أية حال ، كان المصلحون في مجال التربية في انجلترا مشغولين للغاية بتقرير أي الطلبة يحق لهم الالتحاق بأية مدارس لدرجة أنهم لم يولوا المواد التي يتعلمها الطلبة عندما يلتحقون بهذه المدارس سوى قدر ضئيل من اهتمامهم ، الأمر الذي جعل الثقافة الكلاسيكية القديمة لا تزال تعد مادة رئيسية في مناهج المدارس الخاصة ومنح التعليم الجامعي .

الفصل الثامن عشر

الزواج والأخلاق

أشعر بالسرور من وجهة نظر معينة وأنا أبدأ في كتابة هذا الفصل ؛ وذلك لأنني أعتقد أن راسل جانبه الصواب فيما يتعلق بهذا الموضوع . وقد يصيب الألم القارىء المتيقظ حين يكتشف إني أعتقد (وهذا أمر يدعو للأسف في بعض الأحيان) إن راسل كان على حق فيما يتعلق بمعظم الموضوعات التي تناولها وأنا أعلم أن هذا أمر يؤسف له ، وأنه من الأصوب في كتاب من هذا النوع أن يلقي المرء من عليائه بين الحين والآخر ببعض كلمات قليلة من النقد والتجريح حتى يخلق انطباعاً بالحيدة والبعد عن التحيز . وإنني أشعر بالأسف لعجزي عن أن أفعل ذلك . ومما يؤسف له أن أحداً حتى الآن لم يستطع أن يفند النتائج التي توصل إليها راسل في معظم النقاط التي تعرض لها ، كما أن معظم نقاده لا يقدمون سوى السخافات . ولكنني عندما أتناول موضوع الجنس والزواج ، فإن آرائي وآراؤه تتعارض على خط مستقيم . وأعتقد أن أفكاره في هذا الموضوع تستند إلى خطأين أساسيين .

إن كتابات راسل عن العلاقات الجنسية و « تحرير المرأة » لا تشكل سوى قطاع واحد صغير من أعماله . وهو قطاع ليست له على الاطلاق أهمية إنجازاته العظيمة في مجال الفكر . ولكن ليس هناك أي موضوع آخر كتب فيه راسل أثار اهتماماً بين عامة الناس وترك أثراً مباشراً أكثر من هذا الموضوع . لقد غير راسل أكثر من أي فرد آخر من نظرة جيل جديد بأسره إلى أخلاقيات الجنس . وشاهد في حياته كيف انتهت قضية حقوق المرأة إلى أن تصبح جزءاً راسخاً من قوانين البلاد وعاداتها ، بعد أن كان الناس في وقت ما ينظرون إليها على أنها حملة شنها نفر من الشواذ والحمقى . ومنذ سنوات قليلة كنت أناقش مع جلبرت مرى القضايا التقدمية المختلفة التي اشترك مع راسل في الدفاع عنها في أوائل القرن العشرين ، وهي قضايا تتناول الدعوة إلى العالمية وحرية التجارة حتى حركة منع المسكرات . وخرج الدكتور مرى من هذه المناقشة بنتيجة مؤسفة ، وهي أن القضية الوحيدة من بين كل هذه القضايا التي قيض لها أن تنجح هي قضية حقوق المرأة .

وثمة سبب آخر يدعونا إلى مناقشة آراء راسل في الجنس والزواج ، وهو أنها تعطي مثلاً واضحاً لخطأ يتكرر في فلسفته . فقد كان راسل كلما اندفع بحماس ملتهب في مناقشة أي موضوع يجنح إلى الافتراض بأن كل ما يقوله خصومه في هذا الجدل يجانبه الصواب . وبالرغم من أن خصومه كانوا عادة على خطأ بالفعل ، إلا فإنهم لم يكونوا مخطئين على الدوام في كل ما يذهبون إليه .

ويتلخص خطأ راسل الأساسي الأول في أنه أشار ضمناً إلى أنه ليس في الجنس شيء غريب ، وأن أي جو من الغموض قد يحيطبه لا يرجع إلا إلى اتجاه دعاة الأخلاق الذين يشيعون الجهل في العصر الفيكتوري - وقد كان راسل يمقتهم إلى إضفاء هذا الغموض على الجنس . وكان هؤلاء يعتقدون أنه يجب ترك الأطفال في حالة جهل مصطنع عن الجنس . ولكن راسل اتجه إلى الطرف النقيض ، وكتب كما لو كان في الإمكان ذكر كل شيء عن الجنس للأطفال . وتساءل راسل قائلاً : إنه إذا كان من الممكن استجلاء الغموض عن شيء رائع مثل الرياضيات ، فلماذا لا يمكن استجلاؤه فيما يتصل بالجنس أيضاً . ولست أستطيع أن أوجه نقداً لراسل في هذا الشأن أشد من قولي أن موقفه هذا يذكر المرء بستالين .

فقد كتب ستالين يقول : « إن مادية ماركس الفلسفية ترى أنه يمكننا معرفة كل شيء تماماً عن هذا العالم وقوانينه . وليست هناك في العالم أشياء لا يمكن معرفتها ، ولكن هناك فقط أشياء لا تزال مجهولة حتى الآن . ولكن سوف يتم كشف النقاب عنها ومعرفتها عن طريق جهود العلم والممارسة .

وفي كلمات تذكرنا بكلمات ستالين ، كتب راسل عن الجنس يقول : « إن الشيء الهام هو أن نخلق بأسرع ما يمكن الشعور بأن الغموض الذي يكتنف الجنس لا يرجع إلا إلى الجهل به ، وهو جهل يمكن تبديده عن طريق الصبر والجهد العقلي » . وكتب يقول : « ينبغي علينا أن نتناول الجنس بنفس الأسلوب الذي نعالج به حقائق الحياة العادية المألوفة تماماً كما لو كنا نشرح مثلاً كيف يمكن لمياه الصودا أن تدخل الزجاجة الخاصة بها » . إن الأسلوب الذي يمكن به علاج صبي من اهتماماته المخلة بالآداب هو أن نغرقه بسيل من المعلومات حتى « يشعر بأنه لم يعد هناك ما يجب معرفته ، وأنه ليس فيما عرفه بالفعل ما يثير » . ويجب محاربة الخرافات القائمة على الخوف من الموت بنفس الأسلوب ، بمعنى أنه يجب أن نصف الموت « كما لو كان أكثر الأشياء التي نتخيلها ألفة » . وكتب راسل ينصح الآباء والأمهات قائلاً : « افعلوا كل ما في وسعكم حتى تجعلوا الطفل يشعر أنه ليس هناك أي غموض حول الجنس وحتى تتركوا في نفسه الانطباع بأن الأمر ليس فيه ما يثير إلى حد ما » .

والتعليق الوحيد الذي يمكن لي أن أعقب به على هذا الموقف هو أنني أعتقد في استحالته . وإذا أخبرني أي شخص أنه ليس هناك شيء غريب حول الجنس وأن عملية إنتاج الأطفال ليس فيها ما يثير الدهشة أكثر مما تثيره فينا عملية إنتاج السيارات ، فيكفيني للرد عليه أن أقول إنني لا أصدقه . وإذا حاول أي شخص أن يوحي إلينا بأن الحياة والموت موضوعان يبعثان على الملل نوعاً ما ، فكل ما أستطيع أن أقوله في هذا الشأن هو أنه ليس هناك من يعتقد هذا حقاً ولو للحظة واحدة وأن راسل هو آخر من يعتقد ذلك .

ويبدو لي واضحاً ، ودون حاجة إلى إقامة الدليل على ذلك ، أن أسرار الحياة والموت ليست مجهولة فحسب ، بل إنها أيضاً يمكن أن تظل أشياء ليس من سبيل إلى إدراك كنهها . وقد يأمل راسل والآخرون في أنه سوف يمكن في يوم من الأيام الوصول بعلم الأحياء وعلم النفس إلى مستوى علوم الطبيعة ، ولكن ليس هناك سبب مؤكد يدعونا إلى الاعتقاد بإمكان ذلك . وإذا كان راسل يعني ضمناً غير ما أقول ، فإن موقفه سوف يتعارض مع اللاإرادية التي ترفض الجزم والتزمت والتي تتسم به كل نظرته الفلسفية . وإذا كان راسل يرى أنه بالرغم من كل ما نجهله عن الموت والحياة فإنه من الصواب أن نعلم الآخرين أنه ليس هناك شيء مثير للدهشة حول كل منهما ، فإن رأيه سوف يتعارض مع معتقداته الحقة حول الدور الصحيح الذي يجب على كل من التلاميذ والمعلمين أن يضطلعوا به . فعلى سبيل المثال ، كتب راسل في « مبادىء إعادة البناء الإجتماعي » أن المدرس الحق يجب أن يتمتع « بالقدرة على الشعور بالتبجيل » ، وأنه يجب عليه أن « يشعر في كل ما هو حي ، خصوصاً بني البشر ، والأطفال منهم بالذات ، بوجود شيء مقدس ، لا يمكن تعريفه وليست له حدود ، شيء مستقل قائم بذاته ، له قيمة تثير الغرابة والعجب ، يتمثل فيه مبدأ الحياة النامي ، ويتجسد فيه جزء من حركة العالم الخرساء التي تسعى جاهدة نحو استكمال أسباب الحياة » . وكتب راسل بصدد الأطفال : « يجب علينا ألا نصد فيهم أبداً حب الاستطلاع » . غير أن من الواضح أننا لا نشجع حب الاستطلاع والرغبة في المعرفة بخصوص أي موضوع عندما نشير ضمنا إلى أنه يخلو من الإثارة والتشويق .

والآن لماذا تردى راسل عندما نشر كتابه « عن التعليم » في ١٩٢٦ في وهدة اتخاذ موقف يمكن مقارنته ـ في مجال واحد على الأقل ـ بموقف ستالين ؟ لقد كان أحد الأسباب ـ كما سبق أن لاحظنا ـ هو اقترابه أكثر من أي وقت آخر من الفكر التقدمي التقليدي خلال هذه السنوات . وربما يرجع السبب الثاني إلى حد ما إلى موقفه الفلسفي العام ، إذ أنه لم يكن قد توصل بعد توصلاً كاملاً إلى أفكاره المتعلقة بحدود المعرفة العلمية . ولكننا لا يمكننا أن نفهم السبب الرئيسي في هذا الصدد ، كما هي الحال غالباً في كل من كتاباته الفلسفية وكتاباته التي تشيع بين عامة

الناس ، إلا إذا علمنا شيئاً عن خصومه وطبيعة الشرور التي كان يهاجمها .

ونحن نجد أن الدين والأخلاق التقليدية قد أقاما صرحاً عالياً من الخرافات والمحرمات والعرف والبؤس والعقول المنحرفة والحياة التعسة على أساس أن الجنس شيء غريب وأن هناك خوفاً من الموت في أغلب الأحيان . وبلغت رغبة راسل في تفويض هذا الصرح حداً جعله يريد إنكار ما قامت عليه من أساس . ولأن الغموض قد أدى إلى الخرافات ، فإنه أراد أن يلغي وجود الغموض . ولأنه يمكن للأخلاق التقليدية أن تخلق البؤس ، فقد أراد أن تلغي وجودها . وكان راسل يكتب في بعض الأحيان كما لو كان موقف العصر الفيكتوري من الجنس لا يمثل سوى صورة للانحراف العقلي يمكن علاجه عن طريق التعليم الصحيح . وهو ينسى أحياناً أن الجنس كان ملفوفاً أبداً في طيات التقاليد والمحرمات في كل زمان ومكان لأنه يمثل شيئاً قوياً وغريباً يثير من المشاكل ما يعجز حتى أكثر الناس حكمة عن تقديم الحلول لها .

وكان راسل في خطئه الأول يتفق مع ستالين ، في حين أنه في خطئه الثاني الذي يكاد يكون أكثر سوءاً ـ قد اتفق مع برنارد شو . ولقد عبر شو عن هذا الخطأ عندما جعل إحدى شخصياته تقول إن الرجل ما هو إلا امرأة ، وأن المرأة ما هي إلا رجل « مع اختلاف بسيط لا يهم إلا في بعض المناسبات الخاصة » . وكتب راسل يقول : « إن الفرق الوحيد الذي أعرفه بين الرجال والنساء هو فرق لا يمكن التعبير عنه بكلمات مطبوعة » ، دون أن يعطينا قط أي توضيح مفصل لهذه الملاحظة التي تتسم بخصائص أسلوبه . وفي الحقيقة فإننا نستطيع أن نجد في كتاباته أقوالاً تتعارض مع هذا الرأي . ولكنني أعتقد أن راسل ، شأنه في ذلك شأن بقية التقدميين في عصره ، كان يقع في العادة تحت تأثير الفكرة التي تتلخص في هذه العبارة الغامضة : « المساواة بين الجنسين » .

قد يكون النساء أقل شأناً من الرجال ، وربما كن أرفع شأناً ، ولعلهن خليط من هذا وذاك ، ولكن الشيء الوحيد المؤكد تماماً هو أن النساء لا يتساوين مع الرجال . وهناك على سبيل المثال دلائل كثيرة تشير إلى أن النساء ، لأسباب تتعلق بالتشريح ووظائف الأعضاء ، هن في المتوسط أقل قدرة من الرجال في كثير من الإنجازات الجسمانية والعقلية . وفيما يتعلق بالقوة الجسمانية ، فإن هذا أمر تؤكده الاختبارات العملية . وقد نتوقع أن إدراك هذه الحقيقة من جانب دعاة الحركة النسائية التي تطالب بمساواة المرأة الرجل يجعلهم يشعرون ببعض الشكوك إزاء موقفهم . ولكنه على العكس من ذلك نجد أنهم يستغلون صعوبة التوصل إلى معايير يمكن بها قياس القدرات العقلية ، فيؤكدون في رقة ولطف من دون أن يستندوا في ذلك إلى أية أدلة على الإطلاق ـ أن الجنس الناعم ، رغم أنه أضعف من الناحية الجسمانية ، يتساوى مع الرجال من ناحية القدرات العقلية .

وكان راسل أميناً بالقدر الكافي لأن يسلم بأن النساء يظهرن على وجه العموم ذكاء أقل مما يظهره الرجال . وبوصفه واحدياً محايداً يميل إلى الأخذ بالمذهب السلوكي في علم النفس ، كان يمكنه أن يجد تفسيراً سهلاً لهذا في القول بنوع من العلاقة المتبادلة بين القدرات الجسمانية والعقلية . ولكنه بدلاً من ذلك ، خرج بدعوة غريبة مفادها أن السبب الرئيسي الذي يجعل النساء أقل ذكاء من الرجال هو أن حب استطلاعهن بشأن الجنس تعرض للكبت الفعال في شبابهن أكثر مما تعرض له الرجال . ولست أعتقد أن هذا يفسر تفسيراً مرضياً ندرة وجود الفيلسوفات والرياضيات والعالمات نسبياً بين النساء .

إن تكريس راسل كل جهده لقضية المساواة بين الجنسين مثل يثير الاهتمام على وقوع أكثر المفكرين إستقلالاً تحت التأثير اللاواعي للمناخ الثقافي في عصرهم . وهناك أيضاً جانب الولاء الطويل الأمد للمبدأ ، خاصة وأن والده ، وج . س. ميل ، الذي كان راسل يعتبره بطلاً في مرحلة صباه ، قد تعرضا للسخرية على أساس أنهما رائدان من رواد الحركة النسائية . فضلاً عن أن أحد عناصر التقاليد الليبرالية التي تربى راسل في ظلها يتمثل في مناصرة الضعيف على القوي. وفوق كل شيء فإن الإيمان بعدم المساواة بين الرجل والمرأة كان جزءاً لا يتجزأ من نظرة العصر الفيكتوري إلى الحياة ، تلك النظرة التي ثار راسل في وجهها* .

لقد لاحظ راسل أن الخيانة الزوجية تنتشر بصورة تقليدية بين الأزواج أكثر منها بين الزوجات . ورأى أنه ليست هناك أسباب صحيحة ـ سواء كانت فسيولوجية أو سيكولوجية ـ وراء هذا الاختلاف . وبدا له أنه حتى يصبح الطرفان متكافئين فإنه ينبغي على الزوجات أن يخن أزواجهن مثلما يخون الأزواج زوجاتهم . واقترح راسل أنه يجب عدم اعتبار الزواج أمراً يحتم إستبعاد العلاقات الجنسية الخارجية عن نطاقه . وأنه ينبغي على الأزواج بدلاً من كبح جماح رغباتهم في خيانة زوجاتهم ، أن يكتفوا بالحد من مشاعر الغيرة تجاه أية خيانات مماثلة ترتكبها هذه الزوجات . وقال راسل إن الخيانة الزوجية يجب ألا تعتبر في حد ذاتها سبباً يبيح الطلاق .

وكتب يقول : «إن الكثير منا يعتقد أن محاولة فرض الزواج بواحدة بصورة متشددة (وهو الأمر الذي لم ينجح أبداً) تسبب كثيراً من الشقاء (الذي يمكن تجنبه) شأنها في ذلك شأن الشرور

---

* أكد راسل أنه لا يدعو إلى المساواة التامة بين الرجل والمرأة ، بل إنه يدعو فقط إلى المساواة بينهما في الحقوق. كما أكد أن دفاعه عن المساواة في الحقوق غير مستمدة من أي مبدأ قبلي، بل مستمد من المذهب النفعي الذي يدعو إلى تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس. ولست أظن أن هذا يؤثر على الحجة التي أسوقها تأثيراً كبيراً، لأن لدي فيما أعتقد تحيز مشابه ضد الحديث عن «الحقوق المتساوية» اللهم إلا إذا تحدثنا عن هذه الحقوق بمعنى عملي واضح.

السياسية والاقتصادية . . . » ومن بين كل أشكال الحرص ، ربما يعد الحرص في الحب أكثر العوامل المدمرة للسعادة الحقة » .

ويتمشى هذا الرأي مع الحجة الرئيسية التي ساقها في كتابه « مبادىء إعادة البناء الاجتماعي » ، ومفادها أنه يجدر بنا تشجيع الدوافع الخلاقة وعدم تشجيع نوازع التملك . ورأى راسل أنه إذا كان فرض الضوابط أمراً ضرورياً ، فإنه ينبغي علينا ألا نضع الضوابط على عاطفة الحب الطليق الممتع ، بل على عاطفة الغيرة السلبية المقيدة . ولكني أظن أن هذا الرأي الجذاب قد فشل في أن يضع في اعتباره أن التحكم في الأفعال أسهل من التحكم في العواطف .

ليس من المستحيل بالنسبة لرجل يشعر بالرغبة الجنسية أن يعف عن أداء العمل الجنسي ، كما أنه ليس من المستحيل بالنسبة لرجل يشتبه في خيانة زوجته له أن يمتنع عن قتلها . ومثل هذه الأمثلة التي تدل على ضبط النفس تحدث كل يوم مع أناس عاديين . وسلوك عطيل يمثل الاستثناء لا القاعدة . ولكن الأمر يحتاج إلى قديس غير عادي للغاية أو إلى حالة استثنائية للغاية من البرود الحسي ، حتى لا يشعر المرء في المقام الأول بنوازع الجنس أو عواطف الغيرة . والنقد الوحيد الذي نحتاج لتوجيهه إلى نوع الزيجات التي اقترحها راسل ، هو أن مثل هذه الزيجات لا تنجح ، لأنه لا يمكن في واقع الأمر القضاء على مشاعر الغيرة والتعاسة فيما يتعلق بعامة الناس .

وقد يكون راسل مخطئاً في هذه النقطة ، ليس لأن آراءه متقدمة أكثر مما ينبغي ولكن لأنها تقليدية أكثر مما ينبغي . وربما كان راسل في ثنائه على الأزواج والزوجات الذين يستطيعون النظر إلى خيانات بعضهم البعض برباطة جأش متأثراً بصورة لا شعورية بالاعتقاد الأرستقراطي في أن إظهار العواطف ينم عن سوء السلوك . لقد ظن الذين كانوا يمارسون التجارب في شئون الجنس في العشرينات والذين كانوا يفخرون بفسقهم العرض وبعدهم عن الإحساس بالغيرة ، أنهم يمثلون قمة العصرية في التفكير ، والتحرر من المحرمات ، ولكنهم في واقع الأمر كانوا يمثلون قمة التقليد الأرستقراطي الراسخ القدم الذي يمجد ضبط النفس .

من السهل والواضح معاً أن يوجه المرء نقده إلى راسل عندما كان يكتب عن المشاكل الإنسانية على أساس أنه يغالي في استخدام المنطق والعقلانية إلى درجة أنه وجد من الصعب عليه أن يفهم مدى لا عقلانية سلوك الناس . وليس لهذا النقد ما يبرره عادة ، كما سبق لي أن أوضحت ، وإن كنت أعتقد أنه من الصحيح أن راسل كان عاجزاً عن فهم الحجة التي يستند إليها الزواج التقليدي . ويرجع ذلك ببساطة إلى لا عقلانيتها وما فيها من مفارقة فضلاً عما فيها من غموض . إذ أنه مما يتسم باللاعقلانية أن المرء يقطع وعداً بأن يحب امرأة واحدة بعينها مدى الحياة ، في الوقت الذي يزخر فيه العالم بنساء أخريات لم يقابلهن بعد ، قد يرقن في نظره . ولكن الحياة تسير على

ما هي عليه لأن عدد المحبين الذين يستغرقون في قدر كاف من الحب يكفي لتجاهل هذه الحقيقة الواضحة . وتكمن فضيلة الزواج بواحدة في هذه المفارقة ، فهو يوفر للمتزوجين الحرية بنفس القدر الذي يقيد به حريتهم . وعندما يكون الوفاء في الحب أمراً مؤكداً بصورة قاطعة ، فإنه يحق لكل من الزوجين أن يستمتع بأية صداقات يريدها مع الجنس الأخر ، ويحق له أن يسافر بمفرده ، وأن تكون له اهتماماته المختلفة الخاصة به ، وإلا فإن حرية الأزواج سوف تصبح ، إن عاجلاً أم آجلاً ، حبيسة داخل أسوار من الشك والغيرة .

ولم يكن راسل يدعو إلى أية نظرية دون أن يكون مستعداً لأن يراها توضع موضع التنفيذ . وذكر لصديقة متزوجة أنه ليس هناك سبب يدعو إلى ألا يكون لها عشيق ، فضلاً عن أنه كان يطبق نظرياته على نفسه . (والواقع أن جيلبرت مرى أعرب لي عن رأيه ذات مرة ـ وكان ذلك إلى حد ما بأسلوبه الذي يتميز به ـ وهو أن راسل تخلى عن تقاليد الزواج بواحدة ، لأنه لما كان قد قرر بالجدل العقلي أنه يحبذ الحرية في الحب ، فقد شعر لزاماً عليه أن يضع ما يحبذه موضع التنفيذ) . وقد سأل شخص راسل ذات مرة إذا كان لا يرى أنه يقسو على النساء اللائي يهوينه ، واللائي يفتر اهتمام راسل بهن فيما بعد ، فرد عليه راسل متسائلاً : « لماذا ؟ إنهن يستطعن هن الأخريات أن يجدن رجالاً آخرين » . وتعبر هذه الملاحظة عن التواضع الذي يمكن للعظماء أن يتصفوا به . ويبدو ببساطة أنه لم يخطر على بال راسل أن أي رجل آخر يمكن أن يكون بديلاً أمر لا يبعث على الرضا . ولم يدرك أي فرق في السرعة التي يستطيع بها الرجال والنساء ، كقاعدة عامة ، تغيير الشخص الذي يوجهون عاطفة الحب نحوه .

وفي فترة من فترات حياته الزوجية مع دورا ضرب راسل مثلاً حياً على وضع نظرياته موضع التنفيذ ، إلى حد أنه سمح لواحد من عشاق دورا أن يعيش معهما تحت سقف واحد.

وهناك قاعدة تلتزم بها من قبيل الشرف الصحافة والخطابات في بريطانيا . وتقضي هذه القاعدة عند الكتابة عن إجراءات الطلاق على الاقتصار على الجوهريات فقط . وإنني أنوي اتباع هذا التقليد وسأقتصر فيما أكتبه عن فسخ زواج راسل الثاني على ملخص قصير لما ورد في هذا الصدد في صحيفة التايمز الصادرة في هذا الوقت . ذكرت دعوى الطلاق التي رفعتها دورا أن راسل يخونها مع مارجوري سينس ، وهي طالبة في جامعة أكسفورد كانت قد التحقت بعمل لدى أسرة راسل ، وساعدت راسل في أبحاثه فيما بعد . وقد اتضح أثناء النظر في الدعوى أن دورا أنجبت أربعة أطفال منذ زواجها من راسل ، منهم إثنين فقطمن راسل نفسه (وقد أكد لنا راسل في كتاباته أنه لا ينبغي للعلاقات الجنسية التي تنشأ خارج نطاق الزواج أن تؤدي إلى إنجاب الأطفال) . واعترفت دورا بالزنا مع رجلين ، ولكن قيل إن « كلتا الحالتين المتعلقتين بخيانتها الزوجية قد

سبقتها حالتان على الأقل من حالات الزنا من جانب زوجها » . وكان هناك إشكال قانوني في حالة انفصال سابقة أثارت اهتمام رجال المحاماة ، ولكنها لا تهمنا في هذا المقام . وقد تم فسخ زواج راسل بدوراً في عام ١٩٣٥ ثم تزوج باتريشيا سينس في يناير ١٩٣٦ ، وأنجب منها طفلها .

وهناك نقطة قد لا تكون واضحة تماماً للعيان يجدر التنويه بها . وهي أن انتهاء زواج راسل نفسه بالطلاق لا يثبت في حد ذاته أن نظرياته خاطئة ، تماماً كما أن حدوث أي طلاق آخر لا يثبت خطأ الزواج التقليدي .

لقد انتقدت في الصفحات السابقة ما ذكره راسل عن الزواج ، ولكنه يجب أن نعالج آراءه الخاصة بتحبيذ التجارب الجنسية قبل الزواج معالجة مستقلة . وقد كتب راسل يقول : ليس من المرغوب فيه « أن يقدم الرجل أو المرأة على عملية الزواج الجادة التي يقصد بها أن تؤدي إلى إنجاب الأطفال بدون أن يكون لهما تجارب جنسية سابقة » . وقد أصبحت وجهة النظر هذه ـ وإن كانت لا تزال مثار كثير من الجدل ـ تجد قبولاً على نطاق واسع في كثير من البلاد .

وأثنى راسل على الكتاب الذي ألفه ليون بلوم رئيس الوزراء الفرنسي الاشتراكي، الذي دعا فيه إلى أن يكون للفتيات نفس حق الشبان في ممارسة الإباحية الجنسية . وقد دافع راسل عن هذا الرأي على أساس ما يقتضيه « العدل » . وأعرب عن أسفه لأنه ليس هناك رئيس وزراء بريطاني يجرؤ على نشر مثل هذا الرأي . كان بلوم يعتقد أن غرائز كل من الجنسين تتميز بالنزعة الإباحية في مرحلة الشباب ، ولكنها تتجه نحو الاقتصار في الزواج على واحدة في الثلاثين من العمر ، وهو الوقت الذي ينبغي عقد الزواج فيه . وكان نقد راسل الوحيد للكتاب هو أن الشك يخالجه في مجيء هذه الرغبة في الاقتصار على زوجة واحدة أو زوج واحد في أية فترة من حياة الإنسان .

ويتلخص أشهر رأي من آراء راسل الجنسية في أن حياة معظم طلبة الجامعة ستكون أفضل ـ « سواء من الناحية الفكرية أو الأخلاقية » إذا عقدوا زيجات مؤقتة دون إنجاب أطفال . وكتب يقول : « إن هذا سوف يقدم مخرجاً للدافع الجنسي ، دون ممارسة الجنس في قلق أو في الخفاء . وهي ممارسة لن تكون مرتزقة أو عارضة كما أنها من نوع ليس من شأنه أن يضيع وقت الطلبة الذي ينبغي تكريسه للعمل . وحتى الآن لم تنظر أية سلطات جامعية إلى هذا الاقتراح بعين العطف» .

غيرت مارجوري سبنس إسمها إلى باتريشيا دون أن تشرك أحدا معها في إجراءات التغيير القانونية . وكان أصدقاؤها يطلقون عليها اسم بيتر ، ومن ثم نشأت تلك الاشارات ـ التي تدعو إلى الخلطبعض الشيء ـ الواردة في تصدير بعض كتب راسل إلى ما تلقاه من عون ومساعدة على يدي شخص يشير إليه تارة باسم بيتر سبنس وتارة أخرى باسم باتريشيا راسل .

أما فيما يتعلق بغرائزي الخاصة ، فإنها من الطراز العتيق ولا تثق بأي شيء يتسم بهذا القدر من المنطق الذي يتسم به اقتراح راسل هذا . ولكنه لا يمكننا هنا أن نقيم نفس الدليل العملي ضد ما يذهب إليه . إن السبب الرئيسي الذي يعلل رد الفعل الذي ظهر ضد آراء راسل حول الزواج هو أن هذه الآراء لم تؤد إلى نتائج سعيدة . وإذا كان هناك أي رد فعل ضد آرائه الخاصة بإباحة العلاقات الجنسية قبل الزواج ، فإن السبب يرجع أساساً إلى الرخاء الاقتصادي الذي حدث بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث أصبح من الممكن معه أن تتم الزيجات في سن مبكرة بكثير عن السن الذي كانت تتم فيه في سنوات الكساد الاقتصادي ، وهي السنوات التي أصدر فيها راسل كتاباته في هذا الموضوع .

فضلاً عن أن الظروف المتغيرة أثرت أيضاً على دعوة راسل الخاصة بعدم حرمان النساء غير المتزوجات من الأمومة بسبب تقريع الرأي العام ولومه . ففي الوقت الذي كتب فيه راسل كان عدد النساء اللائي بلغن سن الزواج يفوق عدد الرجال الذين في نفس السن ، بحيث أن الزواج بواحدة فقط كان يعني حتماً أنه سيكون هناك فائض من النساء . وانقلب هذا الوضع في بريطانيا على أية حال بعد الحرب العالمية الثانية حيث أصبح عدد الرجال في سن الزواج أكثر من عدد النساء اللائي في نفس السن .

ولست أستطيع أن أنهي هذا التعليق على آراء راسل دون أن أؤكد الفضل الذي ندين له به بسبب ما قام به من عمل عظيم في ميدان التحطيم . وربما كان أفضل إشادة بنجاحه هو أن قلة من الناس الآن تدرك ما كانت عليه طبيعة الأفكار القديمة . ويجب أن نكرر أن راسل كان يقاتل ضد أوضاع قاسية لا يمكن الدفاع عنها . حيث كان يتم فرض الجهل الجنسي بصورة متعمدة ، إلى حد أن الصبي كان يظن أن التغيرات التي تطرأ عليه في فترة البلوغ هي أعراض مرض مروع ، وإلى حد أن الفتاة كان يمكن أن تتزوج دون أن تعرف أي شيء عما يحدث في ليلة الزفاف . وحيث كانت النساء يتعلمن أن ينظرن إلى الجنس ، ليس على أساس أنه مصدر للمتعة ، بل على أساس أنه واجب مؤلم من واجبات الزواج . وحيث وصل التحشم إلى درجة تغطية أرجل البيانو بستائر من الجوخ حتى لا تظهر أرجل الجنس الناعم . وحيث كان الغموض المصطنع يثير الفضول المريض ، وحيث كان الزيف يسير جنباً إلى جنب مع التعاسة ، وحيث لم يكن في الامكان التوصل إلى مخرج من محنة زواج بائس إلا عن طريق إثبات قانوني معقد لحدوث الزنا ، وحيث كانت أخلاقيات الجنس الصارمة يصحبها قبول للدعارة وغض الطرف عنها . إن ثورة راسل على التقاليد لم تقض على كل هذه المساوىء وذلك لأنه ـ فيما أعتقد ـ لم يقدر كل الأسباب التي تكمن وراء هذه المساوىء ، ومن ثم فقد نشأ نوع من رد الفعل ضده ، كما أعيد إرساء بعض التقاليد القديمة .

ولكن العلاقات القائمة بين الرجال والنساء لا يمكن أن تعانى مرة أخرى من بعض الشرور التي هاجمها . ولا تزال آراؤه في نقاط كثيرة ـ على أقل تقدير ـ أمثلة عليا في التسامح وتقدير الظروف ينبغي أن نسعى إلى تحقيقها حتى يومنا الراهن .

الفصل التاسع عشر
المؤلف الذي لا يكل

أظهر الخطاب الذي كتبه راسل لشارلس سانجر في عام ١٩٢٩ شيئاً من الخجل من شعوره بالحنين إلى الصداقة . فقد كتب في هذا الخطاب يقول : « يؤسفني للغاية أن أسمع أنك مريض إلى هذا الحد . . .

عزيزي شارلي ، أعتقد أنني لم أعبر أبداً عن عواطف الود العميق الذي أشعر به نحوك . ولكني أحسب أنك على علم بها . » ومات سانجر بعد ذلك بمدة قصيرة وأحزن راسل أرملته بعض الشيء برفضه المأثور عنه لأن يهادن ـ فقد امتنع عن حضور الجنازة لأنه علم أنه ستصحبها شعائر دينية . وبوفاة كل من سانجر وكرومبتون لويلين دافيز والليدي موريل ، قضى كل أصدقائه المقربين إليه تقريباً وقد توفيت الليدي أوتولين في عام ١٩٣٨ بعد أن أصيبت بالصمم في آخر حياتها ، وواصلت رغم ذلك بعطفها المأثور عنها ، تنظيم ندوات الصالون التي تعقدها كل يوم خميس ، لمجرد أنها أرادت أن تتيح للناس الذين يبعثون على التشويق والاهتمام فرصة الالتقاء السار معاً ، وإن لم يكن في وسعهم ـ بسبب صممها ـ أن يوفروا لها سوى القليل من السرور .

وفقد راسل بعضاً أيضاً من أصدقائه الفلاسفة . ولم يستطع راسل أن يساير تصوف فيتجنشتين الذي أظهره في الأجزاء الأخيرة من كتابه الذي يحمل عنوان « تراكتاكوس » ووصل الأمر بهما إلى الحد الذي قال له فيتجشتين بطريقة جادة وقور في يوم من الأيام . « لن يكون هناك حديث بيننا بعد الآن » .

وظهر خلاف راسل مع هوايتهد حتى قبل أن يدب الخلاف بينهما في الرأي حول الفلسفة . ولعل هذا الخلاف قد بدأ عندما تجادل راسل في إحدى المناسبات مع هوايتهد وزوجته حول الحب الطليق من جميع القيود . وأعتقد أنه يمكننا أن نفترض أن راسل كان يعرض آراءه بأسلوب أشد ما يكون استثارة واستفزازاً . فازداد هوايتهد سخطاً على راسل ثم صاح أخيراً

يقول له : « بيرتي ، إنك أرستقراطي ، ولكنك لست جنتلمان » . وقد علقت مسز هوايتهد ذات مرة بقولها إنه من المؤسف حقاً بالنسبة لراسل أنه كان يتمتع بدخل مستقل في سني حياته الأولى ، مما مكنه من أن يفعل ما يحلو له ، بدلاً من أن يلتحق بوظيفة أكاديمية تفرض عليه النظام .

ومن المحتمل أن يكون هوايتهد قد استاء لأن كثيراً من الناس أرجعوا معظم الفضل في تأليف « مبادىء الرياضيات » إلى راسل . فضلاً عن أنه ظن أن راسل نشر - سابقاً لأوانه - بعض أفكاره عن « البناء* » في كتابه « معرفتنا بالعالم الخارجي » ، بالرغم من أن راسل أشار إشارة كاملة إلى الفضل الذي يدين به له .

وقد نشب بينهما خلاف آخر حول الدعوة إلى السلام والحرب العالمية الأولى . خاصة وأن ابن هوايتهد الأصغر قتل في هذه الحرب ، ومن الجائز أن هوايتهد لم يفق أبداً من هول هذه الفجيعة . وسافر هوايتهد إلى أمريكا حيث حاضر كأستاذ للفلسفة في جامعة هارفارد . وكان هوايتهد ينظر من منصبه إلى جولة المحاضرات التي قام بها راسل في أمريكا على أنها عمل لا يليق بالكرامة إلى حد ما . وشعر بالإهانة كذلك من جراء حادثة سوء تفاهم تثير الضحك . فقد دعا راسل إلى تناول الغداء معه ، في هارفارد . ولكن شخصاً في شركة الوكلاء التي تكفلت بتنظيم جولة المحاضرات التي قام بها راسل فتح خطاب الدعوة . وشعر هوايتهد بالغضب الشديد عندما تلقى رسالة تطلب منه دفع رسم مقابل ارتباط راسل بأن يتناول الغداء معه . وبطبيعة الحال ، ظل راسل يجهل تماماً ما حدث .

وفقد راسل بعض الأصدقاء الآخرين أيضاً . فقد ابتعد ت. س . اليوت وراسل كل منهما عن الآخر عندما حول اليوت اهتماماته من الفلسفة إلى الكنيسة . وفي مجال السياسة ، كان راسل لا يوافق على قيام كليفورد ألن بتأييد رامزى ماكدونالد في تشكيل حكومة وطنية ، وقبوله لقب لورد . وبالرغم من أن روبرت تريفليان أقنع راسل بأن يذهب إليه ، ويتحدث معه يحدوه في ذلك الأمل في التوفيق بينهما ، فقد باء اجتماع راسل به بالفشل ، إلى حد أن الليدي ألن ذكرت فيما بعد أنها كانت لا تريد مطلقاً أن تقابل راسل مرة أخرى . ومن ناحية أخرى ، اختلف راسل مع بعض الناس الآخرين لاعتقاده أنهم ينحازون إلى اليسار أكثر مما ينبغي .

ولم يكن راسل على علاقة ودية للغاية مع ج . د . هـ . كول الذي كان يمثل قوة فكرية أساسية تحرك حزب العمال (وقد ذكر راسل ذات مرة ، أثناء الحرب العالمية الأولى أنه يأمل ألا يكون له تأثير على كول مثل التأثير الذي كان لجودوين على مالثوس) . أما وب وزوجته اللذان

* construction

كانا في أول الأمر يشاركان راسل شكوكه نحو روسيا السوفيتية ، فقد قاما بزيارة للاتحاد السوفيتي تخليا بعدها عما كان يساورهما من شكوك . وأصدرا كتاباً يتدخان فيه هذا البلد ، مما كان له أثر كبير في تشكيل آراء الجناح اليساري . كما اختلف راسل مع برنارد شو اختلافاً نهائياً لا رجعة فيه بسبب ما أظهره شو من إعجاب بالنظام الستاليني . ووصف راسل شو بأنه « قاس ، وضيق الأفق وسخيف » . وعلق بأن شو أحب روسيا لأنه عندما ذهب إليها وجد الأمور سيئة كما كان يتوقع » .

واعترت علاقة راسل بشارلس تريفليان شيء من الفتور . فقد كان تريفليان يعترض على موقفه الذي ينتقد البلشفية . وفي نفس الوقت أبدى ج . م . تريفليان اعتراضه على آراء راسل في الزواج والاخلاق . ولعل هذا يعكس افتقار تريفيليان إلى التفهم الإنساني، وقد كان هذا نقطة الضعف الكبرى فيه كمؤرخ . وبذلك لم يعد هناك سوى روبرت تريفليان وعقيلته اليزابيت اللذين ظلا يتعاطفان مع راسل . وكتب راسل بأسلوبه الذي تميز به بعد زيارة قام بها لروبرت تريفليان وعقيلته في شينولدز وهو منزلها يقع في سرى بالقرب من ليث هيل :

« نويت أن أكتب لكما معبراً عن مدى استمتاعي بزيارتي لبيتكما . ثم نويت أن أكتب لكما تعبيراً عن شكرى على بيجاماتي . ونويت بعد ذلك أن أكتب لكما معتذراً عن أنني لم أفعل أيا من هذه الأشياء . وسأطلب شيئاً من الميزانية المخصصة لرصف الطرق لتحسين الطريق المفضي إلى الجحيم . »

وظل راسل يقيم مع زوجته الثالثة باتريشيا راسل في تيلجراف هاوس ولكنه انتقل معها فيما بعد إلى كيدلنجتون بالقرب من أكسفورد حيث عقد راسل صداقة جديدة . فقد كان أحد جيرانهما هو الدكتور جون بيكر عالم الأحياء المبرز . واعتاد راسل بعد أن يكد في عمله طول النهار أن يذهب إليه كل مساء ، كما كان الدكتور بيكر يذهب في بعض الأحيان إلى راسل بعد العشاء ليتسلى معه في بعض الألعاب المنزلية . وتعلم راسل من بيكر لعبة الأب جنكنز* التي اعتاد راسل أن يلعبها بقدر كبير من السرور والاستمتاع . وكانا أيضاً يشتركان مع الآخرين في لعبة يتعين فيها على كل فرد أن يعطي كل فرد آخر درجات تتراوح من صفر إلى عشرين على عدد من الصفات مثل الذكاء والأمانة وهكذا . وكانت هذه اللعبة تجري عادةً دون أن يعرف أحد من المسئول عن إعطاء الدرجات المختلفة . ولكن راسل كانت له طريقته الخاصة في اللعبة التي يكتشف بها المشتركون في اللعبة في النهاية من الذي أعطى لهم الدرجات وعن ماذا .

وذات مرة أصاب بيكر شيء من الضيق عندما اكتشف أن راسل أعطى أطفاله درجات في

* Up — Jenkins

الذكاء أعلى من التي أعطاها له . وأعطى راسل عشرين درجة لبيكر عن الإخلاص وصفر عن الكياسة ، قائلاً إن هاتين الصفتين تتعارضان تماماً . ومن ثم فإن درجتيهما معاً ستكون عشرين .

وفي أثناء الثلاثينات كان لا يزال على راسل أن يكسب قوته عن طريق العمل الذي لا يكل في التأليف والكتابة للصحف بالرغم مما تعرض له من أسباب القلق واعتلال الصحة . (وقد ظهرت ميزة تحصيله العلمي الهائل ، من الناحية العملية ، عندما وجد نفسه فريسة مرض خطير خلال رحلة قام بها لأسبانيا فوصف الأعراض التي شعر بها للطبيب الأسباني باللغة اللاتينية) . ونذكر من بين كتبه التي تلقى الرواج أكثر من غيرها والتي قام بتأليفها في هذه الفترة « غزو السعادة » ، « في مدح الكسل » ، « النظرة العلمية » و« الدين والعلم » .

وكثيراً ما أنكر راسل أن الفلسفة يمكن أو ينبغي أن تكون مصدراً للعزاء والإرشاد الأخلاقي . وكتب راسل ذات مرة يقول : « إن عزاء الفلسفة الوحيد الذي أعرفه هو عزاء يستمده المرء من ممارسة الفلسفة ، وهو نفس العزاء الذي يستمده من فعل أي شيء آخر » . وقال إنه غالباً ما وجد نفسه يشعر بأن الحياة عبث لا طائل منه. ولكن الفلسفة لم تساعده أبداً على التغلب على هذا الشعور . بل كان يتغلب عليه بسبب الحاجة الملحة إلى عمل شيء ما ، كأن يمرض أحد أطفاله مثلاً ، فيضطر للعناية به . وعلى أية حال لقد عاش راسل طويلاً بالقدر الذي يمكنه من أن يقدم نصائح قائمة على الخبرة بشأن بعض مشاكل الحياة . وكانت هذه النصائح تتمشى بصورة وطيدة مع الاتجاه العام لفلسفته ، كما أنها - بهذه المناسبة - تتمشى مع تعاليم كثير من الأديان .

وقد حث راسل الناس على أن يهربوا من الانشغال بالذات والتفكير فيها عن طريق تأمل أشياء أعظم منها . والنصيحة التالية ، على سبيل المثال ، مفيدة وبسيطة للغاية يقدمها راسل في كتاب « غزو السعادة » إلى هؤلاء الناس الذين لا يستطيعون فكاكاً من إحساسهم بالقلق . فقد كتب في هذا الصدد يقول : « عندما يتهددك وقوع مكروه ، تصور في جدية وتدبر أسوأ شيء يمكن أن يحل بك من جرائه . وبعد أن تنظر إلى هذا المكروه المحتمل الوقوع وجهاً لوجه ، قدم إلى نفسك أسباباً وجيهة تدعوك إلى الاعتقاد بأنه مهما كان هذا المكروه ، فإنه - على أية حال - ليس بشعاً بالدرجة التي كنت تتوقعها . ومثل هذه الأسباب موجودة دائماً ، حيث أن ما يحدث للمرء على أسوأ تقدير ليست له أهمية بالنسبة لنظام الكون . وحين تجابه بثبات لبعض الوقت أسوأ احتمال يمكن أن يحدث وبعد أن تقول لنفسك عن اقتناع حقيقي : « حسناً ، إن هذا لن يهم كثيراً على أية حال » ، فسوف تجد أن القلق الذي يعتريك قد تضاءل إلى حد كبير للغاية » .

وتشير كتابات راسل في أغلب الأحيان إلى تفاهة الإنسان إذا قورن بالكون . وحمل راسل وجهة نظره هذه إلى حد أبعد ـ وأعتقد أنه يغالي فيما يذهب إليه في كتابه « الدين والعلم » ، فقد كتب يقول : « إذا كانت غاية الكون هي تحقيق تطور العقل ، فينبغي أن نرمي هذا الكون بافتقاره إلى الكفاءة إلى حد ما ، لأنه استغرق مثل هذا الوقت الطويل في خلق ذلك القدر الضئيل من التطور العقلي . وقد يبدو من الغريب أن تظهر الحياة وليدة الصدفة . ولكن الصدف قمينة بأن تحدث في مثل هذا الكون الفسيح » . وقد تكون هناك أسباب وجيهة يمكن الاستناد عليها لإنكار أن للكون غاية والتقليل من شأن الحياة الإنسانية . ولكني لا أعتقد أن ما ساقه راسل يعتبر سبباً وجيهاً . إن الطبيعة لم تسمع مطلقاً عن « بنصل أوكام » . وتضع أنثى سمك القد (البقلاة) حوالي تسعة آلاف بيضة في العام ولكن بيضة واحدة أو بيضتين هما اللتان تفقسان . ولكن ليس هناك من يستنتج من هذا أن الغرض من البيض هو عدم إنتاج جيل جديد من سمك البقلاة . (ويمكن للمرء أن يتخيل أن سمكه بقلاة ذات عقل متواضع قررت ـ بعد أن قرأت أعمال برتراند راسل ـ أن وجودها هو نوع من المصادفة غير الهامة يمكن توقعها فقطبين مثل هذا العدد الكبير من البيض . وأنه إذا كانت الطبيعة تقصد من وراء كل هذا العدد من البيض أن تنتج سمك البقلاة ، لما عملت الطبيعة على تحقيق هدفها بهذا الأسلوب الذي ينطوي على التبذير والتبدير ، كما ينطوي على الافتقار إلى الصلاحية والكفاءة . وقد كتب فرانك رامزي ذات مرة يقول : « إنني لا أشعر بوضاعتي على الإطلاق أمام اتساع السماوات الهائل . وقد تكون النجوم ضخمة ولكنها تعجز عن التفكير أو الحب . وهاتان صفتان تؤثران في نفسي أكثر بكثير من تأثير ضخامة الحجم في . ولن يشرفني أبداً أن يبلغ وزني نحو سبعة عشر وزنة حجرية »* . وإنني أجد نفسي أتفق ـ اتفاقاً جزئياً على أقل تقدير ـ مع وجهة نظر رامزى . وأظن أن راسل هو الآخر يتفق معها في الحقيقة اتفاقاً جزئياً . (ويمكننا في هذا الصدد أن نقرأ وجهة نظره المدروسة في الطريقتين التي يمكن للمرء بهما أن ينظر إلى الإنسان والكون في بداية الجزء الثالث من كتاب « المعرفة الإنسانية »)

وكما سبق لي أن ذكرت ، يستحيل علينا أن نقسم حياة راسل إلى تقسيمات مناسبة . فقد كان دائماً يميل إلى الاهتمام بكل شيء . ففي عام ١٩٣٦ ، على سبيل المثال ، نشر مقالة عن « حدود مذهب المشاهدة والتجربة » ، الذي كان بمثابة خطوة هامة تجاه الموقف الفلسفي الذي توصل إليه أخيراً في كتابة « المعرفة الإنسانية » وعاد راسل لبعض الوقت إلى الفلسفة الرياضية ، وكتب مقدمة للطبعة الثانية لكتاب « مبادىء الرياضة » التي نشرت في ١٩٣٧ . وفي هذه المقدمة قبل راسل التعديل الذي اقترحه فرانك رامزى في نظريته المعروفة ب « نظرية الأنماط » . ولكنه

* تبلغ الوز ة الحجرية ١٤ رطلاً

ظل يصر على رأيه الأساسي في أن الرياضة هي المنطق في وجه الآراء المنافسة التي كان يدعو لها كل من الحدسيين والصوريين* .

وعلى أية حال ، فإننا إذا أخذنا الأمور بصفة عامة ، نجد أن اهتمامات راسل الرئيسية خلال هذه السنوات كانت تنصرف إلى الاقتصاد والنظريات السياسية والتاريخ . ومما يثير الاهتمام أن نلاحظ أن راسل قد سبق كينز عندما تحدى في مقالته « في مدح الكسل » رجال الإقتصاد التقليديين الذين كانوا دائماً يمتدحون الأدخار ويدينون الإنفاق . وكتب راسل يقول إنه ما دام المرء ينفق دخله ، فإنه يطعم بذلك الناس . . . ومن وجهة النظر هذه يصبح الشرير الحقيقي هو الإنسان الذي يقتصد من دخله » . إن ما أسماه راسل ذات مرة « رذيلة الإقتصاد الكريه » يمكن أن تؤدي إلى البطالة .

وقال راسل إنه ، بوجه عام ، سيكون من الأفضل كثيراً أن ينفق المدخرون أموالهم حتى ولو على الشراب والميسر وإقامة الحفلات لأصدقائهم . وكان هذا الرأي يعتبر في ذلك الوقت بمثابة هرطقة وضلال . واستبعد أساتذة الاقتصاد أفكار راسل باستخفاف واستهانة على أنها لا تعدو أن تكون زيفاً مسلياً صدر عن فيلسوف ضل طريقه عندما خرج عن ميدان تخصصه . ولكن كينز كتب في عام ١٩٣٦ حجة مفصلة في كتابه «النظرية العامة للفائدة والعمالة والمال». يذهب فيها إلى أن البطالة يمكن أن تنشأ نتيجة إفراط الناس في الادخار. وأصبحت هذه الفكرة جزءاً من المبادىء الاقتصادية الراسخة.

وكرس راسل الكثير من عمله لدراسة أسباب التطور التاريخي دراسة منظمة . وقرر بأسلوبه الخاص أنه لا يمكن تقديم تفسير منظم للتطور التاريخي. وأن المؤرخين يميلون إلى تزييف الأشياء عن طريق محاولة إظهار أن التاريخ له معنى . ومنذ ١٨٩٦ وراسل يرفض دائماً التبسيط المبالغ فيه الذي تتورط فيه الماركسية حين تحاول أن تفسر كل شيء في ضوء القوى الاقتصادية . وعلى سبيل المثال ، ذكر راسل ذات مرة « أن الاكتشافات العلمية الهامة حقاً . . . يندر أن تكون نتيجة الدوافع الاقتصادية » وأن « كل إنسان يعرف أن الصور الرديئة والكتب الرديئة تدر أرباحاً أكثر من التي تدرها الصور والكتب الجيدة . وبالرغم من ذلك ، فإن كثيراً من الفنانين والكتاب يقدمون لنا أفضل ما يمكن لهم أن يقدموه » . وضرب راسل مثالاً توضيحياً آخر قال فيه : « لم يسمع أحد أبداً عن طرد موظف حكومي بسبب كسله . ولذلك ، فإن الدافع الذي يدفع أي موظف حكومي إلى القيام بأي عمل لا بد أن يكون دافعاً غير اقتصادي . وبالرغم من ذلك فنحن نجد أن بعض موظفي الحكومة يعملون أحياناً ، فكيف إذن يمكننا تفسير هذا؟ ويرجع هذا من

---

formalists

ناحية إلى حب الشرف ، كما أنه يرجع من ناحية أخرى إلى حب السلطة . »

وإذا كان الاقتصاد وحده لا يحكم التاريخ الإنساني أو يسوده ، فما هي إذن العوامل التي تحركه ؟ للإجابة عن هذا السؤال أصدر راسل كتاب « الحرية والتنظيم من عام ١٨١٤ إلى عام ١٩١٤» . وهذا الكتاب دراسة تاريخية ، ولا يزال يعد من أكثر كتبه غير الفلسفية قيمة وإمتاعاً لقارئه . وامتد مجال هذه الدراسة بحيث شمل كلا من أوربا وأمريكا . وقال راسل إن الأحداث التاريخية هي وليدة شبكة معقدة من الأسباب التي يمكن تقسيمها إلى ثلاثة عناوين : الأسلوب الاقتصادي ، النظريات السياسية ، والأشخاص البارزين المهمين . وكي يوضح ما يذهب إليه ، وصف راسل مذاهب مختلفة مثل القومية والراديكالية الفلسفية والماركسية والديموقراطية الأمريكية . كما قدم إلينا تصويراً حياً لشخصيات مثل مالثوس ، وبنثام وماركس وجيفرسون وجاكسون وروكفلر وكارينجى .

وتنقل إلينا هذه الصور ـ مثل لوحات الزيت الجيدة ـ شيئاً عن رسامها نفسه ، مثلما تنقل إلينا شيئاً عن موضوعاتها . ولم يكن راسل على سبيل المثال عادلاً إلى حد كبير في تصويره لشخصية القس ت . ر . مالثوس فإنه لا يخطر على بال أحد من تصوير راسل له أنه كان رجلاً مرحاً شفوقاً يمجد « ملذات الحب الطاهر » ويدافع عن زيادة الأجور وتخفيض ساعات العمل ، ويتحدى المسيحية التقليدية التي ترفض التجديد برفضه فكرة العقاب الأبدي في الجحيم على أساس أنه من غير اللائق أن تصدر مثل هذه الفكرة عن « إله رحيم عادل » .

ولكن المرء يشعر أنه ما دامت الحياة تنبض في عروق راسل ، فإنه لم يكن في وسعه إلا أن يتخذ موقفاً معادياً لرجل الدين الذي يحث الناس على ممارسة « ضبط النفس الأخلاقي» للسيطرة على دافع الجنس الطبيعي الممتع . غير أن الحيوية التي تتدفق في « الحرية والتنظيم » تعوض إلى أقصى حد ما يشوب هذا الكتاب من تحيز راسل الذي يظهر كثيراً . وهو تحيز يمكن لأي شخص يدرك حقيقة اتجاه تفكيره أن يضعه بسهولة في نصابه .

وقد كتب راسل « الحرية والتنظيم » بناء على اقتراح من ناشره الأمريكي في ذلك الوقت و . و . نورتون . وكانت الفكرة منذ البداية هي أن يبين هذا الكتاب انحدار النظريات الليبرالية في القرن التاسع عشر . فقد انحدرت هذه النظريات على يدي بسمارك الذي أقام تحالفاً بين القومية والفكر المحافظ بدلاً من الليبرالية ، كما انحدرت على يدي روكفلر الذي أظهر كيف يمكن للمنافسة الحرة أن تؤدي إلى الاحتكار وتركيز الصناعة (وقد كانت هذه هي النقطة التي ذكر راسل منذ وقت مبكر يرجع الى عام ١٨٩٦ أنها أهم محاجة ساقها ماركس) .

وقرر راسل أن مثل هذه الاحتكارات يجب على الأقل أن تخضع للسيطرة العامة . وكتب في هذا الشأن يقول :

« إن الراديكالي الذي يؤمن بالمنافسة محكوم عليه بالهزيمة في أي صراع يدخل فيه مع المؤسسات والهيئات الحديثة . وتشبه قوة هذه الهيئات قوة الجيوش . وإذا تركناها للقطاع الخاص ، فإن ذلك سيؤدي إلى كارثة تماماً كما نترك الجيوش في يد القطاع الخاص . إن المنظمات الاقتصادية الواسعة النطاق في العصر الحديث هي نتاج حتمي للتنظيم الحديث . ويميل هذا التنظيم بصورة متزايدة إلى جعل المنافسة شيئاً ينطوي على الضياع والتبديد . والحل بالنسبة للذين لا يقبلون الخسف أو الاضطهاد هو أن تؤول هذه المنظمات إلى الملكية العامة » .

وفي مقال كتبه راسل بعنوان « دفاع عن الاشتراكية » نراه يطالب بملكية الدولة للقوى الاقتصادية العليا ، بحيث تتضمن على أقل تقدير « الأراضي والمعادن ورأس المال والمصارف والائتمان والتجارة الخارجية » .

وهكذا أصبح راسل مؤيداً للتأميم على نطاق واسع . ويرجع السبب في ذلك ـ على ما أعتقد ـ إلى أنه بالغ في تقدير مزايا التنظيم على نطاق كبير ، في حين أنه هون من شأن الصعاب الإدارية البحتة التي تكتنف إدارة جهاز بيروقراطى ضخم ، يعنى بالشئون الصناعية إلى جانب اهتمامه بالعمل الحكومي العادي . ولكن إذا كان راسل قد أخطأ في هذا ، فإن كل أصحاب النظريات الاشتراكية كانوا مخطئين أيضاً . ولقد مرت سنوات كثيرة بعد أن تولت حكومة اشتراكية مقاليد الأمور بالفعل في بريطانيا عام ١٩٤٥ قبل أن يبدأ أي شخص في إدراك مدى المشاكل المتعلقة بهذا الأمر .

ولقد كانت هناك صعوبة أخرى أدركها راسل بوضوح . فقد أصبحت كل حججه كاشتراكي تقود الآن إلى الاستنتاج بأنه يجب التوسع في سلطات الدولة وزيادة أوجه نشاطها زيادة هائلة . ولكنه بات يؤكد ـ خصوصاً منذ الحرب ومنذ الزيارة التي قام بها لروسيا السوفيتية ـ الأخطار الناجمة عن « الإفراط في التنظيم في مجال الفكر ، والإفراط في بذل الجهد في مجال العمل » . وقال ذات مرة إن«حب السلطة يلحق أضراراً أكبر من الأضرار التي يلحقها حب شرب المسكرات» .

وفي عام ١٩٣٨ نشر راسل كتاباً بعنوان « السلطان » يعالج نظريته التي يذهب فيها إلى أن « حب السلطة هو الدافع الرئيسي الذي يؤدي إلى التغيرات التي يتعين على علم الاجتماع دراستها » . وقال راسل إن احتياجات الإنسان محدودة ، ومن ثم فإنه من الممكن إشباعها . ولكن اشتهاء السلطة ليس له حدود .

وأكد راسل أنه يجب حماية الاشتراكية عن طريق نوع من الديموقراطية أكثر شمولاً وتغلغلاً من أي نوع سابق ، بما في ذلك اتخاذ إجراءات خاصة بحماية الحريات ؛ وإلا فإنه قد يترتب على ذلك « طغيان جديد ، إقتصادي وسياسي في نفس الوقت يفوق في صرامته وفظاعته أي طغيان سابق » . وقال إن « الافتراض بأن السلطة المستهترة غير المسئولة ستتحرر بمعجزة لمجرد كونها اشتراكية أو شيوعية من سائر الصفات السيئة التي كانت السلطة الطاغية المستبدة تتصف بها في الماضي لا يعدو أن يكون ضرباً من علم النفس الطفولي الساذج الذي يفتقر إلى النضوج » .

إن مشكلة « ترويض السلطة » سواء كانت في ظل الاشتراكية أو الرأسمالية مشكلة كان راسل يعترف دائماً بوجودها ويعود إلى الكتابة فيها باستمرار . وهي مشكلة كان قد ناقشها في كتابه « مستقبل الحضارة الصناعية » وانعكس في عنوان « الحرية والتنظيم » ، الذي اختاره لكتابه (كما انعكست بصورة أكبر في عنوان «الحرية مقابل التنظيم » الذي فضلته دور النشر في أمريكا) وبعد انقضاء سنوات عديدة عالج راسل هذه المشكلة مرة أخرى في كتابه « السلطة والفرد » . ولم يستطع راسل مطلقاً أن يجد حلاً مرضياً لها في حقيقة الأمر . وإن كانت اقتراحاته العديدة تمثل على الأقل حلول وسطية لا تقل في صلاحيتها عن أية حلول أخرى سبق أن طرحت في هذا الشأن .



الفصل العشرون

الدعوة إلى السلام والحرب العالمية الثانية

ربما كان من غير المنصف لسمعة راسل ، وإن كان هذا أمراً يسهل فهمه ، أن كتبه ، مثل كتاب « الحرية والتنظيم» وكتاب « السلطة» ، لم تحظ بنفس درجة الاهتمام العام الذي حظيت به الحملة الدعائية التي قام بها من أجل الدعوة للسلام في نفس الأعوام التي صدرت فيها هذه الكتب .

وكان راسل بعيداً عن أن يكون داعية سلام تقليدياً لدرجة أنه نادى ، كما رأينا بإنشاء بحرية بريطانية قوية كشرط أساسي لبقاء بريطانيا الاشتراكية وصمودها في عالم رأسمالي يحيط بها . إن ما غير رأيه هو قوة الطيران التي أعتقد أنها جعلت القوة البحرية شيئاً بالياً . كما أنه تنبأ بأن الحرب القادمة ستستخدم فيها الطائرات التي تنشر الغازات السامة وربما الجراثيم المسببة للأمراض .

وقد كتب راسل في سنة ١٩٣٣ يقول : « إذا كان لأحد الأطراف أن يكسب الحرب القادمة ، فسيكون هو الطرف الذي يظهر شبابه أكبر قدر من الذكاء في ميداني الكيمياء والبكترولوجيا» . وتنبأ راسل وهو يحاضر في الجمعية الفابية عام ١٩٣٥ بأن الغارات الجوية على المدن الكبرى « ستعني انتشار الدمار والذعر ، وتؤدي إلى انهيار تام لمواردنا الغذائية وانطلاق ملايين من المشردين الجائعين البائسين من المدن التي أصابها الخراب إلى الريف» . وذكر راسل هذه التنبؤات بالتفصيل في كتاب « أي الطرق تؤدي إلى السلام ؟» الذي ألفه لحساب الناشر مايكل جوزيف ونشر في أكتوبر ١٩٣٦ . وقد تنبأ بوقوع خسائر كبيرة في الأرواح ، وأضاف في حديث صحفي له أنه يخشى أن تستمر الحرب حتى تصبح أوروبا في حالة من الفوضى ، وتختفي الحركة الصناعية والحكومات المستقرة وتنتشر الأوبئة على نطاق واسع .

وفي كتاب « أي الطرق تؤدي إلى السلام» ؟ قال راسل إن حالة الفوضى التي ستنجم عن

الغارات الجوية سوف تجعل من الضروري تطبيق الأحكام العرفية : « إن الحرب دفاعاً عن الديموقراطية لا بد وأن تبدأ باستبداد العسكريين ، وليس هناك ما يدعو للشك بأنها ستنتهي بنفس الشيء» . « ولن يؤدي الموت والدمار في النهاية سوى إلى ظهور هتلر آخر في انجلترا» . وسيصبح البريطانيون مثل النازيين الذين يحاربونهم ، وحتى بفرض أن البريطانيين كسبوا الحرب ، فإن شخصيتهم ستتغير ويصبحون قساة غلاظ القلوب .

ورأى راسل أن الدعوة إلى السلام في مثل هذه الظروف هي السياسة الوحيدة العاقلة . « فإذا شن هتلر هجوماً على هذه الدولة (بريطانيا) في ظل حكومة بها تدعو إلى السلام ، فسيلقى هو وقواته الترحيب والتحية الودية التي يلقاها السائحون» ، وإذا سمح للألمان أن يدخلوا البلاد دون حرب ، فقد يغير ذلك من حالة الألمان العاديين النفسية ويجعل النزعة العسكرية تبدو لهم أمراً يتسم بالسخف .

وحث راسل الأفراد على رفض القتال ، وقال إن دعاة السلام كانوا على حق عندما هاجروا إلى دولة محايدة . وناقش مع أصدقائه ما إذا كان واجبه يحتم عليه أن يأخذ أطفاله الثلاثة ويرحل إلى أمريكا .

بل لقد توجه راسل في حملته الدعائية من أجل السلام بالحديث إلى مجلس اللوردات . ولم يكن ينظر بعين التقدير الكبير إلى هذا المجلس الذي يتسم بشيء من الخمول بالرغم من كل ما له من هيبة ووقار . وعندما قيل له في ذلك الوقت إن اللوردات يبدون وهم يجلسون على مقاعدهم الحمراء أقرب إلى سمك الزينة في إنائه، أجاب: «ولكن سمك الزينة يتحرك أحياناً» . ورغم أنه ورث لقبه عام ١٩٣١ فإنه لم يلق خطابه الأول في مجلس اللوردات إلاّ في عام ١٩٣٧ معلناً : « إني أعتقد ، بل وآمل أن السكان المدنيين في كل البلاد التي تشترك في الحرب القادمة سيرفضون ـ بعد اكتساب بعض الخبرة ـ أن يواصلوا القتال ، فيبرهنون بذلك أنهم أكثر تعقلاً من حكامهم» .

وأعتقد أن كتابه « أي الطرق تؤدي إلى السلام» ؟ هو أقل الكتب التي يجد راسل في نفسه استعداداً للدفاع عنها . وهو بالتأكيد أبعد من أن يكون خير كتبه . ومن الجائز أن تكون نتيجة طبيعية لذلك أنه حظي أكثر من غيره من الكتب بمديح النقاد . ولم تكن آراء راسل تعبيراً عن نزوات شخصية ، إذ شاركه فيها كثير من الأذكياء ، كما أنه استمد جزءا كبيراً من هذه الآراء منهم . فمثلاً تنبأ كل من هـ . ج . ويلز ألدوس هكسلي لسنوات عديدة بتنبؤات مماثلة بالدمار الذي ستلحقه الغارات الجوية ، كما وردت مثل هذه التنبؤات في مجلة نيوستيتسمان الأسبوعية

اليسارية التي كانت تتمتع - في فترة من الزمن - بنفوذ واسع ، حيث قالت في عرضها لكتابه «أي الطرق تؤدي إلى السلام ؟ »: « إننا إذا خضنا حرباً ، فلن تكون حرباً ضد الفاشية . إن الذين يناهضون النزعة العسكرية يجب أن يرحبوا بأية حركة تدعو إلى السلام في هذا البلد » . وقد حدث ذلك قبل أن تخوض بريطانيا الحرب ضد قوى ألمانيا النازية بثلاث سنوات .

ومما يدعو للأسف أنه في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية مباشرة ارتكب كثير من الأذكياء في انجلترا خطأ جسيماً ، بينما كان قواد الجيش البريطاني على صواب . واعتقد أن هتلر ما كان ليصل إلى السلطة في ألمانيا ، لو كانت نصيحة الأذكياء قد سمعت في فترة مبكرة ، ولم يقيض لوجهة نظر القادة العسكريين أن تسود بعد سنة ١٩١٨ . ومع ذلك ، فمما لا شك فيه أنه عندما استقر هتلر في الحكم واتجه بشكل ملحوظ إلى الغزو ، واصل المثقفون دعوتهم إلى السلام ، ومعارضة إعادة التسلح ، أو تنبؤوا بنوع من الحرب تختلف تماماً عن تلك التي كان ينبغي على بريطانيا أن تعد لها . وقد نجت الحضارة نتيجة لاعتقاد بعض الشباب الأغبياء أن النصر مرهون بما يظهرون من شجاعة ونظام يتطلبها القتال الفردي والذين التحقوا بالجيش أو قضوا عطلاتهم الأسبوعية يتعلمون قيادة الطائرات المقاتلة .

وتنم الأخطاء الصارخة التي وقع فيها المثقفون عن عيب أساسي في تفكيرهم : ولكنني لست أرى ضرورة مناقشة أسباب الحماقة التي كان يتسم بها كثير من المثقفين الاشتراكيين في هذه الأعوام (كما أني أمتنع ، تدعوني إلى ذلك دواعي اللياقة ، عن ذكر ما إذا كان بعضهم لا يزال يتسم بالحماقة) . والنقاط الوحيدة ذات الأهمية الأساسية من الناحية النظرية في ما ارتكبوه من أخطاء هي نقاط تتعلق بعبادتهم لروسيا السوفيتية وبآرائهم الماركسية عن أخلاقيات السياسة ، كما شرح الكثيرون منهم في سيل هائج مندفع من السير الذاتية تفيض بالتحليل الذاتي. لماذا كانوا يعجبون بالشيوعية في الثلاثينات ولماذا انصرفوا عن ذلك عندما أمسى الإعجاب بالشيوعية أمراً عتيقاً لا يتمشى مع روح العصر. ولست أدري ما إذا كان أي فرد آخر يهتم بهذا الأمر بصفة خاصة. فضلاً عن أن هذا لا يهمنا، حيث أن راسل لم يقع في هذا الخطأ. ويكفي أن نهتم بخطئه بشأن دعوته إلى السلام، التي سنجد فيما أظن - أنها كانت ترتكز على خطأين فنيين وليس على أية قضية هامة من حيث المبدأ.

ففي المقام الأول ، نجده قد غالى في أهمية قاذفات القنابل كوسيلة لنشر الغازات السامة . ثم إنه من ناحية أخرى هوَّن من شأن الشرور التي كان في إمكان النازيين اقترافها . وترتب على هذين الخطأين كل شيء آخر في كتاب « أي الطرق تؤدي إلى السلام ؟» بصورة تلقائية .

ولم يشارك راسل في الخطأ الأول بعض اليساريين فحسب ، وإنما شاركه فيه أيضاً الخبراء

العسكريون الذين درس راسل أعمالهم ونقل عنهم* . كما حاز هذا الرأي الخاطىء القبول في هوايت هول (مقر الوزارة البريطانية). ويذكر من عاش في انجلترا في ١٩٣٨، ١٩٣٩ توزيع كمامات الغاز على وجه السرعة وتدريب الجنود على الوقاية من الغازات السامة. أما ما كان أكثر غرابة من ذلك، فهو أن السلطات، اعتقاداً منها بأن الغارات الجوية على لندن قد تؤدي إلى انهيار الحكومة المركزية، قامت بإعداد خطط تتضمن الخطوط العريضة لحكم بريطانيا على أساس إقليمي. وكما اتضح فيما بعد، كانت حكمة راسل سابقة لأوانها بقليل، إذ أنه لو كانت القنبلة الذرية قد اكتشفت لدى الجانبين قبل ذلك بشهور قلائل، لكانت تنبؤاته بحدوث الدمار أقل من التقديرات الصحيحة.

وربما كان خطأ راسل الثاني - فيما يتعلق بالشرور التي يمكن للنازيين اقترافها - قد نتج عن رأي زائف في أساسه بصدد الطبيعة البشرية . وقد يقال إنه فشل قبل عام ١٩٣٩ في إدراك الغلو في السادية الذي يمكن للمنحرفين الشواذ أن يصلوا إليه ، تماماً مثلما فشل قبل ١٩١٤ في فهم الطريقة التي يستطيع بها الأفراد العاديون الحصول على المتعة من الحروب عوضاً عن الذين يشتركون فيها اشتراكاً مباشراً . ولم يكن النازيون - على سبيل المثال - أسوأ من جينكزخان الذي وصف راسل ما ارتكبه من فظائع في كتابه « مشكلة الصين» . ولكن الذي لم يدركه راسل هو الطريقة التي استطاعت بها وسائل الدعاية الجماهيرية مثل الإذاعة والسينما ، فضلاً عن تسخير العلم في خدمة البوليس السري - أن تهيء للمنحرفين والشواذ أن يفرضوا آراءهم على امة بأسرها . فلم يكن بوسع جينكيز خان أن يبث روح الكراهية من خلال جهاز الميكروفون حتى يستمع إليه الملايين . ولم يكن في وسعه أن يسترق السمع لما يدور عبرأسلاك التليفون حين يتآمر عليه أعداؤه . ولو كان جنيكزخان قد ولد في عصر العلوم الحديثة ، لكان مثل هتلر إلى حد كبير . وربما استطعنا - بهذا القدر - أن نعتبر خطأ راسل خطأ فنياً .

ولهذا السبب ، فإن العبرة الوحيدة التي يمكن أن نخرج بها هي تلك العبرة الواضحة إلى حد ما ، ومفادها أنه من الخطأ أن ننظر إلى فيلسوف على أساس أنه حجة في الغازات السامة وأساليب الدعاية الجماهيرية .

* فعلى سبيل المثال نقل عن الميجور - جنرال فوللر أنه قال: «ستظل لندن لعدة أيام بمثابة مكان فسيح يمتلىء بالجنون والفوضى والهذيان . وتقتحم أبواب المستشفيات، وتتوقف حركة المرور، ويستصرخ المشردون طلباً للنجدة . وتتحول المدينة الى مجمع شياطين تعبث فيه الفوضى والجنون . وماذا سيكون من أمر الحكومة في ويستمنستر؟ سيجرفها تيار من الرعب». وفي الوقت الذي كان يكتب فيه راسل «أي الطرق تؤدي الى السلام؟» كان يقرأ مجلتي «الجيش والبحرية والقوات الجوية» «والطيران» اللتين داوم على الاشتراك فيهما بصورة منتظمة .

ومن الطبيعي أن نقع في هذا الخطأ عندما تتواطأ الصحافة وأجهزة الدعاية والإعلان على إقناعنا أن أفضل من يعرب عن رأيه إزاء أي موضوع بالذات هو من ليست له دراية به على الإطلاق. واعتدنا أن نرى كاتباً مسرحياً مثل شو ينصب نفسه حجة في فلسفة بيرجسون وأن نرى أستاذاً في العلوم مثل جينز يناقش مسائل اللاهوت، في نفس الوقت الذي نرى فيه عالماً في اللاهوت مثل دين أنج يناقش «القانون الثاني للديناميكا الحرارية». وليس من الغريب، في العصور الأكثر حداثة، أن نرى لاعب «كريكيت» خبيراً في «كريم» الشعر. وأن نستمع إلى نجم تليفزيوني وهو يقدم لنا النصيحة بخصوص أقلام الحبر الجاف. ونحن نجد، فيما يتعلق براسل، أنه لم يترك موضوعاً تحت الشمس إلاّ وكتب فيه فيما عدا موضوعاً واحداً. وبعد سنوات طويلة أمضيتها في البحث المضني الطويل بين المقتطفات الصحفية وفي قراءة آرائه في السياسة والدعوة إلى السلام وفي موضوع الحرب والشؤون الدولية والاشتراكية، وفي موضوع الزواج والتربية والعلوم لم أجد إلاّ موضوعاً واحداً لم تنشر الصحف فيه آراءه، الا وهو الفلسفة.

والعجيب أن أخطاء راسل في كتاباته العديدة لم تتجاوز هذا القدر . وعندما كان يرى ويحكم بنفسه كانت الأخطاء التي يقع فيها نادرة للغاية ، كما كان الحال عندما تحدث عن ألمانيا وروسيا والصين . وترجع أخطاؤه في أغلب الأحيان إلى اهتمامه المفرط بالآراء المتخصصة التي يذهب إليها الآخرون . والخطر الحقيقي الذي يهدد الأذكياء من الهواة هو إفراطهم في احترام آراء المتخصصين . وفي تواضع ، رأى راسل أنه حين يكتب في موضوع لا يعد حجة فيه ، فإنه ينبغي عليه أن يسترشد بآراء الثقات فيه . وقد قال بعد ذلك في كتابه « أي الطرق تؤدي إلى السلام» ؟ أنه استمد الحقائق التي يستند إليها من الخبراء، «وهو الأسلوب الذي ينبغي على غير الخبراء أن يتبعوه». ويبدو أنه لم يكن يدري دائماً كيف ينبغي ترتيب الموضوعات على شكل هرمي ـ يبدأ على سبيل المثال بالرياضيات ثم يتدرج إلى الفيزياء ثم علم الأحياء فالاقتصاد فالسياسة فعلم النفس ـ حيث تزداد إمكانية الخطأ حتى بين المتخصصين.

ومن الممكن أن يقرر الانسان بصفة عامة أنه ينبغي على أي شخص هام ألاّ يكتب في أي موضوع خارج مجال تخصصه إلاّ إذا كان يختلف مع المتخصصين في هذا المجال . فإذا أصاب ، فسوف يعود ذلك بالفائدة . أما إذا أخطأ فلن تكون لذلك أية أهمية .

وإنصافاً للحق يجب علينا أن نضيف أن كتاب « أي الطرق تؤدي إلى السلام» ؟ ـ بالرغم مما تردى فيه من نتائج أساسية خاطئة ـ يحتوي على قدر هائل من الأفكار السديدة . فقد كان راسل مثلاً على صواب عندما قال : إن آراءه أكثر تناسقاً وانسجاماً من آراء حزب العمال الذي عارض فكرة إعادة التسلح في نفس الوقت الذي كان يطالب فيه بمقاومة العدوان الفاشستي . ولم

تكن تراوده الأوهام بصدد المستقبل . فقد كتب يقول : « إن اندفاع الأحداث يشير بالتأكيد إلى احتمال اندلاع الحرب في المستقبل القريب للغاية» . وكتب بواقعية تامة يقول : « إن ألمانيا قد أقامت جهازاً حربياً رهيباً ، من الواضح أنها تنوي استخدامه عندما تحين اللحظة المناسبة . ويقال إنه إذا قوبلت مطالب ألمانيا العادلة بروح الصداقة ، فإن النزعة العسكرية التي تسيطر على تصرفاتها في الوقت الحاضر سوف تلين بالتدريج . . . . ولكن معاملة الألمان لمناهضيهم العزل داخل الرايخ تكشف عن عقلية (البلطجي) الذي لا يؤدي النجاح إلى تقويمه بل يزيد من سلوكه سوءاً .» .

وبطبيعة الحال ، بلغ صدق راسل وصراحته حداً جعله ينقض ما كتبه في مواضع أخرى عن النازيين ، كما أن صراحته جعلته يعترف قائلاً : « إن النزعة الإنسانية الأصيلة فيّ تثور غضباً لمجرد التفكير فيما قد يحدث إذا ما جلسنا مكتوفي الأيدي إزاء النازيين» . ولم يذهب ، كما ذهب غيره من دعاة السلام البريطانيين ، لمقابلة هتلر والقادة النازيين . وقال فيما بعد في هذا الصدد إن المجاملات المألوفة التي قد تنطوي عليها زيارته لهؤلاء الرجال ، شيء « كان سيقف في حلقي» . وكذلك ضايق راسل المتطرفين من دعاة السلام عندما أكد أن استخدام القوة أمر يمكن السماح به في سبيل إنشاء حكومة عالمية .

ولعله من أكثر الفقرات تشويقاً في الكتاب ـ عندما نعود بأفكارنا القهقرى ـ تلك الفقرة التي يقول فيها راسل : « يريد الألمان من العالم أن يتركهم وشأنهم حين يهاجمون روسيا» . وكتب يقول : « إن نابليون هاجم روسيا كخطوة تمهد لغزو انجلترا . وقد يجد هتلر أن اتباع مثل هذه السياسة سوف تؤدي إلى نفس الكوارث» . وقد سببت وجهة نظر راسل هذه الرعب لدى أصحاب الفكر الاشتراكي التقليدي بصفة خاصة لأنها وجهة نظر لا يقرها إلاّ الرجعيون من المحافظين . ونظراً لما اتبعه ستالين فيما بعد من أساليب» فإنه يمكن للمرء أن يتصور أن المؤرخين في المستقبل لن يقطعوا بخطأ راسل والمحافظين الرجعيين .

ويمكن أن نشير أخيراً إلى قول راسل : « ربما كانت بولندا أكثر مناطق أوروبا تعرضاً للأخطار . . . وليس من المستحيل أن تتحالف ألمانيا مع روسيا بحيث يؤدي ذلك إلى تقسيم جديد للأراضي . وكل ما يفعله ستالين من شأنه أن يبين أنه لا يختلف مع هتلر من حيث المبدأ . ولست أشك في أنه سيشعر بالارتياح والغبطة إذا أمكن تسوية الخلافات بين الدولتين على حساب الضحايا التقليديين» . وقد أثارت هذه الإهانة الموجهة الى ستالين مرة أخرى حنق المعجبين به من البريطانيين بصفة خاصة .

ولقد أصبح جزءاً من التاريخ القديم أن نذكر كيف أن المعاهدة السوفيتية الألمانية التي

وقعت عام ١٩٣٩ قد مهدت لغزو بولندا ، وكيف أن ذلك كان بمثابة الشرارة التي أوقدت نار الحرب العالمية الثانية . وإذا تذكرنا كيف جاء توقيع هذه المعاهدة كصدمة كبيرة لكل اتجاهات الرأي السياسي البريطاني في ذلك الحين ، فإن تنبؤ راسل عام ١٩٣٦ ، أي قبل قيام الحرب بثلاث سنوات ، يعد أمراً خارقاً . ويؤكد ذلك من جديد أن راسل كان أفضل ما يكون عليه في تعليقاته السياسية عندما كان يفكر تفكيراً هادئاً مستقلاً ، وكان أسوأ ما يكون عندما كان يصغي لأقوال الآخرين .

وفي ظني أن راسل ، كما هو الحال في كثير من كتبه السياسية ، كان يتأرجح بين رأيين ، وهو يؤلف كتاب : « أي الطرق تؤدي إلى السلام ؟» وإن كان هذا أقل وضوحاً في هذا الكتاب عنه في كتب أخرى . وتبين الفقرات التي سبق لنا أن اقتطفناها من كتاباته جانباً من الصراع الداخلي بين دعوته إلى السلام وبين نظرته الواقعية إلى الأمور . كما أنه صدر لكتابه بملاحظة ذات مغزى يقول فيها «لقد ظل الشك الصادق يساورني لفترة طويلة بخصوص السياسة الصحيحة التي ينبغي اتباعها» . ولكنه ما أن التزم بدعوته إلى السلام حتى اجترفه تيار الدفاع عن دعوته ، فكان هذا دليلاً جديداً على الخطر الذي يواجه المفكر عندما يدين بالولاء لقضية سياسية . إذ أن راسل لم يستطع أن يخذل أتباعه ويزعزع إيمانهم بالإعراب عما يساوره من شكوك . وبسبب إيمانه بأن الحرب حتمية بالفعل ، ونظرته إلى طبيعة الحرب القادمة ، فقد شعر أنه ليس لديه شيء مفيد يستطيع هو شخصياً أن يقدمه على أية حال . (وقد وصفته بياتريس ويب في عام ١٩٣٧ بأنه شخص « منهوك البدن تؤرقه المتاعب المالية») . ووهب راسل نفسه بصورة متزايدة للفلسفة والعمل الأكاديمي فأخذ يلقى المحاضرات في أكسفورد ويلبي الدعوات إلى تنظيم الحلقات الدراسية في جامعة شيكاغو وكاليفورنيا .

وفي عام ١٩٣٨ كان راسل على قدر من الإيمان بالدعوة الى السلام جعله يؤيد اتفاق ميونيخ ، فكتب يقول : « إن تسعة من بين كل عشرة أفراد في أمريكا يعتقدون أنه كان ينبغي علينا (في بريطانيا) أن نقاتل ، بينما تظل أمريكا محايدة . وهذا رأى يضايقني» . وقال إنه من العجيب أن نفس الأشخاص الذين احتجوا في انجلترا على إقامة حدود غير عادلة لتشيكوسلوفاكيا عام ١٩١٩ هم الآن أكثر الناس تحمساً للدفاع عنها . ولكن بعد أن اندلعت الحرب وأصبحت بريطانيا مهددة بالغزو، أعلن راسل نبذه لدعوته إلى السلام، وصرح بأنه لو كان في سن الخدمة العسكرية لاشترك في القتال. وقال راسل في هذا الصدد: «إنني ما زلت أدعو للسلام، بمعنى أن صيانة السلام هي أكثر الأمور في العالم أهمية . بيد أني لا أعتقد أنه يمكن أن تقوم للسلام في العالم قائمة ما دام هتلر منتصراً. إن هزيمته ـ إذا كانت ممكنة ـ تمهيد ضروري لإصلاح الأمور. أما إذا خسرنا الحرب، فإن ذلك سيكون جحيماً من المحتمل أن نصطلي بناره

لفترة طويلة من الزمن». وكتب راسل إلى أحد أصدقائه في يوليو ١٩٤٠ يقول: «إننا نتمنى دوماً لو كنا في انجلترا ـ وما نشعر به الآن هو ما يشعر به الشخص الغائب عندما يكون أحد أحبائه في حالة خطيرة من المرض. ولكن أطفالنا وحاجتنا إلى كسب المال تحول بيننا وبين الرجوع إليها».

وكان قد انتهى في ذلك الوقت على وجه التقريب من كتابه «بحث في المعنى والصدق». وقال معلقاً: «أرى أن الشيء الوحيد الذي أستطيع تقديمه للعالم في هذه اللحظة هو أن أحاول الحفاظ على أكبر قدر من حضارتنا المتداعية، على أمل أن تنبث نهضة من جديد في خلال الف عام».

الفصل الحادي والعشرون

منبوذ في أمريكا

ربما كانت سنوات الحرب التي قضاها راسل في أمريكا أكثر السنين تعاسة في حياته . فقد كانت هناك أولاً مخاوف من أن يكسب هتلر الحرب. إن أولئك الذين يعتبرون راسل مجرد عالم منطق بحت تجرد من العاطفة ، يجدون أقوى دليل على خطئهم حين يتتبعون الطريقة التي كانت حالته النفسية تتقلب بها أثناء الحربين الأولى والثانية بين اليأس المطلق والأمل التواق في أن يحل السلام على الأرض بأسرع ما يمكن . ومما زاد الأمر سوءاً ابتعاده عن انجلترا في ذلك الوقت . فقد كتب يقول : « في بعض الأحيان يكاد حنين المرء إلى وطنه أن يصبح أمراً لا يطاق . وإن المرء ليشعر بالخجل لاستمتاعه بالراحة والأمن والسلام» . وكتب إلى مسز تريفيليان في شيفولدز يسألها إذا كان أزيز الطائرات قد أفسد ما ألفه من هدوء وسكينة في غابات سرى ، وإذا كان صحيحاً أن الأشجار التي كانت تنمو على ليث هيل قد اقتلعت . وقال : « إن فكرة اندثار الجمال شبح يطاردني» . واعترف « أنه من الصعب للغاية تجنب كآبة الجسد والروح التي تصيب الإنسان عندما يخيب أمله في أن يكون مفيداً بصورة من الصور. إن المرء ليشعر أنه أمر فظيع ألا يقدم شيئاً من العون، وإن كان من الصعب علينا هنا أن نقدم الكثير» .

وإلى جانب هذه الهموم والمشاغل وجد راسل نفسه في ضائقة مالية شديدة . فقد كان مثلاً يستحيل في ظل اللوائح المالية الصادرة في وقت الحرب أن تدفع له دور النشر البريطانية حقوق التأليف والنشر في أمريكا باستثناء مبلغ صغير غير كاف لتعليم أطفاله الثلاثة . ثم وقع راسل ضحية فتنة أثارها ضده في نيويورك الروم الكاثوليك ، لا يزال كثير من تفاصيلها مجهولاً في انجلترا ، نظراً لأن أخبارها كادت لا تصل إليها بسبب القيود التي كانت الصحافة تخضع لها في فترة الحرب .

ففي فبراير عام ١٩٤٠ عندما كان راسل لا يزال يعمل بجامعة كاليفورنيا ، وجهت إليه الدعوة للتدريس بكلية مدينة نيويورك . وكان قد وافق من قبل على إلقاء المحاضرات المعروفة

بمحاضرات وليم جيمس في جامعة هارفارد في خريف ١٩٤٠ . ومن ثم ، فقد عينه مجلس التعليم العالي في نيويورك أستاذاً للفلسفة ابتداء من أول فبراير عام ١٩٤١ . وتقرر أن تستمر فترة شغله لهذه الوظيفة حتى ٣٠ يونيو عام ١٩٤٢ ، وهو الوقت الذي يبلغ فيه راسل سن التقاعد وهو السبعون .

وحين قبل راسل هذه الوظيفة استقال من منصبه كأستاذ بجامعة كاليفورنيا . ولكن سرعان ما احتج أحد أساقفة الكنيسة الانجيلكانية هو وليام ت . ماننج على تعيينه في نيويورك على أساس أنه اشتهر « بدعايته ضد الدين والأخلاق ، وبدفاعه بوجه خاص عن الزنا» . ثم رفعت ضده إحدى دافعات الضرائب دعوى في محكمة نيويورك العليا لإلغاء تعيينه . ورفعت هذه الدعوى زوجة طبيب أسنان ـ وهي سيدة تدعى مسز جين كاي من بروكلين التي وصف محاميها جوزيف جولدشتين مؤلفات راسل بأنها تتسم « بالفسق والشبق والشهوانية وتمتلىء بالحديث عن الجماع وحب الجنس إلى حد الخبل ، وبالمهيجات الجنسية ، وتنم عن الإلحاد والتبجح وضيق الأفق وانعدام الصدق وانتفاء أي نسيج أخلاقي» . وفضلاً عن ذلك فقد كتب راسل شعراً مفعماً بالشهوة الجنسية المتأججة كما نظم مستعمرة للعراة في انجلترا ، وسمح بالشذوذ الجنسي . . . هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن مواطناً أمريكياً . وقال جولدشتين فيما يتعلق بفلسفة راسل :

« إن راسل مغالط سفسطائي . وهو يقدم محاجات زائدة تستند إلى الخداع والأساليب الماكرة الملتوية ومجرد المغالطات . وإن كل مبادئه المزعومة التي يسميها فلسفة ليست سوى أساليب رخيصة مبتذلة مبهرجة بالية تتسم بالسحر والشعوذة وأحابيل تهدف الى خداع الناس وتضليلهم» .

وكان القاضي الذي استمع إلى هذه الدعوى رجلاً من الروم الكاثوليك يدعى جون أ . ماك جيهان وأصدر ماك جيهان حكمه التاريخي في ٣٠ مارس ١٩٤٠ فألغى تعيين راسل استناداً إلى ثلاثة أسباب : أولها أنه ليس أمريكياً . وقد اشتكى ماك جيهان في هذا الصدد قائلاً : « إن هناك جامعات وكليات أخرى تبدو قادرة على أن تجد من تعينهم من المواطنين الأمريكان» . والسبب الثاني : أنه لم يطلب من راسل اجتياز امتحان مسابقة كشرط أساسي لتعيينه . والسبب الثالث : أن القاضي ماك جيهان ندد « بالمبادىء غير الأخلاقية الشهوانية» ، و« بالقذارة» التي تحتويها كتبه مستدلاً على قوله بدفاع راسل عن زواج الزمالة بين طلبة وطالبات الجامعات ونصيحته بأنه يجب أن تكون التجربة الجنسية سابقة على الزواج .

ولقد رد ماك جيهان على القول بأن راسل ، مع كل ذلك ، لن يقوم إلاّ بتدريس الرياضيات والمنطق والفلسفة رداً يعتبر سلبياً من وجهة نظره فحواه : « إن شخصية المدرس لها

علاقة بتكوين آراء الطالب وتشكيلها أكثر مما يشكله كثير من القياسات المنطقية . ويقال إن راسل شخص مبرز ، ولكن ذلك يزيد من خطوه . فكلما ازدادت قدرته على خلب لب طلبته والتأثير فيهم بوجوده بينهم ، اشتد نفوذه في جميع مجالات حياتهم» .

وأخيراً لخص القاضي ماك جيهان الموقف بقوله إن مجلس التعليم العالي - بتعيينه راسل - قد أنشأ «كرسيا للبذاءة» ، كما أنه تصرف بطريقة تعسفية هوائية تنتهك انتهاكاً مباشرا قواعد الصحة العامة والأمن وأخلاق الناس.

واتخذت الدعوى التي نظرها القاضي ماك جيهان ببساطة صورة قضية رفعتها إحدى دافعات الضرائب ضد هيئة نيويورك التعليمية. وقدم راسل طلباً بأن يصبح طرفاً في إجراءات القضية حتى يستطيع الرد على الاتهامات الموجهة ضده. ولكن ماك جيهان رفض ذلك.

وكانت جميع الأطراف المعنية تعتقد في بادىء الأمر أن راسل سيستأنف ضد الحكم الذي أصدره ماك جيهان . ولكن العمدة لا جارديا قرر أنه من المناسب سياسياً أن ينسى الناس أمر هذه القضية . وبذلك ترك راسل مجرداً من وسائل الدفاع عن نفسه أو وضع الأمور في نصابها .

وصرحت جريدة نيويورك تايمز أنه كان يجدر براسل أن ينسحب من تعيينه « بمجرد أن اتضحت له آثاره الضارة» . وأجاب راسل أنه لو كان يأخذ في الاعتبار مصالحه وميوله وحده لما تردد في الانسحاب . ولكن انسحابه من منصبه عمل ينطوي على « الجبن والأنانية» ، لأن عدداً كبيراً ممن يدركون أن مصالحهم الخاصة ، فضلاً عن مبادىء التسامح وحرية الكلمة يتهددها الخطر أظهروا منذ البداية تحمساً لفكرة مواصلة الجدال المحتدم . ولو كنت قد تراجعت أو انسحبت لسلبتهم الأسباب التي تدفعهم إلى شن الحرب على هذا الموقف . ولو أني وافقت بصمتي لكان ذلك إقراراً مني بمبدأ السماح للمجموعات الكبيرة . من الناس بإعفاء الأفراد الذين لا تروق لها آراؤهم وجنسهم وجنسيتهم من مناصبهم العامة» .

وتعرضت جامعة هارفارد للضغطكي تلغي الدعوة التي وجهتها إلى راسل ليلقى محاضرات وليم جيمس . ولكن رئيس الجامعة وأعضاء هيئة التدريس فيها اتخذوا موقفاً حازماً . وكان أ. ن. هوايتهد بعد تقاعده يعمل أستاذاً في جامعة هارفارد في ذلك الوقت وكانت آراؤه كما سبق أن ذكرنا تختلف كثيراً عن آراء راسل . فقد اعتاد أن يقول لطلابه : « أيها السادة ، إن برتي راسل يقول إنني رجل مختلط الفكر . أما أنا فأقول إنه بسيط العقل » . وعلى الرغم من هذا ، فقد ناصر هذا الرجل راسل - شأنه في ذلك شأن ديوي وانيشتين وآخرين - في الجدل الذي احتدم حول أستاذيته في نيويورك .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد وجد راسل نفسه عاطلاً عن العمل بعد انتهاء محاضراته في هارفارد . وأثارت اللمزات وتلطيخ اسمه في قاعة المحكمة سيلاً من الشائعات حوله ، ولاكت الألسنة سيرته التي أصبحت مضغة الأفواه خاصة فيما يتعلق بأشياء شاع بين الناس زعم بأنها حدثت في المدرسة التي كان يديرها في انجلترا . وإزاء ذلك وجد راسل نفسه مضطراً إلى إصدار إنكار وتكذيب لما وجه إليه من اتهامات . فقال : « إنني لم أشعر قطبالخجل من أي شيء خلقه الله . ولكن ذلك لا يعني أنني - وأطفالي - نتجول عراة في كل مكان» . وأضاف أنه على الرغم من أن له سجلاً حافلاً بالزنا في انجلترا ، « فإن اللوم في ذلك يقع على قانون هذا البلد قبل أن يقع على عاتقي ، لأن هذا القانون لم يبح حينذاك الطلاق إلاّ لعلة الزنا» .

وأنقذ راسل من ضيقه المالي بصورة مؤقتة مليونير غريب الأطوار يدعى دكتور ألبرت بارنز الذي كلفه بالقاء محاضرات في تاريخ الفلسفة بمؤسسة بارنز بولاية بنسلفانيا وانتقل راسل مع عائلته الى منزل ريفي قديم يسمى مزرعة ليتل داتشت على بعد خمسة وعشرين ميلاً غرب فيلادلفيا . ووجد هناك أن سكان الولايات الشرقية يناصرون الانجليز بحماس» وأن كل إنسان فيها يعطف عليه وعلى أسرته بسبب جنسيتهم» . وسنحت له الفرصة أن يستمتع بزيارات قام بها أصدقاؤه في انجلترا ، ومن بينهم جوليان هكسلي . وذهب راسل لزيارة ج . أ . مور ، الذي دعي لإلقاء المحاضرات بجامعة برنستون . وقال إن مور « كان على عهده به دائماً ، شخصية فاتنة للغاية وهادئة لا تتأثر بشيء» .

ولسوء الحظ ، كانت هناك متاعب عديدة تنتظر راسل . فقد مرض مرضاً شديداً ، إذ أصابته العدوى بمرض شل قدرته على الحركة لدرجة أن الأطباء حذروه من خطر عبور الطريق بمفرده . وفي يناير عام ١٩٤٣ انتهت فترة تعاقده مع مؤسسة بارنز بصورة مفاجئة حيث تلقى إشعاراً بإنهاء خدمته قبل نهاية مدة العقد بثلاثة أيام فقط .

ورأى بانز أن راسل « قد فشل في أن يصل بسلوكه الشخصي والمهني إلى المستوى المطلوب لوظيفته» . ومن بين الشكاوى لتي ترددت أن باتريشيا راسل كانت تلفت أنظار طلابه وتصرف انتباههم عن الدرس بحضورها محاضرات زوجها في بنطلونات فضفاضة وبإحداثها صوتاً ناجماً عن احتكاك الإبر وهي تشتغل شغل الإبرة لتصنع ملابس ترسلها إلى الأطفال الذين شردتهم القنابل في بريطانيا . وربما ترجع بعض متاعبه إلى أنه انتقد في مناظرة له مع لويس فيشر موقف غاندي من الحرب ، وقال إن أحوال الهند قد تسوء عما هي عليه إذا تسنى أن يغزوها اليابانيون . واعتبر بانزر ذلك القول دفاعاً عن الاستعمار البريطاني .

وهكذا تعين على راسل العاطل وهو في سن السبعين - حين يتقاعد معظم الرجال - أن

يعول أطفاله الثلاثة ويقوم على تربيتهم . ووصفته مجلة التايم بأنه « الفيلسوف الذي تعرض عنه الجامعات الأمريكية» . فقد تلطخت سمعته بسبب الهجمات التي توالت عليه والاشاعات التي ثارت حوله لدرجة جعلت كل الجامعات ترفض أن تعرض عليه أي منصب فيها . ولم تقبل أن تنشر مقالاته سوى صحف قليلة . ويمكننا الاستدلال على قوة المشاعر التي ثارت ضده من هذه الحادثة . فقد كتب جلبرت مرى الى صديق له أمريكي ذي مكانة مرموقة ، يسأله إذا كان يستطيع مساعدة راسل ، فرد عليه الرجل بقوله إنه على الرغم من رغبته الشديدة في أن يقدم خدماته لجلبرت مرى ، فإنه يعتبر أن طلبه بتقديم العون إلى راسل أمراً يتجاوز الحدود بعض الشيء .

ودافع راسل عن نفسه برفع دعوى ضد بارنز بسبب فصله من عمله فصلاً تعسفياً . وبالرغم من أنه كسب القضية ، فقد تعرض تنفيذ الحكم الصادر فيها للتأخير الشديد ، فلم يدفع له التعويض إلاّ بعد انقضاء ثلاثة أعوام . وأثناء سماع القضية ذكر راسل أن كل دخله في خلال الثمانية أشهر السابقة لم يتجاوز ٧٨١ جنيها . وحين قال القاضي إنه ربما لم يحاول العثور على عمل ، رد عليه راسل بقوله : « هل تعتقد أنني لا أسعى إلى الحصول على المال ؟ لست واحداً من هذا النوع من الفلاسفة» .

وظل راسل رابط الجأش حتى عندما كان في موقف يدعو لليأس ، يعاني من الحاجة الملحة إلى المال ومن غربته وعزلته بعيداً عن وطنه . وقال لأحد الصحفيين بروح المرح : « « إن دخلي الحالي أقل من الضريبة التي تستقطع مني . ولنر كيف تعالج الحكومة هذا الوضع» . وكتب إلى ناشره في انجلترا ـ السير ستانلي انوين ، فأعد هذا الناشر تقديراً للعائد الذي قد تدره كتب راسل في المستقبل . وأرسل اليه المبلغ المقدر مقدماً حتى يستطيع ولداه الكبيران أن يتما تعليمهما الجامعي في أمريكا . ثم حصل راسل على مبلغ من أحد الناشرين الأمريكان مقدماً مقابل كتاب بدأ يجمعه من محاضراته التي ألقاها بمؤسسة بارنــز .

وقيض لهذا الكتاب أن يكون أحد روائعه ، نشره في ظل ظروفه العصيبة المضطربة ، تحت عنوان « تاريخ الفلسفة الغربية» وأضاف إليه العنوان الفرعي « « وعلاقته بالظروف السياسية والاجتماعية» . ويعد هذا الكتاب الأول من نوعه يكتبه فيلسوف من الدرجة الأولى . كما أنه يعد إحدى المحاولات النادرة للغاية لكتابة تاريخ شامل للفلسفة ينهض على قراءة دقيقة وأمينة لكتابات الفلاسفة الذين يناقشهم في مؤلفه . وفيما بعد حدثتنا باتريشيا راسل عن رحلاتها التي قامت بها للبحث عن الطبعات الكاملة لأعمال الفلاسفة المختلفين ، وكيف أنها وجدت صعوبة بالغة في محاولة إقناع من تتعامل معهم بأن « المختارات» التي تشيع في أمريكا لا تصلح للدراسة المتعمقة .

وفي القسم الوسيط في هذا الكتاب ، تعمق راسل في دراسة الفلاسفة الكاثوليك في العصور الوسطى. ومن النادر أن نجد مثل هذه الدراسة التفصيلية المستفيضة لهم في أي مرجع آخر . وعلق راسل على كتابتهم بقوله إنه على الرغم من رتابتها ومللها ، فإنها أفضل مما توقع . وبطبيعة الحال ، لم تحظ آراؤه فيهم بموافقة الكاثوليك عليها تماماً . ولذلك ، فإنه مما يثير الاهتمام أن نعرف أنني حين انتقدت هذا القسم الوسيط من الكتاب على أساس أنه أطول مما يجب، عارضني راسل في عنف واصر على أهمية بعض الأعمال المؤلفة في العصور الوسطى.

وينطوي كتاب « تاريخ الفلسفة الغربية» على محاسن عديدة لدرجة أنه قد يبدو من التجرؤ بمكان أن امتدح الكتاب . ولهذا فسوف أكتفي بذكر عيوبه .

إن كتاباً بهذه الضخامة كان لا بد أن يحتوي على بعض الهنات . وكان هناك إجماع في الرأي بين المعجبين بكانط على أن الفصل المخصص لهذا الفيلسوف هو أسوأ فصول الكتاب. وحين كتب راسل عن مبدأ كانط المأثور الذي يقيس صحة أي عمل برغبتنا في أن يقدم الجميع على الإتيان به نجده يقول : « ويعطينا كانط على ذلك مثلاً توضيحياً فيذهب إلى أنه من الخطأ أن نقترض المال ، لأنه إذا حاول الجميع الإقتراض، فلن تتبقى نقود يمكن اقتراضها» . واحتج حشد من أنصار كانط في الحال قائلين ، إن كانط لم يستخدم هذا المثل بالذات . وإني على استعداد لتصديقهم لأنه ليست هناك ثمة ما يغريني بقراءة كانط مرة أخرى لاكتشف ذلك بنفسي .

ويحتوي الفصل الخاص ببرجسون على خطأ أكثر إثارة للاهتمام . وهذا الفصل ، كما سبق أن ذكرنا ، عبارة عن محاضرة راسل الشهيرة في جماعة المهرطقين ضمها راسل الى كتابه دون أي تغيير . ويرجع تقسيم هذا الفصل إلى جزئين ببساطة إلى أن راسل أثناء حديثه الذي ألقاه في جماعة المهرطقين عام ١٩١١ ، أخذ فترة استراحة في منتصف المحاضرة حتى يلتقط أنفاسه من ناحية وحتى تتاح لجمهور المستمعين فرصة الاستراحة والتفكير فيما سمعوه من ناحية أخرى . وانتقد راسل في محاضرته هذه برجسون انتقاداً قاسياً « لخلطه بين الذات والموضوع» ، وبين « عملية المعرفة وما يعرف» . وقد غير راسل رأيه من قبل عندما تبنى الواحدية المحايدة ، ولكن نقده لبرجسون أعيد طبعه كما ورد بالحرف الواحد في كتاب « تاريخ الفلسفة الغربية» رغم أنه امتدح في الفصل التالي له وليام جيمس لأنه أنكر وجود أي فرق أساس بين الذات والموضوع** .

---

the act of knowing *

الرغم من ذلك، فإن هذه النقطة لا تؤثر على سلامة نقد راسل لآراء برجسون الخاصة بالذاكرة.

وهذا التباين في الرأيين دليل يثير الاهتمام يوضح نقطة ضعف في راسل باعتباره مؤلفاً . إن راسل صاحب أسلوب جميل تستحق بعض فقراته أن تجد لها مكاناً في أية «مختارات من النثر الانجليزي» . ولكن كتبه أقرب ما تكون إلى مجموعة من الفصول غير المترابطة دون أن تسهم في خلق عمل متكامل . وهذا بالطبع كان نتيجة طبيعية لأسلوبه التحليلي والتفصيلي في معالجة أية مشكلة ونتيجة لرفضه مبدأ «الواحدية» . وقد كان المرء يتوقع من عنوان الكتاب الفرعي أن يركز «تاريخ الفلسفة الغربية» أساساً على العلاقة بين آراء الفلاسفة وبين العصور التي عاشوا فيها . ولم يتوصل راسل إلى نتائج عامة في هذا الشأن .لقد نبذ ـ وهو محق في هذا ـ النظريات الماركسية المتطرفة التي تقول إن الفلاسفة نتاج القوى الاقتصادية .وقال وهو محق في ذلك أنهم من وجهة النظر التاريخية يجمعون بين كونهم سبب هذه القوى ونتيجة لها.ولكن حتى هذه النتيجة غير الحاسمة لم تكن بذهنه دائماً كموضوع أساسي للكتاب تدور كل الفصول حوله .

وحقيقة الأمر أنه بالرغم من أن راسل كانت له تعليقات عديدة وضاءة عن الفلاسفة وعصورهم ، فإنه لم يكتب الكتاب الذي كان ينوي حقاً كتابته . كما أنه نسي تماماً أن يناقش الظروف المحيطة ببعض الفلاسفة . بيد أنه نجح في كتابة خير تاريخ يلقي ضوءاً على الفلسفة قيض له أن يظهر بين صفحات مجلد واحد . وبسبب فرط تواضعه فقد شعر أن هذا لم يكن كافياً ، وأنه ينبغي أن يفي كتابه بغرض آخر حتى يبرر وجوده . ولكن عيوب « تاريخ الفلسفة الغربية» ككتاب تزيد من محاسنه كتاريخ . ولو أن راسل ـ مراعاة لوحدة الكتاب الفنية ـ حاول أن يستخدم تلخيصاته وانتقاداته للفلسفات المختلفة بمثابة توضيحات لنظرية ما ـ لا تنقص ذلك من قيمة هذه التلخيصات والانتقادات . لقد كان من عادة نقاده أن يذهبوا إلى أن التحليل معناه التزييف . ولكن الواقع في أغلب الأحيان أن الوحدة غير التحليلية هي التي تنطوي على التزييف .

وفي أوائل عام ١٩٤٤ بينما كانت رحى الحرب دائرة أتيحت لراسل فرصة العودة إلى انجلترا التي كان يتوق إليها . ودعته كليته القديمة ترينيتي للعودة إلى كامبردج . وتمكن من السفر إلى وطنه على متن سفينة للشحن . وبادر إثر وصوله إلى انجلترا بزيارة عائلة تريفيليان في شيفولدز ، وتمشى على تيراس منزلها وهو يستمتع في الهواء الطلق برؤية تلال سرى من جديد وبجمال أشجار الزان ، كما استمتع أيضاً بالحديث الشيق مع أصدقائه الانجليز . ولم يمض وقت طويل حتى خرج للتنزه مع بوب تريفيليان وأخذا يتناقشان في اللاهوت .

وقال له تريفيليان بطريقته الهادئة التأملية : « المشكلة تتلخص في عدم قدرتي . . . على الاهتمام بالله» .

ورد عليه راسل على الفور : « قد يكون هذا الشعور متبادلاً ، ثم ترددت ضحكاتها عبر التلال .

وقد تبدو دعوته للعودة إلى كامبردج ـ إذا عدنا بذاكرتنا للماضي ـ خطوة طبيعية للغاية . ولذلك فإنه من الغريب أن ندرك أنه حتى في ذلك الوقت وفي انجلترا ذاتها ، كان الناس ينظرون إليه أحياناً على أنه شخص بشع منفر . وقد حاول البروفيسور ليتلوود من قبل أن يستطيع الرأي في إمكانية تعيين راسل زميلاً شرفياً في كلية ترينيتي ، ولكنه دهش عندما واجه معارضة شديدة . وبالرغم من ذلك ، فقد تلقى راسل بعد ذلك بوقت قصير دعوة للعودة إلى ترينيتي وإلقاء المحاضرات فيها .

وشاركت هيئة الإذاعة البريطانية لبعض الوقت اعتراضها على راسل . وأظهرت في بادىء الأمر شيئاً من الإحجام عن دعوته لإذاعة الأحاديث فيها . وكتب راسل يقول : « إن هيئة الإذاعة البريطانية لا تريدني ، ولكني سأحاضر في ترينيتي . وهذا ما أفضله» .

وحتى نختتم هذا الفصل بطريقة خفيفة مرحة ، فإننا سنذكر أحد التغيرات التي لاحظها راسل عند عودته إلى انجلترا . فقد وجد أن الفيلسوف س . أ . م . جود يحظى بأكبر نصيب من الشعبية وذيوع الصيت .

ومن أغرب الخصائص التي تميز العظماء وأعمها معاً قدرة التافهين على تعكير صفو بالهم . فمثلاً سوق يتساءل المؤرخ في المستقبل متعجباً كيف أمكن لسياسي مثل شنويل أن يضايق ونستون تشرشل بما وجهه إليه من انتقادات ، ولماذا التفت تشرشل إلى مضايقاته على الإطلاق ؟ وفي ظني أن أجيال المستقبل ستذكر باستمتاع العداء العنيف الذي أظهره راسل نحو شخصيات قليلة الشأن مثل ج . أ . سميث ، و س . أ . جود وهذا دليل على أن العبقرية لم تمنعه من أن يتصرف كإنسان .

كان جود يتحلى بفضائل عدة . ومن الجائز ـ لو ولد في وقت آخر ـ أن الناس كانوا سيذكرونه كمفكر صادق ومعلم صافي الذهن . ولكن لسوء الحظ ، أصبح اسمه تجسيداً ورمزاً لكل ما هو سيء بين المثقفين اليساريين في بريطانيا في هذه الفترة بالذات . فقد كان داعية سلام أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولكنه لم يكن في طاقته أن يتحمل السجن ومشاقه فوجد حلاً وسطاً مرضياً في التحاقه بالعمل بوظيفة مدنية حكومية . وتخلى جود ـ شأنه في ذلك شأن راسل ـ عن دعوته للسلام أثناء الحرب العالمية الثانية . وبينما رأى راسل عندما تقدم به العمر ولم يعد قادراً على الاشتراك في الحرب بنفسه أنه ينبغي عليه أن يمتنع عن تحريض الشباب على القتال ، كان جود

يمارس أنشطة مثل التحدث في اجتماعات غفيرة يحث فيها على إقراض المال من أجل الحرب . وتلقى جود مكافأة كبيرة لتخليه عن سياسة الدعوة الى السلام . فقد كان معروفاً فيما مضى لدى عدد قليل من الناس على أنه كاتب يمثل ذلك النوع من الكتاب الذين يكتبون الهراء التقلمي الذي يحظى بإعجاب مجلة نيوسيتسمان ، ومروج للفلسفة بلغة مبسطة يفهمها عامة الناس يسعى إلى جذب انتباههم إليه بإطلاق لحيته وحديثه عن الجنس . ولكن هيئة الاذاعة البريطانية بدأت تقدم جود في برنامج مخصص للمناقشات معروف باسم « هيئة الخبراء » ، وأظهرت هذه الهيئة براعة عجيبة في تحويل شخصية من الدرجة الثانية إلى واحد من مشاهير الأمة . كما كان جود يكتب أيضاً مقالات أسبوعية لجريدة السنداي دينسباتش التي وصفته بأنه « فيلسوف بريطانيا الرائد» .

ومن العسير ألا يشعر المرء بشيء من العطف نحو جود . فقد كان مفكراً صافي الذهن تنقصه الاصالة والابتكار ، شاء له القدر أن تسلط الأضواء عليه فجأة ويقف على منصة فينفضح امره باعتباره رجلاً ليس لديه ما يقول للناس . إذ أن فلسفته في الحياة لم تكن سوى تكرار لأفكار غير مبتكرة جمعها من راسل وبرنارد شو . وبالرغم من ذلك فقد استحق جود كثيراً من الثناء لأنه أثار الاهتمام بالفلسفة بين أناس لم يفكروا فيها من قبل . ولكن راسل لم يعطف عليه أو يمتدحه . فقد كان يمقت فيه كل ما هو زائف في الإنسان ووصفه بأنه « دجال ينتحل مؤلفات غيره » مشيراً بذلك إلى نقل جود المتكرر لأفكار من كتبه وإدماجها في مؤلفاته الخاصة به دون اعتراف منه بمصدرها . وتتجلى دعابة راسل الذكية وحضور بديهته بصورة شديدة التركيز في إجابته عندما طلب إليه تقديم كلمة ثناء يصدر بها أحد كتب جود ، فما كان منه إلاّ أن قال : « حاشى لي أن أفعل هذا . فإن التواضع يمنعني» .

وسقطت نعمة هيئة الإذاعة البريطانية عن جود عندما ضبط مسافراً في قطار دون أن تكون معه تذكرة ، وحاول أن يضلل مفتش التذاكر بشأن المكان الذي ركب منه . وقبل وفاته بقليل ظل يتنكر بصورة متزايدة لآرائه اليسارية وانتهى بانضمامه الى كنيسة انجلترا. وقال راسل معلقاً على هذه التصرفات بأن «جود قد عثر على الله بعد أن فقد تذكرة سفره بالقطار». وثارت ثائرة راسل عندما سمع إشاعة ترامت إلى امريكا مفادها أن جود قد هداه من جديد إلى العقيدة الدينية الأصيلة.



الفصل الثاني والعشرون

المتمرد يحظى بالتبجيل

استقبل راسل بترحيب يليق بالأبطال عند عودته إلى كامبردج . وخصصت كبرى القاعات كي يلقي فيها محاضراته . ومع ذلك ، فقد كانت هناك صفوف من الطلبة يقفون خارج القاعة لعدم وجود أمكنة لهم بداخلها . واستطاع راسل كذلك أن يقابل أصدقاءه القدامى من جديد مثل مور وبرود وهاردي وليتل وود . وربما كان الشخص الوحيد الذي لم تسعده عودة راسل هو فيتجنشتين الذي خلف مور كأستاذ للفلسفة بجامعة كامبردج ، وهو منصب لم يكن يصلح له بعض الشيء بسبب عدم اهتمامه بتدريس أية فلسفة أخرى غير فلسفته . وبدا أن فيتجنشتين يناصب راسل العداء الشديد فمثلاً عندما رأى كتاباً عن راسل في مجموعة الكتب الأمريكية المنشورة بعنوان : « مكتبة الفلاسفة المعاصرين » ، شعر بالاشمئزاز عندما لاحظ توقيعاً على غلاف الكتاب هو صورة طبق الأصل من توقيع راسل . وعلى الرغم من أن كل مجلد في هذه السلسلة كان يحمل توقيع المؤلف بنفس الطريقة التي لا تتضمن أي ضرر ، فإنه يبدو أن فتجنشتين قد اعتبر أن السلسلة بأسرها تنطوي على استعراض لا يليق من جانب مؤلفيها . ولم يكن هذا الاعتراض معقولاً تماماً ، ولكن فتجنشتين لم يكن دائماً معقولاً في اعتراضاته على الناس أو الأشياء . فقد كان على سبيل المثال يحقد حقداً متفجراً على السير آرثر أدنجتون متهماً إياه « بعدم الإخلاص » ، قائلاً إنه يفضل أن يدخل الجحيم بمفرده من أن يدخل الجنة مع أدنجتون . ولكن أحداً لم يفهم سبب اعتراضه على أدنجتون . وذات مرة بينما كان يتمشى في حديقة هيئة التدريس بكلية ترينيتي ، ثارت ثائرته عندما رأى بعض الزنابق تنمو وسط العشب الخشن قائلاً إن منظرها « غير طبيعي » . وفي وقت من الأوقات خلا سكن فيتجنشتين من المقاعد ، الأمر الذي اضطر كل زائر له أن يقف أو يستند على « الحشايا » . وكان يتناول غداءه في محل ليونز أو بيكر في الذهاب إلى قاعة الطعام الخاصة بالكلية لأنه لا يتحمل رفقة زملائه من أعضاء هيئة التدريس .

ولم يقم راسل بالتدريس في كلية ترينيتي فحسب ، ولكنه كان يذهب إلى لندن للاشتراك في المناظرات في مجلس اللوردات ، ويقضي الليل أحياناً مع جوليان هكسلي في (هامب استد) . وفي إحدى هذه المناسبات فكرا - حتى يدخلا التسلية على نفسيهما - في تجميع نصوص من العهد القديم ليوضحا ما تنطوي عليه مبادؤه الأخلاقية من تناقض . وقد علق هكسلي بعد ذلك بقوله إنه من الغريب أن نجد في الأزمنة الحديثة أنه يبدو أن أصحاب المذهب العقلي فقطهم الذين توفروا على دراسة الإنجيل دراسة دقيقة . وكان هكسلي يعرف قدراً كبيراً من العهد القديم ولكنه اعترف أن معرفته به لا يمكن بحال من الأحوال أن تضارع معرفة راسل به .

وابتهج راسل لفوز حزب العمال على تشرشل في انتخابات عام ١٩٤٥ ولكنه لم يحاول التقليل من شأن منجزات تشرشل كما جرت العادة في مهاترات السياسة الحزبية الوضيعة . وكان يقول إنه مما لا شك فيه « أن تشرشل رجل عظيم . . . رجل عظيم للغاية . وإني أحبه حباً جماً » . وقد بدا إعجابه بتشرشل بطبيعة الحال منذ الحرب العالمية الثانية* . ولكن على الرغم من انتقاد راسل لتشرشل كعضو في حزب المحافظين ، فإنه كان يدرك دائماً أنه مخلص - « وليس وغداً لزجاً موحلاً مثل بولدوين » .

وعندما نشرت مذكرات تشرشل عن الحرب ، علق راسل قائلاً : « إن تشرشل يكثر من الحديث عن نفسه ولكن بطريقة بريئة لا تضير الغير أو تسيء إليهم - إذا كان من الواضح ما أرمي إليه . وهو لم يطالب بما ليس له حق فيه ، شأنه في ذلك شأن عظماء الرجال » .

وقد انتهت الفترة التي شعر راسل فيها بالبهجة بعد تولي حزب العمال من جديد مقاليد السلطة بإلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما ، فكتب يقول : « في الفترة القصيرة بين الانتخابات العامة وإلقاء القنبلة الذرية ، كنت أشعر بشيء من السعادة . ولكن الحكومة البريطانية ستضطر إلى التخلي عن كل مشروعاتها عندما تسمع فرقعة سياط ترومان . . .

إن القنبلة الذرية تجعل المرء يعيد النظر في كل شيء . ولم أشعر قطحتى في عام ١٩٤٠ أن الأمور قائمة كما هي الآن . إن كل شيء يتحرك تجاه حرب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي

---

* في محاضرة ألقاها عام ١٩٢٧ بعنوان «لماذا لست مسيحيا؟ هاجم راسل الحجة التي تذهب إلى أن الكون لا يمكن إلا أن يكون نتيجة تصميم إلهي. قائلاً : «هل تعتقدون أن المرء لا يستطيع - إذا توفرت لديه القدرة على كل شيء والعلم بكل شيء - أن يخلق شيئاً أفضل من عصابات الكوكلوس كلان المناهضة للزنوج والفاست والسير ونستون تشرشل عبر ملايين السنين التي تنصرف إلى استكمال ما يشوب العالم من نقص». ولكن راسل حذف هذه الاشارة إلى تشرشل عندما أعاد طبع محاضرته .

نكون نحن فيها بمثابة تابع يدور في فلك الولايات المتحدة. وسيستخدم الطرفان فيها القنابل الذرية ، ولن يبقى في النهاية سوى القليل » .

وعند عودته إلى إنجلترا وجدها تحمل الإعجاب المطلق بروسيا الستالينية . وكان قد سمع وهو على سفينة الشحن التي أقلته عبر المحيط الأطلنطي البحارة وهم يتغنون في حماسة ونهم بنشيد « العلم الأحمر » الشيوعي . وكان راسل من أول الذين تنبأوا بالتصدع في جبهة الحلفاء في أعقاب الحرب . وقال راسل في وقت مبكر يرجع إلى أغسطس عام ١٩٤٤ في حديث أجرته معه ماري سيتون وود « الرأي عندي أنه من المحتمل أن تندلع حرب عالمية أخرى » . وفي نوفمبر عام ١٩٤٥ قال وهو يشير إلى أحداث أوربا الشرقية إن الشيوعيين قد اقترفوا فظائع « تضارع في مستواها وضخامتها فظائع النازيين » .

وفي هذه الظروف شعر راسل أن المخرج الوحيد يكمن في السياسة التي اتبعها بيفين وزير الخارجية الجديد في حكومة العمال . وقال مخاطباً مجلس اللوردات : « إنني أؤيد الحكومة الحالية من كل قلبي سواء في سياستها الخارجية أو الداخلية » . (ولم تتدخل حكومة ترومان في الشئون الداخلية البريطانية بالحد الذي كان راسل يخشاه . ويرجع ذلك إلى حد ما إلى مخاوف أمريكا من روسيا) . وقال راسل : « إنني لا أعتقد أننا نستطيع أن نضمن تعاون السوفيت معنا بمجرد الإعراب عن رغبتنا في ذلك . وأظن أنه من الضرورة القصوى أن نتخذ موقفاً حازماً بشأن مصالحنا الحيوية » .

وتنبأ راسل باختراع القنبلة الهيدروجينية في وقت مبكر يرجع إلى عام ١٩٤٥ . وتحدث في مجلس اللوردات عن إمكان استعمال القنبلة الذرية الموجودة حالياً في صنع القنبلة الهيدروجينية التي سيمكن استخدامها بالفعل عندما يحين الوقت . وعارض المقترحات التي تحبذ إطلاع روسيا على أسرار صناعة القنبلة الذرية . ولكنه حذر من أن « سرها لن يظل خافياً على روسيا لمدة طويلة . وسوف يصنع الروس بلا شك - وفي سنوات قليلة - قنابل تضارع في جودتها تماماً القنابل التي تنتجها الولايات المتحدة الآن .

وكتب راسل في صحفية المانشستر جارديان في نفس العام يقول إنه يجب بذل قصارى الجهود من أجل زيادة تفوق قوة أمريكا ، « على أمل أن تصبح هذه القوة على درجة من العظمة بحيث تخلق احتكاراً في القوة المسلحة يحول دون نشوب حرب عالمية أخرى » . ومن الواضح أنه كان لا يزال يحبذ الفكرة القائلة بأن أكثر الطرق ضماناً لإنشاء حكومة عالمية أن تسود دولة واحدة بقية الدول . وظل متعلقاً بأهداب هذا الأمل حتى أصبح تحقيقه مستحيلاً بسبب اقتناء روسيا للأسلحة النووية أيضاً .

وفي أثناء الحرب الكورية أيد راسل فكرة إعادة تسليح الغرب وألمانيا الغربية قائلاً إن ألمانيا لن تكون مرة أخرى خطراً يهدد العالم . وأضاف أن أفضل وسيلة للمحافظة على السلام هي أن نكون بوضوح أقوى من روسيا . « وليس علينا سوى أن نمنع حدوث انفجار بطريقة أو بأخرى على أمل أن تجيء الحكمة بمرور الوقت » . ولم تساور راسل أية شكوك الآن فيما يتعلق بالموضوع الرئيسي الذي يتلخص في قوله :

إذا تعين على أن أختار بين الشيوعية الروسية والرأسمالية الأمريكية ، فإني سأختار الرأسمالية الأمريكية دون أدنى تردد ، وذلك لأنها مرتبطة بالديمقراطية وبقسط من الحرية الفردية » . وأضاف أن خير ما يقال عن الرأسمالية أنها تفصل بين السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية . وهذا التأكيد من جانبه يناقض ما ذهب إليه حين كتب « الحرية والتنظيم » . كما دافع راسل عن الأسلوب الأمريكي في الحياة أكثر مما دافع عنه من قبل ، فقد قال :

« لست أعتقد أن الأمريكان أكثر مادية - بالمعنى المألوف للكلمة - من الدول الأخرى . ولأنهم ينجحون في الحصول على الدولار القادر على كل شيء فنحن نعتقد أنهم يعبدونه . وقد يأتي أرستقراطي في عوز أو فلاح فرنسي بأفعال من أجل الحصول على المال تصدم مشاعر كل أمريكي نظيف » .

بيد أن ذلك لم يمنعه من أن ينقد السياسة الأمريكية نقداً شديداً . فقال إن الصينيين ما كانوا ليصبحوا شيوعيين لو أن أمريكا لم تتركهم بين ناري الاختيار بين الشيوعية أو حكومة تشانج كاي شك « الرجعية الفاسدة » . وقال إن الأمريكان أجهل بكثير من البريطانيين في الشئون الخارجية ، فقد وقعوا نتيجة عدم خبرتهم في أخطاء تعادل تلك التي وقع فيها البريطانيون في القرن الثامن عشر : « إننا نستطيع أن نسيطر على الأمريكان عن طريق الأمم المتحدة . ولا بد لنا أن نفعل ذلك . وسيسعى الأمريكان دوماً إلى الحفاظ على ماء وجههم من الناحية الأدبية - فهم فوق كل شيء من سلالة الآباء الحجاج » .

ووقف راسل في صمود وثبات ضد حكم المكارثية الإرهابي ، وقال في عام ١٩٥٠ « إن أمريكا تنتابها نوبة من الهستيريا الشديدة . وينبغي علينا أن نظهر أننا أرفع من ذلك » .

ولكن صلابته وتصميمه في انتقاد كل من أمريكا وروسيا في نفس الوقت لم ينقذه من هجوم الشيوعيين عليه ، ولا سيما عندما قيل إنه ينادي بشن حرب (وقائية) ، ضد الشيوعية - وهو الشيء الذي أنكره راسل على الفور . ووصفه راديو موسكو بأنه « ذلك الذئب المتفلسف الذي يخفى تحت بدلة سهرته الأنيقة غرائز الوحش . ويبدو أن الحقد والقتل وافتراس الناس بعضهم البعض هي

المبادىء الخلقية الأساسية التي ينادي بها هذا الوحش الذي يرتدي مسوح الفيلسوف » . أما صحيفة الكومونفورم جورنال فقد وصفته بأنه « مفكر بريطاني ينادي بمعتقدات أكلة لحوم البشر » .

وواجه راسل كذلك الهجمات في عقر داره . فبالإضافة إلى سيل القدح والسباب الذي انهال عليه من جانب دعاة الستالينية ، فقد ذكرت مجلة نيوستسمان بطريقة هازئة أن راسل يرى أن البدء في قصف موسكو بالقنابل هو من « السياسة الرشيدة والأخلاق الحميدة » . وعندئذ توجه راسل إلى المجلة برفقة محاميه ، وجعلها تنشر رسالة طويلة له ضمنها مقتطفات مما قاله فعلاً عن روسيا .

وكان من المتوقع أن شعور أصدقائه اليساريين السابقين بالمرارة سيدفعهم إلى اتهامه بتغيير آرائه حتى يقترب بها من الرأي العام . ولست أعتقد أن أي فرد يدرك كيف أنه انتقد الماركسية منذ زمن مبكر يرجع إلى عام ١٨٩٦ ويتوفر على دراسة تطور آرائه التدريجي منذ أن كتب « الديموقراطية الاجتماعية الألمانية » ، يستطيع أن يصدق مثل هذا الاتهام . فقد أصبح أكثر اقتناعاً بشرور التعصب ، وبالنجاح الذي يمكن أن يحققه الأشرار في تشكيل عقول دولة بأسرها حتى يتناسب مع خدعهم وحيلهم . ولذلك ، فإنه بالرغم من أنه عارض إعادة التسلح ضد هتلر ، فإنه لم يعترض عليها ضد ستالين .

لقد طرأ على آراء راسل تغير حقيقي . ولكن ذلك يعني أنه على الرغم من أنه من المضحك أن نزعم أن راسل كان يسعى إلى كسب الشعبية ، فإنه من الخطأ أن ندعي أن آراءه كانت دائماً ثابتة لا تتغير .

وحدث فعلاً نوع من التغير في موقف وزارة الخارجية البريطانية التي رفضت إعطاءه تأشيرة خروج للذهاب إلى أمريكا في عام ١٩١٦ ، في حين أنها أصبحت تحثه الآن على إلقاء المحاضرات في برلين وفي أماكن أخرى من العالم . وفي أثناء هذه السنوات كان راسل يتنقل بدون ملل وبدون توقف وبحيوية وقوة تتناسب مع رجل في نصف عمره . وقد وقعت له أكثر الأحداث عنفاً وإثارة في أكتوبر عام ١٩٤٨ عندما نجا من حادث تحطم طيارة مائية كان يركبها في النرويج وهو في السادسة والسبعين من عمره .

وأخبره المسؤولون على متن الطائرة أن التدخين ممنوع إلا في الديوان الخلفي . فقال : « إنني سأموت إن لم أستطع التدخين » . وذهب راسل إلى مؤخرة الطائرة المائية ليدخن . وكان يشعر بدوار الجو عندما اقتربت الطائرة من الهبوط . وفك حزام النجاة . وفجأة هبت عصفة ريح . واصطدمت الطائرة بالماء محدثة خضخضة شديدة وانقلبت على جانبها فاندفعت المياه داخلها

وغمرتها . ووجد راسل نفسه جالساً على الأرض تطفو حوله القبعات والمعاطف . وظن في بادىء الأمر أن موجة اقتحمت نافذة الطائرة ، ولم يدرك خطورة الموقف . وردد لنفسه : « حسناً « حسناً » ، وأخذ يبحث عن قبعته فلم يجدها .

وتم نقل الركاب على وجه السرعة خارج الطائرة من بابها الخلفي إلى البحر وكان هناك قارب يقف على بعد حوالي عشرين ياردة ، فسبح راسل حتى وصل إليه . ولكنه اكتشف بعد ذلك أن ١٩ شخصاً في الديوان الأمامي قد غرقوا .

ونقل راسل إلى الفندق حيث أعطى بعض البراندي والقهوة . وذهب إلى الفراش إذ أنه لم يكن لديه أية ملابس . ووصل القنصل البريطاني يحمل قميصاً وجوارب ، وأعاره نائب القنصل حلة . ثم وصل الصحفيون فقال لهم راسل : « لست أعتقد أنني سبحت أكثر من دقيقة . وبالنسبة لشخص داوم على السباحة أكثر من سبعين عاماً ، فإن هذا ليس بالكثير » .

وتحدث أحد الصحفيين من كوبنهاجن بالتليفون يسأل راسل عما كان يفكر فيه وهو بين لجج الماء ، ورد راسل أنه كان يفكر في برودة الماء . وألح الصحفي في سؤاله : « ألم تفكر في « التصوف والمنطق » ، فأجابه راسل بالنفي ، وقطع المكالمة .

وكتب جلبرت مرى إلى راسل معلقاً على براعته في أنه استطاع السباحة في المياه المتجمدة وهو في هذه السن . وأضاف أن راسل يدين بحياته إلى عادات الاعتدال التي كانا ـ هو وراسل ـ يناديان بها في الأيام الخوالي . وعبر مرى عن سروره لرؤية تعاليم راسل تلقى مكافأة لها على هذا النحو . وأجاب راسل أنه يدين بحياته ـ على عكس ذلك ـ للبراندي الذي أعطي له بعد وصوله إلى الشاطىء .

وكتب راسل يصف نواحي نشاطه في هذه السنوات قائلاً : « إنني أملي على السكرتيرين لمدة ستة أيام في الأسبوع . ثم أحاضر كل يوم أحد في مكان ما . ليت ستالين ينزع السلاح حتى أجد لنفسي وقتاً للفراغ » . ولم تكن كل أسفاره تتعلق بالعمل . فقد سافر مثلاً مع زوجته باتريشيا راسل برفقة الفنان جوليان تريفيليان ـ ابن روبرت تريفليان ـ لقضاء أجازة في تورمينا بصقلية . وخرج راسل ذات مساء مع جوليان وماري فيدن ـ التي تزوجها جوليان فيما بعد ـ للتنزه في قارب صيد ، ثم تناول جميعهم العشاء على الشاطىء . وأكلوا سمكاً مشوياً واحتسوا الخمر بعد أن دفنوه في الرمل المبلل حتى يبرد . ثم ابتعد جوليان عنهم قليلاً ، وجلس فوق صخرة وعزف لهم على الناي . وجلس راسل كعادته معتدل القائمة فوق سلة مقلوبة من سلال الصيد للسمك وهو يستمتع بالنغم إلى أقصى حد . وذكر أنه وجد سعادة في هذا المساء كان قد افتقدها منذ سنوات

عديدة . وقال (بقدر كبير من المبالغة) : « إنني مخمور مثل لورد . وبما أنني لورد بالفعل ، فإن كل شيء على ما يرام . أليس كذلك ؟ » .

وفي تلك الفترة انفصل راسل عن زوجته باتريشيا انفصالاً نهائياً . فقد عادت بارتيشيا إلى انجلترا وحدها ـ وتبع ذلك الطلاق .

وكان راسل يشعر بالأسى والألم في كل مرة يطلق فيها زوجته . ولكنه كان يميل ـ بطريقته التي تميز بها ـ إلى إخفاء مشاعره ظاهرياً تحت ستار من المزاح . وقال شخص ذات مرة إنه اندهش عندما سمع أن أحد أبناء راسل عقد خطوبته على إحدى الفتيات ، لأنه كان يعتقد أن راسل لا يؤمن بالزواج . فرد راسل عليه قائلاً : « لا تكن سخيفاً . أنظر إلى عدد المرات التي تزوجت فيها » .

وفي تلك الفترة كانت مكانة راسل البارزة في الحياة البريطانية في صعود مطرد . وفي شتاء عام ١٩٤٨ دعته هيئة الإذاعة البريطانية لإلقاء أول حديث في سلسلتها المعروفة بـ « محاضرات ريث » تناول فيها موضوع « السلطة والفرد » . وأيد راسل في هذه الأحاديث قيام حكومة حزب العمال بتأميم الصناعات الرئيسية . ولكنه بوجه عام اهتم أكثر بالدفاع عن الفرد في وجه السلطة . وقال إنه ينبغي أن تقتصر سلطات الحكومة العالمية على ما هو ضروري للقضاء على الحرب كما قال إنه ينبغي على الحكومات الوطنية أن تترك أكثر قدر ممكن من الصلاحيات إلى السلطات الإقليمية . وأن على السلطات الإقليمية أن توفر أكبر قدر من الحرية للهيئات التابعة لها . وامتدح التجارب التي أجريت في الديموقراطية الصناعية مثل شركة لويس المساهمة .

وفي يونيو ١٩٥٠ منح راسل وسام الاستحقاق ، وهو أسمى وسام يستطيع الملك أن يمنحه .

وعندما توجه راسل إلى قصر باكنجهام ليتسلم الوسام ، كان واضحاً أن الملك جورج السادس لم يكن على سجيته . ولا بد أن ملك انجلترا قد وجد نفسه لأول مرة يمنح شرفاً سامياً لرجل كان في يوم من الأيام من نزلاء سجون جلالته ، كما كانت آراؤه ومسلكه بغيضاً في نظر « الكنيسة الراسخة » التي كان الملك رئيساً لها . وقال الملك جورج السادس : « إنهم يقولون لي إنك عشت حياة مليئة بالمغامرات . ولكنه لن يكون من المفيد أن يحاول كل إنسان أن يحيا مثل هذه الحياة ، أليس كذلك ؟ » وبذل راسل جهداً حتى يضبط نفسه ويمنعها من أن يقول : « ليس هذا صحيحاً ، كما اكتشف ذلك أخوك دوق وندسور » .

وبدلاً من هذا أجاب راسل بقوله : « إن موزعي البريد يطرقون الأبواب في كل مكان . وليس من المجدي أن يفعل كل إنسان ما يفعلون » . وغيَّر جلالته الموضوع .

ويشعر المرء تماماً بشيء من الإشفاق على الملك ، لأنه لم ينقض وقت طويل حتى طلب منه المتصلون به أن يمنح وسام الاستحقاق لـ « ج . أ . مور » وبدا جلياً لمور أن الملك يجد مشقة بالغة في الاستمرار في الحديث معه ، فأراد أن يخلصه من حرجه بأن ذكر له أساتـذة آخـرين في جامعـة كامبردج ظن أن الملك قد يعرفهم مثل راسل وفيتجنشتين . ولكن الملك اضطر إلى الاعتراف بأنه لم يسمع اسم فيتجنشتين قبل ذلك مطلقاً . أما بالنسبة لراسل فقد كان تعليقه الوحيد : « إنـه رجل غريب المنظر » .

الفصل الثالث والعشرون

زيارة لاستراليا

من أكثر رحلات راسل تشويقاً وإثارة للاهتمام تلك الرحلة التي قام بها لاستراليا عام ١٩٥٠ ، إذ أنها تبين تدفق الحيوية التي تتسم بها اهتماماته . فعلى عكس كانط الذي قضى حياته كلها في كونجسبرج ، كان راسل فيلسوفاً على استعداد دائم للقيام برحلات جديدة واكتساب تجارب جديدة ، فكان بذلك رجلاً يدين بالمذهب التجريبي كما ينبغي لمثل هذا الرجل أن يكون . وكان راسل يتوق دوماً إلى أية مغامرة نحو المجهول . وقد ذكر مرة : « أليس من الأمور الرائعة أن يكتشف المرء أشياء جديدة عليه ؟» .

أنشأ رجل أعمال غني في ملبورن يدعى إدوارد دياسون صندوق ائتمان يمكن عن طريقه دعوة الشخصيات البارزة في الدول التي تقع فيما وراء البحار إلى إلقاء المحاضرات في استراليا . وقبل راسل تلك الدعوة للقيام بجولة تتطلب منه الجهد المضني في بلاد جديدة باستعداد وشوق على الرغم من أنه في ذلك الوقت كان قد أتم الثامنة والسبعين . وبما أنه لم يحدث من قبل أن زارت استراليا شخصيته من نوع راسل ، فقد اقتضى وصوله إليها قدراً من الاستعدادات القلقة . ونظر الآن بعض الاضطرابات التي نشبت نتيجة المظاهرات التي قام بها الشيوعيون قد سبقت مجيئه بفترة وجيزة ، فقد تولى اثنان من رجال الشرطة حمايته هما السارجنت (الصول) لانجمان والشرطي السري لايت بوتوم . وذهب أحد كبار وزارة الخارجية ، وهو ريتشارد جرينيش إلى سيدني لاستقباله . وانتدب هذا الرجل فيما بعد لمرافقته في كل رحلاته . أما الترتيبات الفعلية لرحلته فقد اضطلع بها المعهد الاسترالي للشؤون الدولية . وقد أعلن الموظف المختص عن قدوم راسل باهتمام شديد ، كما تدلنا على ذلك التعليمات التالية التي أصدرها :

(رداً على بعض الأسئلة التي وجهتها الفروع المختلفة ، نفيدكم بأننا قد تلقينا المعلومات الإضافية التالية عما يحب ب . راسل وما لا يحب :

« إنه يفضل ألا يكون ضيفاً على محافظي الأقاليم» .

« وهو لا يفضل أن يقيم له العمد استقبالات أو ما يشابه ذلك»

« ويرغب أن يتوفر له وجود حمام ، وأعتقد أنه قد تم توفيره بالفعل» .

وكان من الواضح أن الصحافة الاسترالية تأمل أن تغرى راسل كي يدلى بتصريحات فاضحة . وتجمع صحفيو سدني يشغف شديد لعقد مؤتمر صحفي عند وصوله على طائرة شركة كانتاس في شهريونيو . وفي ذلك المؤتمر أظهر راسل براعة شديدة عندما حاولوا أن يستدرجوه حتى يخوض في موضوع الحب المنطلق من جميع القيود . فقد وجهوا إليه السؤال الآتي : « إن لدينا كثيراً من الشابات غير المتزوجات ، وقد ترامى إلى أسماعنا جانب من آرائك ، فهل تسمح بأن تقترح شيئاً عما يمكنهن عمله في ظل بعض التحيزات الاجتماعية السائدة حتى يعشن حياة أ ثر اكتمالاً ؟» .

وفكر راسل لحظة ثم أجاب في مرح : «أعتقد أنه لا بد من الدعوة إلى سياسة الهجرة الجماعية بينهن» .

وفضلاً عن حماية نفسه من الصحفيين فقد أظهر راسل - بسبب تمرسه الطويل دون شك - أن لديه إجابات جاهزة لمعظم المضايقات التي تتعرض لها الشخصيات الذائعة الصيت . وكان رده على الذين يجرون وراء توقيعاته أنه لا يحب أن يوقع باسمه على قصاصة ورق ، ولكنه لا يمانع في التوقيع على واحد من كتبه . وعندما كانت السيدات المتقدمات في السن اللائي يفرطن في الاهتمام بملابسهن يتدافعن حوله أثناء المآدب والحفلات ، ويبدين إعجابهن الشديد بكل ما كتب ، كان لديه دائماً رد واحد . فقد كان يسألهن إذا كان كتابه « مقدمة الفلسفة الرياضية» قد أعجبهن . فكن أحياناً يرمشن بعيونهن ويقلن « نعم» . وعندئذ يعلق راسل تعليقاً عارضاً قائلاً : « لقد كتبته عندما كنت في السجن » ثم يراقب ما يرتسم على وجوههن.

وقد أعانته التجربة التي مر بها في أمريكا على مشكلة تجنب الأذى الذي قد تتعرض له يده بسبب كل أولئك الذين يرغبون في السلام عليه باليد . ولذلك فعندما اقترح عليه البعض أن أحسن أسلوب تتبعه الشخصيات اللامعة هو أن تترك أيديها تتدلى في رخاوة وطراوة لكل من يريد السلام ، رد راسل بسرعة رداً تتميز به شخصيته أنه على العكس من ذلك كان يسبقهم بالسلام « ويعصر أيديهم حتى يصرخوا» .

ومن سيدني طار راسل الى كونيز لاند وكانبرا وملبورن وأيدليد وبرث . ومكث في استراليا مدة تزيدة عن شهرين. وفي كل مكان ذهب إليه لم يكن فقط يلقى المحاضرات العامة والأحاديث الأذاعية ولكنه كان يريد أيضاً أن يرى ويتعلم كل ما يمكنه أن يراه ويتعلمه . وقد علق على هذه

الزيارة بقوله : « يخجلني أن أقول إن هذه هي زيارتي الأولى لاستراليا . ولما كنت قد أضعت ثمانية وسبعين عاماً من حياتي في أماكن أخرى من العالم ، فإنني سعيد حقاً إذ أتيحت لي الفرصة كي أصحح خطأي وأعوض ما فاتني» .

وذهب راسل إلى جرين ايلاند في كونيزلاند . ومن هناك أرسل بطاقات الى أحفاده كتب عليه « كان جدكم هنا اليوم» . وفي كانبرا عقد اجتماعاً ناجحاً للغاية مع وليم ماك كيل الذي كان يعمل سابقاً في صناعة سخانات المياه ، وكان بطلاً في الملاكمة ، والذي أصبح محافظاً عاماً في استراليا بعد أن كان قد وصل إلى منصب رئيس الوزراء العمالي في نيوساوث ويلز . وكان راسل قد زاره ليتناول معه الشاي في الصباح . ولكنه بقي معه فترة أطول بكثير مما كان محدداً في برنامجه ، وقد استغرق في مشاهدة نموذج عرض عليه ماك كيل لمشروع نهر سنووي ، وهو مشروع حفر أنفاق داخل سلسلة من الجبال وذلك لتحويل مجرى النهر إلى داخل الأراضي بدلاً من تدفقه إلى البحر ليصب فيه رأساً .

ويبدو ، في واقع الأمر ، أن راسل كان يتمتع بمقدرة فائقة على التفاهم مع معظم الناس الذين قابلهم . ولك حدثاً مؤسفاً بعض الشيء وقع له عندما طلب اليه ناد موقر في ملبورن أن ينضم إليه كعضو شرف موجهاً إليه الدعوة باسم « السيد المحترم ايريل راسل» ولكن راسل اكتفى بالتعليق على ما ينطوي عليه تصرف النادي من قلة ذوق قائلاً : « من الواضح أنهم يعتقدون أنني واحد آخر من أولئك الأمريكان» . وعندما قال أحد الصحفيين : « إن راسل يشبه دباً أستراليا من نوع الكوالا ، على درجة من الثقافة والتعقيد ، تذكرلتوه قصة مضحكة» ، لم يتوان راسل في الذهاب إلى حديقة الحيوان في ملبورن ليعرف شكل دب الكوالا الاسترالي ، وعاد منها ليقول : إن هذه الدببه مخلوقات تسترعي الانتباه ، وأنه شعر أن تشبيهه بها ينطوي على استرضاء زائد لمشاعره .

ونظراً لتصميم راسل على أن يرى كل شيء ، فقد عرف استراليا عن قرب أكثر مما عرفها معظم الذين زاروها . وطار من أدليد حتى أليس سبرنجز عبر السهول والتلال الرملية الحمراء . واشترى بعض الرسوم من أعمال فناني قبيلة أرونتا وهم من سكان أستراليا الأصليين . وذهب إلى مركز الطبيب الطائر حيث استمع الى رسائل بالراديو مذاعة من محطات استرالية تقع في المناطق النائية القليلة السكان تستفسر عن تشخيص أو علاج عن طريق تليفون لاسلكي ، أو تطلب زيارة الطبيب واستمع وهو مفتون بهذه الفكرة . وطلب إليه أن يتحدث عبر الأثير ولكنه رفض بتواضع قائلاً : « إنهم لا يريدون أن يستمعوا إلى ولكني أرجوا أن تقولوا لهم إنني قد استعمت إلى ما أذيع باهتمام وإعجاب بالغين» .

وبالرغم من شدة ضغط الجميع عليه ضغطاً لا ينتهي طلباً لمقابلته ، فإن راسل كان دائماً في فترة وجوده في استراليا على استعداد لمقابلة أشخاص جدد . وفي أحد الأيام تلقى طرداً من الكتب وصل إليه في الفندق الذي ينزل به في أديليد من رجل عجوز من الاشتراكيين الفابيين اسمه أرثر جاسك كان قد نزح إلى استراليا في عام ١٨٩٨ ، وكتب روايات يهجو فيها بعض المواطنين في أديليد ممن يشعرون بأهميتهم . وبلغ إعجاب راسل بهذه الكتب حداً جعله يصر على مقابلة مؤلفها جاسك . ونشأت بينهما على الفور صداقة قوية تمس شغاف القلب . وقد ابتهج راسل بأن يعود بذكرياته إلى النظرة الراديكالية في القرن التاسع عشر وإلى الحملات الموجهة ضد الكنيسة في وقت كانت الكنيسة فيه تتمتع بالقوة والبأس . ووصف راسل جاسك بأنه أكثر من قابل في استراليا تأثيراً في النفس ، وأعطى هذا الرجل أحلى أيام عمره . وعندما حان وقت رحيل راسل عن أديليد ، ، كتب إليه جاسك يقول :

« سيدي العزيز . لقد دخلت حياتي كومضة برق. والآن وقد رحلت ، فإني أجد السماء مظلمة خاوية» .

وكذلك وجد راسل وقتاً لمساعدة الشباب . ففي ملبورن تأخر صحفي شاب ينقصه الخبرة عن موعده المؤتمر الذي عقده راسل وفاته ما دار فيه . وأحس راسل بمحنته فأعطاه حديثاً خاصاً على انفراد . وفي مدينة أخرى علم راسل أن سكرتيراً شاباً لمنظمة تعنى بمحاضراته قد علم لتوه أن زوجته مريضة بالسرطان . فما كان من راسل إلاّ أنه بحث عنه وتحدث إليه على انفراد ، وتمكن على نحو ما من أن يدخل الشجاعة إلى نفسه .

وكان ماكماهون بول الاستاذ بجامعة ملبورن من بين الذين استضافوا راسل . وفي أحد الأيام ترك ماكماهون راسل بمفرده قبل الغداء ظناً منه أنه ربما يريد أن يستريح . ولكنه عندما رأى أن راسل على استعداد واضح للحديث ، طلب من ابنته الصغيرة جيني - التي كانت في الثالثة عشرة حينئذ - أن تذهب لتتحدث إليه . وذهبت جيني إليه وهي تكاد لا تخفي شعوراً بالرهبة نحوه. وبعد قليل عاد ماكماهون ليجد جيني تنصت في بهجة واستمتاع، وقد زال عنها التوتر تماماً، إلى سلسلة أخاذة من الحكايات اللطيفة بدأها بحكاية رواها عن ذلك اليوم الذي جلس فيه يشرب نبيذ البورت مع مستر جلادستون .

وهناك شخص آخر لديه من الأسباب ما يجعله يتذكر زيارة راسل هو ريتشارد جرينش ، مرافقه المنتدب من إدارة الشؤون الخارجية فقد عرف كل منهما الآخر معرفة وثيقة . وابتكرا كلمة رمزية تشبه الهمهمة هي «همف» كانا يستخدمانها في كل مناسبة أو حفل استقبال يتسم بالأبهة الزائفة . وفي المساء كان راسل يدخل السرور على مرافقه جرينش بأن يلقي عليه بعض الأشعار

القصيرة التي تخلو من الاحتشام . وكان القلق يظهر على راسل حين يلاحظ أن جرينيش يكتب بعضها على ظهر علب السجائر .

وبطبيعة الحال ، انتهزت الجامعات فرصة وجود راسل لتقيم ندوات يستطيع أن يناقش فيها المسائل الفلسفية مع الأساتذة وعدد قليل من الطلبة المختارين ، غير أن هذه الندوات لم تكن دائماً ناجحة . فقد ذهب أستاذ مثلاً إلى إحدى هذه الندوات دون أن يحلق ذقنه . وسرعان ما بدا واضحاً أن راسل بدأ يضجر بإصرار هذا الاستاذ على أن يحتكر الحديث معظم الوقت ، وفشله الواضح في فهم ما كان راسل يقوله رداً على كلامه ، الأمر الذي جعل راسل يتمتم في غضب : « إن هذا الرجل لم يصل حتى إلى البدء في فهمي - وهو بحاجة إلى أن يغتسل على أية حال » وكذلك عقدت ندوة فاشلة في جامعة غير نظامية . وكان تعليق راسل بعد ذلك هو أن قال : « لا عجب أنها جامعة غير نظامية» .

ومن العدل أن نذكر أن النقد لم يكن موجهاً من جانب راسل على طول الخط . فقد سمع البعض مدرساً في إحدى الجامعات الاسترالية يقول في نقده لكتابه « تاريخ الفلسفة الغربية» إن راسل بصراحة يفتقر إل المعرفة الكافية . فعندما يحتاج الأمر إلى الدراسة الأصيلة المبتكرة نجده في حالة ضياع تام» .

ومن الجائز أن يكون راسل قد منى بخيبة أمل بعض الشيء لأنه فشل في أن يثير من الجدل أكثر مما أثار . ومما لا شك فيه أن من أبعث الأمور على سروره ورضاه تلك البراعة النادرة التي استطاع بها أن يحصل على اعتذار علني من كبير أساقفة الروم الكاثوليك . فقد شن مانيكس كبير أساقفة ملبورن المعروف هجوماً على زيارة راسل قائلاً : «كان من الواجب عدم السماح له بأن يأتي الى استراليا ويشرح «نظرياته الملحدة» ، وقد سبق لأمريكا أن عرفت ذلك جيداً» .

وقد أخذ الأسقف تماماً عندما تلقى برقية لاذعة من راسل أعدها هو وجرينيش تقول : «إنني أطلب منك أن تقدم في الحال اعتذاراً علنياً عما ذكرته في غير صدق من أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية قد رفضت السماح لي بدخول أراضيها» . ورضخ مانيكس على الفور موضحاً أنه كان يتحدث بحسن نية ولكنه اعتمد على «معلومات غير موثوق بها» .

وخاب أمل الصحفيين الاستراليين الذين كانوا يتطلعون إلى أن يتبرع راسل بإصدار التعليقات الاستفزازية . غير أن معاملة السكان الأصليين كانت من الأمور القليلة التي وجد فيها راسل مناسبة للنقد . فقد صدمه أن يكتشف من حديثه مع بعضهم أن السكان الأصليين يقبلون كمتطوعين في القوات الاسترالية في كوريا ، في حين أنهم يمنعون من دخول الحانات

بسبب لونهم . وقال : « يبدو أن كلاً من البوليس والشعور العام غير مستعد لأن يعطي السكان الأصليين أبسط حقوقهم العادلة . فقد انحل إلى حد كبير تنظيمهم القبائلي، وبعد عنهم أسيادهم القدامى وترك الكثير منهم بلا مأوى أو عون ، وذلك دون ما ذنب جنوه» .

وكانت الحرب الكورية قد نشبت بعد أن بدأ راسل جولته بقليل . وعلى هذه الخلفية المظلمة تكونت انطباعات راسل الرئيسية عن استراليا . وخشي راسل لفترة أن تشعل كوريا ألسنة حرب عالمية ، لدرجة أنه أراد أن يعود مباشرة إلى بلاده ليكون بجوار أحفاده . وأرسل برقية تتضمن تعليمات باستئجار منزل لهم بعيداً عن لندن . وقيل إنه ذكر في حديث له : « أعتقد أن روسيا سوف تدخل الحرب وأن الحرب العالمية الثالثة سوف تمتد عشرة أعوام . ومن المحتمل أن أحداً من سكان لندن لن يستطيع أن يبقى على قيد الحياة ، إذا دارت الحرب بالصورة التي أتصورها» . ولكنه أضاف : « ولكني أعتقد أنه سيبقى أناس على قيد الحياة في تيرا ديل فيجو وفي منطقة أليس سبرنجز بعد الحرب القادمة» .

« وفيما يختص باستراليا ، فإنه حتى لو أمكننا أن نتجنب الخطر المباشر للحرب ، فإن خطر غزو أسيوي لها سيظل قائماً لأجل طويل» . وذكر راسل الاستراليين بأن عدد السكان في كل من الصين والهند يبلغ ضعف عدد سكان أستراليا مائة مرة . «وأنه قد انقضى الوقت الذي كانت استراليا فيه تستطيع أن تقبل أن تضم صحراء» .

وقال راسل أيضاً إنه يجب على الاستراليين أن ينفقوا على التنمية مائة ضعف ما ينفقونه بالفعل» . يجب أن تصنعوا المطر ، وأن تحصلوا على الماء ، وبطريقة ما ، يجب عليكم أن تغمروا الأراضي الخالية بالناس» . وتنبأ بأن العلماء يمكنهم - إذا وجدوا تشجيعاً كافياً من الحكومة - أن يجدوا طريقة لزيادة المطر .

« ويستطيع سكان استراليا ، إذا توفرت لديهم سياسة تنمية قوية ، أن يتزايدوا من ثمانية ملايين إلى خمسين مليوناً خلال ثلاثين عاماً . وربما إلى مائة مليون في نهاية هذا القرن» .

ومن الواضح أن التنمية على نطاق واسع تحتاج إلى عمل حكومي . وكما حدث في زياراته لألمانيا عام ١٨٩٥ ، ولروسيا والصين وأمريكا ، أبدى راسل في استراليا موهبته الغريبة في وضع يده على الأمور الجوهرية . وقال إن المشكلة تتلخص في أن الأشياء التي تحتاج استراليا إلى عملها احتياجاً كبيراً يجب أن تتم في الريف . ولكن السياسيين كانوا يولون المدن اهتمامهم نظراً لوجود معظم الناخبين فيها . وأشار راسل إلى الصراع الموجود في استراليا بين المعتقدات ذات الصبغة الفردية والضرورات الجماعية . وهذا هو المفتاح لفهم السياسة الاسترالية .

وأوضح راسل التعارض البين بين استراليا وما كانت عليه امريكا منذ مائة عام مضت . ففي امريكا كان من الممكن أن يكون للإرادة الفردية والعزم الشخصي أثر منذ بادىء الأمر ، نظراً لتوافر الأخشاب والمياه . وكان المرء يستطيع أن يبني كوخاً من الخشب خاصاً به ، وأن يزرع المحاصيل بمجرد تطهير الأرض . أما في المناطق النائية والقليلة السكان في استراليا ، فإن توفير المياه يحتاج إلى إنفاق مبالغ طائلة من المال ، كما أن الخشب المطلوب للبناء قد يحتاج إلى أن يجلب من مسافات بعيدة .

وقبل أن يذهب راسل لاستراليا ، أبدى ملاحظة مضمونها أنه كان دائماً يتصور الاستراليين على « أنهم أشبه بالأمريكان بل إنهم أكثر أمريكية من الأمريكان أنفسهم» ولكنه قال بعد زيارته لاستراليا : إن ما لفت نظره هو الاختلاف بينهم . فالاستراليون أسعد حالاً من الأمريكان وليس لديهم « نفس القلق الذي يدفعهم إلى عمل شيء آخر غير ما يعملونه أو التواجد في مكان آخر غير المكان الذي هم فيه » . وعندما وجد الاستراليون أن ظروفهم طيبة استقروا واستمتعوا بها . ولكن الأمريكيين في انشغالهم المضني بالبحث عن شيء أفضل لم تعد لديهم فسحة من الوقت للاستمتاع بما حصلوا عليه .

وقال راسل : « لا شك أن القلق الأمريكي مرتبط بالطاقة الامريكية والمشروعات الأمريكية وربما لو كانت استراليا يسكنها امريكيون لأمكن تنمية مواردها بسرعة أكبر . ولكن إذا حدث هذا ، فإنهم سيدفعون الثمن وهو انتشار الاحساس العام بعدم الرضا بينهم» .

وأنهى راسل جولته في استراليا وكله تقدير وثناء عليها . ورغم أن الضيف المجامل لا يقول كل الصدق عندما يتحدث بما يسر مضيفه ويرضيه ، فإن ما قاله راسل يستحق الذكر على الأقل من حيث أنه يبين ما اتصفت به نظرته من شباب دائم ، ورفضه أن ينظر إلى الوراء . فقد صرح راسل قائلاً : « لو كانت لي فرصة اختيار مولدي من جديد ، لفضلت أن أولد في استراليا على أن أولد في أوروبا الغربية . إن عظمة استراليا لا تزال أمامها في المستقبل . أما عظمة أوروبا الغربية فتتمثل في ماضيها . والعيش في الماضي قاتل مميت يصيب بالحزن روح الانسان ، أما العيش برؤية للمستقبل فيولد الأمل والقوة والسعادة .

« إن الثقافة في انجلترا وفرنسا قد أصيبت بنوع من الوهن بسبب النظرية التي تنادي بأن كل شيء قد تم عمله بالفعل . وأن الكتب التي يمكن أن يأمل المرء في كتابتها ليست في جودتها على مستوى الكتب التي صدرت في سالف الأيام ، وأن الموسيقى التي يأمل في كتابتها لن تضارع موسيقى بيتهوفن ، كما أن اللوحات التي يأمل في رسمها لن تكون مثل روائع الماضي .

وفوق كل هذا ، فإن المرء يشعر بين ضلوعه بذلك الوهن السياسي الذي يدب في أوصاله من جراء بعده عن مركز القوة النامية . ويمكننا أن نتطلع إلى ميلاد قوة جديدة ونهضة جديدة إذا استطعنا أن ننقل ثقافة أوروبا القديمة إلى بيئة نامية الاقتصاد» .

ولكنه يجب ، كما يقول راسل بأسلوبه الذي تميز به ، أن نخفف من حدة القوة والنشاط عن طريق التسامح . وأوضح راسل للاستراليين الذين تنقصهم هذه الصفة أحياناً أن « الرجال الذين يقومون بأعمال الخلق الفني والثقافي نادراً ما يتفق سلوكهم مع ما يعتبره المجتمع سليماً بالنسبة للمواطن المسؤول ، وأن مزاجهم النفسي ينزع إلى شيء من الفوضوية عادة . وغالباً ما يكونون من النوع الذي لا يرضى عنه جيرانهم . وإذا شاءت أية دولة أن يكون من بينها أفراد عظماء ، فلا بد لها أن تضيف إلى الحريات الأربع حرية خامسة ـ ألا وهي حرية المرء أن يكون شاذاً» .

ولذلك يقول راسل إنه لو كان شاباً استرالياً يفتقر إلى القوة البدنية التي تجعل منه رائداً أو القدرة العلمية التي تجعل منه باحثاً ، لوهب نفسه لبث روح التسامح ، ولفعل ذلك عن طريق تأليف الرواية في أغلب الظن .

وبهذه النغمة المودعة ، عاد راسل بالطائرة إلى انجلترا ، وهو يعلن أن خيبة أمله الوحيدة في استراليا أن برودة الجو حالت بينه وبين السباحة . وعندما وصل إلى انجلترا بعد رحلة جوية مجهدة طولها اثنا عشر ألف ميل، تزيد عن كل رحلاته السابقة ، لم يستقر فيها سوى أسابيع قليلة سافر بعدها مرة أخرى ليقوم بجولة في أمريكا لإلقاء المحاضرات ، لأن المرء على حد قوله ، يجب أن يشغل نفسه بعمل شيء ما .

وبعد مضي وقت قصير ، تلقى راسل تكريماً عظيماً آخر له ، فقد منح جائزة نوبل . وفي تلك المناسبة وصلته برقية تهنئة من جرينيش مرافقه في أستراليا تتضمن كلمة « همف» .

الفصل الرابع والعشرون

فلسفة لم تكتمل

أبدى فيتجنشتين في لحظة من لحظات سرعة الإدراك وقوة البصيرة التي كانت تهبط عليه فجأة ملاحظة مؤداها أن ما كان راسل يعاني منه في السنوات الأخيرة هو « فقدان المشاكل » . وكان هذا التعبير مثيراً للانتباه . كما أنه ـ إذا كان رأيي في الفلسفة صحيحاً ـ من أهم صور النقد الأساسية التي يمكن أن توجه إلى أي فيلسوف . وكان فيتجنشتين يعني بما قاله أن راسل بدأ يجد الفلسفة أكثر سهولة واستقامة مما ينبغي كما أن عقله أصبح أكثر دقة وتحديداً مما ينبغي . فلم تعد الحيرة الغامضة تستبد به بسبب الشكوك غير المتوقعة والأسئلة الغريبة التي تعن له .

وأظن أن هذا النقد صادق إلى حد ما ، فإن ثلاثين عاماً من التوتر والضغط والاضطراب في عالم يزداد جنوناً كل يوم ، ثلاثين عاماً من النشاط السياسي والمتاعب الشخصية ، والارتباك المالي المتكرر ، قد جففت بعض حيوية عقل راسل ، وخاصة بعد الطريقة التي استهلك بها كل الاحتياطي من قوته في كتابة مؤلفه « مبادىء الرياضيات » . وفي خلال تلك السنوات الثلاثين ، لم تسنح له فرص كثيرة للاستجمام الفكري أو استعادة قوته الذهنية دون أن يجول بخلده سوى القليل من ذلك الإشراق الذهني وومضات الشك الوضاءة التي جعلته يتشكك في صحة بديهيات إقليدس أو فيما إذا كانت كل كلمة أو شبه جملة في عبارة تعني شيئاً . واكتفى راسل في معظم الوقت بالانشغال بمسائل سبق لها أن خطرت له . وكان يبرز ذلك تبريراً معقولاً بأنه لم يكن قد حل تلك المشاكل بعد ، كما أن أحداً سواه لم يحلها كذلك .

ونحن نجد أكمل صورة عرض فيها راسل ما وصل إليه من استنتاجات في كتابة « المعرفة الإنسانية : مجالها وحدودها » الذي نشره عام ١٩٤٨ عندما كان في السادسة والسبعين . والرأي عندي أن هذا الكتاب هو واحد من أهم كتبه وأنه علامة على الطريق في تاريخ الفلسفة ، غير أنني أعترف بأني لا أكاد أجد شخصاً واحداً يوافقني في هذا الرأي . وأظن أن السبب في أن الكتاب لم يلق التقدير الخليق به يرجع أساساً إلى خطأ راسل نفسه . وذلك أولاً لأن هذا الكتاب

كان أطول مما ينبغي ، أجزاؤه غير مترابطة ، مليء بتكرار ما سبق أن قاله في كتابيه « تحليل المادة » و « بحث في المعنى والصدق » ، نظراً لأنه أراد بهذا الكتاب أن يكون تلخيصاً نهائياً لآرائه . كما أن راسل كتب ـ لسبب مجهول لا يعلمه أحد إلا راسل نفسه ـ يقول في تمهيد الكتاب أنه ليس موجهاً في المقام الأول إلى الفلاسفة المحترفين ، ولكنه موجه إلى القارىء العادي الذي يهتم بالفلسفة . غير أن الكتاب ـ في واقع الأمر ـ يتضمن حججاً فنية طويلة ومجهدة لا تقل في صعوبتها عن الحجج التي يتضمنها كتاب « بحث في المعنى والصدق » بل إنها تزداد صعوبة في بعض الفصول .

ومن ثم ، فمن السهل أن نفهم رد فعل الفيلسوف المحترف بالنسبة لهذا الكتاب . فهو يشرع في قراءته وهو يقلل من شأنه على أنه شيء كتب بقصد تعليم الهواة فقط ، ثم يشق طريقه بجهد في الأجزاء الأربعة الأولى وهو يدرك أنه قد طالع الكثير منها في أعمال راسل الأخرى ، ليصل بعد ذلك إلى الجزء الخامس من الكتاب فيلاحظ في يأس أنه مليء برموز رياضية مبعثرة ، وأنه يحتوي على مناقشة فنية لمشكلة من أكثر المشاكل تعقيداً وإثارة للحيرة ، والتي لم تجد سبيلاً إلى الحل بعد ، وهي نظرية الاحتمالات . وبهذا يشعر الفيلسوف المحترف أن الكتاب قد عرضه في نهاية الأمر لمهانة وإذلال لم يكن يتوقعهما . فقد سبق أن قيل له إن « المعرفة الإنسانية » كتاب بسيط كتب ليفهمه القراء العاديون ، وإذ به يكتشف أنه هو نفسه عاجز عن فهمه . وهو إما أن يتركه عند هذا الحد وقد استبد به الغضب ، أو أن يصل في حالة من السخط الشديد إلى الجزء السادس والأخير الذي يتناول « مصادرات الاستدلال العلمي » . ويتضمن هذا الجزء من الكتاب معظم الأفكار المبتكرة الأصيلة (وإني أتحفظ فأقول « معظم » فقد ضمن راسل بعض مناقشاته الفنية الهامة في فقرات سابقة) .

وتساءل راسل عام ١٩١٢ في بداية كتابه «مشاكل الفلسفة»: «هل توجد في العالم أية معرفة يقينية بالدرجة التي لا تجعل أي رجل معقول يشك في صحتها؟» أما في عام ١٩٤٨ ، فإنه خلص في الصفحة الأخيرة من كتابه «المعرفة الإنسانية» إلى نتيجة مفادها أن «كل معرفة إنسانية هي مسألة غير مؤكدة أو غير مضبوطة ، ومتحيزة. ولست أجد أن لهذا المبدأ أية حدود».

لماذا وصل راسل إلى هذه النتيجة المثبطة للهمم إلى حد ما ؟

أولاً ، أدرك راسل قلة ما يمكن الحصول عليه من معرفة عن طريق الاستنباط المنطقي . وقد سبق لي أن ذكرت هذا بوصفه إحدى إضافاته الهامة في التفكير الفلسفي . ولكن هذا الرأي كان رأياً توصل إليه تدريجياً بمساعدة فتجنشتين . فقد كان لا يزال عندما كتب « مشاكل الفلسفة » يعتقد أنه يمكن للاستنباط أن يعطينا معرفة جديدة . ولكنه كتب في « المعرفة الإنسانية »

يقول : « لقد تبين أن الاستنباط أقل في قوته بكثير مما كان مفروضاً فيما مضى . وهو لا يعطينا معرفة جديدة فيما عدا ما يتعلق بصيغ جديدة للألفاظ تذكر حقائق معروفة على نحو ما من قبل » .

ولذلك ، فقد أصبح إيجاد مبرر لقبول الاستقراء كمصدر للمعرفة أمراً أكثر أهمية من ذي قبل . (ويمكن أن نصف الاستقراء بوجه عام على أنه يتلخص في الكيفية التي يمكن أن نستدل بها أن الشمس سوف تشرق غداً من حقيقة أن الشمس قد طلعت علينا في كل يوم من أيام حياتنا) . وقد ظن بعض الفلاسفة أنهم ربما وجدوا إجابة عن هذا في « نظرية الاحتمالات الرياضية » . وكان الغرض من الجزء الخامس من « المعرفة الإنسانية » هو التخلص من هذه الفكرة عن طريق مناقشة نظريات متنوعة في هذا الموضوع .

وبالرغم من أن راسل لم يكتب سوى القليل عن الاستقراء ، فقد قال إنها « فضيحة » ألا يجد أحد إجابة عن الصعوبات التي كان هيوم أول من أشار إليها . وقد رأى راسل لمدة طويلة أنه لا بد من إيجاد بعض المبررات للاستقراء أفضل من تلك المبررات الموجودة الواضحة الزيف . وفي عام ١٩٢٧ كتب يقول :

« عندما بدأ الناس في إستخدام العقل ، حاولوا أن يبرروا ما قد وصلوا إليه من إستدلالات دون تفكير في سالف الأيام . وتمخضت تلك النزعة عن الكثير من الفلسفة الرديئة والعلوم الرديئة أيضاً . وأن « المبادىء العظيمة » مثل « النسق الواحد للطبيعة »* ، و « قانون السببية الشاملة »** وغير ذلك كلها محاولات لدعم اعتقادنا بأن ما حدث غالباً سوف يحدث مرة ثانية . وهو اعتقاد لا ينبني على أساس أفضل من ذلك الذي ينبنى عليه اعتقاد الحصان أن راكبه سوف يتجه به في نفس الاتجاه الذي يتجهه عادة . وليس من السهل أبداً أن نعرف ما يمكن أن يحل محل تلك المبادىء الزائفة في مجال ممارسة العلوم . ولكن ربما تعطينا نظرية النسبية لمحة عما يمكن أن نتوقعه » .

وقد كان كتاب « المعرفة الإنسانية » ، الذي صدر عام ١٩٤٨ ، اعترافاً رسمياً من راسل بأنه لم يستطع أن يجد ـ لا في نظرية النسبية ولا في أي شيء آخر ـ ما يحل محل تلك « المبادىء الزائفة » بالطريقة التي كان يأمل فيها . وكل ما استطاع أن يفعله هو أن يبني فلسفته على إيمان من نوع « إيمان الحيوانات الغريزي*** » أو حاسة الحصان التي سبق له أن قلل من شأنها .

وبالإضافة إلى ذلك ، كان الاستقراء مجرد جزء من مشكلة أخرى . وأطلقت كلمة

* uniformity of nature

** law of universal causation

*** animal faith

« الاستقراء » على مشكلة : كيف يمكن أن نستدل أن الشمس سوف تطلع غداً . والمشكلة الأخرى هي : كيف يمكن أن نستدل أن الشمس موجودة بالفعل عن طريق مدركات معينة نسميها « رؤية الشمس » . وبطبيعة الحال ، فإنه من الضروري إيجاد حل لكلتا المشكلتين ، إذا أردنا أن نكون على يقين عند قبول صدق العلم .

وكان راسل يأمل أن يواجه المشكلة الثانية باعتبار الشمس « بناء منطقياً » يقوم على أساس معطيات الحواس . ولكنه نبذ تلك الفكرة واعترف أنه من المستحيل تماماً الوصول إلى عالم العلوم عن طريق الأجزاء الصغيرة من المعرفة المستمدة من الخبرة ، إلا إذا كان في استطاعتنا أن نضم بعضها إلى بعض بواسطة مبادىء معروفة بصورة مستقلة عن هذه الخبرة .

وقد تتبعت بالتفصيل في كتابي الأكثر تخصصاً عن فلسفة راسل الخطوات التي وصل بها راسل على مر السنين إلى هذه النتيجة التي تقول إن مذهب المشاهدة والتجربة ليس كافياً . وفي كتابه « المعرفة الإنسانية » بدأ يدرس دراسة دقيقة ما نحتاج إليه بالإضافة إلى ذلك . ووجد الإجابة عما يريد في خمس مصادرات معقدة إلى حد ما . وبما أنني لا أريد أن أصدم القارىء غير المتخصص مثلما فعل راسل ، فإني سأمتنع عن عرضها عرضاً كاملاً . وأولى هذه المصادرات هي الدوام الزائف* الذي يصلح ما يلي أن يكون مثلاً عليه : « إذا أخذنا حدثاً** مثل الحدث (ا) فإنه كثيراً جداً ما نجد حدثاً شبيهاً للغاية به في مكان مجاور له في أي وقت متقارب . وبمعنى آخر ، وكي نعبر عن هذا المعنى بلغة يفهمها عامة الناس نقول : « إذا نظرنا إلى الشمس في لحظة ما ثم نظرنا إليها مرة أخرى بعد دقيقة واحدة ، فمن المحتمل جداً أن نرى حدثاً مشابهاً للغاية ، وهو أننا سنجد الشمس لا تزال في السماء . ويبدو لنا غالباً أن الأحداث تسير مع بعضها البعض على هذا النهج . والمقصود بهذه المصادرة أن تحل محل الفكرة القديمة عن المادة***. وقد كانت هناك حاجة إلى شيء ما يحل محلها ولكن لم يكن في استطاعة راسل أن يستبعدها تماماً ببساطة باستخدام نصل أوكام .

وتتضمن المصادرات أيضاً إعادة تثبيت فكرة السبب التي ظن راسل في وقت ما أنه يمكن ردها إلى مقدم**** لا يتغير (أو يكاد لا يتغير) .

وفي فلسفته اللاحقة ظل راسل واحدياً محايداً ، بمعنى أنه يؤكد أن كل مكونات العالم من نوع واحد حسبما نعرف . أما فيما عدا ذلك ، فإننا لا نستطيع أن نقول عما إذا كانت « الأحداث » الفيزيقية هي نفسها الأفكار والمشاعر أو تختلف عنها . فكل ما نعرفه عنها يأتي عن

* quasi — permanence
** event
*** substance
**** antecedence

طريق قوانين السببية التي تتيح لنا الاستدلال على التركيب* .

لماذا نقبل المصادرات التي يتضمنها كتاب « المعرفة الإنسانية » ؟ يعطينا راسل في واقع الأمر ثلاثة أسباب :

أولاً : أننا إذا رفضناها فسينتهي بنا هذا إلى الأنانية أي إنكار وجود كل شيء باستثناء الذات أو بمعنى أدق « الأحداث » التي نطلق عليها اسم الذات . وليس هناك في واقع الأمر من يصدق هذا . وفي الحقيقة ، فإننا نستطيع أن نؤمن بالتجربة التي نمر بها في هذه اللحظة وحسب . ويعطينا هذا نموذجاً يمثل ما أسميته بتكنيك راسل الفلسفي في التوصل إلى نتيجة إيجابية بطريقة سلبية . وقد حطم راسل جميع نقط الالتقاء المريحة في منتصف الطريق بين مصادراته من ناحية والأنانية (بهذا المفهوم الفلسفي) في لحظة معينة من ناحية أخرى.

ثانياً : أنه بدون وجود شيء مثل المصادرات ، فإننا لا نستطيع أن نصدق حقيقة العلم بصورته العريضة العامة . وليس هناك من يشك في حقيقته بشكل جدي .

ثالثاً : وأخيراً، إذا كان كان اعتقادنا بالمصادرات مخطئاً، فإن الجنس البشري لم يكن ليستطيع أن يبقى على قيد الحياة. وذلك لأننا عندما نتسلق سلماً خشبياً فنحن نفترض أن درجاته على قدر كاف من شبه الدوام بحيث لا تذوب من تحت أقدامنا فجأةً. وإذا كنا مخطئين فإننا نسقط وتتكسر رقابنا. ولو كنا مخطئين في الاعتقاد في «شبه الدوام» وفي الاستقراء، لكان الجنس البشري قد اندثر حتى يومنا هذا وحلت محله كائنات أخرى ذات معتقدات أكثر دقة عن طبيعة الواقع. وفي الحقيقة، فإنه من المحتمل أن تكون معتقداتنا قد جاءت نتيجة التكيف البيولوجي مع البيئة. ونحن نفكر بهذه الطريقة لأن العالم مخلوق بهذه الطريقة.

وهذه النقاط الثلاث ذات أهمية لأنها تبين ضيق راسل المتزايد بالفلاسفة الذين ينسجون موضوعات جدل بأن يزعموا الشك في مسائل لا يستطيع أحد أن يشك فيها شكاً مخلصاً . وهي تبين أنه ينتهج فلسفة أكثر من هذا من الناحية العملية والإدراك العام . ولكنها تبين ، على أية حال ، ما طرأ من تغير كبير عما كان عليه في تلك الأيام التي كان يأمل فيها أن يجد بعض الأسس اليقينية للاعتقاد في صحة العلم ويسخر من مزاعم الإدراك الإنساني العام . وقد استمر بطبيعة الحال في إنكار أن الإدراك العام لا يأتيه الباطل من خلف أو أمام . غير أنه الآن يعترف بأنه أحياناً ليس هناك شيء أفضل من الإدراك العام كأساس للتصرف العملي.

ولذلك يمكن أن نعد كتاب « المعرفة الإنسانية » ، من وجهة نظر ما ، اعترافاً منه بالفشل .

---

structue

فلم يكن باستطاعة راسل أن يجد المعرفة اليقينية التي كانت هدفاً يرنـو إلى تحقيقـه طوال حياتـه الفلسفية . وكانت فلسفته الجديدة قائمة على مصادرات وعلى الحرص على النتائج العملية التي لا يمكن تبريرها بالمعايير النقدية التي سبق له أن وضعها . غير أن كتاب « المعرفة الإنسانية » يحتوي على ما هو أكثر من ذلك .

والاعتراف بالفشل شيء مفيد ومثمر في أغلب الأحوال . وقد طرح فشل راسل في أن يؤمن بالمذهب التجريبي القائم على المشاهدة والتجربة إيماناً تاماً ثماراً من هذا النـوع . ففـي إعـداده المفصل للمصادرات تجاوز راسل بكثير كل من سبقوه في أن يحدد بدقة نوع المعرفة التـي يجب التسليم بها تسليماً قبلياً حتى يمكن إقامة العلم على أساس تجريبي . وبهذا العمل أضاف راسل إلى فهمنا لطبيعة الكون .

ولنذكر ، على سبيل المثال ، كيف أن مصادرته في « الدوام الزائف » قد أكدت الطريقة التي تسير بها « الأحداث » معاً .

وقد سبق لي أن ذكرت أن إحدى الصعوبات التي واجهت برنامج البناء الذي وضعه من قبل كانت أن يشرح لماذا تتجمع أوجه المنضدة حتى تأخذ شكل منضدة . وقد أجاب راسل الآن عن هذا السؤال ولكن أفضل إجابة استطاع أن يجدها هي : « إنها محض مصادفـة أن تحـدث بهـذه الطريقة » . وقد أبديت كذلك ملاحظة مؤداها أن إحدى الصعوبات في طريقة التحليل هي أنه بعد تفتيت الكون إلى أجزاء صغيرة للغاية ، يصبح من العسير على الفيلسـوف المحلل أن يعيد تجميعها . ولهذا ، فقد ينبري أحد نقاد راسل الآن بأن يقول : « لماذا لا نختار المدخل الآخر ونبدأ بالأشياء كما هي باعتبارها وحدات ؟ ومن الجدير بالذكر أن الخطوات الفلسفية التي اتخذها راسل تتفق كثيراً مع الأفكار الحديثة التي يذهب إليها المشتغلون بعلوم الكون ونشأة العوالم ، ومن بينها على سبيل المثال مناقشة مستر فريد هويل عن ذرات الهيدروجين المنتشرة وكيف تجمع نفسها لتكون النجوم . ولدينا أيضاً حالة أخرى تثير فيها الفلسفة سؤالاً لا تستطيع الإجابة عنه (وهـو : لماذا توجد « الأحداث » و « مجموعات الأحداث » معاً ؟) في حين أنها تستطيع أن تعطي للفكر العلمي نشاطاً متجدداً .

ولا تزال مبررات التمزيق إلى أجزاء صغيرة في الفلسفة مثل مبرراته في علم التشريح ، فهي تزيد المعرفة ، حتى وإن لم توضح كل شيء ، وتركز الاهتمام على ما تتركه دون توضيح أو تفسير .

وعندما يقرأ المرء مصادرات راسل وحججه في الوصول إليها ، فإنه يصطدم بكثرة تردد كلمة « تركيب » أو « بناء* » ـ وهي كلمة سبق له أن أكد أهميتها . كما تتردد في كتاباته كلمات أخرى مثل

« الاستمرار ، و « مشابه » . وأعتقد أن ما نجح راسل في عمله في كتابه « المعرفة الإنسانية » هو توضيح افتراضات معينة كانت كتاباته السابقة تتضمنها . فعلى سبيل المثال ناقش راسل في « مشاكل الفلسفة » النظرة « المثالية » التي تقول بأن القطة الموجودة في الحجرة تختفي من الوجود عندما لا يكون هناك من ينظر إليها . وقال راسل ـ على أساس غامض من الاستمرار ـ أنه من الطبيعي أن نفترض أن القطة كانت موجودة طوال الوقت ، وخاصة إذا كانت قد شعرت بالجوع منذ أن رأيناها في آخر مرة . ولكن لا هو ولا أحد غيره قد تحقق من مدى صحة هذه الحجة . وينبني مبدأ الاستمرار على أساس الإفتراض اللاواعي للفكرة القديمة عن المادة** . وفي الحقيقة ، فإن راسل لم يذكر كلمة « استمرار » بل إنه لجأ بطريقة غامضة إلى « كل مبدأ للبساطة » . ولكن ما كان يعنيه فيما أظن هو أنه من الأسهل على المرء أن يعتقد في قطة موجودة باستمرار من أن يعتقد في قطة متقطعة الوجود . وفي كتاباته الفنية المتخصصة التي كتبها فيما بعد عن مطيات الحواس غير المحسوسة***، نراه يلتجيء مباشرة إلى « الاستمرار » . ولكني أعتقد أنه فعل ذلك دون تفكير واع من جانبه أما الآن ، فقد أثار السؤال الخاص بنوع « الاستمرار » المتعلق بذلك .

وإذا كنت على صواب ، فإن فيتجنشتين إذن يخطيء عندما يقلل من شأن كتابات راسل الفلسفية في الفترة الأخيرة من حياته ففي « المعرفة الإنسانية » والكتب التي أدت إليها مثل مؤلفاته في الفلسفة الرياضية ونظرية التعريف بالوصف قام راسل بمهمة فلسفية رفيعة هي إثارة الشك في افتراضات كانت تقبل من قبل على أنها أمور مسلم بها ، كما قام بتوضيح هذه الافتراضات . ولفكرة التشابه أهميتها الخاصة . وقد جعل كذلك التكنيك الخاص باستخدام « الحد الأدنى للكليات » يؤكد كلمة « مشابه » . وكانت هذه هي البقايا الحية التي تخلفت عن اعتقاده فيما مضى أننا نستطيع أن نحصل على معرفة بشأن تركيب الواقع بدراسة تركيب الجمل . وبلغة بسيطة كانت فكرته كما يلي : « حاول أن تجد أقل عدد من الكلمات تحتاج إليه لوصف الكون . فإن لم تستطع أن تصفه دون استخدام كلمة معينة ، فلا بد أن يكون هناك في الكون شيء مقابل لهذه الكلمة . وبهذه الطريقة ، على سبيل المثال ، حاول راسل أن يعرف ما إذا كان يستطيع أن يجد ألفاظاً تخلصه من تلك الكلمات التي تمثل « الكليات » ، فوجد أنه لم يستطع أن يتخلص من كلمة « مشابه » . وتوصل راسل إلى النتيجة الآتية :

« إن احتياجنا في الواقع إلى كلمة « مشابه » تدل على حقيقة تتعلق بالعالم ، ولا تدلنا على حقيقة بخصوص اللغة وحدها . أما ما هي الحقيقة التي تدل عليها فيما يتعلق بالعالم ، فهذا ما لست أدريه » .

---

* Structure

** substance

*** sensibilia

ومن المؤكد أنها حقيقة تدعو إلى العجب أن يكون في العالـم أشياء متشابهـة . وأنـه من الأسهل عندما نفكر في ذلك أن نتصور عالماً تكون فيه الأشياء كلها مختلفة أو كلها واحدة تماماً ، أو مزيجاً من الإثنين ، مثل التصور العلمي في القرن التاسع عشر للعالم على أنه يتركب من حوالي تسعين نوعاً مختلفاً من الذرات ، حيث تكون جميع ذرات كل نوع من هذه الأنواع متطابقة تماماً . ولكنه من الأمور المحيرة للغاية أن نجد أننا نعيش في عالم تكون فيه الأشياء متشابهة ، وتكون للعناصر فيه نظائر ؛ ويكون فيه نصل واحد من الحشائش مشابهاً جداً لنصل آخر دون أن يكون مثله تماماً . وميزة راسل أنه جعلنا نفكر في هذه المسألة ، أو أنه ، على أقل تقدير ، جعلنا نشعر بأنه يجب علينا أن نفكر فيها . أما كونه لـم يقدم لنا بنفسه أي تفسير لها ، فهذا أمر يقل في أهميته . وذلك لأن الفلاسفة يوجدون كي يطرحوا الأسئلة لا أن يجيبوا عنها . وربما توقعنا أن يقدم لنا كتاب « المعرفة الإنسانية » ملخصاً وافياً وناضجاً لما خلص إليه راسل من نتائج . والغريب في الأمر أنه بدلاً من ذلك ظل يلفت النظر إلى مشاكل أكثر مما كان يستطيع حلها ، الأمر الذي تمخض عنه وضع كتاب غير مرتب يتسم بالخلط الذي يتسم به التفكير المبتكر غالباً . ولم يكن عمله فلسفة كاملة أبداً بقدر ما كان فلسفة في طور البناء . وبلغت حيويته الدافقة حداً جعل فلسفته لا تزال في طور البناء حتى وهو في السادسة والسبعين من عمره .

ولسوء الحظ ، فإننا لا نجد سوى إشارات قليلة تدل على وجود أحد يبنى نوعاً من الفلسفة الجديدة كاستمرار لعمل راسل (أو كرد فعل له) . وربما تمر مئات السنين قبل أن يحدث هذا ، لأن أي تقدم كبير تحرزه الفلسفة غالبـاً ما يستغـرق قرونـاً . ومـن بـين المعـاصرين ، نجـد أن البروفيسـور أير ، هو أكثـر من قام بعمـل للاستمـرار في أفـكار راسـل . أمـا بقية الفلاسفـة البريطانيين ، فإنهم ـ نظراً لإعجابهم بفتجنشتين ـ قد قللوا من شأن عمـل راسـل بعـد أن دب الخلاف بينه وبين فتجنشتين . ومن ثم فقد اتخذوا من آراء راسل الأولى نقطة لانطلاقهم أكثر مما أخذوا من أفكاره اللاحقة . وفي تلك الأيام الأولى ـ كما ذكرنا ـ كان راسل يأمل في أن يستبعد كل المبادىء القبلية للمعرفة ، بمعزل عن المبادىء المنطقية ، وأن ينكر أن لدينا أية معرفة أخرى غير المعرفة القائمة على المشاهدة والتجربة . وقد تمخض عن هذا وعن بحث فيتجنشتين الذي يحمل عنوان « تراكتاكوس » مذهب الوضعية المنطقية ، الذي يقول : لما كنا نجهل كل شيء باستثنـاء الحقائق التي يمكن ملاحظتها ، فإن المناقشات الميتافيزيقية التي تثيرها الفلسفة التقليدية تصبح أمراً لا معنى له . وفي أيامه الأولى وجد راسل أيضاً أهمية في التحليل اللغوي تزيد بكثير عما وجده فيما بعد . وقد دعم أهمية المعالجة اللغوية تأكيد فتيجنشتين في المحاضرات التي ألقاها في كامبردج وفي مؤلفه « مباحث فلسفية » المنشور بعد وفاته للطريقة التي تستخدم بها الكلمات فعلاً في الحديث العادي . وكان هذان الاعتقادان ـ الاعتقاد بعبـث المناقشـات الميتـافيزيقية جنبـاً إلى جنـب مع

الاعتقاد بأهمية اللغة القصوى ـ هما القاعدتين اللتين استرشد بهما الذين خلفوا راسل مباشرة .

ولن أقول الكثير عن هؤلاء الفلاسفة لأني أظن أن أعمالهم مصطنعة إلى حد ما . وهي أعمال مصطنعة لنفس الأسباب التي تجعل أعمال بعض الكتاب والفنانين المعاصرين مصطنعة . وتتلخص أسباب الاصطناع في أنهم قد وجدوا أنفسهم عاطلين بغير عمل .

لقد حاول الفنانون لعدة قرون أن يصوروا الواقع . واستطاعوا أن ينتجوا فناً عظيماً لأنهم كانوا يستغرقون في هذا الهدف ، ويهبون أنفسهم لشيء خارج ذواتهم . وكان اختراع الكاميرا يعني أن عملهم يمكن أن يتم بصورة أحسن بواسطة صندوق به عدسات . واضطر الفنانون إلى أن يعملوا شيئاً آخر حتى يكسبوا قوتهم . وهكذا بدأوا في رسم أشياء ليس لها وجود ، كما بدأوا يتحدثون في وعي بالذات عن رؤيتهم الذاتية للعالم . وكانت نتيجة ذلك أن وجدنا مائة فنان زائف مقابل كل فنان يجرب أساليب جديدة عن إلهام أصيل . وقد حدث نفس الشيء مع الكتاب والشعراء بعد اختراع الأفلام التي تستطيع أن تصور مناظر طبيعية أو تكشف عن شخصية إنسانية وتثير المشاعر بطريقة أفضل بكثير مما تستطيع الكلمات وحدها أن تفعله . وضاق مجال الشعراء ، فأصبحوا يلعبون بالكلمات من أجل الكلمات ذاتها . ومن ثم فقد انتابهم الاستغراق في الذات والانطواء وأصابهم الجدب والخواء .

وقد حدث شيء شبيه بهذا للفلاسفة الذين يتبعون الوضعية المنطقية . فلم يعد عملهم يتضمن مناقشة العالم الحقيقي ، وإيجاد إجابات للمشاكل الحقيقية التي تؤرق الرجال والنساء ، لأنهم أعلنوا أن كل هذه المشاكل ، إما أنها خالية من المعنى ، أو أنه لا يمكن إيجاد حل لها ، أو أنه لا يمكن حلها إلا عن طريق العلماء وعلماء المنطق وحدهم . غير أنه تعين عليهم ـ شأنهم في ذلك شأن الفنانين والشعراء العاطلين ـ أن يقوموا بعمل شيء . ومن ثم فقد انغمسوا وهم يعربدون في خضم من الأحاديث الذكية واهتموا اهتماماً فائقاً بإظهار الفروق الدقيقة بين الألفاظ التي قد تخفى عن الأنظار . وكانوا يسألون أسئلة تصعب الإجابة عنها بشأن استخدام الألفاظ . ولم يكن تحدوهم إلى ذلك دائماً رغبة دفينة للمعرفة ، ولكن تدفعهم إلى ذلك رغبة في تمرين عقولهم وتبرير وجودهم . وهكذا قضوا أوقاتهم في التفكير في أفكارهم دون أفكار الآخرين .

وأعتقد أن هذا هو السبب في فكرة راسل السيئة عنهم . وهذا هو ما حدا بـ س . د . برود إلى أن يصف بعض الفلاسفة المعاصرين « بأنهم » « سخفاء أذكياء » وهو وصف يذكرنا بما استخدمه دزرائيلي من أوصاف . ولعل راسل لم يكن عادلاً بعض الشيء في هجومه المتكرر على فلاسفة أكسفورد . فإن بعضهم لم يندرج أبداً تحت هذا الوصف ، كما أن آخرين سرعان ما خرجوا من زمرة هؤلاء الفلاسفة . ولكن راسل لم يدرك ذلك لأنه كان قد توقف عن القراءة

لهم*. وقد وصل في بعض حالاته النفسية إلى حد اليأس من الفلسفة برمتها ووصفها بأنها « موضوع غير ذي فائدة » ، ونصح الشباب بألا يضيع وقته فيها . وقال راسل : « لقد بين فلاسفة أكسفورد أن الفلسفة شيء لا معنى له ، وإني أجد نفسي الآن نادماً على شبابي الذي ضيعته في دراستها » .

وقد أعلن راسل قائلاً : « إنني اضطررت وأنا أتألم إلى الاعتقاد بأن تسعة أعشار ما يسمى فلسفة لا يعدو أن يكون لغواً . وأن الجزء الوحيد منها الذي يتميز بالدقة والتحديد هو المنطق . وبما أن هذا الجزء ينتمي إلى المنطق فإنه لا يدخل في دائرة الفلسفة » . وعندما تحدث راسل بهذه الطريقة ، بدأ الواحد منا يتعاطف مع نقاده . صحيح فعلاً أنه كلما تم حل مشكلة فلسفية بصورة نهائية ، فإنها تخرج عن نطاق الفلسفة وتصبح جزءاً من العلوم . وقد حدث هذا بالنسبة إلى كثير من الأفكار التي كان الفلاسفة هم أول من طرحوها مثل حركة الكواكب والتطور البيولوجي ، والتركيب الذرى للمادة . غير أن هذا لا يثبت أنهم كانوا مخطئين في التكهن بشأنها . كما أنه لا يثبت أنهم مخطئون حين يفكرون في يومنا الراهن في مشاكل لم تجد سبيلها بعد إلى الحل . وغالباً ما يكون حديثهم غامضاً ومضطرباً . ولكن هذا ناجم بالضرورة عن حقيقة أنهم يبحثون عن حلول لم يتوصل إليها أحد بعد. ولعلني من جانبي أعرف الفلسفة، كشيء أدافع عنه حتى الموت، بأنها حق المرء في التحدث عن أشياء لا يفهمها.

والذي لم يكن ينبغي على رال أن يقوله هو أن معظم الفلسفة لغو وهراء ، بل أن يقول إن معظم الفلاسفة زائفون . وأظن أن هذا ما كان يعنيه فعلاً ، غير أن أدبه منعه من أن يقول ذلك . وهي حجة يمكن الأخذ بها أكثر من غيرها . وإذا كان لنا أن نرتب الجنس البشري حسب متوسط الأمانة الفكرية ، فإني أضع في المرتبة الأولى لاعبي الكريكيت المحترفين ، ثم أضع العلماء في المرتبة التالية لهم ، ثم الفلاسفة المحترفين في مرتبة أدنى بكثير . ذلك أنه من المستحيل أن يكون لاعب الكريكيت زائفاً أو دجالاً . فإذا تظاهر بأنه أفضل في إتقانه للعبته عما هو عليه ، فسوف ينكشف أمره من أول كرة يلعبها . كما أن العالم الذي يستحدث نظرية يعرف عادة أنه يمكن إثبات صحتها أو خطئها بالاختبار العلمي . أما الفيلسوف فهو لا يحتاج إلا لكتابة كتاب لا يفهمه أحد ، دون أن يستطيع إنسان خلال الفترة الباقية من حياة هذا الفيلسوف أن يتأكد ما إذا كان عبقرياً أم دعياً . وبهذا يصبح من السهل علينا أن نفهم أن صفوف الفلاسفة تشتمل على نسبة معينة من الأدعياء غير أن هذا لا يثبت أن الفلسفة في حد ذاتها عمل يقل في قيمته عن العلوم أو لعبة الكريكيت .

---

* أخبرني راسل (في مارس ١٩٥٦) أنه قد فرغ لتوه من قراءة بعض فلاسفة أكسفورد ثانية دون أن يغير رأيه فيهم .

الفصل الخامس والعشرون

لا يزال يعمل

لم ينشر كتاب راسل « المجتمع الانساني في الأخلاق والسياسة» حتى عام ١٩٥٤ . وبالرغم من هذا ، فإنه من المناسب أن نناقشه هنا « لأن معظمه قد قصد به أصلاً أن يتضمنه كتاب « المعرفة الانسانية» الذي كتب في نفس الوقت .

ويتميز كتاب « المجتمع الإنساني في الأخلاق والسياسة» بالصراحة والصدق التي عبر بها راسل عن عدم حبه لنظريته الذاتية في الأخلاق . فقد كتب : « إنني أجد أنه أمر لا يطاق تماماً أن أفترض أنه حين أقول « إن القسوة شيء سيء» ، فإني لا أعدو أن أقرر أني أكره القسوة» . ولذلك فقد سعى جاهداً إلى أن يجد بعض الأسس الموضوعية لنظريات الأخلاق ، مقرراً أن « الرغبات السليمة هي تلك التي يمكن لها أن تعيش جنباً إلى جنب مع أكبر عدد ممكن من الرغبات الأخرى» وتعبير « تعيش جنباً إلى جنب» له نظيره في فلسفة ليبتر التي استمد راسل هذا التعبير منها . وما عناه راسل كان تكراراً لحجة وردت في كتابه « مبادىء إعادة البناء الاجتماعي» . وتذهب هذه الحجة إلى أن الدوافع الخلاقة دوافع خيرة لأن المتعة التي توفرها لا تكون على حساب أي إنسان آخر ، في حين أن نوازع التملك لا تتحقق إلاّ بحرمان الآخرين . فإذا أراد شخصان أن يمتلكا نفس الشيء فإنه لا يمكن لرغباتهما أن تعيش في توافق جنباً إلى جنب» .

ويعني هذا ببساطة أنه لا ضير أن يفعل المرء ما يريد إذا كان ذلك قميناً بإسعاده دون أن يلحق ضرراً بالغير . بل إن راسل سار بهذه الفكرة إلى نهاية الشوط من الناحية المنطقية ، قائلاً إذا كان هناك شخص يشعر بالمقت الشديد نحو شخص آخر ، فقد يكون من الخير له ، أن يستمتع باعتقاده الكاذب أن ذلك الشخص الآخر يشقى من جراء هذا المقت .

---

compossible

وفي واقع الأمر ، تتلخص تعاليم راسل في أن النفع « أو المتعة» الأكثر هو ما يعود بالخير على أكبر عدد من الناس . فلو أن تلميذاً معه صندوق من (الشيكولاته) وزع ما فيه على من حوله ، فإنه يخلق شعوراً بالرضى العام أكثر مما يتناول الحلوى بمفرده ويجلب لنفسه المرض . ومن ثم ، فإن الاحسان خير والأنانية شر . وأضاف راسل إلى « المذهب النفعي» التقليدي طريقة لقياس المتعة في مقابل الألم . فهما يتساويان إذا كان المرء لا يهمه أن يصيبهما معاً أولاً يصيب أحدهما .

وقد تكون تسمية فلسفة راسل الأخلاقية « بالنفعية» مضللة . وربما كان « مذهب اللذة» هو أقرب شيء إليها . ولم يكن راسل بالتأيد نفعياً بالمعنى الدارج لهذه الكلمة ، كما يتضح من نقده « للنفعية» المفرطة في كل من روسيا وأمريكا . ويختلف راسل عمن سبقوه في أنه أدخل في اعتباره قدرات الإنسان العقلية والجمالية، كما أنه آمن بعلم تحسين النسل الإنساني الذي يقوم على حقيقة كون الناس غير متساوين من الناحيتين العقلية والجسمانية*». بل إنه أكد أن هناك خلافاً بارزاً بين الرجال والنساء، لأن عدداً كبيراً من تلامذته من النساء اللائي كن يبشرن بمستقبل زاهر قد تخلين عن طموحهن الفكري بعد فترة طالت أو قصرت.

وتتلخص أهمية فكرة راسل عن « الرغبات الممكنة معاً» ، في كونها فكرة عملية وليست نوعاً من التحذلق . وقد صاغ راسل فكرته عنها ذات مرة بقوله : « إن ابتغائي التنسيق بين الرغبات هو الدافع الرئيسي الذي يكمن وراء معتقداتي السياسية والاجتماعية ، ابتداء من الحضانة حتى الدولة العالمية» . ويقرر راسل في نهاية مناقشته التي يتضمنها كتابه « المجتمع الانساني» أنه قد توصل إلى بعض المبادىء الهادية لها فائدة في الاستخدام العملي فحسب، دون أن يتوصل إلى المعرفة الموضوعية . فأسس الأخلاق « لا تزال مبنية على العاطفة والشعور» . وهذا هو السبب في أنه استبعد ما كتبه من مؤلفه» المعرفة الانسانية» .

ولسوء الحظ ، فإن راسل لم يدع الأشياء تقف عند هذا الحد . فقد ارتكب خطأ متكرراً عندما أظهر اهتماماً أكثر مما ينبغي بما يوجهه ضده النقاد السخفاء . فقد اتهمه فلاسفة من أمثال س . أ . م . جود بتدمير سلطة الدين والأخلاق التقليديين الأمر الذي يؤثر أثراً بالغاً في سلوك الناس . ومن الواضح أنه كان يجدر براسل أن يعترف بصحة هذا الاتهام ، وينكر على هذا الاتهام مضمونه من حيث أنه يعني أنه ينبغي على الفلاسفة أن يضحوا بأمانتهم الفكرية كي يتجنبوا الوصول إلى نتائج هدامة أو مدمرة. بيد ان راسل لم يطق جود، كما أنه لم يطق انتحال

* كتب راسل عن سر سعادته في شيخوخته: «إن نصيحتي الأولى هي أن تختار اجدادك بعناية» مشيراً إلى أن ثلاثة من أجداده الأربعة عمروا فوق الثمانين.

الأعذار من أجل إحياء الدين المنظم . وذهب إلى أن الجانب المدمر من تعاليمه ليست له أهمية كبيرة من الناحية العملية .

قال راسل في حديث إذاعي له :

« إن الفلاسفة مغرمون بالألغاز التي لا تنتهي عن القيم الأخلاقية النهائية وعن أسس الأخلاق . وإني أعتقد أننا نستطيع ، فيما يتعلق بالسياسة والحياة العملية ، أن نطرح كل هذه الألغاز جانباً وأن نستخدم المبادىء التي تتمشى مع الإدراك العام . فنحن جميعاً لا نرغب في الطعام والمأوى والكساء والأمن من الأذى والسعادة والاستمتاع بالحياة والحرية فحسب بل نحتاج إلى هذه الأشياء أيضاً» .

أو كما يقول في كتابه « المجتمع الانساني» : « يندر أن يكون من الضروري في المجادلات السياسية أن نناشد الاعتبارات الأخلاقية لأن المصلحة الذاتية المستنيرة هي دافع كاف للعمل بما يتمشى مع الصالح العام» .

ولكن سرعان ما وجد لزاماً عليه أن يضيف بعض التحفظات على هذا الرأي . وأوضح راسل في كثير في المواضع أن المصلحة الذاتية ليست ذلك الدافع القوي كما يظن ويأمل الناس غالباً . كما أنه لم يمتدح دائماً «عادة التدبر في عواقب الأمور» فقد اعترف راسل أننا لا نستطيع أن نمضي في حياتنا وأن نتخذ القرارات في كل كبيرة وصغيرة فيها باستخدام آلة حاسبة ، محاولين أن نحسب ما تنطوي عليه أفعالنا من عواقب ممكنة .

وأظن أنه من الأفضل أن نذكر بجلاء أن راسل طرح من الأسئلة أكثر مما تمكن من الإجابة عنها فيما يتصل بعلم الاخلاق وغير ذلك من الموضوعات . وتكمن ميزته الكبرى في أنه اضطرنا إلى أن نرى أنه يجب علينا إما أن نجد بعض الإجابات المقبولة ، أو أن نتعلم كيف نعيش بدونها ، مستخدمين مثل هذه المبادىء العامة كالتي تتمثل في قوله : « نستلهم الحب ونسترشد بالعقل فيما نفعل» . وأبرز راسل في دقة وتحديد مأزق العصر الذي نعيش فيه . وهو عصر أعطى فيه العلم للإنسان قدرة على الخير والشر تكاد ألا تحدها حدود ، كما أنه في نفس الوقت حطم الإيمان بالمعتقدات السابقة التي كان يظن أنه يمكن عن طريقها التمييز بين الخير والشر تمييزاً دقيقاً . فضلاً عن أنه ليس في مقدور العلم أن يجد بديلاً لهذه المعتقدات السابقة . ومن النتائج الأمينة التي تميز بها راسل رأيه بأننا لا نعرف شيئاً عن هذا العالم يقترب من المعرفة اليقينية ، وأنه ليس في إمكان العلم أن يثبت صواب أي شيء أو خطأه . فهو لا يستطيع على سبيل المثال أن يثبت أنه من الخطأ أن يستمتع الإنسان بإلحاق القسوة بغيره .

وكتب راسل في عام ١٩٤٣ : « بالرغم من أن النتائج التي توصلت إليها فيما يتعلق بالأخلاق لا ترضيني ، فإن النتائج التي توصل إليها الآخرون ترضيني بصورة أقل» . وإني أعترف باتفاقي معه في الرأي في النقطة الثانية مثلما أتفق معه في النقطة الأولى .

وحتى الآن ، فإن الفلاسفة اللاحقين لم يقدموا في مجال الأخلاق شيئاً أفضل مما قدموه بشأن تلك المشكلات المحيرة الغريبة التي تركها راسل بين أيديهم . وتخلى الكثير منهم عن المبدأ الصارم الذي يذهب إلى أننا نستطيع أن نعرف فقط صدق البيانات المنطقية والعلمية . واستحدث هؤلاء الفلاسفة نظرية فحواها أن هناك قطاعات مختلفة للمعرفة الإنسانية ، لكل منها نوعه الخاص من الحقيقة . وأن الأحكام العلمية والأخلاقية والجمالية والاقتصادية واللاهوتية يمكن أن تكون جميعها صادقة بطرقها المختلفة . وبناء على هذه النظرية ، فإنه يصعب علينا أن نتبين ماذا نقصد عندما نقول مثلاً « إن القوانين التي يعلنها علماء الطبيعة هي غالباً أكثر دقة من تلك التي يعلنها علماء الاقتصاد» . ومع ذلك ، يبدو أن صدق هذا القول يكاد يكون مؤكداً ، كما أنه يبدو أنه يتضمن نوعاً من المقاييس العامة للصدق .

وعلى أية حال ، فإن هناك بالتأكيد شيئاً واحداً يستتبع آراء راسل في الأخلاق . فإذا كانت المعتقدات الأخلاقية مسائل تتصل بالمشاعر والعواطف ، فعليه أن يبذل قصارى جهده ، للتأثير في مشاعر الناس وعواطفهم ، موجهاً إياها إلى وجهتها السليمة . وقد كان ذلك شغله الشاغل منذ عام ١٩١٤ . وفي أعوامه الأخيرة ، أصبح راسل أقرب الى الواعظ إذا استخدمنا كلمة الواعظ في أحسن معانيها دون أن نستخدمها بمفهومها التقليدي . ولقد أدهش بعض مستعميه أثناء جولته في استراليا لإلقاء المحاضرات حين قال : « إن جذور المسألة شيء بسيط وعتيق للغاية . شيء بسيط جداً لدرجة أنني أكاد أشعر بالخجل حين أذكره ، خشية أن يستقبل المتشككون الحكماء كلماتي بابتسامة ساخرة وأعني بهذا الشيء ـ ولتسامحوني لذكره ـ الحب ، الحب المسيحي أو الإشفاق» .

ولم يكن هناك ما يدعو إلى الدهشة فليس ما طرأ على موقفه هو ما يطرأ على المتشككين عادة الذين تلين قناتهم حين يتقدم بهم العمر . ولم يفعل راسل سوى أنه كرر بكلمات مختلفة فحسب ما سبق أن بشربه في مقاله « عبادة الانسان الحر» عام ١٩٠٢ وفي كتابه « مبادىء إعادة البناء الاجتماعي» (١٩١٦) . والشيء الجديد في موقفه هو أنه أكد أن بعض الأفكار العتيقة قد تكون صائبة . لقد حرر نفسه أخيراً من الإفتراض ، المستمد في المقام الأول من ايمان العصر الفيكتوري باطراد التقدم وهو الإفتراض الذي دعمته طليعة المثقفين في العشرينات ، بأن القيم الجديدة هي بالضرورة خير من القيم القديمة .

ولا تعني إشارته إلى المسيحية أنه قد اقترب من العقيدة التقليدية الراسخة . ولقد قال عن تلك الفترة : « لست واثقاً إذا كنت ملحداً أولا أدرياً ، ولهذا فإني أسمي نفسي ملحداً أحياناً ولا أدريا أخرى» . وقد عرف راسل أي دين بأنه « الرغبة في الايمان بمجموعة من الترهات يدخل بها المرء الراحة إلى نفسه» . و « إني أعني أي شكل للإيمان يستهدف تشجيع الجبن . وما أعترض عليه هو الجبن وانتفاء الأمانة» . والدعاء في رأي راسل يعادل الاعتقاد أن الكون يسيطر عليه كائن يغير رأيه إذا طلب منه المصلي ذلك .

وقد قال راسل في عام ١٩٥٠ : « إن الشيء الوحيد الذي أرى أنه أفضل في الكاثوليكية من الشيوعية هو أن الكاثوليكية أقدم . فالدين مثل الخمر ، تزداد جودته بمضي الوقت» .

ويظهر راسل شيئاً من القلق بشأن ما أسبغ عليه الناس من احترام في سنواته الأخيرة . ويتساءل عما إذا كان قد أصبح محترماً أكثر مما ينبغي . وهو يقول في هذا الصدد : « لقد كنت دائماً أظن أن الناس المحترمين أوغاد . وإني أنظر بقلق إلى وجهي كل صباح باحثاً عما قد يوجد فيه من أمارات تدل على أنني تحولت إلى وغد» . وعلى أية حال ، فإنه من المحتمل أن يكون تفسير هذا ، هو أن الانجليز ، شأنهم في ذلك شأن الصينيين ، يوقرون كبر السن ويحترمونه . ومهما استثار المتمرد شعور الناس أو صدمه فإن الرأي العام البريطاني لا يرى خطراً في إظهار الاعجاب بهذا المتمرد عندما يبلغ الثمانين من عمره . وعلى النقيض من ذلك ظل راسل في أمريكا موضع شك لعديد من السنوات . وحين سجلت هيئة الإذاعة القومية حديثاً تليفزيونيا معه بمناسبة بلوغه سن الثمانين ، صادر موظف الجمرك المختص التسجيل عند وصوله إلى نيويورك ، وقد نقل عن هذا الموظف أنه قال : « راسل ؟ إنه (الأخ) الذي كتب عن الجنس . أليس كذلك ؟ لهذا يجب أن يعرض التسجيل على الرقابة» .

أما في بريطانيا ، فحتى برنارد شو نفسه قد اختتم أيامه بأن أصبح شخصية موقرة يكن لها الناس الاحترام . أضف إلى ذلك أن الرأي العام البريطاني ، في حالة راسل ، قد تغير وأصبح يتفق معه في كثير من الموضوعات .

ومن جهة أخرى فقد لانت عريكة راسل بعض الشيء في سنوات عمره الأخيرة حين عاد ليقيم فترة من الزمن في ريتشموند في منزل فيكتوري لا يبعد أكثر من ميل أو نحو ميل من حدائق بمبروك لودج حيث كان يلعب في صباه . وكتب راسل : « ليس من السهل أن يعتاد الإنسان أن يعيش في هذا العالم ولكني بدأت أخيراً فقط أشعر أني لست غريباً عنه ، وإن تفاوتت درجات هذا الشعور» .

وفي عام ١٩٥٢ عقد راسل قرانه السعيد بمس أديث فينش مؤلفة سيرة حياة « ويلفريد سكاوين بلانت» . وتنتمي مس فينش إلى أسرة قديمة استقر بها المقام في نيو انجلاند كانت قد نزحت إلى أمريكا في القرن السابع عشر . ومارست مس فينش مهنة التدريس في برين ماور . وإلى جانب عملها الأكاديمي ، كان لها كثير من الاهتمامات بما في ذلك خبرتها غير العادية إلى حد ما في ركوب جواد ليس عليه سرج في حلقة سرك عندما كانت تطلب العلم في باريس .

وفضلاً عن ذلك ، فقد قام راسل بغزوات كثيرة في الفلسفة عن طريق عرض الكتب وكتابة المقالات التي استخدم فيها نكتته الذكية البارعة بأسلوبه المدمر كعهده دائماً . وعندما ناقش راسل غرام فلاسفة اكسفورد في وقت من الأوقات ببحث « الاستخدام الشائع» للكلمات ، كتب معلقاً : « إن مناقشة ماذا يقصده الأغبياء حين يقولون أشياء تافهة مناقشة لا تنتهي ؛ قد تكون شيئاً مسلياً ، ولكنها لا يمكن أن تكون شيئاً مهماً» . وسخر راسل من موقف بعض الفلاسفة المحدثين عن طريق قصة رواها عن صاحب حانوت سأله ذات مرة عن أقصر طريق للوصول إلى وينشستر . « نادى صاحب الحانوت على رجل في المسكن الواقع خلف حانوته قائلاً :

ـ عندي رجل كريم يريد أن يعرف أقصر طريق إلى وينشستر .

ـ وينشستر . (أجاب بصوت شخص دون أن يظهر) .

ـ نعم

ـ الطريق إلى وينشستر ؟

ـ نعم

ـ أقصر طريق ؟

ـ نعم

ـ لا أعرف .

ويقول راسل في هذا الصدد : « لقد أراد الرجل أن يستجلي طبيعة السؤال ولكنه لم يهتم بالاجابة عنه . وهذا بالضبطما تفعله الفلسفة الحديثة في نظر من يبحث في جدية عن الحقيقة . فهل يثير دهشتنا بعد ذلك أن يتجه الشباب إلى الدراسات الأخرى» .

ولم يتوقف راسل عن العمل أبداً . وفي ذلك كتب يقول : « إنني أود أن أموت وأنا

أعمل ، لأني أعلم أن آخرين سيواصلون ما لم أستطع إنجازه ، يغمرني الرضا عندما أفكر أن ما كان قد تم إنجازه» . ويبدو أن إنتاجه من أحاديث إذاعية ومقالات صحفية لا ينتهي . وظل في مجال السياسة يوجه النقد إلى كل من روسيا وأمريكا . وقال راسل لأسقف يورك أنه يصلي كل ليلة داعياً : « ساعدني يا رب على أن أحب الأمريكان» . ولكن الله لم يستجب لصلواته حتى الآن . كما أنه كتب إلى جرنينش في استراليا يقول : « إنني أقضي معظم وقتي وأنا أتفكه باظهار عيوب الأمريكان . وهم يستمتعون بذلك» .

ولم يقنع راسل بكل ما مارسه من أنشطة ، بل اتجه إلى هواية جديدة عليه تماماً هي كتابة القصص . وأراد أن ينشر قصصه القصيرة تحت أسم مستعار محاولاً بذلك أن يكتسب شهرة جديدة مستقلة عن شهرته كرياضي وفيلسوف في سن الثمانين . بيد أن الناشرين رفضوا أن ينشروا قصصه دون أن يكون اسمه عليها . وفي نهاية الأمر نشر راسل دون توقيعه قصته « مغامرات الآنسة س . الكورسيكية» في مجلة (جو) . ورصدت هذه المجلة جائزة قدرها ٢٥ جنيهاً لمن يستطيع أن يخمن اسم كاتبها . ولكن أحداً لم ينجح في ذلك .

وقد ظهرت قصصه الأولى في شكل كتاب بعنوان « الشيطان في الضواحي» ، وأعلن راسل مازحاً في هذا الشأن : « لقد كرست الثمانين عاماً الأولى في حياتي للفلسفة . وإني أقترح أن أكرس الثمانين عاماً التالية لفرع آخر من فروع الخيال .» .

وقد نالت مجموعته القصصية « الشيطان في الضواحي» بعض الثناء العاطر . فقد وصفها أنجوس ويلسون مثلاً بأنها « مجموعة مسلية إلى أقصى حد ، تضيف فيها تراكيب ولغة القرن الثامن عشر الرسمية إضافة ممتعة إلى اتجاهها العام الساخر» . ولكني شخصياً أفضل مجموعته القصصية التالية « كوابيس الشخصيات البارزة» . والسر في ذلك ، على ما أعتقد ، هو أن راسل وهو يكتب تلك القصص كان يطيب ويلذ له أن يفكر في مضايقة كثير من الناس الذين لا يحبهم . وهناك قصة في هذا المجلد على وجه الخصوص بعنوان « زاها توبولك» تتضمن مرارة ووحشية تذكراننا بأدب سويفت» .

وظل راسل يقرأ بنهم حتى في الفترات القصيرة التي كان يكتب فيها قصصه فهو يقرأ التيمز والمانشستر جارديان ونيويورك هيرالد تريبيون بانتظام . وبالإضافة إلى الكتب الجادة ، كان يقرأ رواية بوليسية كل يوم تقريباً . وقد أوضح راسل ذات مرة أنه ينبغي على أي انسان يريد إلغاء الحروب أن يجد طرقاً غير ضارة لإشباع غرائزه التي ورثها من أسلافه خلال أجيال من الإنسان الهمجي . ويقول راسل أنه وجد لنفسه مثل هذا المتنفس في قراءة الروايات البوليسية» حيث

اتقمص بالتناوب ـ شخصية القاتل مرة ورجل البوليس السري الذي يطارده مرة أخرى» .

وظل راسل يحب أن يقرأ له أحد بصوت عال . وكان الشيء الوحيد المتعب أن إديث راسل كانت مغرمة بالتدخين مثله . ومن ثم فقد كانا يتناوبان القراءة حتى تتمكن زوجته من أن تدخن سيجارة .

واستمر راسل يستمتك بتدخين عليونه ، ويطلب بانتظام كل أسبوع علبة تزن ربع رطل من التبغ من توليفة تريبورج وتريبار الذهبية . ويعلق راسل على ذلك بقوله : « قيل لي عندما كنت صغيراً أن التدخين سيقصر حياتي . وبعد ستين عاماً من التدخين ، تبين أنه لم يقصر حياتي كثيراً . وعلى أية حال ، فإنني أحصل من التدخين على متعة تفوق ما كنت سأحصل عليه من سنوات قليلة تضاف إلى عمري أقضيها مع الهرم وضعف الشيخوخة . إنني أدخن بكثرة ، ولا أتوقف إلاّ لأنام أو أتناول طعامي» .

ويقول راسل في لحظات شقاوته المتكررة إنه أقلع عن التدخين ذات مرة ، ولهذا ، فهو يستطيع أن يستمر فيه وهو مرتاح الضمير ، لأنه قد أثبت أن بإمكانه الاستغناء عنه . ويتضح لنا أن آخر مرة أقلع فيها عن التدخين كانت منذ ما يزيد على ثلاثين عاماً عند زيارته للصين في عام ١٩٢١ .

ونحن لا نجد بين الفلاسفة من يزيد عن راسل في رجاحة آرائه الخاصة باللياقة البدنية . وهو يقول في هذا الشأن : « إنني لم أفعل شيئاً على الاطلاق حتى الآن على أساس أنه مفيد لصحتي . إنني أدخن كيفما أشاء وآكل كل ما أحب وأشرب ما أريد . لقد وجدت دائماً أن أفضل وسيلة يستطيع بها المرء أن يحافظ على صحته هو ألا يشغل باله بأمر نفسه ، إذا كان صحيح البدن بالطبيعة مثلي» . وعلى أية حال ، لم يرضخ راسل في سنواته الأخيرة لنصح الأطباء باستثناء أنه أصبح عادة يشرب الويسكي بدلاً من النبيذ لأنه أقل منه في حموضته .

وألمت براسل أمراض أكثر مما قد نظن من الطريقة التي يتحدث بها . ولكنه تغلب عليها جميعاً بفضل صلابته . فقد أوشك على الموت بسبب التهاب رئوي أصابه في صيف عام ١٩٥٣ . ولكنه ترك المستشفى في غضون أسبوع . ثم أجريت له عملية جراحية في بداية عام ١٩٥٤ كان لها خطرها بطبيعة الحال على من كان مثله في الواحد والثمانين من عمره . ولكنه واجهها بنفس الاحتقار المرح الذي واجه به مرضه في بكين في الصين ، وهو يحتج بقوله : « لولا الأطباء لأصبحت صحتي على ما يرام» .

وقبل إجراء العملية الجراحية له بأيام قليلة ، أمضيت وزوجتي أمسية معه ومع الليدي راسل . ودار الحديث بالصدفة حول موضوع خلود الروح . ورغم أن أحداً منا لم يقل شيئاً عن العملية الجراحية ، فقد كنا بالضرورة نفكر فيها . ودار بخاطري كيف أن سقراط ، قبل أن يتناول السم ، قد أدخل العزاء على نفوس أصحابه بأن أعطاهم براهين خادعة على أن روحه سوف تحيا بعد الموت .

وكان راسل كعهده دائماً غير مهادن في رفضه الخلود وفي استمساكه بمبدأ « الواحدية المحايدة» الذي يذهب إلى أن الشخصية هي مجموعة من « الأحداث» . وقالت زوجتي إنه بالرغم من لا أدريتها ، فإنها تجد من العسير عليها أن تتقبل انتهاء حياة الفرد نهاية تامة . فأجابها راسل : « إن الشخصية هي مجاميع من العناصر ، أو إنها تنظيم يشبه نادى الكريكيت . وإني أقبل من جانبي أن يؤول مثل هذا النادي الى التآكل والانحلال» . وتحدثت عندئذ زوجتي عن الشباب الذي قتل في الحرب ، وقالت إنه يبدو من الإجحاف الفظيع ألا تتاح لهذا الشباب ، بشكل ما وفي مكان ما ، فرصة ثانية لتحقيق السعادة واستكمال الحياة . فرد عليه راسل بقوله : « ولكننا نعيش في عالم ظالم» .

والرأي عندي أن جوهر حكمة راسل العملية يكمن في هذا. لقد ظل حتى النهاية مستمسكاً باعتقاده الذي بشر به قبل ذلك بزمن طويل في مقاله « عبادة الإنسان الحر» ، ذلك الاعتقاد الذي أكدته الفظاعات التي شهدها العالم منذ ذلك الوقت والذي يتلخص في أن أي مذهب في الحياة له قيمته يجب أن يبدأ بالاعتراف بالحقائق القاسية وغير البهيجة . وذكر راسل : « أن سر السعادة هو أن يواجه الانسان حقيقة مفادها أن العالم شيء فظيع ، فظيع ، فظيع . ويجب عليه أن يشعر بذلك شعوراً عميقاً ، وألا يطرحه جانباً . يجب أن تشعر بذلك حقاً هنا» - (قال راسل ذلك وهو يضرب صدره) - « وعندئذ تستطيع أن تستعيد سعادتك» . وتخطى راسل الأخلاق المسيحية ليس في تأكيد تفاهة الإنسان إذا قارناه بالكون فحسب ، بل في القول بأن الكون لا تسير شؤونه على مبدأ عادل أيضاً . وإني أسمى هذا حكمة عملية ، لأنه إذا استطاع المرء أن يتخلى عن الإيمان بوجود العدالة في الكون ، فليس هناك شيء يمكنه أن يحمله على التذمر من العالم . كما أنه ليس هناك ما هو أكثر عمقاً وأقل جدوى من هذا التذمر . ويختلف راسل مع كثير من الفلاسفة في أنه يجد ، فيما يبدو ، في مبادىء فلسفته الأساسية في الحياة معيناً عملياً له في معيشته . ولا أظن أنه كان في استطاعة راسل أن يحتفظ بشجاعته ومرحه في مواجهة الكثير من الأسى والقلق اللذين مني بهما في حياته كثيراً ، لو لم تكن خبرته قد علمته أن يكف عن الشعور بالأسف على حاله . إن الطاقة التي كان من الممكن أن يبددها في الشعور بالأسى على نفسه قد

تحولت الى شعور بالغضب من الآخرين ، التي أظن أنها أكثر صحة وسلامة . وذكر راسل ذات مرة : « إنني لا أؤمن بالوداعة» .

ولعل هذه النقطة إحدى النقاط التي ظهر فيه اختلافه الحاد ، في مجال الممارسة العملية ، مع مبادىء الدين المسيحي . ولكنه اختلاف قاصر على الممارسة العملية فحسب ، لأن نظرياته بطبيعة الحال لا تسمح له بأن يغضب من أحد . فهو يرى أنه لا يجب علينا أن نكره الانسان الشرير ، بل يجب علينا أن نقوم بدراسته وعلاجه بالطرق العلمية . وفي هذا الصدد يقول : « إنه تبديد لطاقة المرء أن يغضب من إنسان سيء في مسلكه . لأن ذلك يشبه تماماً غضبه من سيارة بها عطب ولا تتحرك» . بيد أن الحقيقة أن أية حياة تقوم على الالتزام الشديد بالمبادىء التي يدعو إليها راسل ، دون الحيد عنها في كثير من المناسبات ، لا تقل في صعوبتها عن تلك الحياة المبنية على الاستمساك الشديد بالتعاليم المسيحية . اللهم إلاّ بالنسبة لعدد قليل من القديسين الخارقين للعادة . حتى المسيح نفسه (كما أوضح راسل) كانت تصدر عنه أحياناً ملاحظات لا تتسم بالحب لأعدائه .

وقد كتب راسل ذات مرة : « إنه من الضروري أن يكن الانسان كراهية من نوع ما . وليس حتماً أن توجه هذه الكراهية ضد الناس . فبدون شيء منها يصبح الإنسان ضعيفاً ليناً وتنضب طاقته» .

وعندما أتناول حكمة راسل العملية ، فإني لا أستطيع مغالبة نفسي في أن أضيف هنا بعضاً من حكمه وأقواله المأثورة التي وردت في مقالاته الصحفية التي لا تحصى . ومنها قوله « لا تحاول أبداً أن توقف الناس عن التفكير لأنك سوف تنجح بالتأكيد في ذلك» . أو « من الأفضل أن تعمل قليلاً من الخير من أن تفعل كثيراً من الأذى» . « إياك أن تشعر باليقين المطلق في أي شيء» . وإني أعتقد أن هذه الحكمة الأخيرة تفوق في أهميتها بقية الحكم . إذ أنها تلخص موقفه الفلسفي . ولا يجب أن نفسر هذه الحكمة على أنها دفاع عن الشك الشامل في كل شيء فحسب ، بل على أنها توضح أيضاً أنه لا يمكننا أن نعيش في هذه الحياة دون اتخاذ قرارات قد تعرضنا للمخاطر . وليست هذه الحكمة إنجيلاً يبشر بالتسامح الفكري فحسب ، بل إنها إنجيل يبشر بالشجاعة في العمل أيضاً .

كانت العملية الجراحية التي أجريت لراسل عام ١٩٥٤ تفوق في خطرها ما كان متوقعاً . غير أنه ظهر جالساً في السرير يدخن غليونه بنشاط كعادته دائماً في غضون أسبوعين من إجراء العملية له . ولم يمض على هذه العملية شهران حتى كان قد استأنف سلسلة أحاديثه الإذاعية وكتاباته .

وطرأ الآن على رأيه في الشؤون الدولية تغير له دلالته الكبيرة . فقد أكد في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة أنه يفضل نشوب حرب ذرية على عالم تغزوه روسيا السوفيتية . ثم قال في عام ١٩٥٠ إنه « بالرغم مما يزعمه بعض دعاة القلق والانزعاج ، فإنه يكاد يكون من غير المحتمل أن يدمر النوع البشري نفسه تماماً» . ولكن الموقف قد تغير الآن بسبب القنبلة الهيدروجينية التي تنبأ راسل نفسه باختراعها . فقد رأى أخيراً أنه ينبغي على الانسان أن ينتهز فرصته في الاستمساك بمصلحته الذاتية المستنيرة ، لأن السياسة الدولية قد انتهت به إلى أن يختار اختياراً أساسياً بين الانتحار والبقاء على قيد الحياة .

ولهذا أذاع راسل في ديسمبر ١٩٥٤ حديثاً له من أعظم أحاديثه الإذاعية التي تمس شغاف القلب في موضوع القنبلة الهيدروجينية . واختتم راسل حديثه قائلاً : « إنني أناشدكم بصفتي إنساناً يتوجه إلى غيره من البشر : تذكروا إنسانيتكم ، وانسوا ما عدا ذلك . إذا فعلتم ذلك ، فإن طريقكم إلى جنة جديدة مفتوح . أما إذا أخفقتم ، فليس أمامكم سوى الموت الشامل» .

ولا يمكن لأي إنسان سمعه أن ينسى ذلك الإخلاص الملتهب بالعاطفة ، الذي كان يشيع في حديثه وما لبث الناس أن استجابوا لحديثه . ووجد راسل نفسه وقد أصبح شخصاً ينظر إليه هؤلاء الناس على أنه حامل اللواء الذي يتقدم صفوف الجماهير في جميع أنحاء العالم التي تخشى نشوب حرب أخرى . وبدأ راسل يشن حملة من أعظم الحملات التي شنها في حياته . وجاءته فكرة ، لا تجيء إلا لمن كان في مثل مكانته العالمية ، هي فكرة بيان يشترك في إصداره علماء شيوعيون وعلماء مناهضون للشيوعية ، لتحذير العالم من أخطار القنبلة الهيدروجينية .

وبدأ بأنيشتين فطلب منه التوقيع على البيان . ووافق أنشتين واقترح عليه أن يتولى صياغة البيان . وأرسل راسل مسودة هذا البيان لأنشتين في جامعة برنستون . وفي ذلك الوقت ، عندما كان راسل عائداً بالطائرة بعد أن ألقى حديثاً عن الحكومة العالمية في مؤتمر عقد في روما ،جاءه قائد الطائرة من قمرة القيادة بنبأ كان عامل اللاسلكي قد التقطه لتوه . إن أنيشتين قد مات . وهكذا خسر راسل صديقاً شخصياً له ، فضلاً عن أنه ظن أن وفاة انشتين معناها أنه سيخسر تأييده للنداء الذي كتبه . ولكن عندما وصلت الطائرة الى باريس ، وجد خطاباً في انتظاره . وكان هذا الخطاب واحداً من الخطابات التي كتبها أنيشتين في أيامه الأخيرة . وفيه وافق على أن يوقع على بيان راسل .

وحصل راسل بعد مجهود شاق في التراسل والتفاوض على توقيعات أخرى هي توقيعات بريدجمان من هارفارد ، واينفلد من وارسو ، ومولر من انديانا وباول من بريستول وروتبلات من جامعة لندن ، ويوكاوا من كيوتو ، وماكس بورن وليفوس بولنج وجوليوت كوري .

وفي أوائل يوليو ١٩٥٥ دعا راسل - وهو في الثالثة والثمانين من عمره - إلى عقد مؤتمر صحفي في قاعة كاكستون في لندن. وظل راسل أكثر من ساعة واقفاً يجيب عن الأسئلة التي وجهها إليه مائتا صحفي وسط أضواء كاميرات المصورين التي تغشى الصبر وهي تسطع على شعره الأشيب. وألقى راسل نفس هذا الحديث أمام التليفزيون. ودوت كلماته في كل أنحاء العالم تفيض بايمان لا سبيل الى الوقوف في وجهه أو الرد عليه. فقد كان صوته من النوع الذي يسمعه الناس فيستجيبون له.

واستطاع أن يكسب حتى تأييد السير تشارلس تريفيليان نفسه، الرجل العجوز، الذي أعلن في حنق عندما كان راسل أكثر ناقدي روسيا السوفيتية بروزاً أن أية حكومة مهذبة لا بد أن ترمي كل من ماكارثي وبرتي راسل بالرصاص. ولكن السير تشارلس الذي تغير الآن أعلن بلهجة أهل نورثمبرلاند السريعة أن «برتي هو الرجل العظيم الوحيد في العالم في يومنا هذا الذي يتكلم كلاماً له معنى».

وفي الثالث والعشرين من يونيو عام ١٩٥٠ قال راسل إن هناك نصف أمل في تجنب الحرب في السنوات الخمس التالية وأن الروس لن يشعلوا حرباً بعد خمسة أعوام، «لأن الدول الغربية ستكون آنذاك قد استكملت استعدادها». وفي يوليو ١٩٥٥ أي بعد انقضاء ما يقرب من خمسة أعوام على وجه التحديد من تنبئه بدأ رؤساء الحكومات اجتماعهم في جنيف الذي تمخض عن بزوغ أمل جديد في الموقف الدولي. وقال راسل بعد ذلك بقليل إنه لم يشعر مطلقاً منذ ١٩١٤ بما يشعر به الآن من غبطة فيما يتعلق بمستقبل العالم. فقد بدا، لفترة ما على أقل تقدير، أن العقل قد اعطى فرصته ليسود.

الفصل السادس والعشرون
المعمر الشاب

إن دراسة سيرة حياة أي إنسان أثناء حياته لا بد أن تكون بالضرورة غير كاملة . ولا يمكن اختتامها إلا عن طريق التنبؤ ، وهو أمر ينطوي على المخاطرة غير المستحبة . بيد أني أزمع أن أتعرض لمثل هذه المخاطرة .

لقد كان راسل في نحو الثمانين حين بدأت العمل في هذا الكتاب . ولكنه حتى في ذلك الوقت كان من السهل التنبؤ بأن أمامه سنوات عديدة من الحياة العاملة النشيطة وبعد الحرب العالمية الثانية أصبحت انجلترا موطناً للشيوخ العظماء فإذا أراد المرء أن يجد فيها مناقشة شيقة تشحذ الذهن في أي موضوع ، تعين عليه أن يتوجه إلى واحد من هؤلاء المعمرين العظماء ومن بينهم راسل نفسه، وج. أ. مور، وبرنارد شو، وجلبرت مرى وهـ . ن. بريلسفورد، الذين كانوا يكونون جماعة أعتقد أنها قد تظل دائماً فريدة من نوعها بعض الشيء. لقد قضوا سني عمرهم الأول في العصر الذهبي الهادىء الذي سبق الحرب العالمية الأولى، وأطال تقدم العلم في ميدان الطب حياتهم. وقيض للجيل الذي سبقهم أن يموت وهو أصغر منهم سناً، في حين شب الجيل اللاحق لهم في عالم يشوبه التوتر والقلق، عالم ملأته الحروب والخوف من الحروب، ومشحون بالقلق الاقتصادي المتكرر. ويشعر المرء أن أحداً ممن جاء بعدهم، مهما امتد به العمر، لا يمكنه أن يحتفظ في شيخوخته بجو العلماء الهادىء الرقيق الذي يحس به الإنسان دائماً في حضرة جيلبرت مرى مثلاً.

لقد كان جميع هؤلاء المعمرين رجالاً غير عاديين. ولست أشير إلى أن عقاقير السلفا والبنسلين لها أية علاقة بعظمة ونستون تشرشل، بالرغم من أنه كان من الجائز بدونها أن يموت في عام ١٩٤٣ . ولا يرجع الفضل فيما ينبضون به من حيوية إلى صدفة الزمن الذي ولدوا فيه فحسب، بل إلى فيض من الحيوية التي تكمن في ذواتهم. وتنهض حياة كل من تشرشل وراسل شاهداً على أن سائر الإنجازات الإنسانية العظيمة ترجع في نهاية الأمر إلى نبع فياض من الطاقة الحيوية. وأستطيع أن أذكر في هذا الصدد حين ذهبت لرؤية راسل مع أستاذ أمريكي شاب كيف

أن التعب دب في أوصاله عقب مناقشة فلسفية حامية مع راسل دامت ساعتين. كما أنني أستطيع أن أذكر أنني كنت أرى راسل يفيض بالحيوية والنشاط بعد منتصف الليل وقد عاد إلى بيته بعد أن قضى خمس ساعات في هيئة الإذاعة البريطانية لعمل البروفات والاشتراك في أحاديث تليفزيونية، وبعد أن يكون قد قطع مسافات طويلة وهو يتريض في متنزه ريتشموند في ساعات ما بعد الظهيرة المبكرة. ولعل أكثر الذكريات مثولاً في خاطري أنني ذهبت مع راسل إلى المسرح، وتوجهنا بعد ذلك لتناول العشاء في ساعة متأخرة، أخذ خلالها يسترجع في دقة بعض المحفوظات اليونانية القديمة التي تعلمها في صباه. ثم قمت بتوصيله إلى بيته في ريتشموند بالسيارة في الساعة الواحدة والنصف صباحاً. وراسل لا يكف عن الحديث طول الوقت عن الأسباب الحقيقية التي جعلته يرفض الفلسفة الهجيلية في التسعينات من القرن الماضي. وكنت حينذاك موزعاً بين رغبتي في أن أولي حديثه الساحر كل اهتمامي، وحاجتي إلى أن أتذكر مسئولياتي أمام عجلة القيادة. (وكان راسل، على عكس معظم الذين تقدمت بهم السن، يكره القيادة البطيئة).

ولم يفقد راسل أبداً حماسه الصبياني في استثارة الآخرين. وأستطيع أن أتذكره وهو يؤكد بوقار للمستر مايكل كيريتس المحرر الشاب لصحيفة من أكثر الصحف البريطانية احتراماً، أن «جريدة نيوز اف ذي ويرلد» (أخبار العالم) هي الصحيفة الوحيدة التي تحاول بأمانة أن تعطينا الحقائق الصادقة بشأن ما يحدث حولنا* «ومالت الليدي راسل نحو مستركيريتس قائلة له «لا تغضب منه»؛ وفي هذه المناسبة أيضاً أبدى راسل إحدى ملاحظاته التي تميز بها، وتحتوي على عنصر من الصدق عبر عنه بطريقه لا مثيل لها في الاستفزاز والإثارة قائلاً «إن الأشياء الوحيدة التي أصدقها مما ينشر في الصحف هي ما يسجله لاعبو الكريكيت من أهداف بالإضافة إلى أسعار البورصة».

ولم يكن راسل يعاني من ذلك الكبت الفظيع وغير الطبيعي الذي يمنع بعض الإنجليز من الاستمتاع بنكاتهم. وقد كانت دعاباته ونكاته تتدفق سريعة ومنطلقة في فيض متلألىء، كما كان ينظر نظرة سريعة من حوله كي يتأكد أن كل الحاضرين قد فهموا ما يعنيه، ثم لا يلبث أن يشارك الآخرين في ضحكهم.

ماذا عن سمعته في السنوات القادمة؟ مرة أخرى أجد لدي الجرأة الكافية لأن أقول إن ذلك يمكن التنبوء به بشيء من الدقة.

يكاد يكون من المحتم أنه سيجابه فترة تشهد رد فعل ضده وتشويهاً لسمعته. كما حدث

* «اخبار العالم» صحيفة انجليزية تصدر كل احد وتتخصص في نشر تقارير وافية ومفصلة عن جرائم القتل وقضايا الطلاق.... الخ...

لبرنارد شو . إن راسل هدف سهل لكل من يريد أن يكتب كتاباً يقلل فيه من شأنه . ولأن أفكاره كانت دائمة التطور ، فإنه كان في كثير من الأحيان يقع في وهدة الخطأ بأن يقول أشياء تختلف عما سبق له أن عبر عنه . ويغريني هذا أحياناً بأن أفكر أن كل موضوع تعرض له راسل في إنتاجه الضخم الذي كتبه عبر السنين لا يخلو من رأيين متناقضين . فضلاً عن أن أفكاره متداخلة مع أفكار الآخرين الذين عاشوا في عصره بدرجة تجعل من السهل على القادح الذكي أن ينكر عليه كثيراً من الأصالة . ولعل الأعمال التي لا يمكن لأحد أن يدعي لنفسه فضلاً فيها عليه هي مؤلفاته التي تعالج « منطق العلاقات » ، « نظرية التعريف بالوصف والمصادرات التي بنى عليها كتابه « المعرفة الإنسانية » .

وفوق كل شيء ، فإن راسل يعاني من أن أعماله الأخيرة قد قوبلت بالإفراط في الثناء . بينما كان نصيب أعماله الأولى النسيان في أغلب الأحيان . وما من أحد يقرأ كل ما كتبه راسل قبل الحرب العالمية الثانية دون أن يدرك عظمة قدرته وحيويته الذهنية . بيد أن بعض هذه الكتابات الضخمة والمتنوعة قد دفنت في دوريات مغمورة . وباستثناء عدد قليل من المتخصصين ، سيجد الناس دائماً أنها تستغلق على الأفهام تماماً . ومن التناقض الغريب أن راسل قد اتهم بافتقاره إلى التعمق لا لسبب إلا لأن أجود أعماله بلغ من الصعوبة حداً جعل فهمه مقصوراً على عدد قليل من الناس . وتشير كل هذه العوامل إلى شيء من رد الفعل الذي بدأ يظهر ضد ما أسبغ عليه الناس من احترام . وفي حقيقة الأمر ، فإن رد الفعل المضاد قد بدأ يتضح في الدوائر العلمية البريطانية ، وإن كان لم يشع بعد بين عامة الناس .

ويحق لنا أن نتساءل عن مكانته في تاريخ الفلسفة على المدى البعيد . هنا أيضاً تظهر بعض المعوقات التي تعترض طريقه إلى أن يتبوأ المكانة اللائقة به . إن الطريق المضمون للوصول إلى مكانة خالدة في الفلسفة هو طرح بعض المبادىء الملفتة للأنظار ، يتضح فيما بعد بطلانها تماماً . فقد عاشت أسماء معظم الفلاسفة نتيجة دحض من جاءوا بعدهم لآرائهم. كما عبر عن ذلك البرفيسور أوستن : « لكي تكون فيلسوفاً عظيماً يتعين عليك أن ترتكب خطأ جسيماً » . ومن المشكوك فيه أن يكون راسل قد ارتكب خطأ كبيراً بهذا المعنى . وحتى في المواضع التي أخطأ فيها ، فإنه أفسد على الأجيال القادمة ما كان يمكنها أن تجده من متعة وتسلية ، بأن أظهر بنفسه ما تورط فيه من أخطاء . وهكذا بالرغم مما أحرزه من تقدم في مجالي المنطق والفلسفة ، وبالرغم من كل المناطق الفكرية المظلمة التي أشاع النور في أنحائها ، فإن المرء يغريه أن يقول أن خلود راسل يعتمد على ظهور شخص يقوم باكتشاف خطأ أساسي جسيم في أعماله . أو لكي نكون أكثر دقة في التعبير ، نقول إن مكانته الراسخة في تاريخ الفلسفة تكمن إلى حد ما في أن يبدأ أي فيلسوف

لاحق من حيث انتهى راسل . لأنه يستحيل أن يقنع الفلاسفة في المستقبل ـ كما هو الحال مع هيوم ـ بما قد توصل إليه من نتائج .

وإني أشك في أن راسل نفسه سيتقبل هذا الرأي . لقد كان يطرح الأسئلة الفلسفية لا لشيء إلا لأنه كان يرغب رغبة صادقة في أن يعرف الإجابة عنها . ولهذا ، فإني أتصور أنه يعتبر نفسه قد أخفق من حيث أنه ترك مشاكل عديدة ـ بدون حل . وحين فكرت في وقت من الأوقات أن أختار لهذا الكتاب العنوان الفرعي التالي : « المتسائل العظيم » ، أوضح لي راسل أنه بذل شيئاً من الجهد كي يجيب عما أثاره من أسئلة . وهو رد يبين ما يتميز به الإنجليز من قصد في القول .

والرأي عندي أن كثيراً من الأسئلة التي يطرحها الفلاسفة قد يتعذر الإجابة عنها . وكتب راسل نفسه ذات مرة أن قيمة الفلسفة تكمن أساساً فيما تثير من أسئلة . وأظن أن النتائج التي يتوصل إليها الفيلسوف غالباً ما تكون أقل في أهميتها من المناقشات التي تؤدي إليها ومن روح البحث التي يعالجها به . لقد قال سنفنسون : « إن أمل المسافر في الوصول إلى غايته أفضل من تحقيقها » . وينطبق نفس هذا الشيء على الفلسفة ، التي هي غالباً أمر لا يتوصل فيه المرء إلى شيء (ولو أمكن الوصول إلى شيء ، فقد نشعر أحياناً بخيبة أمل محزنة) ، وإنما الفلسفة هي تتبع هدف له قيمته تصحبنا في ذلك خير رفقة . ومن ثم فإنه من الأنفع دائماً أن نقرأ لفيلسوف عظيم في نصوصه الأصلية وأن نتتبع أسلوبه في التفكير من أن نقرأ أكثر تلخيص عصري لنتائجه وضوحاً وصفاء . وهذا هو السبب في أن أعمال راسل سوف تقرأ دائماً .

ويعني هذا ، فيما أرى ، أنه ليست هناك فلسفات عظيمة ، بل إن هناك فلاسفة عظماء . ولقد كان ذلك أحد الأسباب الوجيهة التي جعلتني أضمن هذا الكتاب كل هذا القدر عن راسل الإنسان . وينطبق نفس الشيء بصورة أجلى على كتاباته في السياسة والاجتماع حيث تكون المعرفة المحددة أصعب منالاً . وتحتوي هذه الكتابات ، على أقل تقدير ، على نقطة لها أهميتها الثابتة ، تتلخص في تأكيده لحب الإنسان للسلطة ، وفي رفضه لكل ما يقدمه الماركسيون والفرويديون من مبالغة في تبسيط الأمور . وتعرض راسل نفسه للنقد في بعض النقاط والمواضع الأخرى ، بسبب ما تردى فيه من أخطاء يسهل على المرء أن يتبينها إذا استرجع آراء هذا الفيلسوف السابقة . بيد أنه ما كنا نفكر في أن ننزل راسل هذه المنزلة العالية لو أنه بقي بمعزل عن صراعات أخيه الإنسان وما يعاني منه من آلام يومية .

وحين نشرع في قراءة كل كتاباته الصحفية وغير الفلسفية ، فإن أول انطباع تتركه فينا هو الإحساس بالحيرة أمام حجمها الهائل وما تتضمنه من تنوع في وجهات النظر . وينطبق عليه ما

قاله دكتور جونسون عن بيرك : « (إنه) رجل غير عادي . إن مجرى أفكاره لا ينضب » . وأنا لا أقول إن كل كلمة قالها راسل ، بما في ذلك كتاباته لعامة النـاس ، جديرة بالقـراءة . ولكنـي أقول ، مستنداً في ذلك إلى ما توصلت إليه في بحثي ، أن كل كلمة كتبها ينبغي أن يقرأها ، على الأقل ، من يحاول تقييم مكانته ، فإننا قد نجد حتى في مقالاته الصحفية العابرة أو تلك التي يكسب بها رزقه فكرة ما تثير التشويق والاهتمام أو حقيقة صغيرة مجهولة لا يمكن أن نجدها في أي موضع آخر .

وحين نتتبع هذا الإنتاج الهائل من الألفاظ الذي سخر راسل من حجمه الضخـم ذات مرة) ، فلا أظن أننا سنكتشف في النهاية ، كما يحلو لبعض الأمريكان الجادين أن يعتقـدوا ، مجموعة من النظريات السياسية والاجتماعية التي تتنبأ بالمستقبل ، يجب دراستها باستفاضـة في كتب وقورة جادة . ولكني أظن أننا سنكتشف في راسل في نهاية الأمر رجلاً غير عادي ، رجلاً لديه حصيلة عظيمة من المعلومات يجد متعة في تعليم الناس ، رجلاً له عقل إنساني يشيع فيه الدفء ، جعل كثيراً من الناس يفكرون بأسلوب يقودهم إلى السعادة ، رجل يمقت الحماقـة والقسوة من أعماق قلبـه ، لديه المقدرة على أن يعطي غـيره الأمـل والشجاعـة في محـاربتهما . سنكتشف فيه رجلاً عقلانياً يتساءل ، في تلخيصه النهائي للموقف الإنساني ، عما إذا كان في استطاعة الجنس البشري أن يبقى على قيد الحياة ثم يجيب عن تساؤله بقوله : « بالرغم من كل ما يشير إليه إمعان العقل ، فإني أجد نفسي مقتنعاً اقتناعاً راسخاً أنه ستكتب له الحياة » .

وفي عالم يتطلع إلى الإيمان سواءً كان هذا الإيمان دينياً أو سياسياً ، يذهب راسل إلى نتائج لا تعرف المهادنة ، مفادها أنه ليس هناك شيء يقيني يقيناً مطلقاً . ولكنه في نفس الوقت أوضح كيف يمكن لشخص لا أدري أن يجابه الحياة دون خوف أو وجل . وفي حين نجد أن التشكك الذي لا يثق بالإنسان عقيم ، فإن الشكاك المتأجج العاطفة يستطيع أن يحيا حياة شجاعة وأن يحقق فيها الإنجازات العظيمة .

ولعل التعليق الذي ورد في جريدة بوليتين (النشرة) الصـادرة في سيدنـي عقـب مؤتمـر صحفي عقده راسل في أستراليا خير ما يجلو لنا النقطة التي أسعى إلى توضيحها. ذكرت هذه الجريدة أن جواً من الحزن بل ومن القتامة ران على هذا المؤتمر . وقالت : « في أوقات القلق البالغ يتجه الناس إلى حكماء القبيلة المسنين . غير أنه حتى رجل في مثل حكمة برتراند راسل لم يعرف في حقيقة الأمر كيف يوفق بين إيمانه الذي لا يتزعزع بالاشتراكية والدفاع عن حرية الفرد ، كما أنه لم يعرف كيف يمكنه الاحتفاظ بإيمانه بالليبرالية في زمن فرض فيه الشيوعيون علينـا عصراً من الاستبداد . وكيف يمكنه الجمع بين دعوته إلى السلام ومواجهة السوفيت في نفس الوقت . ولم

يكن يعرف في حقيقة الأمر عما إذا كانت الحرب ستندلع أم لا . وكيف يمكن بغير التسلح أن نمنعها من الاندلاع » .

ومع ذلك ، فقد اختتمت بوليتين ما كتبته بقولها : « ولكنه كان في نفس الوقت يلهم الشجاعة . ويرجع هذا ببساطة إلى حيويته الدافقة ومرحه الذي لا تلبده غيوم اليأس . فإذا كان في العالم قنبلة ذرية تهدده بالاندثار ، فإن فيه أيضاً روح الإنسان الشجاعة » .

وبهذا ترك راسل أثره في أشد معاصريه جنوحاً إلى النقد . وبه أيضاً ترك أثره البالغ في نفسي . وهذا وحده اعتراف يصدم أفكار الناس في عصر يجد متعته في التهوين من شأن الآخرين ، الأمر الذي قد يبدد ما تبقى لي من اعتقاد في عدم تحيزي . ولكنه ليس لدى أدنى شك في أن عظمة راسل من ذلك النوع الذي يحسب بمئات السنين . ولست أظن أن من يعرفه معرفة وثيقة يملك غير أن يتوصل إلى نفس النتيجة التي توصلت إليها . وقد يكون من اليسير على أي شخص في السنوات القادمة أن يشن عليه الهجوم وهو على مبعدة عنه ، يساعده على ذلك جهله بهذا الرجل ، تماماً كما سيسهل على أي كاتب تافه في المستقبل أن يحط من شأن ونستون تشرشل . ونحن أبناء هذا الجيل لا نملك رداً على هذا غير أن نقول « ولكنكم لم تعرفوا هذا الرجل » وإذا كان هذا الكتاب يخدم غرضاً ، فهو أن يتيح للناس فرصة إضافة قدر ضئيل من المعرفة عن حياة واحد من أندر الناس وأشجعهم روحاً ، الذين ألهموا الإنسانية خلال العصور المختلفة بالوصول بأفكارها إلى أبعد آفاق الحقيقة والصدق .



برتراند راسل بين الشك والعاطفة

مترجم هذا الكتاب ، الدكتور رمسيس عوض يكاد يكون متخصصاً في «برتراند راسل » الفيلسوف الرياضي الانكليزي ، وهو يجهر بحبه لراسل . أما المؤلف فقد درس الفلسفة في آكسفورد وانقطع زمناً طويلاً لدراسة برتراند راسل؛ فأثمرت دراسته ومعرفته الوثيقة براسل هذه السيرة لحياته ، فجاءت تنير كل الجوانب في حياة هذا الفيلسوف الكبير .

92



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الثمن ١٨ ل . ل .